

الفرق الصوفية في الإسلام

تأليف

سبنسر ترمنجهام

الدكتور

عبد القادر البحراوي

قسم الفلسفة - كلية الآداب ببها

١٩٩٤



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

الفرق الصوفية في الإسلام



تأليف

سبنسر ترمنجهام

ترجمة ودراسة وتعليق

الدكتور

عبد القادر البجراوى

قسم الفلسفة - كلية الآداب بينها

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية

هذه ترجمة لكتاب

The Sufi Orders In Islam

تأليف

J. Spencer Trimingham

Oxford University Press

London 1973

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى من ساندتك وأسهمت بكل جمدها

وفكرها حتى تم هذا العمل

إلى زوجتك ... د. منى مصطفى السبعيني

د. عبد القادر البحراوى

مقدمة الترجمة

الكتاب الذى نقدم له - بعد ترجمته - يتناول التصوف الإسلامى وفرق الصوفية فى العديد من البلدان الإسلامية وخلال فترة زمنية طويلة تمتد حتى العصور الحديثة .

والمؤلف مستشرق إنجليزى له إهتمامات متعددة ببعض بلاد الشرق الأوسط وأفريقيا إلى جانب إهتمامه بالتصوف الإسلامى . وهو فى هذا الكتاب يتعرض لنشأة التصوف فى الإسلام وإنتشاره فى العالم الإسلامى على مدار التاريخ وحتى بدايات القرن العشرين ، وكذلك أهم فرق الصوفية ومشايخها وتفرعاتها العديدة وأهم ممارساتها وأفكارها وأثر ذلك فى الحياة الاجتماعية فى البلاد الإسلامية . كما يتناول أيضاً العناصر الأجنبية التى دخلت إلى التصوف الإسلامى والأشكال التى اتخذتها هذه العناصر الدخيلة ومدى تفاعلها مع التصورات الإسلامية .

والدراسة التى نقدم لها هى دراسة إستشرافية قام بها مستشرق غير مسلم ... ومن ثم ينبغى تناولها وقراءتها بنظرة فاحصة نقدية لمعرفة كيف ينظر أغلب المستشرقين إلى تراثنا وماهى مناهجهم فى تناول هذا التراث والأغراض التى يرمون إليها من وراء هذا الإهتمام وهذا الجهد .

فالمعروف أن الدراسات الإستشرافية للثقافة الإسلامية العربية لم تكن - فى كثير من الأحيان - عن الهوى والأغراض ، وهذه الأهواء والأغراض - أبأ كانت طبيعتها - تهدف فى النهاية إلى تحقيق غايات أخرى غير مجرد البحث العلمى الخالص . ومن ثم فإن هذه الدراسات تركز على إبراز

جوانب معينة وقد تهمل جوانب أخرى ، حتى تصل إلى ما تريد الوصول إليه من غايات ، هي فى الأغلب تتعارض مع مصالحنا وتتعمد طمس الجوانب المشرقة لحضارتنا ، وقد يكون هذا من الدوافع القوية التى تجعل من واجبنا معرفة ما يقال عنا ، والتصدى لما قد يكون فيه من سلبيات ، سواء عن قصد أو نتيجة لسوء الفهم . وفى هذا مايرر ترجمتنا لهذا الكتاب ومناقشة بعض الأفكار التى وردت به خلال التذييلات العديدة التى أضفناها للترجمة .

فالكتاب الذى نقدم لترجمته رغم ما يضمه من معلومات مفيدة عن الفرق الصوفية ونشأتها وتفرعاتها ، وأماكن تواجدها ، رغم هذا فإنه لا يخلو من بعض العيوب التى حاولنا الرد عليها أو تصحيحها فى مواضعها من الترجمة العربية .

ولكن قبل الحديث عن هذه المثالب ، يحسن أن نقدم فكرة موجزة عن التصوف الإسلامى ومراحل تطوره وأهم الاتجاهات التى إتخذها ، والتفسيرات المختلفة التى قدمت بهذا الخصوص .

فالتصوف فى الفكر الإسلامى ، من الموضوعات الخلافية التى تعددت بشأنه الآراء وتباينت حوله التفسيرات والأحكام ، وهذا التعدد فى الآراء والتباين فى التقييم والحكم يجعل الأمر جديراً بالبحث والتأمل ، خصوصاً وأنا نمر بمرحلة كثر فيها الاختلاف وأصبحت السمة الغالبة بين المسلمين هى الاتهامات المتبادلة وإدعاء كل فريق أنه - وحده - على حق وأنه غيره من الفرق على باطل أو ليست - على الأقل - على الطريق الصحيح .

فما الذى أدى إلى هذا الاختلاف الشديد - والمتناقض فى كثير من الأحيان - حول التصوف ؟

وهل يمكن التوصل إلى رأى موضوعى تستريح إليه النفس المسلمة والعقل المؤمن بهذا الخصوص ؟

فالتصوف والطرق الصوفية - فى نظر البعض - هى المدارس الروحية التى نشأت فى الإسلام من أجل تربية السالكين تربية إسلامية صحيحة ولتؤدى رسالة الهداية إلى طريق الله ، فقد أجمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم - كما يقول ابن القيم فى « مدارج السالكين » - أن التصوف هو الخلق ، أو هو « الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى » . فالتصوف - بهذا المفهوم - هو محاولة للتسلح بقيم روحية جديدة تعين الإنسان على مواجهة الحياة المادية ، وتحقيق له التوازن النفسى ، ومن ثم فالتصوف سلوك إيجابى يساعد على ربط الإنسان بمجتمعه بتأكيد على الجوانب الأخلاقية بالإبتعاد عن الشهوات والإنغماس فيها ، وترقية النفس بالفضائل تحقيقاً لقول الرسول عليه السلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

والتصوف وفقاً لهذا المنظور يستمد جذوره من القرآن والسنة النبوية المطهرة ومن حياة الرسول الكريم وأصحابه التابعين ، ولذلك يطلق عليه « التصوف السنى » الذى لا يشوبه أى تعارض مع كتاب الله وسنة نبيه . ولذلك يقول الإمام القشيري - وهو الصوفى السنى - أن « من علامة صحة العارف ألا يقع منه فى أحكام الشريعة تقصير فى جميع أحواله .. » .

بل أنه يتشدد في التمسك بتعاليم الإسلام فيقول : « الورع هو ترك الشبهات » ، ويقول أيضاً « إذا كان الزهد فى الحرام واجباً ، فإنه - أى الزهد - فى الحلال فضيلة ... » .

فالتصوف فى حقيقته - وفقاً لهذا المفهوم المعتدل والمقبول - ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتافيزيقية ولكنه طريقة فى الحياة ، ورياضة عملية من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام .

ومع ذلك ، فكما اختلف الباحثون فى أمر اشتقاق اسم « التصوف » ونشأته فى الإسلام ، فهناك من يقول أن التصوف - بالشكل الذى تطور إليه - لا علاقة له بالإسلام إطلاقاً ، بل إنه أجنبى عن الإسلام حتى بالإسم - الذى يرون أنه مشتق من كلمة « صوفيا » اليونانية - ولذلك ينبغى البحث عن مصادر التصوف فى الفكر الأجنبى - سواء كان يونانياً أو هندياً أو فارسياً - وإلى هذا رأى يذهب كثير من علماء السلف وكذلك عدد كبير من الفقهاء والمتكلمين وكثير من المستشرقين .

ويرى عدد كبير من هؤلاء أن التصوف وليد أفكار اختلطت بالفكر الإسلامى منها : الهندوسى والبوذى والمجوس ومنها اليهودى والنصرانى بالإضافة إلى أفكار يونانية وخصوصاً أفكار الأفلاطونية المحدثة .

ويستند أصحاب هذا رأى إلى أن هناك بوناً شاسعاً بين أفكار الصوفية وفلسفاتهم ونظرياتهم بالحلول والولاية والإلهام ووحدة الوجود وبين تعاليم القرآن والسنة ، بل إن هذه الأفكار مقتبسة من الرهبة المسيحية والبرهمة

الهندوسية وزهد البوذية والأفكار الإيرانية المجوسية . ويضيف هؤلاء أن ما يؤكد بعد التصوف عن الجادة وتعارضه مع تعاليم الإسلام ، ما نشاهده من تصرفات منحرفة عند كثير من دعاة التصوف ولارتكابهم القبائح والآثام - وتهاونهم أو إحتقارهم لما تفرضه الشريعة والذين يصفهم ابن حزم بقوله «.... قالوا من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة ، وحلت له المحرمات كلها : من الزنا والخمر وغير ذلك » .

أما إذا تناولنا الجانب الفلسفى عند كثير من المتصوفة من أمثال الحلّاج وابن عربى والجيلانى والسهروردى وغيرهم فسنجد لديهم نظريات فلسفية تتعارض تماماً مع الفكر الإسلامى الصحيح ، وهى آراء تسربت إلى التصوف من فلسفات أجنبية كما ذكرنا .

وخلاصة القول أننا إذا نظرنا إلى التصوف السنى والسلفى فى جانبه الأخلاقى والسلوكى نراه يتفق كثيراً مع روح الإسلام فى الحث على مكارم الأخلاق والنظر إلى الدنيا باعتبارها دار اختبار . فالحياة فيها وسيلة لا غاية . فالتصوف طريقة يتحرر بها الإنسان من شهواته وأهوائه .

أما ما لحق التصوف نتيجة إضافة إليه بعض المتسبين إليه من سلوكيات منحرفة ، وما أضافه بعض المتفلسفة من أفكار غريبة فهى أمور كلها لا تتفق مع تعاليم الإسلام وروحه السمحة .

ناحية أخرى ينبغى الإشارة إليها فى هذه المقدمة ، وهى موقف أهل السنة من الفرق الصوفية ، وهو الموقف الذى أراد به كثير من الفقهاء

محاربة إنحرافات المتصوفة الخارجين والرد على ما يقولون به من نظريات تتعارض تماماً مع الشريعة الإسلامية . والحقيقة أن هذا الموقف من جانب علماء الدين كان أمراً تحتّمه غيرتهم على دينهم ورغبتهم الصادقة في الدفاع عنه .

وفي ضوء ما تقدم نلاحظ أن مؤلف الكتاب - خلال عرضه للفرق الصوفية - لا يهتم كثيراً ببيان ما فى آرائهم وممارسات الصوفيين من إتفاق أو إختلاف مع تعاليم الإسلام كما ينص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، بل إنه يتفق مع المتصوفة متغاضى عما يفعلونه أو يقولونه ، بالإضافة إلى أنه عندما يتعرض للخلاف بين المتصوفة وأهل السنة أو العلماء يبدو - من كلامه - أنه يناصر المتصوفة فى كل ما يفعلون أو يقولون ، ولأمانع - فى نظره - القول برجعية العلماء وإتهامهم بضيق الأفق .

ويدو أن هدف المؤلف هو القول بأن الفرق الصوفية وما تقول به من فلسفات وما تأتبه من سلوكيات هى الوجهة الذى ينبغى أن ننظر إلى الإسلام من خلاله ، وهذه هى النقطة التى حاولت الرد عليها وتوضيحها فى التذييلات الكثيرة التى أضفتها للترجمة .

ومع ذلك فإن الكتاب - رغم هذا العيب الخطير - يتضمن كثير من المعلومات التاريخية التى تتعلق بالفرق الصوفية ونشأتها وشيوخها والمناطق التى تواجدت بها وأثر هذه الفرق بأفكارها وسلوكياتها فى الحياة الاجتماعية للبلدان التى تواجدت بها . وكذلك صلة هذه الفرقة بالحياة السياسية فى البلدان الإسلامية المختلفة .

إلى جانب أن الكتاب يضم كماً كبيراً من المصطلحات الصوفية التي تساعد كثيراً في فهم مذاهب التصوف وسلوك المتصوفة . وقد حاولت - خلال الترجمة - تعريف وشرح بعض هذه المصطلحات عندما وجدت أن الأمر يتطلب ذلك .

وآمل أن أكون بتقديمى هذا الكتاب قد أضفت شيئاً جديداً إلى المكتبة العربية عن التصوف الإسلامى .

والكتاب الذى أقدمه لقراء العربية اليوم يبدأ بنشأة الفرق الصوفية فى الإسلام حيث يعرض لنا مؤلفه سبسر ترمزجهام للآراء المختلفة لاشتقاق لفظ صوفى، ثم يتحدث عن مصادر التصوف سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية، ويفرق لنا بين الرباط والخانقاه والزاوية ، ويذكر لنا تكوين المدارس الصوفية موضحاً نشأة الفرق الصوفية فى الإسلام .

ثم يتناول المؤلف فى الفصل الثانى دراسة الخطوط الرئيسية للطريقة . فيذكر شخصيات مدارس التصوف . فتكلم عن صوفية بلاد ما بين النهرين وتكلم عن السهروردية والرفاعية والقادرية . ثم تكلم عن صوفية مصر والمغرب . ومتصوفة إيران وتركيا والهند .

وفى الفصل الثالث تكلم المؤلف عن تكوين الطوائف وهو يرى أن الطوائف الصوفية قد اكتملت مع نمو الدولة العثمانية .

وفى الفصل الرابع يتكلم المؤلف عن حركات الإحياء فى القرن التاسع عشر الميلادى من وهاية ودرقاوية وإدرسية والميرغنية والسنوسية وغير ذلك.

وفى الفصل الخامس الذى يتحدث فيه عن التصوف والفلسفة الصوفية لدى الفرق الصوفية ، يفرق المؤلف فى هذا الفصل بين تصوف القلب وتصوف العقل .

أما الفصل السادس الذى عنوانه المؤلف باسم تنظيم الفرق فيتكلم فيه عن حلقات المريدين ، والخانقاوات والزوايا والتكيات ، وبدايات التلقين .

وفى الفصل السابع الذى يحمل اسم طقوس الشعائر والاحتفالات الدينية. يتحدث المؤلف عن شعائر كل فرقة من فرق صوفية من رقص وسماع وموسيقا وإنشاد

وفى الفصل الثامن يذكر لنا المؤلف دور الفرق فى حياة المجتمع الإسلامى دينياً واجتماعياً وثقافياً وتعليمياً . وأخيراً يختتم الفصل بتوضيح العلاقة بين الفرق والسلطة .

وفى الفصل التاسع يتكلم المؤلف عن أشهر الفرق الصوفية فى العالم الإسلامى المعاصر ثم يختتم كتابه بملاحق يذكر فيها أشهر الأنساب الصوفية.

وهكذا نجد أن المؤلف يعالج الموضوعات المختلفة فى مجال التصوف الإسلامى ، وقد استخدم المنهج التحليلى التاريخى المقارن .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت فى نقل أفكار سبنسر ترمنجهام كما قصد إليها ، وأن ينفع القارئ بهذه الترجمة ، وأن يجعل جهدى فيها فى ميزان عملى يوم القيامة ، وأن يوفقنى فى القول والعمل .

وجزى الله عنى خير الجزاء كل من ساعد على إظهار هذه الطبعة.
وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والحمد لله رب العالمين
وسلام على المرسلين .

دكتور

عبد القادر البجراوى

ميامى فى ١٩٩٤/٩/٢١

الفصل الأول

نشأة الفرق الصوفية

اطلق مصطلح صوفي أولا على الزهاد المسلمين الذين ارتدوا الملابس الصوفية الخشنة ومنها جاءت كلمة تصوف^(١) للإشارة الى المذهب الصوفي أو

(١) هذا احد التفسيرات لأصل كلمة تصوف ، وإن كان أشهرها وأكثرها قبولاً أنه كثيرا من الباحثين والمؤرخين سواء القدماء أو المحدثين ، ومع ذلك فهناك تفسيرات أخرى لأصل هذه الكلمة تحسن الإشارة إليها باختصار .: فرأى يقول إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ، ونقاء قارها . فالصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته .

قال أبو الفتح البتي :-

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

وظنه البعض مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير ذي

صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

وقيل سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقيل سمو صوفية نسبة الى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونصير أصحاب هذا التعريف أن هناك وجه شبه في الانقطاع عن الدنيا والتفرغ للمادة بين أهل الصفة والصوفية فيقول السهروردي : قد اجتمعوا بمسجد المدينة ، كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط لا يرجعون الى زرع ولا الى ضرع ولا الى تجارة وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحث الناس على مواساتهم وبؤاكلهم وبجالسهم : عوارف المعارف ص ٢٣ ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٣ هـ وهناك من التعاريف ما يقول أن أصل الاشتقاق والنسبة أنها مأخوذة من صوفية القفا وهي الشعرات الثابتة في مؤخرة الرأس فأخذوا منها « تصوف » ونسبوا إليها صوفى كأن الصوفي انصرف عن الخلق الى الحق .

لكن التشييري أبا القاسم عبد الكريم رد على هذا الرأي وذلك حيث قال في رسالته : « فأما قول من قال : إنه من الصوف ، ولهذا يقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله - صلعم - فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فاشتقا من الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال أنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمنع صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ، الرسالة القشيرية ص ٥٥ مطبعة حسان القاهرة ١٩٧٤ م وبعض التعاريف يرى أن الصوفية نسبة إلى قبيلة صوف بن بشر بن أد بن طالحة وهي قبيلة بدوية كانت حول البيت في الجاهلية وتنسب الى رجل

الصوفية ، وتوجد مصادر ممتازة عن التصوف الإسلامى ولكن كل ما هو ضرورى فى هذه المقدمة هو تقديم فكرة ما عن كيفية استعمال مصطلح صوفى وصوفية فى سياق هذه الدراسة عن الطرق الصوفية وتعبيرها عن الفرق.

لقد عرفت الكلمة « صوفى » كاصطلاحات واسعة بتطبيقها على أى فرد يعتقد أنه من الممكن أن يكون له صلة مباشرة مع الله - جل جلاله - ، والذي يكون معداً لأن يخرج عن طريقته ليضع نفسه فى حالة تمكنه من فعل هذا ، ومن الواضح أن كثيرين لن يعجبهم هذا التعريف ، ولكنها وسيلة وجعلتها الوحيدة الممكنة لاحتواء كل أصناف المنضمين للطرق الصوفية.

والمصطلح « التصوف » كما هو مستخدم فى هذه الدراسة هو مصطلح شامل كذلك وهو يضم تلك الاتجاهات فى الاسلام - التى تهدف الى الاتصال المباشر بين الله جل جلاله . والانسان ، وهو مجال الممارسة الروحية التى تسير موازية للتيار الرئيسى للوعى الإسلامى المشتق من الوحد النبوى والمفهوم ضمن الشريعة والإلهيات.

هذا التقابل هو السبب فى العداوة التى يكنها أهل السنة السنة دائماً نحو

يسمى = صوفة انقطع للعبادة فى المسجد الحرام فأخذ من صوفة هذه النسبة . ولئن كانت النسبة صحيحة من جهة اللفظة لكن احداً من المتصوفة لا يرضى ان يكون مضافا الى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام . انظر ابن تيمية : الفتاوى ج ١١ ص ٦ مطابع جامعة الامام بالرباض ١٤٠٤هـ

وهناك من يعقد الصلة بين كلمة (تصوف) والكلمة اليونانية سوفيا كاليرونى فيقول إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هى (سوفيا) ومعناها الحكمة . فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك الأسم نسبة الى الحكمة . لكن نولدكه يستبعد ذلك فيقول ان (س) اليونانية نقلت الى العربية كما هى (س) لا (ص) كما انه لا يوجد فى اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال سوفيا الى صوفى . راجع : تاريخ التصوف فى الإسلام لقاسم غنى ترجمة صادق نشأت ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت : ص ٦٧

وهكذا ترى أن أرجح الاقوال وأقربها الى العقل مذهب القائلين بأن الصوفى نسبة الى الصوف ، وأن المتصوف مأخوذة منه ايضا ، فيقال : تصوف إذا لبس الصوف . مصطفى عبد الرازق - مادة تصوف - دائرة المعارف الإسلامية « المترجم »

الصوفية لأنها تعنى أن الصوفية يدعون معرفة الحق - الحق هو مصطلحهم لرمز الجلالة الله - لا يمكن اكتسابها خلال الدين أو العقيدة الموحاة والتي أصبحت في الاسلام عقيدة مقننة.

والتصوف هي طريقة خاصة للدخول الى الحقيقة - وهي مصطلح صوفى آخر باستعمال الملكت. الحدسية والعاطفية الروحية والتي تكون عادة ساكنة وكامنة ، لم يستدع للنشاط من خلال التدريب تحت الارشاد أو التوجيه هذا التدريب الذى يقصد ان السير فى الطريق - سلك الطريق - يهدف الى ازالة الحواجز أو الستر التي تخفى النفس عن الحق ، وبذلك تتحول أو تنغمر فى وحدة ليس فيها تباين ، وهو اساساً ليس عملية عقلية ، رغم أن تجربة الصوفية أدت إلى تكوين أنواع مختلفة من الفلسفة الصوفية ولكنه على الأرجح رد فعل ضد التعقل الخارجى للإسلام فى الشريعة والفلسفة الدينية المنهجية. وهو يهدف الى حرية روحية يمكن عن طريقها أن تتاح نظرة أوافق كامل لحواس الإنسان الفطرية الحدسية الروحية ، والطرق الصوفية المختلفة . وهذا الكتاب يعنى بالتطور التاريخي والتنظيم العملى وأنماط التعبير لهذه الطرق الصوفية.

كان التصوف المبكر تعبيراً طبيعياً للعقيدة الشخصية فى علاقتها بالتعبير عن الدين كموضوع مشترك ، كما كانت تأكيداً لحق الشخص فى حياة من التأمل الروحى أو الدينى ، سعياً للاتصال بمصدر الكون والحقيقة ، وهو مايقابل العقيدة المشروعة المبنية على السلطة ، وعلاقة واحدة بين العبد وسيد مع تأكيدها على مراعاة الشعائر والاخلاقيات الشرعية . إن روح التقوى المذكورة فى القرآن الكريم قد تدفقت فى حياة الناس وأنماط تعبيرهم كما يبدو فى شكل الذكر عند الزهاد والنسك والاولئ .

كان التصوف تطوراً طبيعياً منبثقاً من هذه الاتجاهات الواضحة فى صدر الاسلام واستمد فى اللاحق عليهما كوجه اساسى من الطريقة . فهؤلاء الساعون

نحو الاتصال المباشر بالله - جل جلاله - قد اكدوا ان الاسلام لم يكن محصوراً داخل تشريع ديني موجه ، وكان هدفهم هو اكتساب الادراك الاخلاقي ، وهذا قد اعيد توجيهه أو تحويله إلى الهدف الذى توسمه الصوفية لاكتساب ادراكهم الصوفى .

كانت الصوفية تطوراً طبيعياً بداخل الاسلام تدين بالقليل لمصادر غير اسلامية . رغم استقبالها اشاعات من الحياة المتصوفة الزاهدة والفكر الكهنوتى الناسك للمسيحية الشرقية ، وكانت الحصلة هي الصوفية الاسلامية تلتزم بخطوط التطور الاسلامى المميز ، وبالتالى فانه قد تكون نظاما واسعا صوفيا راقيا ، والذى مهما كان ينبع من افلاطونية محدثة أو غنوصية^(١) . والصوفية المسيحية والأنظمة الاخرى فاننا يمكن ان نعتبره بحق وكما فعل الصوفية أنفسهم العقيدة الداخلية الباطنية للاسلام ، والسر الكامن خلف القرآن .

لقد لقي التصوف مزيداً من الانتباه من الباحثين الغربيين الا ان دراسة تطور الفرق وكتاباتهما ومعتقداتهما وممارساتها والتي كانت تعبيراً موضوعياً عن التصوف لم يحاولها إلا القلة النادرة ، والتصوف عملياً هو اساساً صوفية تأملية وعاطفية ، وهو كتنمية منظمة للخبرة أو التجربة الدينية ، فهو ليس نظاماً فلسفياً ، رغم انه طور مثل هذا النظام ، ولكنه « طريقة » ، وهى طريقة التطهير وهذه الناحية العملية هى محور اهتمامنا الرئيسى ، وقد انتشرت التعاليم والممارسة فى انحاء العالم الاسلامى خلال نمو طرق خاصة ،

(١) الغنوصية : هى فلسفة صوفية باطنية غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل يتاقلها المريدون سرا ، وظهر الغنوص اولاً فى الادب الفارسية التى عرفها المسلمون باسم المجوسية ، كما ان لها صبغة يهودية تعرف بـ (القبالة) اختلطت بالفلسفة اليونانية عن طريق فيلون السكندرى ، ثم تسلمت الغنوصية الى العالم الاسلامى عند غلاة الشيعة (الامامية والاسماعيلية) وما تزال عناصرها - أو بعضها على الأقل - منتشرة حالياً عند القاديانية والبابية والبهائية وغيرهم . والغنوص يقول بالثنائية (إله خير وإله شر) وبالطول والروحى المتجدد (المترجم)

والتي نشرت بين الناس وسط التعاليم الدينية ، وكحركة دينية فقد تعرضت لنواح كثيرة.

ان تأسيس الفرق هو النظام والعلاقة بين الشيخ والمريد وقد كان طبيعياً أن نقبل سلطة وإرشاد أولئك الذين انتهجوا مراحل « مقامات » الطريق الصوفي . ويقول شيوخ الطريقة ان كل انسان قد ورث بداخله إمكانية تحرره من النفس والاتصال بالله - عز وجل - ولكن هذا يكون كائناً وساكناً ولا يمكن اطلاقه إلا عن طريق اشراقات خاصة يمنحها الله - عز وجل - لمن يشاء بدون إرشاد من المرشد.

كان الشيوخ الأوائل أكثر اهتماماً بالتجربة أو الممارسة عنهم بوضع النظريات الشيوصوفية ، ولقد استهدفوا الإرشاد بدلاً من التعليم ، موجهين المريد إلى طرق التأمل وبها يكتب بنفسه استبصار الحقيقة الروحية ويكون محصناً ضد أخطار الأوهام.

والتصوف يتكون عملياً من الشعور والكشف ، حيث الوصول إلى المعرفة عن طريق المرور خلال حالات الانجذاب أو الوجد الصوفي وبالتالي فإن التعليم يعقب أكثر من يسبق التجربة أو الممارسة.

هذا وقد كتب أبو حامد الغزالي « المنقذ »^(١) ، وهو منظر للصوفية الأخلاقية ، عن ادراكه الخاص بأن ما هو أكثر خصوصية للصوفية لا يمكن أن يُدرس ، ولكن يكتب فقط بواسطة التجربة المباشرة ، والوجد أو النشوة الصوفية والتحول الداخلي ؛ فالرجل السكير لا يعلم شيئاً عن تعريف وأسباب وظروف السكر ، إلا أنه سكران بينما الرجل المتزن الذي يعرف هذا فإنه لا يكون سكراناً^(٢) . ان خلفية الغزالي الفكرية الخاصة ، وعدم قدرته على إخضاع نفسه (١) راجع ترجمته في نهاية الكتاب.

(٢) المراد من كلام الغزالي هو أن هناك فرق بين المعرفة النظرية عن حالة جسمية أو عاطفية معينة ، وبين معاناة أو معايشة هذه الحالة . فالغزالي يقول عن الصوفية وأحوالهم ... « ... فرق بين أن =

تماماً للارشاد فرضت حاجزاً كبيراً جداً بينه وبين اكتساب الخبرة الصوفية المباشرة^(١) والتدريس أو تعليم حالة الفناء - تحول النفس - لن تساعد أى فرد على اكتسابها ، ولكنه بالارشاد فقط بمعرفة موحية مجرب ، ومن ثم كانت الأهمية الكبرى للارشاد المرتبط بالسماح بتلاوة الاذكار - الممارسات الصوفية - ومزاولة الرياضات الروحية ، حيث بواسطتها توفق المسئولية مع كفاءة الفرد .

والطريقة هى اسلوب عملى يطلق عليها ايضا : المذهب والرعاية والسلوك - لارشاد المريد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل تؤدي من خلال تعاقب مراحل المقامات^(٢) فى ارتباط متكامل مع التجارب السيكلولوجية أو النفسية المسماة حالات أو احوال الى معايشة تجرية الحقيقة المقدسة .

وكانت الطريقة تعنى أولاً : ببساطة ذلك المنهج التدريجى للتصوف التأملى وتحرير الروح ، وقد بدأت حلقات المريدن فى التجمع حول شيخ الطريقة المعترف به ، طالباً للتدريب خلال الاتصال أو الصحبة ، ولكن دون الارتباط بأى قيد مبدئى أو قسم بالولاء .

لقد ظهر اتجاهان متقابلان مميزان هما : الاتجاه الجنيدي والاتجاه

= نعرف حقيقة الزهد وشروطه وبين ان يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ... معرفتهم أنهم أرباب احوال لا أصحاب اقوال ... الغزالي المنقذ من الضلال ط القاهرة مركز الكتاب للنشر ١٩٩١ ص ٣٧ (المترجم)

(١) من المعروف ان الامام ابا حامد الغزالي سلك طريق التصوف منفرداً دون التلذذ على شيخ من شيوخ الصوفية أو الانضمام الى فرقة من فرقهم ، ومن الأمور المتفق عليها فى الطرق الصوفية هو ضرورة الأخذ عن شيخ ، ومن ثم كان كلام المؤلف عن الغزالي بأنه لم يكتسب الخبرة الصوفية المباشرة اى عن شيخ من شيوخ التصوف (المترجم)

(٢) المقام - وجمعه مقامات - عند الصوفية هو عمل كسبى يقوم به العبد ولا يتجاوز الى مقام آخر حتى يستوفى شروط اقامته فيه ، أما الحال فهو معنى يرد على قلب دون تصنيع ولا اكتساب ، فالاحوال مواهب ، والمقامات مكاسب . وأن الاحوال تأتى من عين الجود والمقامات تحصل يئذ للمجهود - كما يقول الجرجاني . راجع ابراهيم بسوىنى الامام القشمرى سيرته ومذهبه فى التصوف - من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٣٥٦ المترجم

البسطامي^(١) أو العراقي أو الخوراساني - ولكن يجب الا يؤخذنا بجدية شديدة أو يسميان مدارس فكرية وذلك باسم كلا من أبي القاسم الجنيد وأبي يزيد البسطامي ، اللذين احاطا بالتخيلات أو التصورات أكثر من أى من معاصريهم ، وقد اعتبر هذان على أنهما يجسدان التقابلات بين الطريق الصوفي القائم على التوكل والطريق القائم على المسلامة ، بين الغيبة والصحو ، بين الأمين وبين المشتبه ، بين الاشراق والإلتزام بين الخلوة والصحبة ، بين التأليه الشامل والوجدانية ، بين الهداية فى ظل مرشد من أهل الدنيا والهداية فى ظل شيخ روحى .

ويشير على الهجو يرى إلى تعاليم البسطامي والتي يسميها طائفة بآنها تتميز بالغلبة - النشوة والانجذاب الصوفي^(٢) والسكر بينما تعاليم الجنيد تبنى على الصحو وتعارض مع التعاليم الطائفية وهي الأفضل معرفة والأكثر شهرة من كل المذاهب ، وقد بناها كل المشايخ رغم وجود الكثير من الاختلاف فى اقوالهم عن الآداب الصوفية ، لأنه حاز على موافقة الاتجاه التقليدى والعقيدة المستقيمة بوصفه - نسبيا - مأمونا. فإن الجنيد قد اعتبر شيخ الطريقة - وهو الجد المشترك لمعظم جماعات الصوفية اللاحقين وحتى رغم ان كثيرا من الفرق تابعت تعاليمها ابتداءيا وهرطقية ، فإن ادخاله فى أصول هذه الجماعات كان ضمانا للاستقامة ومراعاة الجذور لان الإسناد الصحيح يمكن ان يدعم العديد من الهرطقات^(٣) .

كانت هذه الجماعات مفككة متقلبة للغاية ، وقد سافر اعضاؤها على نطاق واسع بحثا عن الشيوخ ، وكان بعضهم يتكسب بطريقته ، والبعض الآخر

(١) راجع ترجمتهما فى نهاية الكتاب

(٢) الوجد يصادف القلب ويرد على المرء بلا تمعد وتكلف . وهو استغراق كامل للعبد . القشيري : الرسالة . مصدر سابق ص ٥٨ المترجم .

(٣) يبدو أن المؤلف هنا - لم يكن موفقا الى حد كبير فى هذا الحكم الأخير إذ ان الإسناد وحده لا يكفي لتدعيم أى قول ، وان كان يساهم فى هذا التدعيم إذ لابد من توافر اليقين بصحة القول ذاته عن طريق ما يعرف بالنقد الداخلى للقول أو النص المترجم

استعان بالصدقات ،ولكن وجدت الأوقاف التى عملت كمراكز لهؤلاء المتجولين . وفى المناطق العربية الحق الكثير من هذه الاوقاف بمواقع الحدود أو الفنادق المسماة اربطة اما فى خوراسان فكانت مرتبطة بالاستراحات أو الخنقاوات - جمع خاتناه - بينما كان الآخرون هم القائمون بالرياضة الروحية (الخلوة أو الزواية) للموجه أو المرشد الروحى كل هذه المصطلحات جاءت لتعنى مقراً أو مكاناً وقد وجد رباطاً مبكراً فى جزيرة عبدان (الاسم نفسه ليس له دلالة) على الخليج الفارسى والذى نشأ حول زاهد يدعى عبد الواحد بن زيد الذى اشتهر بعد موته ، كما وجدت رباطات أخرى على الحدود البيزنطية وفى شمال افريقيا.

وقد ذكرت مراكز المريدين فى دمشق حوالى ١٥٠ هـ / ٧٥٧م فى «الرملة» عاصمة فلسطين ، وقد اسسها أمير مسيحي قبل سنة ٨٠٠ ميلادية ، وفى خراسان فى نفس الوقت تقريباً ، بينما ظهرت هناك فى الاسكندرية منظمة طائفة ، تسمى نفسها الصوفية فى سنة ٢٠٠ هجرية.

وفى المدة من القرن الخامس الى الحادى عشر فإن الطوائف المتماسكة ذات الطبيعة المختلفة تماماً أصبحت عديدة ، رغم انها لاتزال تحتفظ بشخصيتها والتجمعات لافراد يقنعون طريقهم الخاص حتى رغم ارتباطهم برجال مجربين ، والبحث عن هدايتهم ، والذين نسبوا أنفسهم الى مثل هذه الهداية أو هؤلاء المرشدين .

وأفراد هذه الاماكن كانوا غير دائمين ومهاجرين ، وقد استخدموا الحد الأدنى - بالكاد من القواعد الشرعية المتعلقة بحياتهم اليومية ، اذ أن قواعد الصلحة الصوفية كانت أصبحت التزاما دينيا.

المقديسى ، الذى كانت مجالات اهتمامه أوسع من اهتمامات معظم الجغرافيين ، يقدم لنا بعض المعلومات حول الجماعات الصوفية ويقول أن الصوفيين الشيرازيين - من شيزار - كانوا كثيرين يؤدون الذكر (يكبرون) فى مساجدهم

بعد صلاة الجمعة يردون الصلوات على النبي - صلى الله عليه وسلم - من فوق المنبر ، وكحركة منظمة يوضح ان « الكرامية » في عهده (كان يكتب حوالى ٩٧٥م) كانت حكرأ عليه ، بوجود الخانقاوات فى كل أسيا الإسلامية ، ويبدو أن الصوفية قد اخذوا نظام الخانقاه منهم ، والمصدر الوحيد ، الذى صادفته فى المقديسى عن الخانقاه وجدت الممارسة الصوفية ، هو كانت توجد خانقاه فى دابل (دوين . عاصمة ارميا) والتي كان ملازميها من الغنوصيين (العارفين) فى نظام التصوف يعيشون فى فقر مدقع ، إلا أن الكرامية كانت قصيرة الأجل نسبيا (ظلت قرنين من الزمان) بينما استمرت الحركة الصوفية صادرة من نظام تروى تغير كل النظرة المخلصة للمسلمين .

وعن جبال الجولان السورية ، يكتب المقديسى : لقد قابلت ابو اسحاق البلوطى مع اربعين رجلا ، وكلهم يرددون الصوف ، وقد كان لهم مكان للعبادة يتجمعون فيه ، ولقد اكتشفت ان هذا الرجل كان فقيها ضليعا من مدرسة سيفان الثورى ، وأن غذاءه كان يتكون من جوز البلوط وهى ثمرة بحجم البلح مره الطعم تشق وتخلى وتطحن ثم تخلط بالشعير البرى .

كان المقديسى مجتهداً فى البحث عن خبرات جديدة مثلها مثل المعلومات الجغرافيا والفقرة التالية توضح أن تجمعات منظمة كانت موجودة فى عهده ، وانك تحتاج الى ان تنمى إلى احداها لتكسب استبصارا لتجربة الصوفية ، كما توضح أن كان من السهل ان تكون صوفيا مزيفا فى تلك الايام كما هو الشأن فى اى وقت .

عندما دخلت سوس (فى خوزستان) بحثت عن الجامع الرئيسى بحثاً عم شيخ أساله عن بعض النقاط فى الحديث ، وتصادف آتنى كنت ارتدى جبة من الصوف القبرصى ، وحزاما من البصرة فارشدونى الى جماعة من الصوفية . وعندما اقتربت منهم اعتقدوا اننى احد الصوفية ورحبوا بى فاتحين اذرعهم

واجلسوني بينهم وبدأوا يسألونني ، ثم ارسلوا رجلا لاحضار الطعام ، ولم أشعر بارتياح حول تناول الطعام حيث لم ارتبط مع مثل هذه الجماعة من قبل ، وقد أظهروا دهشتهم من اشمئزاي وعدم اهتمامي لحفاتهم ، ولقد أحسست بأنني منجذب للارتباط مع هذه الجماعة لمعرفة طريقتهم ، ولتعلم الطبيعة الحقبة للصوفية ، لذا قلت لنفسى : هذه هى فرصتك فهنا لا يعرفك احد ، ومن ثم تخلصت من القيود والتوتر معهم ، ممزقا ستار الخجل عن وجهى ، وفى احدى المناسبات فقد اندمجت معهم فى انشاد متبادل ، وفى مناسبة أخرى هلمت معهم ، وفى ثلاثة القيت عليهم بعض الشعر ، وقد خرجت معهم لزيارة الرباطات والاندماج فى التراثيل الدينية ، وكانت النتيجة - بعون الله - أننى ربحت مكانا فى قلوبهم ، وكذلك قلوب الناس بذلك المكان بدرجه غير عادية ولقد ربحت سمعة عظيمة ، فقد كانوا يزوروننى (من اجل فضائلى ويرسلون إلى الهدايا والملايس والنفود ، والى كنت اقبلها ولكن أسلمها فى الحال للصوفية ، لأننى كنت ميسورا ، وعندى الوسائل المادية الوفيرة ، وقد تعودت يوميا أن أظل مستغرقا فى العبادات وبألها من عبادات ، كما تعودوا افتراض أننى أودىها من قبيل التقوى ، وبدأ الناس يلმسوننى للحصول على البركة ، وينشرون سمعتى ، بقولهم أنهم لم يروا فقيرا ممتازا أكثر منى ، ولذلك فقد استمر الحال هكذا الى ان أتى الوقت الذى اخترقت أو نفذت منه الى اسرارهم ، وتعلمت كل ما رغبت فيه ، ثم قررت منهم فى هداة الليل ، وفى الصباح كنت قد بلغت كل الأمان .

بينما كانت بعض مراكز الاعتكاف ، والأكثر خصوصا الرباطات والخانقافات المدعمة بالعطايا ، وقد أصبحت مراكز رئيسية وقد بنيت نتيجة لسمعة شيخ معين وانتشرت بعد موته ، وقد كان معظم المشايخ انفسهم من المهاجرين ، ولم تكن هناك فرق مستمرة ذاتيا ، ولكن جماعات من الناس تملك امالا روحية مشابهة اصبحوا يريدون لشيخ موقر كانت رابطة الولاء له شخصية خالصة.

ويمثل القرن الحادى عشر نقطة تحول فى تاريخ الاسلام فقد تميز - من بين أشياء أخرى - باخماد كتب الحركة الشيعية والتي كانت قد حققت سلطة سياسية فى دولة الفاطميين بشمال افريقيا ، وفى الدولة البويهية فى فارس والتي بدا من الممكن فى ذلك الوقت ان تصبح صبغة فارسية للاسلام وقد تم القضاء على الشيعة السياسية بواسطة الحكام السلاجقة من الرجال الاتراك من وسط اسيا ، وفى سنة ١٠٥٥ ميلادية سيطروا على بغداد واستولوا على سلطات الخليفة العباسى من البوهيين أما فى المغرب ومصر فقد ضعفت السلطة الفاطمية حتى خلفهم فى النهاية صلاح الدين الايوبي الكردى ١١٧١ ميلادى.

كان الاتراك يتمسكون بالسنة ويعارضون الاتجاهات الشيعية ، أما الثورة المضادة التى حققوها فى العالم الاسلامى فقد أخذت شكل اعادة التنظيم (للمدرسة) من مدرسة خاصة وهى حلقة جو الشيخ المتعلم^(١) الى معهد رسمى والذى اكد به السلاجقة الاستعانة بالمشايخ الذين يتعاطفون مع سياساتهم الدينية ، وفى هذه المعاهد تركز الاهتمام على العلوم الدينية بينما لم تشجع أو منعت العلوم الدينية التى ازدهرت بالتساوى فى العصور العباسية والشيعة المبكرة، وانتشر الشكل الجديد « للمدرسة » بسرعة من العراق الى داخل سوريا ومصر وفى النهاية المغرب.

ولكن الروح الدينية الاسلامية لم يكن من الممكن تخديدها أو حبسها داخل هذا النظام وحده ولذلك فان برعاية الحياة الروحية الأعماق أخذت شكل التنظيم الموازى للخانقاة المنظمة المدعومة والموضوعية تحت الملاحظة والتي كان السلاجقة يألّفونها نتيجة الكرامية بوسط اسيا وايران ، والمعهد هو وسيلة السيطرة ولكنه لصالحهم ، فانهم شجعوا تأسيس الخانقاوات ، ومنحوها الحرية.

ولقد نظر الى الروح الصوفية المتأملّة نظرة شك فانفصال الصوفية عن القادة

(١) مثل الكتاب

الدينيين المعروفين كان دائما موضع شك وكراهية العلماء (اساتذة الشريعة)
كما أثار رد فعل سقط ضحية شهاب الدين يحيى السهروردي (١) ولكن تكوين
التجمعات المغلقة والصوفية خارج التنظيم المعتاد للإسلام ، مع التنظيم
الطقوسي « للسماع » أو التوافق الروحي لها ثارة الإنجذاب الصوفي هو والذي
كان بصورة أكثر احتمالا يشير رد فعل الرأي التقليدي في الدين أكثر من الافكار
المشبوهة.

مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى بدأ التغير فى الوقت رجال الشريعة
المسلمين نحو القبول المتذمر والمؤهل للصوفية بواسطة السلمى وتلميذه
القشيري (٢) ، والذي وصل الى نهايته على يد الغزالى ، بينما الحاجة الى هيئات
تهتم بالرغبات الدينية بخلاف الشعائر المقدسة والمحددة بالشريعة ، وهيئات الصوفية
فى الخانقاه مع التشجيع الرسمى لنور الدين وصلاح الدين وخيامهم وخلفائهم
قد جعلت الهيئات الصوفية تحظى بالاحترام . وعندما أصبح من الممكن تكوين
جماعات الانشاد الدينى ، فقد بدأ تطور نوع من الاسلام الداخلى بقيادته
الخاصة وتنظيماته وصيغ العبادة فيه ، ولكن رغم الترحيب بهذه الطريقة ، فإن
التيار التقليدى أو السلفى والصوفية قد اتبعوا ليس فقط طرقاً اخرى ، ولكنها طرقاً
مختلفة ، ويتضح ذلك عن طريق التطوير التعليمى الموازى للمدارس والخانقاوات .

وكانت المرحلة التالية هى تكوين المدارس الصوفية التى تتكون من حلقات
من المبتدئين وحين تحقق هذا التوافق كان التصوف لازال هو الطريقة التى
تعلمتها القلة فقط ولم يكن لدى العلماء السنيين اى ادراك لما كان يحدث حين
وضعت بين الناس فى شكل حركة شعبية.

(١). سيأتى تفصيلا فى الفصل الثانى المترجم

(٢) هو ابرو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ولد فى شهر ربيع الاول سنة ست وسبعين وثلثمائة
وتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة خمسة وستين وأربعمائة نبيسابور . وأشهر مؤلفاته الرسالة
القشيرية فى علم التصوف. المترجم

ومن القرن الحادى عشر عملت الزوايا ، والخانقاوات التى وقرت اماكن راحة مؤقتة للصوفية المتجولين على نشر حياة التعبد الجديدة خلال الريف ، ولعبت دوراً حاسماً فى نشر الاسلام فى المناطق الحدودية والغير غربية بوسط اسيا وشمال افريقيا (١).

وفى القرن الثانى عشر أصبحت الكثير من الخانقاوات غنية وازدهرت المباني ، ويكتب ابن جبير (٢) الذى سافر فى الفترة (١١٨٣ - ١١٨٥ م) فى الشرق الادنى فى عصر صلاح الدين (٣) . من دمشق فيقول « ... ان رباطات الصوفية والتي تعرف باسم خانقاوات ، كانت عديدة وهى قصور مزخرفة تتدفق خلالها جداول المياه ، وتعطى صورة سارة ممتعة قدر مايرغب المرء فى ذلك ،

(١) ليس من شك ان للصوفية مساهمة كبيرة فى الدعوة الإسلامية ونشر رايته فى كثير من الأمصار وخاصة فى بلاد الهند وافريقيا . يقول ماسينيون : « ان الاسلام لم ينشر فى الهند بواسطة الحرب !!! بل انتشر بفضل الطرق الصوفية ، ... أما فى افريقيا فيوجد بلدان لم يدخلها الاسلام بجيوشه بل دخلها الدعاة بانكارهم وقد كان بعض اولئك الدعاة من اتباع الطرق الصوفية ، وخاصة الشاذلية والقادرية ، التى ساهمت مساهمة فعالة فى نشر الاسلام فى كل من السنغال ومالى. والنيجر وغينيا وغانا ونيجريا وتشاد وعليه لقد عملت الطرق الصوفية على نشر الاسلام فى كثير من الاماكن التى لم تفتحها الجيوش وغير مثال على ذلك فى اسيا دولة اندونيسيا راجع : الدعوة الإسلامية فى غرب افريقيا . حسن عبد الظاهر مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود ١٤٠١ / ١٩٨١ المترجم

(٢) ابن جبير : ابرو الحسين محمد بن احمد الكنتاني : رحاله عربى ، ولد بمدينة بلنسية عام ٥٤٠ (١١٤٥ م) درس الفقه والحديث فى شاملة ، وهى موطن اسرته ، وتوفى بالاسكندرية ، وتعد قصة رحلته من أهم مؤلفات العرب وخاصة فى تاريخ صقلية على عهد ولهم الصالح. انظر دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ٢٣٧/١ . كتاب الشعب القاهرة (المترجم)

(٢) هو صلاح الدين بن ايوب بن شاذى ولد فى تكريت سنة ٥٣٢ هـ بعد المؤسس الحقيقى للدولة الايوبية التى حكمت مصر والشام واليمن . ولقد هزم الفرنجة هزيمة ساحقة فى وقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وسقطت اراضى الصليبيين بأسرها تقريبا ، ومنها قسم كبير من الساحل فى الشهر الثالى ، ولم تعتمد امامه الا صور وطرابلس وانطاكية.

راجع دائرة المعارف الاسلامية ٤٤٦/٥ المترجم

واعضاء هذا النوع من التنظيم الصوفى هم فى الحقيقة ملوك هذه الاجزاء حيث اعطاهم الله ما هو فوق ماديات الحياة ، وحرر عقولهم من الاهتمام بالحاجة للبحث عن زرقهم لدرجة انهم كان يمكنهم ان يكرسوا أنفسهم لخدمة الله - عز وجل - وقد اسكنهم فى قصور ذاقوا فيها مقدما مذاقاً لما تضمنه الجنة لذا فهو لاء المحظوظين والمفضلون من بين الصوفية يستمتعون بفضل الله ببركات الدنيا والأخرة ، فهم يلبون دعوة مشرفة ، وحياتهم تمضى موضع تقدير واحترام ، وطرزهم فى سلوك أو انتهاج اشكال عبادتهم شكلاً خاصاً ، وعبادتهم فى التجمع لتلاوة الاناشيد الموسيقية أو التواشيح المثيرة ممتعة وحياتنا وهم فى قمة نشوتهم ما يفعلون بعضاً من هذه الانجذابات الصوفية المستغرقة والتي لا يمكن فى حضرة الحالة - اعتبارهم ينتمون الى هذا العالم.

على كل حال ، لم يكن خلال مثل تلك المؤسسات ان حديث التطورات التالية فى التعليم الصوفى ، ولكنها حدثت خلال شيخ بمفرده يستقر احياناً فى رياضة روحية بعيداً عن نزاعات حياة الخانقاه ، وحياناً فى منزلة الزاوية فى المدينة الكبيرة، يتجول مسافراً مع حلقة من اتباعه ، ويذكر ابن جبير احياناً هؤلاء الزهاد المتواصفين بالصحراء أو الجبل اذ استرعى انتباهه اليهم شىء ما ، مثلما حدث حينما وجد النصارى يكرسون حياتهم للحياة الدينية مؤدين الجزية من أجل ذلك.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر فإن مراكز معينة (اذا نظرنا الى المركز على انه رجل وليس مكاناً) قد أصبحت هى مقار الطرق أو المدارس الصوفية أو مراكز التعليم، وقد حدث هذا حين اصبح المركز أو الحلقة تتركز على مرشد أو موجه واحد بطريقة جديدة وتحولت الى مدرسة مصممة لتخليد اسمه ، ونوع تعليمه وممارساته الصوفية واسلوب حياته ، و كل واحدة من هذه الطرق كانت تنتقل تدريجياً خلال سلسلة مستمرة أو اسناد صوفى ، وكان المشايخ المشتقين لذلك هم ورثة الروحانيين للمشايخ المؤسسين

إن ارتباط ما بهذه السلسلة كان يتطلب خاصية حقية مبادرة بها أقسم
المريد يمين الولاء للمؤسس الوكيل الأرضي ويتلقى في المقابل الورد السرى
الذى يركز النفوذ الروحي للسلسلة ، وكان هو الوسيلة للفوز بهذا الارتباط
ويصف ابن خلكات ^(١) الفقراء الذين لديهم مثل هذا الارتباط « العقدة أو
الاعتقاد » بابن الرفاعى ^(٢) (ت ١١٨٢ م) والذى ربما كانت سلسلته أول
سلسلة ادركها الناس بوضوح .

لم يكن المرغوب ان تحل طريقة السلسلة محل التعاليم الرسمية للدين
الاسلامى والتي اعتبرها الصوفية ، كشيء مسلم وضرورى (رخصة) للضعف
البشرى ، ويمكن اعتبار هذا التطور بداية لعملية بها المسارات الميول الطائفية
اطلاقا ، واحتفظ مؤسسوها بروابط هامة مع المؤسسات السلفية ، ولم ترفض
الاعتراف بالواجبات الرسمية للاسلام ، وكان أحد وظائفها فى الحياة الاسلامية
هو سد الثغرة التى تركتها كبح الطائفية أو التعصب الشيعى .

ويمكن الاختلاف بين الطرق فى جوانب مثل الاخلاص لرأس النظام
والاعتقاد فى خط معين بين خطوط النفوذ ، وانواع التنظيم وطرق التعليم ،
والممارسات والشعائر الغريبة ، وقد اختلفوا بدرجة ملموسة فى معتقداتهم
الداخلية ، ولكن ارتباطهم بالسلف كان مضمونا بواسطة قبولهم للشريعة وشعائر
الاسلام . وبنفس الطريقة فأنهم كونوا حلقات داخلية داخل الاسلام ، وادخلوا

(١) احمد بن محمد بن ابراهيم شمس الدين ابو العباس البرمكى الإربلى الشافعى ، مؤلف عربى ،
ولد فى الحادى عشر من ربيع الثانى عام ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ببلده اربل ، وتوفى يوم السبت
١٦ رجب ٦٨١ (١٢٨٢ م) وبعد مصنفه الكبير وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان من أهم
المصادر فى التراجم والتاريخ الادبى

راجع دائرة المعارف الاسلامية ٢٨٥/١ المترجم ،

(٢) سيأتى بالتفصيل فى الفصل القادم .

البناء أو التركيب أو البناء الهرمي وطرز الشفرة الروحية والعبادة القرية عن عبقريتها الجوهرية.

وليس من الواضح كيف جاءت هذه العملية من الطموح ، فالتلاميذ عادة قد اقتفوا أثر أو نسبوا مذهبهم أو طريقتهم الى معلمهم المبجل ، لأنه كان ضمانهم للشرعية والتدريب ، ولكن حتى الآن فان هذا كان رابطة شخصية مباشرة بصورة اساسية وهذا حقيقي ، حيث يعدد الهجویری^(١) (ت تقریبا ١٠٧٤م) ١٢ مدرسة صوفية ،

ان كل تجمع التطلعين للصوفية مكون من ١٢ طائفة ، يتهم منها اثنان (مردود) بينما تظل العشرة الباقية موافق عليها (مقبولة) والأخيرة هي :-

المحاسبون - القصاريون ، التايغوريون ، الحينبيون ، السوريون ، السهلون ، الحكاميون ، الحزازيون ، الخفيفون و السياريون ، كل هؤلاء يؤكدون الحقيقة وينتمون الى مجموع المسلمون السلفيون . والقطاعان المعدومان هما : أولا : الحلوليون الذين اشتق اسمهم من الاعتقاد بتجسيد الاله (الحلول) والاندماج ، والذين ترتبط طائفة السالمين من التشبة بدين التجسيد ، وثانيا الحلاجيون الذين هجروا الشريعة المقدسة وتبنوا الهرطقة ، والذين ارتبط أو التحم معهم البهائيون والقارسيون.

ولكن كل هذه طرق نظرية ، ولم تتطور أى منها الى طرق سلسلة ، وقد عدلت تعاليمها على يد تلاميذها طبقا لخبرتهم الصوفية الخاصة ، وفي الواقع يميز الهجویری كاستثناء - الانتقال من ابي العباس الساري ، الذي كانت

(١) الهجویری : ابو الحسن على بن عثمان الجلابي الغزنوي ت ١٠٧٧/٤٦٦ وقال - كما ذهب المؤلف - انه توفي سنة ١٠٧٤ م واشهر كتبه كشف المحجوب ، تحقيق فالتين زوكوفسكى ليننغراد ١٩٢٦ ، المترجم ،

مدرسته الصوفية هي الوحيدة التي احتفظت بمذهبها الاصلى بدون تغيير ، والسبب في هذه الحقيقة تاسا ومرف^(١) لم نزل اطلاقا من بعض الاشخاص الذين يعرفون سلطانه ويراعون ان اتباعه يجب أن يحافظوا على مذهب مؤسسيهم .

واسماء معينة من هؤلاء المشايخ المبكرين قد اندمجت أو دخلت في الاسفار الصوفية لهذه الطرق ، والاسم الرئيسى لخطوط معظم هذه الطرق هو ابو القاسم الجنيد^(٢) (ت ٩١١م) ومع ذلك فنو النون المصرى^(٣) رغم الاقتباس منه باستمرار لتدعيم الفكر الصوفى ، مفقود فى هذه الاسنادات ، وبالمثل حسين بن منصور الحلاج^(٤) من الطبيعى الا يوجد بينهم رغم ان هناك طريقة نسبت اليه مؤخرا بينما البسطامى^(٥) وجد فى سلاسل فرق كثيرة مثل النقشبندية^(٦)

(١) اسماء مدن قديمة فى اوكرانيا الحالية

(٢) جنيد بن محمد بن الجنيد ابو القاسم ت (٢٧٩هـ) اصله من نهاوند ، الا أن مولده ومنشأه ببغداد يقول (التصوف هو ان يمتك الحق عنك ويحييك به) وايضا (.. علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ، ولم يكتب الحديث فلم يتفقه فلا يقتدى به .. »

راجع تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى ط دمشق ١٩٤٥ ٢٤١/٧ « المترجم »

(٣) ذو النون المصرى : (ت ٢٤٥) من مدرسة الزهد ، ينحدر من أصل قبلى أونوبى ، وهو أول من مهد لظهور مذهب المعرفة فى التصوف حيث يقول : (عرفت ربي برى ، ولولا ربي لما عرفت ربي » (المترجم)

(٤) سيأتى ترجمته داخل الكتاب (المترجم)

(٥) ابو يزيد طينغور بن عيسى بن سروشان (ت ١٢٣٤ و ٢٦١هـ) كان جده مجوسيا وأبوه من أتباع زرادشت ، ينسب الى بلده بسطام بإيران ، اكتسب عداوة أهل السنة بسبب شطحاته امثال (سبحانى ما أعظم شأنى .. » وكان بذلك من المبشرين بمذهب الحلاج ، ولم يكتب البسطامى شيئا ولكنه ترك اقوالا بعضها اكاذيب .

راجع : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها . عرفان عبد الحميد فتاح المكتب الاسلامى بيروت ١٩٧٤/١٣٩٤

(٦) سيأتى ذكرها فى الفصل القادم

وفى كتاب الواسطى ^(١) الذى كتب حوالى ١٣٢٠م حين كانت الطرق مؤسسة بالكامل يقول : « إنه كان يوجد سندان بدائيان مميزان والذان ترجع اليهما كل الحزقات ^(٢) الموجودة حيثذ وهما الخط الجنيدي والبسطامى ، وخطان ملغيان هما البلاليه والعويسية أما الدخول فى سلاسل الاستاذ أو عدم الدخول رفضهم لم يتضح حتى الآن.

وليس سهلا السؤال عن الاتهام الموجه من السلفيين فبعض الاسماء متهمه كمؤسسين للطرق الزيفه ، وقد ذكرنا منذ قليل ما نسب الى الحلّاج وهى مذاهب سرية محدودة والاذكار والقواعد التى نسبت اليهم فى كسب خطوط الحزقة ، مثلما هو موجود فى سلسبيل السنوسى ، وقد طالب مشايخ معينة بالبدء بافكار واوراد هؤلاء الشخصيات وكان أقدمهم هو عويس القرآنى ، وهو يبنى معاصر للنبي - صلى الله عليه وسلم - أما طريقته كمذهب الجنيدي فقد عرفت للهجويزى وهى مذكورة فى القرن الثالث عشر فى رسالة ابن عطاء الله عن الذكر والذى يعطى الثمانية اشتراطات عن طريقته ؛ هذه الطريقة رغم انها لم تكن محدده بخط واحد ولكن ورثها كل الفرق الجنيديه.

وسلسلة الطرق الحقيقية كان لها عنصر جديد ، ليس مجرد العلاقة بين الشيخ والتلميذ والتى انتشرت حتى الآن. ولكن العنصر الاكثر اكتمالا للموجه (المريد) ونابعة إذ تبتثق حالة جديدة من الشيخ كونه لله ، والتى فى النهاية فى المرحلة الثالثة تصبح معتقداً إيمانياً بوساطته وكونه الوسيط مع الله ، وتصبح الحياة الصوفية للتأمل والتفكر الآن مرتبطة بدرجة متزايدة بخط الانساب طالما كان معظم

(١) سيأتى تفصيلا اثنا تعليقنا على المدرسة الرفاعية.

(٢) كلمة KHIRQA أى خرقه تشير الى مايرتديه الصوفية من فرق أو مرتعات ، يقول نيكلسون : هى لباس مصنوع من قطع مختلفة من القماش حل فيما بعد محل لباس الصوف الذى كان يلبسه أوائل الصوفية ، راجع نيكلسون : فى التصوف الاسلامى ترجمة أبو العلا عفيفى ط القاهرة ١٩٤٧ ص ٧٨ ، (المترجم)

أو اغلبية المريدين الصوفيين مهتمين والمرشدون قد وهبوا الطريقة وردها وصيغتها ورمزوها مثلما كانت من شيخهم المنوفى ، وارشدوا تلاميذهم خلال طريقته باسمه وقد كانت هذه العملية اساسا نتيجة المثالية الاسلامية لامداد الذات باسناد من الضمان والسلطة وهذه التفرقة بداخل التصوف بين الصوفية والملاطية اصبحت الآن محددة واضحة فالصوفية يتميزون بكونهم اولئك الذين يقدمون التوجيه والالتزام والملاطيون ^(١) هم اولئك الذين يحفظون بحرمتهم.

ان التغير فى الصوفية يمكن ان يرى فى طبيعة الرابطة التى توحد بينهم ، فالجماعات الأسبق قد ارتبطت بواسطة الحماس والتكريس المشترك ، وطرق الاتباع الروحية ، بهدف انشقاق الروح والقضاء على النفس ^(٢) لاكتساب رؤية الحقيقة ، ولذلك كانوا مترابطين متكاملين بالروح والهدف اكثر منهم باى تنظيم رسمى ، إذ كانوا فى الواقع - منظمات أو تنظيمات مفككة جدا ، وقد اتى التغير مع تطور جماعات التقوى الى جماعات مبدئية ، اعضاؤها ينسبون انفسهم الى شيوخهم الاوائل واسلافهم الروحيين ، وكانوا معدين لاتباع طريقته ونقلها بأنفسهم للأجيال المقبلة.

ان تحويل الصحبات الصوفية الى جماعات مبدئية قد بدء مع الانتصارات على الدويلات الشيعية (اليويهيون فى بغداد ١٠٥٥م والفاطميون فى مصر ١١٧١م) وقد استقر هذا التحول خلال وقت الاضطراب للغزوات المغولية على

(١) الملاطية : مؤسسها ابو صالح حمدون بن احمد بن عمار المعروف بالقصار (ت ٢٧١هـ) أباح بعضهم مخالفة النفس بنية جهادها ومحاربة نقائصها وقد ظهر الغلاة منهم فى تركيا حديثا بمظهر الإباحية والاستهتار وفعل كل امر دون مراعاة للآوامر والنواهي الشرعية

راجع : التصوف فى ميزان البحث والتحقيق : عبد القادر السندى ، مكتبة ايم القيم السعودية ١٩٩٠ ، وكذلك الملاطية والصوفية واهل الفتوة : ابو الملا عفيفى القاهرة ١٩٤٥ .

(٢) المقصود هنا هو كبح جماح النفس الأمارة بالسوء بالتخلص من الشهوات ، واللذات الدنيوية .
(المترجم)

بغداد ١٢٥٨م ، والتي كانت مصحوبة بالمهاجرين الصوفية باعداد ملموسة حيث أصبحت حركة ريفية وكذلك حضرية للروح ، ومن المسميات الهامة لهذا التغيير هي ان الجماعات الصوفية - حوالى زمن صلاح الدين قد تبنت العادة الشيعية للبيعة^(١) والبداية بالقسم وهو مشم الولاية للشيخ ، وكانت توجد ايضاً رابطة ما والنقل من فرق الفتوة الحرفية وكذلك فعل تعويض آخر ضد كبح الشيعة المفتوحة وهو ظهور انظمة الفتوة ، وبروزها بواسطة الخليفة الناصر (١٢١٩ - ١٢٣٦م) فى محاولة يئنه لخلق الفتوة^(٢) الفروسية والتي كان يحميها ويحتضنها المرشد الكبير شهاب الدين أبو حفص السهروردى^(٣) الذى كان مرتبطاً بالناصر ووكيلاً له فى تأييد أولئك النبلاء الذين رغب الخليفة فى تكريمهم والطرق التى أصبحت اكثر اهمية لتطوير التصوف التعليمى كانت السهروردية المنسوبة الى ضياء الدين ابو نجيب السهروردى (ت ١١٦٨م) ولكنها طورت بواسطة ابن اخته وهو شهاب الدين أبو حفص (ت ١٢٣٤م) ، والقادرية المنسوبة الى عبد القادر الجيلانى (ت ١١٦٦م) والذي لم يكن خط نسبة ممتداً قبل القرن الرابع عشر ، والرفاعية المشتقة من أحمد بن الرفاعى (ت ١١٨٢م) والباسافية البدوية عن أحمد اليسانى (ت ١١٦٦م) والكبروية المنسوبة الى الشيخ نجم الدين كبرى الخيوقى (ت ١٢٢٤م) والشيشتية: عن معين الدين الشيشتى (ت ١٢٣٦م) التى انحصرت اساساً فى الهند ، والشاذلية المشتقة عن ابو مدين شعيب !!! (ت ١١٩٧م) ولكنها نسبت الى ابي الحسن على الشاذلى (ت ١٢٥٨) ، و البدوية عن أحمد البدوى (ت ١٢٧٦م) المتمركزة بمصر ، والمولوية التى نادى بها الشاعر الصوفى الفارسى جلال الدين الرومى ت

(١) نجيل القارىء الى كتاب الصلة بين التصوف والتشيع . الجزء الأول والثانى لكامل مصطفى الشيبى ط دار الاندلس للطباعة والنشر ط ٣ بيروت ١٩٨٢ .

(٢) الفتوة : مجموعة من الفضائل احضها الكرم والسخاء والمروءة تميز المنتصف بها من غيره من الناس ، راجع ابو العلا عفيفى : للملانيه والصوفية واهل الفتوة . مرجع سابق ص ٢٤ .

(٣) سيأتى تفصيلاً فى الفصل القادم .

١٢٧٣م ، والتي انحصرت فى الاناضول ، والنقشبندية فى اسيا الوسطى وهى المدرسة الصوفية المسماة اولا الخواجاتيه ، والتي تدعى بنظراتها الداخلية الاسامية ليوسف الحمدانى (ت : ١١٤٠م) وعبد الخالق الخوحامتى (ت ١١٧٩م) ولكنها ارتبطت فى النهاية باسم محمد بهاء الدين النقشبندى ، وتزعم جميع الطرق التالية (تاريخيا) انها تنتسب الى واحدة أو أكثر من هذه السلاسل (السابقة) . وسوف نقدم فى الفصل التالى عرضاً لمؤسسى هذه الفروع ، وخواصهم الرئيسية ، عندما نقدم للشيخ الآخرين التقدير الذى يستحقونه وهم من امثال أحمد الغزالى ، وعلى الخرقانى ، والذين لعبوا دوراً هاماً فى تأسيس فروع وان لم يكن لهم سلاسل تسمى باسمائهم.

وقد استمرت جماعات أخرى كثيرة لبعض الوقت كمائلات أو فرق محلية ولكن بعكس القاديرية ، والتي كانت ايضا محددة طويلا كنظام عائلى ، لم تؤد الى تكوين الطرق المميزة مثل تلك التى ذكرت أنفا.

مثل ذلك كانت « الروزبهانية » التى أسسها شيراز روزبهان بقلى (ت ١٢٠٩م) ، والتي أصبحت وراثية منذ وفاة مؤسسها ، ولكنها لم تنتشر خارج فارس^(١) أو حتى تعيش لمدة طويلة ، ويذكر ابن خلكان أن الكيزانية اسسها فى القاهرة عبد الله محمد المعروف بابن الكيزانى (ت ١١٦٧م)

وقد كتب عن آخر فيقوله : .. يونس بن يوسف بن مشاعد الشيبانى ، شيخ الفقراء المعروفة بعده باسم اليونسية كان رجلا تقيا ، وقد سألت جماعة من اتباعه من هو شيخه فأجابوا أنه لم يكن له شيخ فهو كان مجذوبا ، وبهذه الكلمة فانهم يشيرون أو يحددون واحداً لم يكن له شيخ ، ولكنه جذب الى حياة الطاعة والتقوى والورع ، وقد مات فى (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) فى قريته القوناية بالداره (فى الجزيرة العربية) حيث يشتهر قبره ويجذب الناس اليه !!!

(١) فارس Fars : يسكون الرء اسم مدينة فى شيراز وهى طبعا غير بلاد فارس بصفة عامة .
« المترجم » .

أما الحفيد الكبير ليونس هو سيف الدين واجيحي بن سابق بن جلال بن يونس (ت ١٣٠٦) فقد ذهب للعيش في دمشق حيث منح وخصص له منزلاً من الوزير امين الدولة ليكون زاوية له ، وكذلك قرعيه (اقطاعية) في الغوطة ، ومنذ ذلك الوقت فإن خطة اصبح مرورنا كعائقه مع فرع القدس وكان مايزال موجوداً حتى سنة ١٥٠٠ م

لقد كان هناك الكثير من الطرق المستقلة والتي كان لها تأثير محلي محدود فقط ، ولكن التي ذكرت أنفاً مع الخلوتية التركية الغربية ، وقد كانت خطوط التأسيس التي ترعى طرق مميزه للفكر الصوفي والممارسات الروحية ومن خلال هذه الطرق فإن الرسالة الصوفية قد توسعت العالم الاسلامي .

وقد انتمى مؤسس السلسلة الى مدرستين اساسيتين أو رئيسيتين من الفكر الصوفي ، والتي يمكن تحديدها باعتبارها المدارس الجنيديّة والبسطامية ، أو بلاد ما بين النهرين (العراق) أو الوسط اسيوية ، رغم ان اتباعها ومشايخها لم يكونوا محضرين بهذه المناطق ، وبعد ذلك يأتي التصوف المغربي المشتق عن ابي مدين (ت ١١٩٧ م) قد كون منطقة ثالثة بميزاته الخاصة ولكن رغم انه كان المؤسس الرئيسي للسلسلة ، فإن الشاذلي قد اتى من المغرب هو وخلفاؤه ولقوا الترحاب وتشجيعاً في مصر ولم يصبح له شعبية في المغرب حتى وقت متأخر كثيراً .

كانت الميول المضادة للالتزامات الاخلاقية في خراسان وأسيا الوسطى رغم انها لم تكن مستبعده من هذه المناطق ، ولكن مثل هذه العناصر لم تشاهد في مؤسس السلسلة الذين كثيراً ما كانوا رجالاً على دراية ومعرفة بالعلوم الشرعية ، وكانوا اقوياء بين الاعداد الضخمة من الدراويش المتجولين (الملامتية والقلندرية)^(١) الغير مرتبطين بأى شيخ معروف أو خط معروف والذين كانوا فوق الشريعة

(١) وهي تنتسب الى قلندر يوسف عربى اندلسي ، عاصر الحاج بكتاشي مؤسس الطريقة البكتاشية ، ظهرت لأول مرة في دمشق عام ٦١٠ هـ ، وكان اتباعها يحلقون لحاهم وحواجبهم ، وكان =

ومقتضياتها ، ولكن بمجرد ان اسست السلاسل عرفت كسنية ^(١) فقد اصبح
فى امكانها ان تظم كل انواع العناصر الأخرى.

وفى هذه الفترة أصبح التصوف مهنة وهى فترة تتميز بالنمو الكبير
للمؤسسات الصوفية الغير متخصصة ، كما ان شعبية المقار أو أماكن تواجد
الصوفية ^(٢). ذات الطابع الفارسى بصبغة خاصة ارتبطت بفكرة الحكام السلاجقة
كما يمكن ان نراه أو نلاحظه من اى قائمة بتواريخ تأسيس هذه المقار، وهذا
الاتجاه تزايد فى ظل الايوبيين فقد رحب صلاح الدين بالصوفية الزهاد الذين
وفدوا الى مصر . واسس هو واتباعه . وقدم العطايا لكثير من الخانقوات
والرباطات ^(٣) والتي يذكر لنا المقرئى عنها قائمة طويلة ، فى كتابه الخطط
فيتحدث عن هذه الاماكن فى القدس ، وحيرى ، ودمشق ، وقد اغدق صلاح
الدين عام ١١٨٩م على خانقاه الصالحية فى القدس محولا من أجل هذا الغرض
قصر البطركية اللاتينية إلى خانقاه ، وكان قائده فى مصر قراقوش بن عبدالله
الاسدى قد بنى « باط » فى المكس ، بينما مظفر الدين كوكبرى صهر صلاح
الدين (ت ١٢٣٣م) « قد بنى خانقاوين فى اربل للصوفية ، وقد استقبلنا عدد

= زعيم مزيجا من الزى الفرسى والمروكى ، لايمبدون بشعائر الدين ولا يأخذون انفسهم
عقوبات الاخلاق ، فحاربهم الناس ، ومن هنا لم يكتب لهذه الطريقة الانتشار . راجع الصوفية
فى نظر الاسلام ، مرجع سابق ص ٥٥١ المترجم

(١) المقصود هنا هو ان هذه السلاسل من الفرق كانت تتفق مع الشريعة ولذلك اطلق عليها اسم (
التصوف السنى) وهو يختلف عن الاتجاهات الصوفية التى تتعارض مع الالتزامات أو القواعد
الاخلاقية التى اشار اليها المؤلف فى صدر هذه الفقرة (المترجم)

(٢) مقصود بهذه الاماكن الخانقاوات والرباطات والتكايا، حيث يقيم او ينزل بها الصوفية (المترجم)
(٣) الرباط : اصطلاح قرأنى مشتق من الآية الكريمة « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الخيال .. » الانفال ٦٠ فكان المرابطون يتظمون فى فرق تجمع بين الجهاد والتصوف ولكن
بمرور الزمن فقدت طبيعتها الحربية وبقيت لها طبيعتها الروحية راجع اعلام التصوف فى
الاسلام ، جلال شرف . دار الجامعات المصرية ط ١٩٧٦ « المترجم »

كبيراً منهم سواء من المقيمين أو الزوار ... وقد استخدمت في أيام الأعياد. لجذب العديد من الجموع التي أعجبت ودهش بها - الجميع ، وقد منح كل منهما بسخاء لتقديم كل ما كان يطلبه أولئك المقيمون فيها ، وكل منهم يجب أن يتلقى مصاريق حين يرحل ، ولقد اعتاد كوكبرى أن يزورها أحياناً ويشارك بنفسه في حلقات الذكر ... » (١)

ثم يصف ابن خلكان الموكب العظيم الذي كان يحتفل بالمولد النبوي في أبريل (٢) عام ١٢٠٧م حين خطى الليالي مستحقاً إلى ترانيم واذكار الصوفية ، وقد بنى كوكبرى أيضاً في حلب.

والفرق بين المؤسسات المذكورة يبدو في أن الرباط كان نوعاً عربياً كمركز تدريب . وكانت الخانقاه (٣) النوع الفارسي من النزل والخالي من التدريب التي أدخلت إلى مدن العالم العربي أما الزاوية فهو مصطلح أطلق على المؤسسات الصغيرة حيث كان يقطن الشيخ مع تلاميذه . بينما الخلوة خصصت للرياضة الروحية لدرويش منفرد ، وأحياناً تكون حجرة تقع حول مساحة المسجد. وقد كانت الصومعة الأكثر عزلة تسمى أحياناً الرابطة.

كان التصوف هو المجال الديني الوحيد حيث يمكن للنساء أن يجد مكاناً لهن ، وقد كانت توجد الكثيرات من النسوة الصوفيات ، واللاتي كانت منهن

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان مرجع سابق « المؤلف »

(٢) اسم بلده في ولاية الموصل على بعد ٨٠ كم تقريباً إلى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل . واشهر حكام هذه الدولة من بنى بكتكين الأكراد هو مظفر الدين كوكبرى صهر صلاح الدين . وبلغت أوج ازدهارها في عهده ، .. وكثيراً ما كان يقيم الأعياد الباهرة التي كانت تجذب إليها الزوار من كل حذب وصوب ، وكان أهم تلك الأعياد مولد النبي - صلعم - الذي كان يحتفل به احتفالاً ضخماً مصحوباً بسوق تجارية هامة .. ابن خلكان . وفيات الأعيان ٦٦/٦ « المترجم »

(٣) الخانقاه : كلمة فارسية معناها البيت « المترجم »

رابعة العدوية (ت ٨٠١هـ)^(١) وهى أشهرهن ، واثناء هذه الفترة وجدت اشارات الى اماكن تعبد النساء ، ويستعمل الاربيلى المصطلح خاتناه لاماكن تعبد الرجال ، والرباط لتلك الخاصة بالنساء، وكانت توجد سبعة اماكن تعبد للنساء فى حلب وحدها ، وكلها اسست بين ١١٥٠ ، ١٢٥٠ م، وكان فى بغداد ايضا عدد منها والتي كان اشهرها رباط فاطمة الرازية (ت ١١٥٧م) ، وفى القاهرة كان يوجد رباط البغدادية ، الذى بنته ابنة الملك الظاهر بيبرس فى ١٢٨٥م من اجل الشیخة المسماة زينب ابنة ابى البركة والمعروفة ببنت البغدادية ، واتباعها الذى مايزال موجوداً فى الدرب الاصفر.

يقول المقرئى^(٢) ان اول خاتناه فى مصر كانت (دار السعدى)^(٣) وقد سميت هكذا ، وكان اسمها المناسب هو الصلاحية^(٤) لكونها تقع فى منزل مصادر كاملکا لسعيد السعدى وهو أحد الخصيان العاملين فى القصر الفاطمى والذى اعتقه الخليفة المستنصر بالله وقد اعلم سنة ١١٤٩م. ثم اعتبرت وقفا بحكم القانون فى ١١٧٣م، وكان الغرض الاساسى منها هو فى ان تكون

(١) هناك اختلاف كبير فى وفاتها . فيذكر للنادى سنة ١٨٠هـ وروى ماسينون انها ماتت سنة ٨١٠/١٩٥م، ويتوسط الدكتور قاسم غنى بينهما فيختار سنة ١٨٥ لوفاتها ، ولكن ابن خلکان يحدد موتها بنسبة ٧٥٢/١٣٥، وكذلك ابن العماد فى الشفرات ، وذكر ايضا احتمال موتها سنة ٨٠١/١٨٥م ويذهب كامل الشىى انما توفيت سنة ١٥٥مـ

راجع فى ذلك الصلة بن التصوف والتشيع ٣٢١/١ والفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة : عبد الرحمن عبد الخالق - مكتبة ابن يثمية - الكويت ط ١٩٨٦ ٣ « المترجم »

(٢) هو تقي الدين احمد بن على بن عبد القادر (ت ١٤٤٢/٨٥٤م) من أهم مؤلفاته الخطط والافانار ، ط مصر ١٢٧٠ ، النزاع والتخاصم بين أمة وهاشم ط مصر ١٩٣٧ « المترجم »

(٣) الاسم الذى اطلق عليها هو اسم (سعيد السعداء) ولايزال اسمها مرسوما على إحدى المدارس بحى الجمالية « المترجم »

(٤) نسبة الى صلاح الدين « المترجم »

كتمزل للصوفية الغرباء ، ولكنها اتسعت وظائفها لتصبح المركز الرئيسى للصوفية المصرية، وكان لشيخها اللقب الرسمى وهو شيخ المشايخ ، والذي كان لقباً تشريفياً فقط لا يتضمن إبه سلطة أوسع من تلك التى لمؤمسته ، وبعد ذلك كان اللقب يعطى أحياناً لرؤساء الخانقوات الأخرى ، وقد استمر تأسيس الخانقوات فى ظل البحرى (١٢٥٠ - ١٢٧٧ م) وخلفاء المماليك الآخرين الذين تلو الأيوبيين ، ويكتب ان خلدون ^(١) فيقول « ... منذ الأيام الأولى لمشايخهم ، فان الحكام الأيوبيين ، وأعضاء هذا الحكم التركى فى مصر وسوريا كانوا يقيمون المعاهد لتدريس العلوم والمنازل الدينية لتمكين الفقراء (الصوفية) من اتباع قواعد اكتساب طرق التصوف السفى . ويا سالبية فى السلوك خلال ممارسات الذكر كصلوات النوافل (الزائدة عن الفرض) وقد ورثوا هذه العادة من الخلفاء السابقين ، كما أقاموا المباني من أجل تلك المعاهد فى شكل أوقاف ، ومنحهم الاراضى التى عادت بالدخل (الكافى) لتقديم الرواتب أو المعاشات للطلبة والصوفية الزهاد ، وكنيجة لهذا فإن المعاهد والمنازل المخصصة للعبادة كثر عددها بالقاهرة ، وهى الآن توفر وسائل المعيشة لفقراء الفقهاء والصوفية .

ويصف ابن بطوطة هذه الخانقوات ، وقواعدها فى وقت زيارته للقاهرة عام ١٣٢٦ م « ... وكل زاوية فى القاهرة مخصصة لطائفة من الدراويش والذين كان معظمهم من فارس الذين كانوا ذوى ثقافة كما دربوا على طريقة التصوف » . وهذا معنى جماعة منتظمة ، ولكن لا بد وانه لا يقصد جماعة تتمسك دائماً بقاعدة خاصة ، وبالتأكيد ليس فى الخانقوات التى ترعاها الحكومة.

ويصف القلقشندى (ت ١٤١٨ م) بإيجاز العلاقة بين خانقوات مصر وسوريا وبين السلطة المملوكة ، وحيث ان هذه المؤسسات كانت منحاً من الحكام ^(١) هو عبد الرحمن ابو زيد ويلقب بولى الدين . ولد بتونس ١٣٣٢/٧٣٢ وتوفى بالقاهرة ١٤٠٦/٨٠٨ ، من أشهر مؤلفاته : كتاب العبر ، كتاب البربر والمقدمة . راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢٧١/١ المترجم »

الماليك ، وكانت غالبا مربحة جداً لرؤسائها او شيوخها ، فإى فرد يرغب الماليك منحه وظيفة عاطلة (اى وظيفة يتقاضى منها اكثر مما يستحق ، دون ان يحمل الماليك شيئا من هذا يعطوه هذه الفرصة ، ولم تكن من بين الرؤساء رؤساء خانقاه الصلاحية فى دمشق (اسست ١٠٦١م كان صوفيا حقا . وقد كان أول من شغل هذه الوظيفة والتي تشمل مسئولية شيخ المشايخ هو الوزير السابق من خوارزم سعيد بن سهل الفلكى الذى اسره فى دمشق نور الدين محمود بن زنكى (حكم فى الفترة من ١١٤٦ - ١١٧٣م) واعطى الوظيفة مقابل مساندته حيث ان كل هذه كانت منشآت اوقاف .

وفى ١٣٩٢ عين ابن خلدون لادارة خانقاه بيبرس وبينما كانت الخانقوات أصغر من النزل من اجل الصوفية فصالات الغناء كانت كملية القوم ، والرباطات لها شكل غير محدد ، كمؤسسات للمدارس أو الواعظ وليس بالضرورة ان يكون صوفيا ، كانت الزوايا مراكز الشيخ هو مدرس حقيقى ، والذى كان خلفائه يواصلون بوعى تدريس طريقته الخاصة ، بينما كانت التبعينات لرئاسة الخانقوات تتم بواسطة السلطات الدنيوية ، فإن شيخ الزاوية كان ينتخب بواسطة الاخوان . ومن هنا بدأ خلافة الموروثة نظام التابع الوراى (للمشيخة) .

وعند الحديث عن المباني الدينية فى المدن الاسلامية الكبيرة وعن مؤسستها وتلاميذها وخلفائهم ، كانت الزوايا فقط هى التى يركز المؤلفون على استمرار التدريس بها وكذلك وجود الخاصة للحياة ، وقد عزل ابن بطوطة فى الكثير عن الزوايا والخانقوات الشرقية التى تتميز بصفات معينة مثل : السهرورية فى اصفهان (١٣٢٦م) والمولوية فى قونية والعديد من المؤسسات الرفاعية فى الاناضول والقوقاز (١٣٣٢م) وفى دمشق فرع الحريرى وكذلك مركز المؤسس فى البطائح بالعراق ، ومن قونية يكتب فى هذه المدينة (يوجد ضريح جلال الدين المعروف بمولاته وتوجد طائفة فى ارض الروم والتى ينتسب اعضاؤها إليه ومعروفون باسمه

، ويسمون الجلاية الأمر الذى يشبه الاشتقاق من الأحمدية العراقية (الرفاعية) ،
، او الحيدرية الخراسانية ، وحول ضريحه زاوية كبيرة يقدم فيها الطعام لكل
المهاجرين ، ولذلك فهؤلاء كانت طوائف بالمعنى الكامل الصحيح .

وتوضح ايضا رواية ابن بطوطة كيف ان هذه المؤسسات كانت هامة للتوسع
فى التجارة الاسلامية ، وفى توفير الراحة والاقامة فى المدن الهندية ، وفى نشر
الاسلام ؛ فمثلا على امتداد ساحل مالابار كله ، والذى كان تحت الحكم
الهندي ، استمتع ابن بطوطة فى الخانقوات فى هوتور (بالقرب من بومباي)
خانقاه للشيخ محمد الناجورى ، وفى غوجاه (بهو لاجار) حيث التقى بجماعة
من الفقراء الحيدرئين ، وفى كانبايا وكامباي فى جوجارات ، وفى كلكتا
وكولام حيث اقام فى الخانقوات شركة من الصوفية .

وفى ايام المقرئى (١٣٦٤ - ١٤٤٦ م) كانت خطوط الاشتقاق قد
استقرت تماما ، لذا فقد كتب عن فقراء الاحرورية الرفاعية بالقاهرة ^(١) . وحوالى
نفس الوقت فإن الانتساب القادرى قد بدأ فى التوسع ، وقد انشأ فرعاً فى دمشق
قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، وقد يسمح احيانا للصوفية باستعمال المساجد
لممارساتهم ، ويقول المقرئى : أن الازهر كان مفتوحا للصوفية ، وان حلقات
الذكر كانت تؤدى فيه ، وقد وجد بعض الصوفية فى المدارس ، وكانت مدرسة
اقيوجا بالازهر ذات جماعة دائمة .

ولا يبدو ان المناطق الايرانية قد طورت الخانقة التى تحت الرعاية الرسمية ،
وكذلك لم يتحيز تغير نزل الصوفية الى تمثيل الخط المقدس (الرحلة الثالثة فى
التغيير) باى تغير فى الاسم ولكن باضافة ضريح له قدسيته رغم ما كان ان

(١) يشير المقرئى فى كتابه « الخطط المجلد الرابع الرباط عرف باسم رواق احمد بن سليمان
البطائحي ت ٦٩١/١٢٩٢ هـ) يعتبر أول من ادخل الطريقة الرفاعية الى مصر ، وهذا المبنى
مازال موجوداً بالقرب من باب زويلة « المؤلف » .

لاكثر شيوعا فيما بعد هو ان الخانقوات الاخيرة كانت مؤسسات جديدة مرتبطة مع الضريح بعد ذلك اعاد الحكام الاتراك والمغول بناء أضرحه الاولياء المشهورين ، ودور العبادة الملحق بها كطريقة اكثر فخامة.

أسس الصوفية المدربون فى هذه المؤسسات مأوى صغيرة فى دولهم او فى اراضى المراعى الجديدة كلية ، خصوصا فى الهند . ونادراً ما احتفظوا باتصال مباشر مع المؤسسة الأم وأصبحت مدارس مستقلة بخواصها وميولها المعيزة.

كان القرن الثالث عشر عصر اضطراب وتغير حيث اكتسحت قوات المغول الدول الاسلامية بأسيا الوسطى ، واحدة بعد الاخرى. وقد هزمت بغداد فى ١٢٥٨م ، وفر الكثير من اللاجئين الى تلك الأجزاء من العالم الاسلامى التى بدا انها بعيدة عن الكوارث ومن بين هذه كانت الاناضول فى الشمال الغربى وهند وستان فى الجنوب الشرقى ، وقد وجد الكثير من الصوفية مأوى جديداً داخل حدود حكم السلاطين الاتراك بدلهى .

يبدو أن الاسلام فى الهند ^(١) كان فى جوهره اسلام الرجل المقدس ، فهؤلاء المهاجرون فى البيعة الهندية ، اكتسبوا هالة القداسة ، وكان هذا هو ماجذب الهنود اليهم اكثر من الاسلام الرسمى !!! ، وكانت توجد فقتان من الصوفية هؤلاء المرتبطون بالخانقوات والمتجولون . وكانت الخانقوات بمعنى خاص - مناطق مركزية - للاسلام ، فهى مراكز العبادة ، والقداسة والممارسات الزاهدة ، والتدريب الصوفى ، وعلى عكس مؤسسات العالم العربى التى تحمل نفس الاسم الفارسى ، فإن الخانقوات الهندية ، قد تمت حول رجل صالح وأصبحت مرتبطة بطريقته ومنهج نظامه وممارساته ، وقد شكلت طريقتين مختلفتين :-

(١) فى الاصل : الاسلام الهندى . الأمر الذى يوحى - إنه يقصد أو بغير قصد - بتعدد الدين حسب المرائع أو الشعوب الذى اعتنفته وانضوت تحت لوائه ، فهذا اسلام هندى ، وذلك اسلام ايرانى .. وهذا اسلوب تجده فى كتابات كثير من المستشرقين والحقيقة ان الاسلام واحد ثابت ، أما الاختلافات فقد توجد بين المسلمين - كافراد وجماعات - من حيث درجة أو مدى تمسكهم بتعاليم دينهم أو البعد عنها - « المترجم » .

فقد استقر معين الدين ششتي السجستاني (ت ١٢٣٦م) بعد حياة حافلة بالتجول في اجمير عاصمة حكومة الهند القوية وعنه نشأت سلسلة كسبت شعبية واسعة الانتشار تحت خليفته وخلفه قطب الدين بختيار كاكى (ت ١٢٣٥م) كى تصبح فى النهاية الطريقة الهندية الفائزة، أما الطرق الأخرى فإن السهرودية فقط هى التى اكتسبت اتباعا فى الهند ، وقد عين شهاب الدين بنفسه خلفاء من أجل الهند، وعلى رأسهم حميد الدين بن ناجور (ت ١٢٧٤م) ومن الآخرين هناك نور الدين مبارك غزنوى (ت دلهى ١٢٣٤م) وبهاء الدين زكربا (ت ١٢٦٥م) الذى ربما كان المنظم الأكثر كفاءة للقاعدة والسلسلة فى الهند ، والذى كان القلاندرى الفارسى العراقى^(١) مرتبطين به لمدة حوالى ٢٠ سنة . هؤلاء والشيخو اكتسبوا شهرة جعلتهم يدخلون فى عداد السلطات الحاكمة ، وقد قدم سلاطين دلهى مراسم التشريف لأولئك الذين كانوا داخل نطاق سيطرتهم وانتشرت الخانقوات فى كل مكان ، وكان أغلبها بدون انسابات محدودة ، أما الدراويش الجوالين والذين تعتبر هذه الخانقوات مراكز لتدريبهم واستقبالهم واکرامهم فكانوا كثيرين وعملوا كوكلاء ثقافيين على نشر واستقرار الاسلام.

انحسرت جاذبية الطريقة الصوفية منذ عهد محمد بن تغلق (١٣٢٥-١٣٥١م) رغم ان هذا الانحسار لم يكن نتيجة القيود التى فرضها على شيخو وأنشطة اماكن العبادة ، بل بالاحرى يبدو أن التصوف لم يكن قد اتخذ بعد مثل هذا الشكل الذى قد يجذب الهنود ، أما قيامها أو انتشارها كحركة شعبية فقد أتى بعد ذلك ، وقد ظهر هذا الانحسار فى تأملات ناصر الدين محمود (ت ١٣٥٦م) خلف الشيخ الكبير نظام الدين علويا.

وصل بعض القلاندره كضيفوف على الخوجه^(٢) الشيخ ناصر الدين لمدة

(١) اسمه بالكامل هو فخر الدين ابراهيم بن شهرار ، ولد فى همذان عام ١٢١٣م وتوفى فى دمشق عام ١٢٨٩ ، تقرب من منهجه ابن عربى « المؤلف » .

(٢) الخوجه أو الخواجة : كلمات من أصل تركى تعنى مدرس أو استاذ « المترجم »

ليلة واحدة ، وقال الخروج : هذه الأيام انخفض عدد الدراويش أما في إلهام الشيخ نظام الدين علويا فقد اعتاد الدراويش ان يحضروا بالعشرينات والثلاثينات ، واعتاد الشيخ ان يتمسك بهم كضيف لمدة ٣ أيام ، وحينما يوجد (عرس) فإن الشيخ (نظام الدين) يدعو كل رجال الجيش اللانثكارك ويأتي الدراويش من كل مكان ، وهذه الايام لا يوجد مثل هؤلاء الجنود ، مثل هؤلاء العبيد ، ولا الجيوش ، فقد انقرضوا جميعا ، وكان على الناس الانتظار من اجل ان يحضر الدراويش .

وفي الاناضول كانت فترة السلاجقة ذات دلالة على ان الحركة الصوفية كانت مرتبطة حيويًا بانتشار الثقافة الاسلامية في تلك المنطقة ، فكل من اللاجئين الفرس مثل بهاء الدين ولد ابي جلال الدين الرومي ، والبابات ^(١) الاثراك من اسيا الوسطى قد تحركوا في اعداد غفيرة الى داخل الاناضول اثناء القرن الثالث عشر ، خصوصا اثناء الهجمات المغولية ، ولكن نشاط الدراويش كان قويا بعد انهيار دولة السلاجقة في ارض الرم ^(٢) وقد اظهر الزهاد حماساً وروحاً مختلفة عن الاسلام السني وهي الروح التي عبرت ايضا عن نفسها في نواح اجتماعية عملية مثل اكرام المسافرين والعناية بالمرضى والفقير ، وكان الصوفية بذلك الذين اوصلوا الاسلام الى النصرانية في هذه المنطقة وقد حظوا بمساندة السلطات السلجوقية .

وقد يلقي جلال الدين الرومي تكريما عظيما من بلاط قونية كما توجد الكثير من الاشارات الى الرعاية الرسمية من مجالس بلاط اخرى مثل تلك التي منحها مجاهد الدين بهريز بن عبد الله امين أو والي العراق عن قبل مسعود بن غياث الذي اسس رباطا في بغداد ، ومن الضروري التمييز بين الفرق الصوفية

(١) البابات (جمع بابا) كلمة تركية تعني الواعظ الشعبي أو الشيخ ويلاحظ أننا جمعناها على هذه الصيغة مخافة ان تختلط بكلمة « بابوات » التي هي جمع بابا أو Pope في النصرانية (المترجم)

(٢) المقصود بأرض الروم هنا هي بلاد الشام ، كما كانت تسمى في صدر الاسلام (المترجم)

الحق بين تلك الجماعات مثل الطوائف التجارية و فرق الفتوة ^(١) للحرفيين والفرسان ، والتي تعرف تحت نفس المصطلح (طائفة) ولها اشكال مماثلة من تنظيم لديها جوانبها الدينية ، فالاختلاف بينهما هو اختلاف فى الغرض والمضمون أكثر منه فى انماط النظم والروابط .

فالطرق هى تنظيمات دينية خالصة ، ولكن الغرض من الطائفة كان اقتصاديا حرفيا أو تجاريا ، والطائفة الدينية ليست تماما وفى نفس وقت الطائفة الحرفية أو التجارية ، وهذا حقيقى رغم واقعة وجود استثناءات ظاهرة ، وان التنظيم المبدئى للطوائف الدينية تدبى كثيرا لتلك التى للنقابات ^(٢) ، وان الطرق تقرر أو توافق على مثل تلك الارتباطات الدينية ، فكل شكل من الحياة الاجتماعية يجسد نفسه فى هيئات وكذلك فأن الثقافة الدخيلة فإن الحاجة للعمل المشترك فيما نسميه الاغراض الدينية ويعطيها الدين ميزه مقدسة ، وتعمل النقابة الخاصة واعضاؤها الى ان تكون مرتبطة بطريقة معينة ولها رجل صالح ، وفى الاستهلاكات والاحتفالات الأخرى فإن الشعائر الدينية تكون هى السمة الأكثر وضوحاً ، وكان خلف رايه تلك الطريقة بأن أعضاء النقابة يتتابعون من وإلى ساحة صلاة العبد ، فالنقابات لم تكن هيئات دنيوية رغم تركزها على المصالح الاقتصادية والاجتماعية ولكنها لم تكن ايضا فرقا صوفية .

ومع ذلك فإن تكوين الفرق ، يدين بالكثير الى تكوين النقابات فهذه النقابات قد ازدهرت فى ظل الحكومات الفاطمية والشيعة الأخرى ، ومع انتصار الايوبيين والسلاجقة على النظام الشيعى السياسى ، فإن الحاجة للاعتراف بهم أقرها علماء السنة ، وقد اوضحنا ان الايوبيين شجعوا التنظيم الصوفى فى المرحلة

^(١) سنتكلم عنها بالتفصيل فى الفصل القادم « المترجم »

^(٢) ترجمنا كلمة guild بنقابة فى سياق هذا الكتاب للتفرقة بينهما وبين كلمة طائفة التى يخصصها المؤلف للجماعات (الدينية) الصوفية ، مع ادراكنا كان مصطلح نقابة العربى ومقابلة الاجنبى trade union لم يظهر إلا فى فترة لاحقة (المترجم)

التي بلغتها حيثئذ وهي التجمع في الخانقوات ومنذ ذلك الحين وعندما قامت الخطوط أو الاتجاهات المحددة للتراث الصوفي فإن تنظيم الخانقاوات والتي كانت ايضا مؤسسات دينوية في بعض نواحي ارتباطها بحياة المجتمع - استمد الكثير من تنظيم الطوائف أو النقابات . وكما ان للأخيرة رئيساً أو شيخاً (العريف أو الأمين أو شيخ الحرفة) وتدرجاً من التلاميذ تحت التدريب (المبتدئ) واصحاب المصانع ورئيس الحرفين فكذلك فإن الفرق الدينية قد اكتسبت تدرجات ونظاماً هرمياً من المبتدئين قبل الدخول ، والمبتدئين والشيخ وكما كان الاسلام السني قد تسامح مع - أو تفاضى عن - الطبيعة البشرية لبداية ويمين الولاء في الطوائف (النقابات) فقد كان عليه ان يقبل ما يشابهها من اداء الولاء لشيخ الطريقة : عندما يتواجد المحافظة على الممارسات الشيعية ، فالاطباء ايضا دون انتمائهم بالضرورة الى طائفة أو نقابة . قد قبلوا الالتحاق البسيط بسلسلة الصوفية كمصدر محتمل للمساعدة الروحية في عملهم .

والآن فأننا نجد تعبيرات للنفوذ الروحي ليصبح مرتبطاً بالفرق ، ومن الآن فصاعداً لا يمكن تمييز واضح بين الفرق واحترام أو تبجيل الاولياء والصالحين حيث ان أولياء الله يكونون بداخل هذه الفرق ، وقد اوجد التصوف فلسفة الانتخاب التي خففت وكيفت بمعرفة الفرق وفقاً لاحتياجات الجماهير . فليس الشيخ الكبير وحده ولكن خلفائه الذين ورثوا بركته (نفوذه الروحي) كانوا وسطاء لنفوذه ، وبهذا ارتبطت (زيارة) أضرحة اولياء الله ، ومثلما هو الشأن في النواحي الأخرى في التفكير والممارسات الصوفية يوجد تمييز اساسي بين الطريقة التي يقترب منها الصوفي الحقيقي من ضريح الولي ، وبين ممارسة الناس لذلك ، فالصوفي يقوم بالزيارة بهدف (المراقبة) الاتصال الروحي الولي واحداً في الرمز المادى مساعدة على التأمل ، ولكن الاعتقاد الشعبي هو ان روح الولي تحول ضريحة ، وأماكن اقامته خصوصاً المرتبطة به حينما كان على وجه الارض أو التي

اظهر فيها نفسه ، وفي مثل هذه الاماكن يمكن البحث عن شفاعته .

ان حالة الولاية ^(١) تميز باظهار الكرامات ^(٢) اى القدرات الروحية الممنوحة .، وقد عزل القادة الروحيون الاوائل انفسهم عن ممارسته مثل هذه القدرات رغم انهم قبلوا المبدأ بأن الاولياء يقومون فعلا بها وهى منه من الله ، ويلاحظ القشيري انه رغم أن الانبياء كانوا فى حاجة الى المعجزات لتأكيد شرعية رسالتهم ، فان الاولياء ليسوا فى حاجة لمثل هذا ، وعليهم ان يحفظوا ماقد يفعلوه بلا إرادة منهم فى النعم الالهية الغير عادية ، والتي فضلوا بواسطتها هى تأكيد لتقدمهم ويمكن ايضا مع ذلك ان يرفع مكانة المخلص ولكن عاملا لتحمييز الولي الحقيقى من الدخيل اى المدعى .

بل ان الولي الحقيقى ليس بالضرورة أو فى الحقيقة يعرف انه ولي ، وكتابات الصوفية تحتوى على قدر كبير حول هذا الموضوع عن شرعية الولاية ولكننا نهتم هنا بالنواحي العملية .

بهذا التطور يرتبط توفير جهد النبى - صلعم - أو تبجيله ، وهو ليس مجرد وضعه بداخل مجموعة من فاعلى الغرائب على المستوى الشعبى ولكنه ادى ايضا الى المكافىء الشعبى للاعتقاد فى روح محمد كمبدأ روحى أو عقل الكون

(١) الولي له معنيان : من يتولى الله امره . قال الله تعالى وهو يتولى الصالحين فلا يكله الى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته والثانى وهو الذى يتولى عباده الله وطاعته فعبادته تجرى على التوالى من غير ان يتخللها عصيان ، وكلا الوضعين واجب حتى يكون الولي وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء . ومن شرط الولي ان يكون محفوظا ..
راجع الرسالة القشورى للقشورى ، دار الكتاب العربى لبنان د١٩٧٧ ص ١١٧ « المترجم »
(٢) الكرامة : أمر موهوم حدوله فى العقل لا يؤدى حصوله الى رفع أصل الأصول فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على ايجاده واذا وجب كونه مقدر الله فلا شئ يمنع حصوله ، وظهرت الكرامات علامات صدق من ظهرت عليه فى احواله
الرسالة القشورى . المرجع السابق ص ١٥٨ « المترجم »

ان الاحتفال بالمولد النبوى يبدو على الأقل جزئيا كتمويض عن كبح أو منع احتفالات العلويين بعد انهيار الانظمة الشيعية ، ويشير ابن جبير (كان مسافراً فى الفترة من ١١٨٣ - ١١٨٥ م) الى المولد كممارسة أو عادة مستقرة ، وكان منتشرأ بصورة معقولة فى زمن ابن تيمية (٢) ومع ذلك ضمن الاشياء التى هاجمها ولم يكن احد النواحي الدينية للشعب ، وبحلول زمن السيوطى (٣) كان المولد اكتسب سمته المميزه ، هذه السمات مع كتابة التراثيل والاذكار الخاصة التى تؤدى فى التجمعات الصوفية تنتمى الى المرحلة التالية ولكن الشعر النبوى مثل قصيدة البرده للبوصيرى (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م) فقد كتبت اثناء هذا الوقت .

إن اندماج تقديس الولي بالفرق والتوقيير الجديد للنبي - صلعم - هى نواحي التغيير ، والناحية الأخرى هى تغير تكوين أو التشكيل جماعات الاتباع أو المواليين ، فالاهتمام كالأهتمام برفاهية الروحية ادى بالزهد أو المريد الى ان يعزل بنفسه عن العالم ، ولكن الحاجة للتوجيه الروحى استلزم الارتباط بالصوفية ، وقد اهتمت تجمعاتهم فى نزلهم برفاهية المسافرين ، والعناية بالمريض ، وضعاف الحال

(١) الواضح أن المؤلف لم يفرق بين الكرامات وبين المعجزات . فالمعجزات دلالات صدق الانبياء ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي - كما ان العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد الا ممن يكون عالما وكان يقول الأولياء لهم كرامات شبه اجابة الدعاء ، فاما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا ...

راجع الرسالة القشيرية مصير سابق هو ١٥٨ « المترجم »

(٢) هو تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى ، غنى عن التعريف ولد عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م فى حران بالقرب من دمشق ، وتوفى فى الحبس عام ٧٢٨ / ١٣٢٨ ، كان من الحنابلة وعدوا لدوداً للبدع ومن ثم هاجم كل الفرق الاسلامية .

راجع فى ذلك دائرة المعارف الاسلامية ٢٣١ / ١ « المترجم »

(٣) هو جلال الدين عبد الرحمن بن الناصر الشافعى ت : ١٥٠٥ / ٩١١ من اشهر مؤلفاته الاتقان فى علوم القرآن ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام تاريخ الخلفاء ... « المترجم »

، هذه المنازل مع الاضحية الملحق بها أصبحت منارات للتأملات الدينية فى نظر الرجل العادى الذى يبحث عن البركة من اولياء الله أما المخلصون الفقراء ، والدروايش والاخوان فقد استمروا فى تكريس انفسهم للممارسات الزاهدة والواجبات داخل الفرقة ، ولكن العضوية امتدت أو توسعت الان لاحتواء اعضاء الطبقة الثالثة الغير ملتزمين بكل التعاليم الصوفية ، أو تضع الموالين الذين اخذوا الطريقة عن الشيخ أو فى كثير من الاحيان عن خليفته ، ولكن استمروا فى اتباع اسلوبهم العادى فى الحياة ، وقد كان هذا يعنى انهم اكدوا اعتقادهم فى المثاليات التى تمثلها الطريقة وخصوصا تعظيم الرابطة مع بركة الاولياء ، وقبلوا مثل هذه القواعد والطرز للعبادة طالما كانت متوافقة مع مسار النمط المألوف للحياة.

وفى المدن كان مثل هذا التجمع مرتبطا بصفة خاصة بعضوية الطوائف بينما من وجهة أخرى ، فإن اساليب جديدة للذكر ^(١) الفردى قد استخدمت ، وهذا التوسع فى العضوية ادى الى تغيرات فى اساليب الذكر الجماعى . أما التطور الكامل لهذا النظام من الالتحام الشعبى فتتنمى الى المراحل التالية ، عندما اعتبرت الفرق ممثلة بواسطة التنظيمات المحلية ، فى جميع انحاء العالم الاسلامى ، محققة بذلك نفوذاً ضخماً خلال أغلب طبقات المجتمع .

وقد سارت متمشية مع تطور الاشكال الجديدة من التكريس وقبولها الموازى للصلاة الشعائرية ، عملية استقبال العلوم المختلفة مثل علم التجيم ، وعلم العرافة ، والسحر ، والتى احترفت ، ليس لمجرد الكشف عن اسرار عالم الغيب ، ولكن للسيطرة عليها (اى هذه الاسرار) وهذا التطور مرتبط نصفه خاصة مع

(١) الذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل احد الى الله إلا بدوام الذكر والذكر على ضربين ذكر اللسان وذكر القلب . فذكر اللسان به يصل العبد الى استدامة ذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكرة بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه ... وذكر الله بالقلب سيف المرهدين بمقاتلون اعداءهم وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم .
الرسالة القشيرية ص ١٠١ (المترجم)

اسم احمد بن عبد الله اليونى ت ٦٢٢/١٢٢٣^(١) الذى وضع خاتم او بصمة على عمل من سبقوه ذلك بالعمل بصورة اقل انفتاحاً بواسطة التنظيم أو الترتيب المنهجى نهائياً لعلوم العرافة والتنجيم والتوسل السحرى ، وقد ادخلت الاعمال الشعبية كل هذا فى مجال الممارس العادى وأصبحت جزءاً من معدات ومؤهلات الشيوخ والأخوان.

ومن السهل معرفة الاهمية الشديدة لهذه الناحية وكيف كان سهلاً أسلمة المادة المفترضة ، فقد اكدت الفرق على نفوذ أو وقوة كلمة الله عز وجل كما كتبت مئات الكتيبات عن فضائل وشمائل اسماء الله الحسنى ، وعن آيات مثل البسملة أو الآيات القرآنية (آية الكرسي) أو سورة يس ، وارتباط هذه الكلمات يعطيها خواص سحرية عند الشاذلية . فى حزب « البحر » أو « دلائل الخيرات » للغزولى^(٢) بقوة الرمزية فى الاسلام - اذن - مبنية على الكلمات بصفة اساسية.

وينفس الحال تماماً فإن مثاليات الفرق قد نمت بالمحافظة عليها ومع ذلك فقد حدث نوعاً من التوفيق بينها من الناحية العملية والشرف الذى يمنحه الاسلام لعلماء الفقه تعله واقفة أن بعض أعضاء سلسلة المؤسسين كانوا فقهاء محترفين ايضا فهم وخلفائهم قد تمسكوا بظاهر الممارسات الخارجية الاسلامية وقد لعبوا دوراً عظيماً فى اثراء وحياة التعبد للمسلم العادى.

وكذلك للمتمزمتين داخل مجال المعاهد الاسلامية النظامية وقد زودوا الشعائر السلفية بدلالة حفنة^(٣) لأن كل عمل تأمر به الشريعة يدل الى سر ما

(١) هو أحمد بن على المغربي ت ٦٢٢ هـ الموافق ١٢٢٥ م وليس كما اثبتته المؤلف ١٢٢٣ م من أشهر مؤلفاته شمس المعارف الكبرى ط بمصر ١٣١٨ هـ (المترجم)

(٢) علاء الدين على بن عبد الوهاب البهائى ت ١٤١٢/٨١٥ م من أشهر مؤلفاته مطالع البدر فى منازل السرور ، دلائل الخيرات (المترجم)

(٣) المقصود هنا تقسيم الشريعة الى الظاهر والباطن والعام والخاص ، ومن ثم تدرجت هذه الفكرة الى التأويل الباطن والتفسير المعنوى وتفرق المسلمين بين العامة والخاصة ، قال الطوس ابو نصر السراج « إن العلم ظاهر وباطن ... ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر وقد قال عز وجل (ولو رده الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فالمستنبط هو العلم الباطن وهو علم أهل التصوف ، لان لهم مستنبط من القرآن والحديث وغير ذلك .. =

الطقوس بالاضافة الى الشعائر والواجبات المشتركة فى الاسلام ، كما يتضمن فريق يستقبل المريد الارشاد من الشيخ وأصبح من الشائع القول بأن المبتدئ يجب ان يكون بين يدى مرشده مثل الجثة فى يدى المغسل لتكفينها ، وهذا مبلغ الذروة فى بداية الطريق والتي تشمل الاستغراق باستعمال الخرقة وهى ملاءة وعطاء للرأس.

والطريقة تحت الارشاد تعنى حياة مشتركة للمجموعة المتفرقة من المريدين والموالين فى تكاية للعبادة ، تحت توجيه مباشر من احد الكبار المتفوقين ، وقد ذكر السهروردي فى كتابه التعاملات مع قواعد السلوك فى مثل هذه المؤسسة ويحدد الرئيس مهام الصلاة المتنوعة ، والممارسات الزائدة عن الحد ، وتلاوة الابتهاالات ، والدعوات والتضرعات «والاذكار والاحزاب والاوراد» المتدرجة طبقاً لمرحلة الشخص مع بعض العمليات لكبح الشهوات مثل السهر والصيام وهو مطالب ان يجرى من حين لآخر الرياضات الروحية الخلوة والاعتكاف (١) والاعتزال (٢) والاربعية لمدة اربعين يوماً فردياً فى حجرته أو اذا كان متقدماً جداً فى مجتمع المصلى أو مكان التبعد.

ولكن ، كما قد يفهم من هذه الكتيبات ، رغم ان خطوط الممارسة

(١) السهر : من الرياضات العملية وهو قيام الليل وعدم النوم ، وذلك لذكر الله والقيام بالعبادات والطاعات . يقول الرفاعى لتلميذه : « عود نفسك القيام فى الليل » احمد الرفاعى : الفجر المنير - المطبعة الاميرية - بولاق ١٣٠٠ م ص ٢٣ « المترجم »

(٢) العزلة والخلوة :

من الرياضات العملية عند الصوفية . والعزلة عند الصوفية تعنى الفناء عن الخلق ، ما الخلوة فهى إشار الحق والقرب منه ظاهراً وباطناً والانقطاع الحقيقى عن الخلق والصفات المذمومة . فالخلوة صفة أهل الصفاة ، والعزلة من امارات الوصلة ولايد للمريد فى ابتداء حالة من العزلة عن أبناء جنسه ثم فى نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه ومن حق التبعد إذا أثر العزلة ان يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من سره ...

أنظر الرسالة القشيري ، مصدر سابق ص ٥٠ « المترجم »

للطرق الصوفية قد حلت ، فإن اهداف الصوفية فى الارتباط لازالت متغيرة ،
مميزة ، ومحدوده .

وكذلك كان يوجد الكثير من التنوع بين المؤسسات ، فبعضها كان غنيا
وفاخراً تبناه السلطات ، بينما الأخرى اتبعت المبائى الاكثر شدة وقسوة من فقر
وروحانية وزهداً عن العالم ، كما ان البعض لم يكن لها شيخ ، وأخرى كانت
تحت سلطة قائد واحد واصبحت ملتصقة (بسلسلة واحدة) فى حين ان
الأخرى كان يحكمها مجلس من الكبار ثم هناك الدراويش المتجولون قبل
القلندرية الذين استفادوا من هذه الاماكن « النزل » وكان لهم قواعدهم
وروابطهم دون تنظيم خاص .

الفصل الثانى

الخطوط الرئيسية للطريقة

بعد أن حددنا باختصار المراحل العامة في تطور التنظيم الصوفي التي أدت إلى تكوين مدارس التعليم والتدريب ، يمكننا الآن أن نذكر شيئاً من الشخصيات التي اشتقت عنها أو المنتسبة إليها الطرق الكبرى وتطورها اللاحق ، فقد أوضحنا أنها نشأت خلال مرشد بارز حيث كان يخلفه رجال جمعوا بين القدرات العملية والكفاءات الروحية والتبصر ؛ والذين جمعوا أقواله وحكايات من حياته ، وقاموا بتعليم تلاميذهم تحت اسمه والصعوبة في استعمال تواريخ حياة الأولياء كمصادر تاريخية معروفة جيداً . فقصص الأولياء هي ببساطة حياة صممت ثم بعد ذلك لحقها التشوية لتخدم تقديس الأولياء ، وهي تكون ناحية أساسية لأية دراسة للفرق . لأن هذه الكفاءات والأعمال والظواهر حقيقية للمصدق (المعتقد فيها) ولكنها تحجب الشخصية التاريخية في نفس الوقت ، فإن المؤرخ يهتم بتأثيرات إذا لم يكن حقيقة مثل هذه المعتقدات ، حيث أنها تفسر وجود الاعتقاد وتساعد على شرح التعبيرات الموضوعية عن هذا الاعتقاد في تنظيم ما .

والمناطق الرئيسية للفكر الصوفي والممارسة الصوفية من وجهة نظر تطور الطريقة لللاحق كانت هي بلاد ما بين النهرين ، وخراسان والمغرب . أما التشكيلات الصوفية في الأناضول فقد انبثقت من وسط آسيا ، بينما فرق التصوف في الهند والتي نشأت من جهود الأولين ، وبعد ذلك تطورت وفق خطوط من صنفها ومن مراحل نموها وركودها وقيامها من جديد . الذين لا يدين ولا بالقليل لتأثيرات غير هندية .

١ - بلاد ما بين النهرين (العراق وما حولها) :

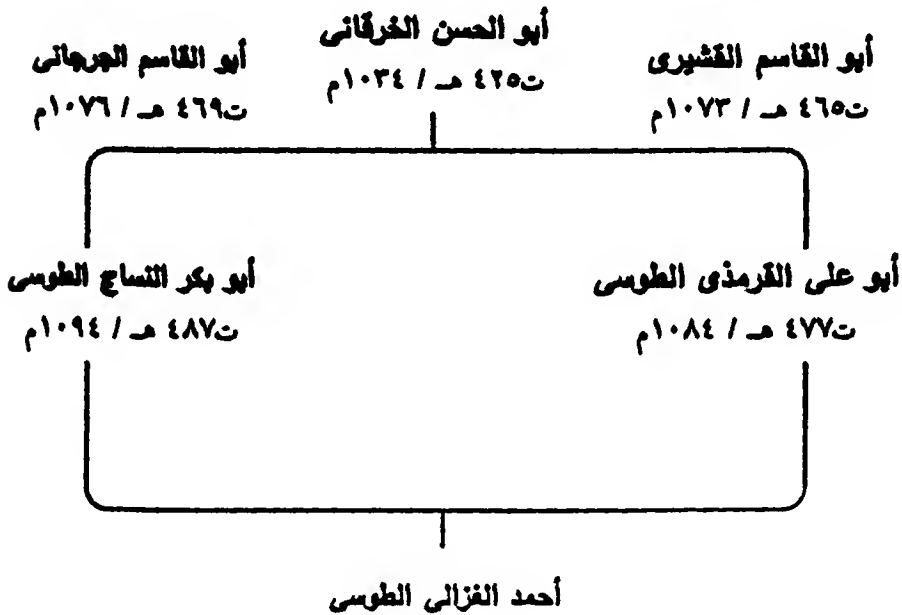
هنا تركز التصوف في بغداد محتضناً سوريا وامتدأ إلى مصر ، وترجع خطوط الإنتساب خلال « الجنيد البغدادي » (ت ٢٩٨ هـ) إلى « معروف الكرخي » (ت ٨١٥ م - ٢٠٠ هـ) وسرى السقطي (ت ٨٦٥ م - ٢٥١ هـ) وهنا فإن التصوف كسب اعترافاً متميزاً من أساتذة الشريعة الإسلامية . فمن ناحية ومن خلال عمل عبد الرحمن السلمي (ت ١٠٢١ م - ٤١٢ هـ) - السلفي الخراساني ومؤرخ بدايات التصوف - وتلميذه القشيري (ت ١٠٧٢ م - ٤٦٥ هـ) الذي قام بالتدريس في بغداد وكتب كتباً عن الشريعة الإسلامية وكذلك عن التصوف وأبو حامد الغزالي (ت ١١١١ م - ٥٠٥ هـ) ؛ ومن جهة أخرى خلال ارتباط التصوف بالرعاية الرسمية بين نور الدين وصلاح الدين وجنودهما وخلفائهما ، الذين شجعوا إنشاء مؤسسات موازية مثل المدارس والخانات .

والتراث العراقي أقرب مايمكن أن نجد إلى التصوف العربي والتعبير الموضوعي ، على الرغم من أن معظم شيوخه لم يكونوا عرباً . ونجد خطين رئيسيين : السهروردي والرفاعي وكلاهما يقف بأمانة يتابع التراث الجنيدى ؛ وقد تركز الاتجاه الرفاعي مع أسلافه العائليون على حدود البصرة. التي كانت مركز الخارجين على القانون ، وحافظ بشدة على الميراث العربي لأحمد الرفاعي ووقوفه في تعاقب مباشر للمصوفين العرب ؛ وقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة في هذا التراث العراقي التي اكتسبت أتباعاً كثيرين في الإمبراطورية السلجوقية .

أما المدرسة السهروردية فكانت أساساً خضرية وشافعية وسلفية وقد

ضمت أيضاً الحنبلية القادرية . إذ أن عبد القادر - وهو من أصل فارسي - كان معاصراً للإثنين الآخرين ولكنه لم يحسب في أية « صحبة » وسلسلة نسب صوفية والطريقة التي حملت اسمه ظهرت فقط إلى الوجود فيما بعد، وحتى في ذلك الوقت ، فإنها ظلت فترة قبل أن تصبح طريقة معروفة .

خطوط التعبير عن الإنقطاع الصوفي هي :



والشخصية الرئيسية في هذا التراث هو أحمد الغزالي ، والطريقة التي جمع هو وأستاذه القرمزي والذي يتساوى معه في الشهرة - وأبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي ^(١) (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) ، وهو الأخ

(١) لانعرف عن حياة أحمد الغزالي الكثير لأنه لم يشر إتباه أحد كتاب السير ، وإن كان ابن خلكان يذكر عنه ققرة قصيرة في كتابه « وفیات الأعيان » - المؤلف .

الأصغر لأبي حامد الغزالي - عالم الدين والأخلاق المعروف - كان منجذباً للحياة الصوفية في مستقبل حياته يقضى فترة تتلمذه مع الصوفية . وبعد ذلك كرس نفسه تماماً للطريقة . أما أبو علي القرمذى وهو أيضاً من طوس ، ولكنه درس في نيسابور فكان شيخ الصحبة له ^(١) . وقد كان أحمد الغزالي في آن واحد - منسحباً من هذا العالم الدنيوى نشطاً فيه في نفس الوقت ، بمعنى أنه لم يكن صوفياً منقطعاً في خانقاه يل داعية متجولاً ويزور القرى والنجوع ، بل يعظ البدو لتوجيههم لطريق القرب من الله . وقد قضى فترة في بغداد حيث كسب إخلاصه قلوب الناس ، وقام بالتدريس لبعض الوقت في المدرسة النظامية ، نيابة عن أخيه عندما كان الأخير في نضاله العنيف مع أزمته الروحية (١٠٩٥م / ٤٨٨ هـ) والدور الذى لعبه في حياة أخيه أثناء هذه الفترة يمكن فقط أن يخمن . وطبقاً لكتاب المرتضى فإن القشة الأخيرة التى سببت أن يقطع أبو حامد الروابط مع هذا العالم .. أتت يوماً ما حين دخل أخوه أحمد وهو يردد : إنك مددت لهم يدك حين ترددوا ،

(١) لا نعرف عن حياة أحمد الغزالي الكثير لأنه لم يثر إيتباه أحد كتاب السيرة وإن كان ابن خلكان يذكر عنه فترة قصيرة وفيات الأعيان (المؤلف) . وقد تتلمذ عليه (أى على القرمذى) أيضاً أبو حامد الغزالي مثلما تتلمذ على يوسف النساج . أنظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي . كما يذكر محمد المرتضى في مقدمة كتاب إتحاف السادة والذى كتبه شرحاً لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي يذكر بالرغم من أن الإمام الغزالي (أبو حامد) انضوى تحت قيادة القرمذى في دورة من التدريب الصوفى فإنه لم يلق أى تنوير في هذه المرحلة ، وإنما تحقق هذا التنوير بعد ذلك تحت إرشاد يوسف النساج مرشد أخيه أحمد - ويقول الإمام الغزالي نفسه لأحد أصدقائه - هو قطب الدين الأردبيلي - كنت في البداية متشككاً في حقيقة حالات الوجد الصوفية ، وفي مراتب ووجدانات المتوصيين . حتى وضعت نفسي تحت إرشاد وتوجيه شيخى يوسف النساج في طوس ، فقد ثابر في عبء تهذيبى عن طريق تدريبات تطهير الروح حتى إتهمرت على الرؤى (الواردات) ورأيت الله في منامى ... نقلاً عن كتاب إتحاف السادة للمرتضى الزبيدى - المؤلف .

وتركت أنت نفسك خلفهم وهم أمامك ، وأخذت دور المرشد ولكنك لن ترشد ، وتعظ ولكنك لا تنصت ، أيها المحفز الشاحذ ستشحذ الحديد ، ولكنك لن تشحذ ^(١) .

أ - السهروردية :

هذه الطريقة يمكن إعتبارها ترجع إلى ضياء الدين أبو النجيب السهروردى ، عاش بين ١٠٩٧ - ١١٦٨ م / ٤٩٠ - ٥٦٣ هـ ووفقاً لتأثيره على ابن أخيه شهاب الدين ^(٢) . وقد ترك سهرود عندما كان شاباً متجهاً إلى بغداد حيث درس المناهج المعتادة من أصول الفقه ، وقد قام بالتدريس لفترة فى المدرسة النظامية ثم غادرها بغية الإرتباط بالشيخ أحمد الغزالي ، الذى بعث فيه نسيم السعادة العظيمة وهدهاه إلى الطريق الصوفى ، وقد إنقطع عن المجتمع العادى للتفرغ لحياة العزلة والرياضة الروحية ، وأتى المريدون ليضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، وانتشرت سمعة بركاته على نطاق واسع ، وقد بنى رباطاً على موقع كان به أطلال قرية على نهر دجلة ، والذى أصبح مكاناً للجوء والإحتماء ، وهو مؤلف « أدب المريدين » وهو كتاب للمريدين الصوفية .

(١) راجع فى ذلك كتاب المرتضى الزبيدى : إتحاف السادة الأحياء بفضائل الإحياء - طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ ، ج ١ ، ص ٨ (المترجم) .

(٢) الطريقة السهروردية منسوبة إلى شهاب الدين السهروردى صاحب الكتاب الشهير حكمة الإشراف ويطلق عليه فى كتب السير الشيخ المقتول أو السهروردى المقتول كما يدعوه تلاميذه وأتباعه بالشيخ الشهيد ، إذ أن صلاح الدين الأيوبي حاكمه واتهمه بالكفر وشنق فى حلب ، وهو متأثر بالفلسفة الشرقية فى قصة حى بن يقظان والذى نسج السهروردى على منوالها قصته الشهيرة « العربية الغربية التى تبدأ حيث تنتهى حى بن يقظان » والمقصود بالإشراف عند السهروردى المقتول : الأنوار المعقولة التى تبتدى للصوفية . راجع مادة سهروردى : الموسوعة الفلسفية د. عبد المنعم الحفنى ، مكتبة مدبولى - القاهرة ، ط. أولى د. ت ... (المترجم) .

ومن بين أتباعه كان أبو محمد روزبهان البقلي من شيراز (ت ١٢٠٠م - ٦٠٦ هـ) وإسماعيل القصرى (ت ١١٩٣م) وعمار البلديس (ت ١٢٠٠م تقريباً) وكان الشيخان الأخيران هما شيخ التصوف الخوارزمي العظيم ، ونجم الدين كويرا ، وهو الذى نشأت عنه الكوبراوية وهى خط من خطوط التأمل الصوفى .

أما الرجل الذى إعتبر مؤسس للطريقة كان هو شهاب الدين أبو حفص عمر (١١٤٥م/٥٣٩هـ - ١٢٣٤م/٦١٢هـ) - ابن أخى أبو النجيب - والذى تلقى تدريبه المبكر فى رباط عمه ، ولم يكن منجذباً للحياة الزاهدة منسجماً عن العالم ، رغم أنه أمضى فترات فى ممارسة الرياضة الروحية ، ولكنه ارتبط بالعظماء ، فالخليفة الناصر لدين الله أدرك أهمية نفوذ شيوخ الصوفية ، فأظهر عطفاً كبيراً على شهاب الدين ، وقد ربط بينه وبين فتوته الأرستقراطية ، وأرسله كسفير إلى علاء الدين كايقوباد الأول . وهو والى سلجوقى لقسونية (١٢١٩ - ١٢٣٦م) والى الملك العادل الأيوبي، والشاه الخوارزمى وقد بنى الناصر لدين الله له رباطاً ، ملحق به مبنى كبير يضم حماماً منزلياً وحديقة لنفسه ولعائلته ، ولم يكن مؤيد نظرياً للتصوف وربما شجع ارتباطه بالفتوة على إدخال ممارسات إستهلاكية معينة مثل الشد (التطويق أو الحلقة) داخل تجمعات الصوفية .

وقد كان شيخاً ومدرساً عظيماً ، ولم يكن نفوذه على تلاميذه فقط ، بل أيضاً من خلال عمله وكتابه « عوارف المعارف » وقد وصل إلى كل شيوخ الصوفية إلى يومنا هذا تقريباً ، وقد جاء الصوفية من كل أنحاء العالم إليه للتدريب ، وقد قام هو نفسه بالنزول لفترات فى الخانقافات بالمدن المختلفة بما فى ذلك دمشق وحلب ، وكان الصوفية يرسلون إليه المكاتبات

أيضاً لمعرفة رأيه في الأفكار الصوفية مثلما نراه في هذا المعنى مما رواه ابن خلكان حيث يقول :

لقد قابلت عدداً من أولئك الذين حضروا دروسه ، وأقيمت لفترة في خلوته متدرباً على توجيهه وإرشاده طبقاً للعادات الصوفية ، وكانوا يعطونني فكرة عن الأحاسيس الغريبة التي غمرتهم أثناء تلك المناسبات عندما يكونون في حالات النشوة (أحوال) وقد حضر إلى إربل كمبعوث من قبل حكومة بغداد ، وعقد الاجتماعات من أجل الإستشارة الروحية ، ولكنه لم تتح لى الفرصة لرؤيته منذ أن كنت صغيراً جداً ، وقد أدى فريضة الحج عدة مرات وأحياناً كان يقيم بالقرب من البيت الحرام لبعض الوقت ، وقد إعتاد شيوخ الصوفية المعاصرون له في أماكن أخرى أن يكتبوه موضحين مشاكلهم باحثين عن نصيحة في صورة (الفتاوى) .

لقد كان التبصر الروحي لشهاب الدين أعمق مما لدى مؤسسى القادرية والرفاعية ، فلقد كانت السهروردية مدرسة صوفية ، وأدخل تلاميذه تعاليمه في كل أنحاء العالم الإسلامى ، ولكن نشأت عنه قلة ضئيلة من الطوائف المنظمة بصورة مستمرة . هذا وقد خلفه ابنه عماد الدين محمد (١٢٥٧م / ٦٥٥هـ) كشيخ لرباط المأمونية في بغداد ثم تلاه ابنه عبد الرحمن ، ولكنها استمرت كطائفة عائلية فقط .

وقد كتب عبد الرحمن الواسطى حوالى ١٣٢٥ ميلادية يقول : إنه كان للسهروردية فروعاً أكثر من أية طريقة أخرى ولكنه من الصعب التأكد من وجود الكثير من الطوائف الأخرى مقارنة بالأعداد الكبيرة من الصوفية الذين يدعون إنتماءهم إلى السلطة السهروردية .

حافظ شهاب الدين على سلفيته ^(١) تماماً ، واستمر أتباعه المباشرين على هذه السلفية ، ومن بينهم الشيخ الشيرازي الشهير نجيب الدين يوزغوش (ت ١٢٧٩م / ٦٧٨هـ) وابنه وخليفته ظهر الدين عبد الرحمن ، والكثيرون ممن يقال عنهم بصعوبة أنهم صوفية قد استقبلوا أو تسلموا (الخرفة) عنه ، مثل أبو بكر محمد بن أحمد القسطلاني (١٢١٨م / ٦١٤هـ - ١٢٨٧م / ٦٨٦هـ) الذي أسس مدرسة التقليديين ^(٢).

وبالمثل فإن الشاعر الفارسي الكبير سعدى الشيرازي (عاش في الفترة من ١٢٠٨ - ١٢٩٢م) الذي تأثر بشهاب الدين حينما كان في بغداد . لم يكن تابعا للطرق الصوفية ، رغم أن أفقه الواسع اتسع لاحتضان وتفهم التصوف وطرق الدراويش ، وفي كتابه « البستان » يشير إلى تقوى شهاب

(١) المقصود بالسلفية هو الاتجاه الصوفي الذي يتقيد أصحابه بالكتاب والسنة ، ويربطون أحوالهم ومقاماتهم بهذين المصدرين ، ومن الواضح أن هذا الاتجاه السلفي يختلف عن الاتجاه الآخر وهو التصوف الفلسفي الذي ينزع أصحابه إلى الشطحات وينطلقون من حال افتاء إلى القول بالإنقاذ والحلول ، وساد الاتجاه الأول خلال القرن الخامس الهجري ، بينما اختفى الاتجاه الثاني تقريباً خلال الفترة نفسها ، ومن أهم شخصيات التصوف السني - في هذه الفترة - القشيري والهروري والغزالي .

د. أبو الوفا التفتازاني « مدخل إلى التصوف الإسلامي » ، القاهرة ، د. ت . ص ١٧٣ .
(المترجم)

(٢) هاجم القسطلاني زميله الأندلسي المهاجر - ابن سبعين - وهو فيلسوف عتري صي أرسطي ، والذي لقي ترحيباً في مكة أول الأمر ولكنه طرد منها وجاء إلى القاهرة حيث رحب به الظاهر بيبرس ، وولاه رئاسة دار الحديث الكاملة عام ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ . (المؤلف)

الدين وجهه لاختوانه أما ابن بطوطة فهو أحب أن يجمع هذه الأنساب وشغل أحد المناصب مع الخرقه السهروردية في أصفهان عام ١٣٢٧م مع أخرى في أوشن .

ويوضح هذا طبيعة المعاني القليلة التي كانت أحياناً ملتحمة بهذا الإستهلال كما كان أن المشايخ لاحقين الذين ادعوا النسب السهروردى ضموا كل أنواع الصوفية أى رجال لهم صفات مختلفة مثل نور الدين عبد الصمد الفاطنزي وعبد الرازق الكاشاني (ت ١٣٢٩م / ٧٣٠ هـ) وسعيد عبد الله الفرغاني (ت ١٣٠٠م / ٧٠٠ هـ) .

ب - الرفاعية :

إن طريقة أحمد بن على الرفاعي ^(١) (١١٠٦ - ١١٨٢م) ليست مشتقة عن القادرية كما يقال ، بل بالعكس فإنه ورثها بنفسه كسلسلة عائلية، وكانت بركته قد انتشرت كطريقة متميزة منذ حياته ، بينما لم تظهر القادرية كخط (خرقة) إلا في وقت لاحق متأخراً كثيراً . وقد تميزت الرفاعية بممارساتها الغريبة الملفتة للنظر والتي ترجع إلى أحمد نفسه وكان

(١) هو أحمد بن أبى الحسن على بن يحيى بن رفاعه الحسينى ، ورجع نسبه للحسين بن على ابن أبى طالب ويكنى عجبى الدين ويوصف بأبى العباس وأبى العلمين والسيد الكبير . ونسب إلى مدينة واسط فيلقب بالواسطى ونسب إلى البطائح فيلقب البطائحى ونسب إلى جده رفاعه فيلقب بالرفاعى . ولد في قرية أم عبيدة بالبصرة قرب واسط ، وهى بأرض البطائح . ويذهب السبكى ومارجيلوت وغيرهم إلى أنه ولد عام ٥٠٠ هـ الموافق ١١٠٦م بينما يذهب أبو بكر المذنى ، والسيد عبد الرحيم إلى أنه ولد عام ٥١٢ هـ الموافق ١١١٨م . راجع فى ذلك : أبو الهدى الصيادى : قلادة الجواهر فى ذكر القوت الرفاعى وأتباعه الأكابر، بيروت ١٤٠١ هـ ، ص ٣١ وما بعدها . (المترجم) .

مركزه في « البطيحة » ^(١) الذي يعتبر مركزاً لجذب الصوفية إلى الطريقة ، الأمر الذي لم ينجزه رباط عبد القادر في بغداد .

ولا يعرف عن الرفاعي ^(٢) إلا القليل ، ولكنه كافياً لتوضيح تعارضه مع سيرة كل من السهروردي وعبد القادر ، فقد ولد في عائلة عربية ، وقضى كل وقته في البطيحة ، وهي أراضى مستنقعات بجنوب العراق بين البصرة وواسط ، وقد تركها مرة واحدة فقط عام ١١٦٠ ميلادية متوجهاً إلى الحج ، ولم يتعلم إلا القليل من الفقه والتصوف ولم يكتب شيئاً فالأوراد القليلة المنسوبة إليه ربما لم تكن حقيقية ^(٣) .

(١) البطيحة : منخفض كالمرج ، له بطن من الرمال المختلطة بالحمى ، تضره مياه الأنهار المجاورة في مواسم تفاوت كمية مياهها كثرة وقلة ، وعلى ذلك فإن الماء ينطع فيها أغلب الأحيان ، ويطلق كتاب العرب اسم البطائح على المسيل المتسع الذي على المجرى الأدنى للرافدين فيما بين واسط والبصرة .

راجع : سترك : مادة البطيحة ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث ، العدد العاشر . (المترجم) .

(٢) في الأصل : ابن الرفاعي (المترجم) .

(٣) ترك الرفاعي عدداً قليلاً من المصنفات الصوفية والفقهية وكذلك بعض القصائد التي تناول تصوفه النظري والعملي . وأيضاً : بعض الأحزاب والأوراد وأشهر مصنفات الرفاعي هي :

١ - حكم الرفاعي : طبع بالقاهرة . وهي عبارة عن إرشادات وتوجيهات يوجهها الرفاعي إلى مريديه خاصة تلميذه عبد السمیع الهاشمي .

٢ - النظام الخاص لأهل الاختصاص : يحدد الرفاعي فيها نظام أهل الولاية في علاقتهم بالله سبحانه وتعالى .

٣ - المشرب الرائق : وهي رسالة صغيرة في التصوف ، وهي عبارة عن توجيهاتها لمريده عبد السمیع الهاشمي .

٤ - الفجر المنير : كتاب وضع فيه الرفاعي آرائه في المجاهدة والرياضيات العملية وآداب السلوك .

وقد كانت منطقة البصرة - الكوفة - هي مقر نشأة ونمو التصوف العربي، ومنها جاء معروف الكرخي (ت ٨١٣م) الذي كان أبواه صابئين وكان شيخ الصحبة له الذي عينه في خرقته الأولى هو على أبي الفضل القاري الواسطي، ولكنه ورث أيضاً مجتمعاً دينياً يسمى الرفاعية عن خاله منصور البطائحي (ت ١١٤٥م / ٥٤٠هـ) وقد أعطاه منصور الخرقه في عامه السابع والعشرين ووطنه أو سكنه في أم عبيده، وقبل وفاته مباشرة استعمله في المشيخة (أي القضاء الروحي) وسجادة الإرشاد (أي عرش الإرشاد الروحي). وقد كتب ابن خلكان (حوالي عام ١٢٥٦م / ٦٥٤هـ):

« أبو العباس ابن أبي الحسن علي المعروف بابن الرفاعي، كان رجلاً تقياً وفقياً في المدرسة الشافعية، أصله عربي وعاش في البطحاء، في قرية تسمى أم عبيدة، وقد التف حوله حشد كبير من الفقراء آخذين عليه ميثاق الولاء وتابعين له « كمرشدهم » وطائفة الفقراء المنتسبة إليه هي التي عرفت

٥ - حالة أهل الحقيقة مع الله : يتناول فيه الرفاعي ٤٠ حديثاً من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الناحية الذوقية الوجدانية .

٦ - البرهان المؤيد : يتضمن هذا الكتاب كل آراء الرفاعي في التصوف .

٧ - الأحزاب والأوراد : كالحزب الكبير، والحزب الصغير، وحزب الحصن، وحزب السر، وحزب البركات، وحزب الأسرار، والفتوح، وورد الفيوضات .

راجع في ذلك : عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين . دار إحياء التراث ، دمشق ١٩٦١م ، ج ٢ ، ص ٢٥ وما بعدها .

يوسف إلياس سركيس : معجم المطبوعات العربية والمصرية ، القاهرة ، ١٩٢٨م ، ج ٥ ، ص ٩٤٨ وما بعدها . (المترجم)

بالرفاعية أو البطحائية ، وقد مارس تابعوه حالات غير عادية ، كانوا يأكلون أثناءها الحيات ، ويدخلون أفراناً متقدة بالنيران التي كانت تطفأ عندئذ ، ويقال أنهم فى بلادهم على الحدود يركبون الأسود ويؤدون أعمالاً غريبة مشابهة ، وهم يقيمون إحتفالات أو إجتماعات ، والتي يتجمع فيها أعداد لا حصر لها من الفقراء لإسعاد الجميع ، وقد مات الرفاعى دون أن ينجب ولكن الخلف الروحى والدينوى ^(١) استمر فى تلك المنطقة من خلال أولاد أخيه حتى يومنا هذا ^(٢) .

رغم أن أحمد لم يكن مفكراً أصلاً ، فإن شهرة رياضته الروحية ببلده انتشرت فى كل مكان ، وكانت عامل جذب للمهاجرين الصوفية وقد أسس أربعة منهم طرقاً مستقلة هى البدوية ^(*) ، والدسوقية ، والشاذلية ،

(١) أى المشيخة والولاية (المترجم) .

(٢) يذكر ابن خلكان أن أحمد الرفاعى خلفه - فى الحقيقة - ابن أخته على بن عثمان ، كما يسجل ابن خلكان أن الدراويش الرفاعية ، كانوا يحفظون قصائد الشاعر المولى ابن المعلم (ت ١١٩٦م / ٥٩٢هـ) وينشونها فى تجمعاتهم كى يثيروا فى نفوسهم حالات الوجد ، وقد حاول أحمد الرفاعى أن يؤلف الشعر الدينى ... (المؤلف) .

للشيخ الرفاعى قصيدة مطلعها :

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوق

فلا هو مقتول ، ففى القتل راحة ولا هو ممنون عليه فوطلق

راجع خير الدين الزركلى : الأعلام ١٦٩/١ وأيضاً ابن الملقن : طبقات الأولياء ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ص ٩٧ ... (المترجم) .

(*) يقصد بها المؤلف أتباع سيدى أحمد البدوى .

والعلوانية^(١) . وفى عهد ابن بطوطة كانت زوايا الرفاعى متميزة بوضوح ، وهو يشير إليها مراراً فى رحلاته ويشير كذلك إلى الممارسات الشاذة التى من أجلها ساءت سمعتهم ، وعندما استقر به المقام فى واسط عام ١٣٢٧ م لمدة ٣ أيام كتب يقول : « وقد منحنى هذه الفرصة لزيارة مقبرة الوالى أبو العباس أحمد الرفاعى وهى التى توجد فى قرية تسمى أم عبيدة ، وهى على مسيرة يوم واحد من واسط وهناك طائفة - طريقة - تضم الآلاف من الأخوة الفقراء ... وحين تنتهى صلاة العصر فإن الطبول تقرع وبدأ الأخوة الفقراء فى الرقص ، وبعد ذلك يصلون صلاة المغرب ويحضرون الطعام المكون من خبز الأرز ، السمك واللبن والبلح ، وبعد أن يتناولوا هذا العشاء ويصلون العشاء ، يدأون فى تلاوة الذكر مع الشيخ أحمد الذى يجلس على سجادة الصلاة الخاصة بسلفه السابق ذكره ، ثم يدأون فى التواشيح الملحنة ، وقد أعدما أحمالاً من الخشب الذى يقذفونه فى النار ليقذفوه ، ويدخلون وسطه راقصين ، وبعضهم يتدحرج على النار ، وآخرون يأكلونها فى أفواههم ، حتى تطفأ كلية ، هذه هى عادتهم المنتظمة وهى خاصية غريبة

(١) العلوانية هى طريقة يمنية أسسها أبو الحسن صفى الدين أحمد بن عطف بن علوان (ت ١٢٦٦م/٦٦٥هـ) والذى أخذ الطريقة عن أحمد البدوى وأحمد السياد خليفة ابن الرفاعى. (المؤلف).

الشاذية : هى من أشهر الطرق الصوفية المعروفة فى العالم الإسلامى ، وفى مصر بصورة خاصة . أسسها على بن عبد الله بن الجيار (٥٩٣-٦٥٦هـ) أصله من عمارة بالمغرب ، وكان معروفاً بالشاذلى نسبة إلى قرية بتونس أما طريقة أبى الحسن الشاذلى فيحددها بنفسه قائلاً : « لن يصل العبد إلى الله تعالى ومعه شهوة ... ولن يقتل هوى نفسه حتى يأخذها بالقوة .. فيقف عند حد الذل لله تعالى ... » راجع الصوفية فى نظر الإسلام : سميح الزين ، دار الكتاب اللبنانى ، ط. ٣ ، ١٩٨٥ م ، ص ٥٤٨ . (المترجم)

لهذا الجمع من الأخوة الرفاعية ، والبعض منهم قد يأخذ ثعباناً ضخماً
ويعض رأسه بأسنانهم حتى تخرقها .

ويذكر ابن بطوطة في مكان آخر ، جماعة الحيدري المرتبطة بالطرق
السلفية والمتمركزة في خراسان جنوب مشهد ، والمنحدرة من قطب الدين
حيدر الذين يضعون حلقات حديدية في أيديهم ورقابهم ، وأذانهم وحتى
أعضائهم الذكرية حتى لا يكونوا قادرين على الإشتراك في جماع جنسى ،
وتدريبات هؤلاء الرفاعية تبين إنتصار الروح على الجسد والهناء المؤقت أو
الإستغراق في الحقيقة المطلقة ^(١) . والدراويش الرفاعية مازالوا يعرفون
بمقاومتهم للنار ، وقدرتهم على التأثير على الثعابين ^(٢) . وقد إنتشرت
الحيدرية في إيران وسوريا والأناضول والهند حيث إرتبطت بالإتجاه
الفلاندرى الذى إنتهت إليه وإندمجت فيه ، وهناك خانقاه معروفة . هى
خانقاه أبى بكرى الطوسى الفلاندرى الواقعة على ضفاف نهر جمنا ^(٣) .

وقد إنتشرت الرفاعية في مصر خلال وكالة أبو الفتح الواسطى
(ت ١٢٣٤م / ٦٣٢ هـ) وفي سوريا خلال أبو محمد على الحريرى (ت

(١) المراد بالحقيقة المطلقة عند الصوفية المسلمين هو الذات الإلهية أو الله ، وهى تقابل اللوجوس
Logos عند الصوفية المسيحيين أو براهما عند الصوفية الهنود . راجع د. أبو الوفا التفتازانى ،
مرجع سابق ، ص ٦١ . (الترجم) .

(٢) قدم أحد الرفاعية المصريين للمؤلف إثباتاً على التأثير على الثعابين والعقارب ، وكانت هذه
المحاولة مجرد شعوذة وخداع ، كما عرض هذا الشخص أن يعلمه صيغة أو تعويذة للرفاعى
أكد أنها توفر حماية أكيدة ضد لدغة الثعبان ، كما يشير لين Lane فى كتابه المصرون
المحدثون إلى فرع فرقة السعديين الذين يأكلون الثعابين ، ولكن قد تكون هذه عملية ماثلة
(أى خداع) إذ هى مجرد إختصار أو إخفاء الثعبان داخل الفم . (المؤلف) .

(٣) نهر فى شمال الهند . راجع أحمد شلى ، أدبها الهند الكبرى ، ص ٢٧ . (الترجم) .

فى البصرة عام ١٢٤٨م / ٦٤٥ هـ) حيث عرف فرعه باسم الحرية^(١) ،
وقد كان ملاميٲا مرموقاً الذى سجنه الأشرف فى الفترة من ١٢٢٨ -
١٢٣٧م وأطلق سراحه الصالح إسماعيل بشرط أن يبتعد عن دمشق .

وقد أسس فرع آخر فى دمشق (زاوية الطالبية) بواسطة طالب الرفاعى
(ت ١٢٨٤م / ٦٨٣ هـ) وكانت الفروع السورية الأخرى هى السعدية أو
الجياوية والسيادية ، كما كانت توجد زاوية فى القدس ، وانتشرت الرفاعية
فى الأناضول بين الأتراك ، وقد نزل ابن بطوطة عدة مرات فى منشآت
الأحمدية وكان يسميها الرفاعية ، وفى زاوية واحدة زارها فى مشهد وكان
بها ٧٠ قفيرا من أصول مختلفة : عرب ، وفرس ، وأتراك ، ويونانيون ، كما
وجدت مجموعة حتى محل بجزر المالديف^(٢) .

وقد يكون صحيحاً أنه حتى القرن الخامس عشر فإن الرفاعية كانت
أكثر إنتشاراً من كل الطرق ، ولكن منذ ذلك القرن بدأت تفقد شعبيتها
لصالح القادرية التى توسعت كطريقة رغم أنها لم تبلغ إطلاقاً من الإنتساع
المدى الذى يدعيه^(٣) .

(١) من تلامذة الحريرى المشهورين : نجم الدين محمد بن إسرائيل ، عاش فى الفترة (من ٦٠٣
إلى ٦٧٧ هـ) وقد تلقى خرقته من شهاب الدين السهروردى وحماد الجوالقى ، وهو فارسى
الأصل ، أقام زاوية فى أطراف القاهرة ، ثم رحل إلى زاوية الحريرى فى دمشق ومات هناك
عام ٦٧٧ هـ . (المؤلف) .

(٢) محل Mahal إحدى جزر المالديف بالمحيط الهندى والتى سكنها بعض العرب مايزالون فيها مع
جنسيات أخرى . (المترجم) .

(٣) أود أن أنقل هنا تلك المناظرة العلنية التى استعد لها ابن تيمية مع الرفاعية لإبطال حيلهم حيث
يقول : « قلت للأخير : أنا ما امتنحت هؤلاء لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها
النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرّون على ذلك ، ويقولون لنا : هذه الأحوال التى يعجز عنها أهل
الشرع فليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يسلم إلينا ما نحن عليه سواء وافق الشرع أو =

ج : القادرية (*) :

من الصعب أن نخترق ضباب الأسطورة التي تكونت حتى أثناء حياة عبد القادر بن أبي صالح ، وترسخت بسرعة بعد موته ، وتبين لماذا هو من بين مئات شخصيات الأولياء بهذه الفترة قد بقي بطريقة فريدة ليصبح ملهماً للملايين ، والمستقبل للتوسلات الدينية والواجب للخبرات حتى يومنا هذا ، فالأعداد الغفيرة منحة قداسة أثارت السلفيين ، وإن كان هو نفسه حنبلياً متشديداً ، ولم يتم مطلقاً بمثل هذه الإدعاءات وقد اعتبر واعظاً عظيماً ، ولكن سمعته كانت نابعة بالتأكيد من محتوى مواعظه ، أما بالنسبة

== خالفه ، وأنا قد استخرت الله سبحانه وتعالى أنهم أن دخلوا النار أدخل أنا وهم ، ومن احترق منا ومنهم فعليه لمة الله ، وكان مغلوباً ، وذلك بعد أن نفسل جسامنا بالخل ، والماء الحار ، فقال الأمير : ولم ذاك ؟ قلت لأنهم يطلون جسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النازج ، وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم وأنا لا أظلى جلدى بشئ ، فإذا إغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق ... راجع : ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ١٤٤١/١ - ١٥٥ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٩ هـ . وعليه يمكن القول أن الرفاعية من أكثر الفرق التي ادعى أتباعها قدرتهم على إثبات أعمال خارقة كالتي ذكرها المؤلف من أكل الحيات حية ، والنزول إلى التنانير وهي تضرم ناراً ، والدخول إلى الأفران وبنام الواحد منهم إلى جانب القرن ، والخباز يخبز في الجانب الآخر ، وتوقد لهم النار العظيمة ويقام السماع غير مضمون عليها إلى أن تنطفئ النار .

راجع في ذلك : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد ، ٢٥٩/٤ - ٢٦١.

(المترجم)

(*) نسبة للشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلي (الجيلاني) الحسني (٤٧٠ هـ -

١٥٦١ م) (المترجم) .

لسمعته الصوفية فلا يوجد أقل دليل على أنه كان صوفياً بالمرّة (*) أو أنه ذكر أى إتجاه جديد ويبدو أن سمعته فى إستقامته قد إستخدمها للإشتراك فى الإستبصارات والممارسات الخاصة بالصوفية .

ولد عبد القادر فى حلان حيث كان المذهب الحنفى قوياً عام (١٠٧٧م / ٤٧٠ هـ) وأتى إلى بغداد عام ٤٨٨ هـ وإنهمك فى دراسة شرعية وفقاً للتدريب الحنبلى رافضاً الدراسة فى المدرسة النظامية حيث كان أحمد الغزالي الصوفى ، قد خلف أخاه أبا حامد وقد إستقبل الخرقه لأول منصب على يدى الفقيه الحنبلى أبو سعد على المحزمى بأمر القادر ، ولكن لا يوجد دلالة على أنه تلقى أى تدريب صوفى حتى حضوره إلى مدرسة أبو الخير حماد الدباسى (ت ١١٣١م / ٥٢٥ هـ) مع علم رضاء تلامذة الدباسى الآخرين الذين كرهوا تدخل هذا الحنبلى .

وبعد هذا يبدو أنه قضى حوالى ٢٥ سنة كزاهد متجول فى صحراء العراق ، وفى عام (١١٢٧م / ٥٢١ هـ) فقط حينما تخطى سن الخمسين من العمر اشتهر فجأة كواعظ شعبى فى بغداد ومنذ ذلك التاريخ تمت شهرته ، ولكن كواعظ حنبلى وليس صوفياً وقد ارتدى ملابسه مثل العالم وليس مثل الصوفى ، واتخذ مقراً له مدرسة ملحقة برباط ، وكذلك لأسرته الكبيرة وتلاميذه وقد بنيت خصيصاً له (٥٢٨ هـ) ، ولكن لا يوجد دليل على أنه ادعى أنه له طريقة أو أرشد أى واحد أو لقن أى فرد ، ولم ينسب أحد من الصوفية نفسه إليه ، ولكن لرجال أحمد الغزالي وأبو نجيب

(*) أخالف المؤلف فى هذه العبارة حيث أنه وضع خلاصة فكره الصوفى فى كتابه المسمى «الفتح الربانى والفيض الرحمانى» ، وقد طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ١٩٦٠م (المترجم)

السهروردى وأبو يوسف الحمدانى ، وقد كتب الواسطى مشهوراً أثناء حياته بمواعظه ومناهجه فى التعاليم الدينية . ولكنه لم يكن فى أى وقت إطلاقاً قد أعطى خرقه التصوف على كل حال فبعد موته وبمرور الوقت فقد أعطيت خرقته إلى أناس معينين ، ثم نمت خلال بركته وتوسعت فى الأراضى العالية والمنخفضة ... وولد أن الوجدان من أبنائه الذين لم يتابعوا المنهج الدنيوى كان عبد الرازق (٥٢٨ - ٦٠٣هـ) وعبد العزيز (ت ٦٠٢هـ) هذان الشيخان بدأوا العمل على نشر طريقة والدهم بكل إخلاص وضبط نفس وتواضع ، وفى هذه الحركة كان يساعدهم مجموعات معينة ممن تبعوا والدهم والذين كانوا متعاطفين طالبين رضوان الله .

ولأن من المشكوك فيه أن سلسلة عبد القادر تتجسد فى خطوط أخرى غير قادرية مثل إنتساباتهم فى السلسبيل السنوسى ، فالفرقة المنسوبة إليه قدمت القليل من الصوفية المشهورين أو الأعمال الصوفية كالأوراد ، والتدريس ، والمادة الأخرى التى وجدت فى الكتيبات القادرية والتى كانت تعار كثيراً . أما أتباعه الآخرين فقد نسبوا إليه خطأ من التدريس السرى الذى لم يتمكن من تدريسه .

والمريد القادرى قد ينسب إلى شيخه المعجزات التى يقوم بها الفيوضات التى جربها فى حالة الجذب ، وهى أشياء مثل الإنسياق الدينى المشوقة المسماة الغريبية والمعرجية .

وطبقاً لرواية الشطانونى فقد قام تلاميذ عبد القادر بتدريس مذهبه فى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى مثل : على الحداد فى اليمن ، ومحمد

البيطاني في سوريا ، ومحمد بن عبد الصمد في مصر وهذا ليس ممثلاً حيث لم يترك عبد القادر أى مذهب وحتى كتاب البهجة ^(١) ، كما يبين مارجليوث ^(٢) لم يؤيد الإدعاء بأن أبنائه قد نشروا أو نحواً طريقته خلال العالم الإسلامى . ورغم أن مراكز القادرية تواجدت في العراق وسوريا عام ١٣٠٠ م فإن هذا لا يدل على أنها إنتشرت على نطاق واسع أو بسرعة قبل القرن الخامس عشر ^(٣) .

ومع مرور الوقت تكونت مجموعة من القواعد والدروس والممارسات ، وبدأ بعض الشيوخ في تعليم تلاميذهم باسمه لأن شهرته كسلف وسيط قد إنتشرت . وفي العراق ظلت القادرية طائفة بغدادية محلية تتمركز على مسجد ضريحه الذى أصابته التهدمات عدة مرات حتى استعادت الحاشية العثمانية النفوذ المحلى للأسرة ، وقد إكتسبت نفوذاً عظيماً في فترة لاحقة بين الأكراد .

ورغم أن عبد القادر قد أصبح أكثر الألياء الشعبية شهرة والذى أنشئت من أجله أضرحة عديدة ، فيجب أن نؤكد أن الطريقة القادرية لم

(١) يقصد كتابه بهجة الأسرار ومعدن الأنوار كما يشير المؤلف في هامشه . (المترجم) .

(٢) راجع Margalioth : Encyclopedia of Islam, Leiden, 1953, Art Elrefaei

(المترجم)

(٣) لم يكن للقادرية زاوية في تونس إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن على بن عمر الشاذلي في أول القرن الثاني عشر للهجرة ، وقد تلقى الطريقة القادرية في الحجاز على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان ، فشرع في بناء زاوية في تونس إلا أنه توفي قبل إتمامها ، فأخذ أمرها الأمير حمودة المتولى ، ثم أسس محمد الميزوني المغربي فأسس زاوية بالكاف في تونس ، إلا أن هذه الزاوية مشكوكاً في إخلاصها للطريقة إذ قيل بأن صاحبها أسسها لتنفيذ أغراض سياسية وعسكرية ظهرت مع هجوم الجيش الفرنسي على تونس عام ١٨٨١ م . راجع أضواء على التصوف . لطلعت غنام (المترجم) .

تصبح شعبية مطلقاً ، وأن إنتشارها كطريقة يرتبط بمرحلة الطائفة التي سنتناولها فى الفصل التالى ؛ ولكن قد يكون من المفيد هنا ذكر هذه الإشارات من قاموا بتنمية ونشر الطريقة القادرية .

كان تأسيس أول زاوية قادرية فى دمشق فى مستهل القرن الخامس عشر كما ذكرنا ، أما فى مصر فلم تكن القادرية نطاقاً شعبياً على الإطلاق وفى الهند لم تصبح نظاماً مستقراً حتى وصول محمد غوث (ت ١٥١٧م) الذى ادعى أنه من نسل عبد القادر ، وحتى رغم هذا فقد ظلت محلية ، ولم تضمن مؤلف عين الأخيار^(١) عندما كتب حوالى ١٦٠٠م هذه كطريقة بين الفرق الموجودة فى الهند ؛ وحوالى ١٥٥٠م فقد أدخلت الطريقة من الحجاز إلى بلاد النهرين بواسطة تاج الدين البخارى البغدادى .

وأثناء التوسع التركى فى آسيا الصغرى ، لا يوجد دليل على أن القادرية كخط مميز قد وجدت بين الأعداد الغفيرة من الدراويش الذين ينحتون مكانهم اللائق للتعبير داخل السلطة الدينية فى هذه المنطقة ، وقد أدخلت هذه الفرقة بأى طراز مميز فى أسطنبول خلال المبادرة النشطة لإسماعيل الرومى (ت ١٦٣١م - ١٠٤١هـ) أو (١٦٣٤م - ١٠٤٣هـ) الذى أسس خانقاه^(٢) فى طوب خانة . وقد سمى الشيخ الثانى بمعنى أنه أول من أدخلها . فالشيخ الأول بالطبع كان عبد القادر ، ويقال أنه أسس ٤٠ أو ٤٨ تكية فى المنطقة .

(١) مؤلف هذا الكتاب هو أبو الفضل العلامى .

(٢) الخانقاه : كلمة فارسية معناها البيت . وقد حرص السلطان صلاح الدين على تدعيم الحركة الصوفية لما كانت تمثله من نزعة روحية ، فأقام أول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية فى مصر وهى الخانقاه التى أطلق عليها اسم سعيد السعداء . راجع عبد الرحمن بدوى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ص ١٤٤ . (المترجم) .

٢ - مصر والمغرب :

تكون مصر والمغرب منطقة خاصة ، حيث أن معظم الفرق كونت في هذه المناطق ، في المرحلة اللاحقة بدرجة كبيرة ، ومنها مرت الفرق بتطور فريد بالمغرب ، فلم تنتشر كثيراً إلى ما وراء حدودها ، أو على الأقل خارج أفريقيا ، بالإضافة إلى أن الصوفية بهذه المنطقة قد أسهموا بالقليل أثناء الفترة التكوينية لعقائد ومنهج التصوف .

وقد كان عدد من الصوفية المرموقين من المصريين على الأقل بالتبني مثل : ذو النون المصري ^(١) (ت ٨٦٠ هـ) والذي أتى والده من القطاع النوبي ، والشاعر العربي الكبير عمر بن الفارض ^(٢) (ت ١٢٣٤ هـ) من أبوين سوريين ولكنه ولد وعاش بمصر ، والبوصيري (ت ١٢٩٦ هـ) وحصولهم نتيجة تأثيره على التقوى الشعبية ، ورغم أن مدارس قليلة للاستبصار الصوفي نشأت في مصر فإن المدن امتلأت بالخانقاوات التي استقبلت الصوفية من الشرق والغرب مع ذلك فتلك الخانقاوات كانت حضرية ومعاهد تعليمية ، وكان لها تأثير قليل على الحياة الروحية للفلاحين.

(١) ذو النون (سبق ترجمته).

(٢) هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي ، ويعرف بابن الفارض ، وينعت بشرف الدين ، ويلقب بسلطان العاشقين وإمام المحبين وأمير أهل الهوى ، يجمع المؤرخون والمترجمون على أن ابن الفارض حموى الأصل مصرى المولد والدار والوفاة ، ويذكر أيضاً أنه سمدى النسب وأن والده قدم من حماة إلى مصر ففعلنها . ولد في الرابع من ذي القعدة سنة خمس مائة وست وسبعين هجرية وكانت وفاته سنة ستمائة وإثنين وللاثين هجرية .
راجع : محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض سلطان العاشقين ، أعلام العرب ، العدد ١٥ ، ص ٩ . (المترجم) .

وقد أصبحت مصر هي المحل المختار للشاذلية ، وهي المركز الرئيسي الذي انتشرت فيه تعاليمه ، ليصبح في النهاية أحد الطرق الكبيرة ، وكان إثنان مصريان من مؤسسي الطرق اللذان عاشت فرقتهما هما أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي . وكان أحمد البدوي ^(١) ولد (١١٩٩م - ٥٩٦هـ) مصرياً بالتبني لأنه كان ينتمي إلى عائلة عربية هاجرت إلى فاس ^(٢) . ثم عادت إلى الحجاز وكان أصلاً رفاعياً ، تلقى تدريسه في مركز البطائح بالعراق ، وعند موت أبو الفتح الواسطي (١٢٤٣م) خليفة أحمد الرفاعي المرشد السابق للشاذلية والممثل للرفاعية في مصر منذ (٦٢٠هـ) فإن الأخوة العراقيين أرسلوا أحمد ليحل محله ^(٣) . وقد استقر في طنطا ، واكتسب شهرة كبيرة ، ومنح سلطة دينية ليؤسس طريفته هو ، وقد مات عام (١٢٧٦م/٦٧٥هـ) وأصبح ضريحه في طنطا أكثر الأضرحة شهرة ، ومكان للزيارة بمصر .

(١) هو أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي المعروف بأحمد البدوي ، ولد سنة ٥١٦ هـ بفاس بالمغرب ، وتوفي بطنطا في سنة ٦٧٥ هـ ، وكان من كثرة ما يتلقب بالبدوي .

(٢) فاس : مدينة بجنوب المغرب ، اشتهرت - كمركز تجاري وثقافي في القرن الرابع عشر ، ومازالت تحتفظ أهميتها في العالم الإسلامي ، بها مسجد القيروان الذي أطلق اسمه على جامعة شهيرة الآن ، ويعتبر أقدم مساجد أفريقيا بنى عام ٨٥٩ م .

(المترجم)

(٣) تلقى أحمد الرفاعي نسبه (البدوي) أو لقبه هذا لأنه عند وصوله إلى مصر كان يرتدى الملابس العربية (البدوية) وقد أطلق عليه بعد ذلك لقب المثلث ولكن من غير المحتمل أنه كان من البربر، ويذكر الشعراني أنه كان يرتدى لثامين منذ طفولته ، وهي عادة عربية شرقية. (المؤلف)

وكانت فرقته المعروفة بالأحمدية - ولكن من الأفضل الإشارة إليها باسم البدوية (*) - لتجنب الخلط بينها وبين الفرق الأخرى تحت نفس الاسم. وقد تفرع منها عدد من الفروع ليست قاصرة على مصر حيث انتشرت في الحجاز وسوريا وتركيا وطرابلس وتونس .

وكان إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي عاش بين (١٢٤٦م/٦٤٤هـ إلى ١٢٨٨م/٦٨٧هـ) فلم يكن صوفياً تابِعاً لخانقاه ، ولكنه أتى من تربة ضفاف النيل ، إذ ولد في قرية لعائلة طيبة وارثه للبركة ، ولكنه استمد بركته من قرية أخرى كان مرتبطاً بها . والرؤية الهامة التي يوردها الشعراني في كتابه الطبقات الكبرى ، تتكون أساساً من مجموعة إقتباسات أو مقتطفات من كتاب ألفه الدسوقي عنوانه « الجواهر » وهو عبارة عن مجموعة من الإرشادات أو التعليمات للمريدين . والمعروف عن حياته قليل ومن الواضح أنه بدأ في سلاسل السهروردية الرفاعية والبدوية ثم تلقى الإذن لكي يؤسس طريفته المستقلة ، والتي عرفت بالإبراهيمية حتى القرن التاسع . عندما بدأ أتباعه يسمون أنفسهم الدسوقيين ، وكانت معروفة أيضاً بالبرهانية من لقبه (برهان الدين) ومثل البدوية فإنها إنقسمت إلى جماعات مستقلة وانتشرت خارج مصر إلى سوريا والحجاز واليمن وحضرموت .

(*) الواقع أن الشعراني لم يقل ذلك : أي كان يرتدى لثامين منذ طفولته ... وهي عادة عربية شرقية وإنما قال : (قال الشريف حسن فأقمت أنا وإخوتي ، وكان أحمد أصغرنا سناً ، وأشجعنا قلباً ، كان من كثرة ما يثلثم فلقبناه بالبدوي ، فأقر أنه القرآن في الكتب مع ولدي حسين ، ولم يكن في فرسان مكة أشجع منه ، وكانوا يسمونه في مكة العطاب ... أنظر عبد الوهاب الشعراني : لواقع الأنوار في طبقات الأخيار ، ص ٤٢٢ .

(المترجم)

وقد كان التصوف بطيء الإنتشار فى المغرب ^(١) ولكن رغم القيود الرسمية والمالكية التى أدت إلى إنتشار الفتوة بإدانة ومنع أعمال الغزالي فإنها إكتسبت قدماً راسخاً أثناء فترة حكم المرابطين (١٠٥٦ - ١١٢٧) بل لقد إزدهرت تحت الموحدين (١١٣٠ - ١١٦٩) .

ففى أسبانيا رغم وجود إزدهار مؤقت ارتبط بابن مسرة ^(٢) وعاش فى الفترة من (٨٣٣ - ٩٣١م) وتلاميذه فإن التصوف لم يزدهر بصورة علنية فى جو عدم التسامح والشك الذى ساد هناك ، وكان الصوفية المرموقين فى هذا العصر هم : السنهاجى أبو العباس أحمد ، المعروف بابن العريف (١٠٨٨ - ١١٤١م) والذى أثبت تابعه أبو القاسم بن قصى ، كيف أن القوى الروحية يمكنها بسهولة أن تلهم القوة الدنيوية . أخضع أجزاء كبيرة

(١) لا أوافق المؤلف على هذه العبارة فمن المعلوم أن التصوف انتشر بسرعة فى شمال أفريقيا بل أن بلدان فى أفريقيا لم يدخلها الإسلام بهيئته بل دخلها الدعاة بأفكارهم وقد كان معظم الدعاة من أتباع الطرق الصوفية وخاصة الشاذلية والقادرية التى ساهمت مساهمة فعالة فى نشر الإسلام فى كل من السنغال ومالى والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد . ولقد كان قرب المغرب العربى للأندلس وأوروبا جعل أهل المغرب أكثر إحساساً بالخطر ، وبالتالي أكثر حماسة ورغبة فى العودة إلى الله ، فقامت دولة المرابطين التى تحملت عبء المواجهة العسكرية ثم أصبحت خط الدفاع الثانى بعد إنهيار الأندلس فكان المرابطون ينتظمون فى فرق تجمع بين الجهاد والتصوف ، ولكن بمرور الزمن فقدت طبيعتها الحربية وبقيت لها طبيعتها الروحية ممثلة فى الطرق الصوفية .

راجع الصوفية فى نظر الإسلام : سميح زين ، مرجع سابق ، ص ٥٤٢ . (المترجم).

(٢) ابن مسرة (٨٨٣ - ٩٣١م) ولد فى قرطبة بالأندلس ومات بها ، كان فيلسوفاً متصوفاً اشتهر بمؤلفيه كتاب التبصرة وكتاب الحروف ، ويقوم مذهبه على فلسفة أميادوقليس .
راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة (المترجم) .

من منطقة الجرف (جنوبى البرتغال) قبل أن يقتل فى (١١٥١م/٥٤٦هـ). وقد كان الصوفى الأعظم الذى أتى من أسبانيا هو ابن عربى^(١) ولكنه كان من أصل عربى وشخصية عالمية ، والذى فرضت المالكية الحرفية^(٢) ضد نظرياته بنجاح فى معظم الأحوال - حاجزاً من الإدانة والإتهام .

وبالنسبة للتأثير المستمر وعلاقته بتطور الطريقة اللاحق فإن أعظم الصوفية الأوائل كان أبو مدين شعيب بن الحسين (من ١١٢٦ إلى ١١٩٨م) والذى ولد فى سفلىا ، وانتقل وهو لا يزال شاباً إلى فاس ، حيث جذب لاتباع الطريقة الصوفية ، وتلقى بداياته على يد محمد الدقاق ، وأبى العزة (ت ١١٧٦م) وكان الأخير بربرياً خالصاً لا يتكلم العربية ، وقد سافر حاجباً ، ثم ارتحل إلى العراق حيث قابل أحمد الرفاعى وقامت بينهما روابط من الأخوة والإرتباط الفائق الغير عادى ، وعند عودته استقر فى يينايا ، وقد أثار تعليمه وسمعته حسد ومعارضة علماء الموحدين واستدعى للعاصمة المغربية مراكش ليقدّم بياناً عن نفسه ، وتوفى وهو فى طريقه بقرية العباد والتى يفترض أنها مركز الزهاد قرب تلمسان رغم أن طريقة مدينية تنسب إليه ، وأنه كان شيخ الصوفية فى القرن الثانى عشر بالعالم الإسلامى فى المغرب ، فإن قليل من الطوائف الدينية ظهرت للوجود ، وهناك من الأبناء والأحفاد الروحيين لأبى مدين ذهبوا إلى مصر واكتسبوا شهرة فائقة هناك كان من بينهم أبو الحجاج يوسف - وهو ضابط جمارك سابق ، أسس

(١) فى الأصل ابن العربى والمصحيح ما ألبتاه (المترجم).

(٢) المقصود بالمالكية الحرفية هم أتباع مذهب الإمام مالك الذين يتمسكون بحرفية النصوص سواء من الكتاب أو السنة . (المترجم) .

زاوية فى الأقصر فى أطلال معبد آمون حيث مات (١٢٤٤م - ٦٤٢هـ) والذى أصبح مولده أكثر الموالد شهرة فى مصر العليا ، وشيخ آخر كان أستاذاً لأبى الحجاج وهو عبد الرازق الجازولى ، الذى ذهب ليعيش فى زاوية نسبت إلى ذى النون فى أخميم ، وبعد ذلك ذهب إلى الإسكندرية حيث دفن ، ومن الصوفية الغربيين الذين وجدوا داراً روحية ملازمة فى الشرق «ابن عربى» (ت فى دمشق ١٢٤٠م / ٦٣٨ هـ) وابن سبعين^(*) (ت فى مكة ١٢٧٠م / ٦٦٩ هـ) وتلميذا هذا الأخير الشاعر الشوشترارى (ت قرب دمياط ١٢٦٩م / ٦٦٨ هـ) المدينى بحكم النسب الصوفى والذى كتب موشحات قصيرة (قصائد) والتي استمرت لكى تكون شعبية فى الحضرة الشاذلية حتى اليوم .

وفى القدس توجد زاوية أسسها حفيد لأبى مدين وتقع قرب السلسلة للحرم الشريف^(١) والذى لازال موجوداً حتى الآن .

كانت طريقة أبو مدين قد استمرت خلال تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت ١٢٢٨م / ٦٢٥ هـ) ، وأشهر تلاميذ هذا الأخير أبو الحسن على الشاذلى الذى سميت طريقته الشاذلية ، وقد أصبحت أكثر أهمية فى شمال أفريقيا من مراكش حتى مصر وبدأت فى إكتساب أتباع فى سوريا والجزيرة العربية .

ولد أبو الحسن فى قرية الغمارة فى أقصى الغرب عام (١١٩٦م / ٥٩٣ هـ) وتلقى أول فرقته من أبو عبد الله محمد بن حرازيم

(١) يقصد المسجد الأقصى بالقدس ، أما وصف الحرم الشريف فنحن لا نطلقه إلا على الحرم المكى أو النبوى . (المترجم).

(ت ١٢٣٦م/٦٣٣هـ) وهو تلميذ أبي مدين ، وقد ذهب شرقاً عام (٦١٥هـ) حيث انضم إلى المدرسة الرفاعية ، وقبل أبو الفتح الواسطي كشيخ له (٦١٨هـ) وأصبح مهموماً بالبحث عن قطب ^(١) العالم أو الكون، وقد أخبره أبو الفتح أن يعود إلى الغرب حيث سيجده ، وقد عاد في النهاية ووجده في عبد السلام ابن حشيش في فاس الذي أعده للولاية، وبعد ذلك ونتيجة لتصيحة عبد السلام ، فقد غادر مراكش للذهاب أو الدخول في رياضة روحية ومجاهدة في كهف قرب قرية أفريقيا تسمى شاذلية حيث اشتقت نسبته ، وكان يخرج للوعظ من حين لآخر في جولات تعليمية، الأمر الذي أثار عداوة العلماء التونسيين . بل ازداد الإضطهاد سوءاً لدرجة أنه - رغم تأييد السلطان أبو زكريا الحفص - اضطر الشاذلي إلى اللجوء إلى مصر حيث كسب أو حقق شهرة عظيمة ، ليس فقط بين الطبقات الشعبية، بل من المدهش أن كانت هذه الشهرة بين العلماء أيضاً. قد اعتاد للحج كل سنة وتوفي في حميثرا على ساحل البحر الأحمر في طريق عودته من إحدى حجاته في (١٢٥٨م/٦٥٦هـ) .

لقد قلنا أنه من غير الممكن عادة أن نغوص في ضباب الأسطورة الدينية أي حقيقة الرجال المتوارين في الأعماق ، فالقليل من خطابات أبو الحسن قد بقيت توضح أن كان شيخاً ذا إنسانية كبيرة ، ومرشداً للحجاج ، وكما أن تكريسه الشخصي للعبادة لم يضعف إهتمامه برفاهية أتباعه ، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإنها (أي هذه الخطابات) تمكننا من إدراك

(١) مصطلح القطب عند الصوفية وفي الفكر الفلسفي الصوفي الإسلامي من الموضوعات الخلافية وستناوله المؤلف في الفصل الخامس الفلسفة الصوفية الإلهية للفرق : ولنا عليه تعليق هناك.
(المترجم)

كيف أن شيوخ الطرق الآخرين كانوا قادرين على أن يصبحوا ملهمين للأنظمة القائمة ، وهذه المراسلات ليست متاحة ولكن هنا شهادة ودليل على قيمتها من بـ « نوييا » Nwyia ، توضح هذه الرسائل ليس فقط أن الشاذلي كان له معرفة عميقة بالتعاليم الصوفية للأساتذة الشرقيين ، ولكن له أيضاً خبرة شخصية بالحقائق الروحية ، فإذا كان الشاذلي يعرف كيف يلهم أتباعه ، فليس إلى حد أن درس لهم تصوفاً بسيطاً مثلما أنه كانت لديه قدرات القائد الروحي ، كما توضح خطاباته ، ومن المؤكد أنه لم يكون نظاماً فكرياً ، ولكنه كان له كفاءات من الإدراك الروحي ، وعرف كيف يستخرج من تجاربه الشخصية ما كان ذا قيمة للآخرين .

لم يلقن أبو الحسن كشيخ زاهد سائح^(١) تلاميذه أية قواعد أو شعائر خاصة ، ولكن تعليمه حافظ عليه أتباعه ، وأحد هؤلاء الأتباع بصفة خاصة وهو أبو العباس المرسى^(*) (من ١٢١٩م/٦١٦هـ إلى ١٢٨٧م/٦٨٦هـ)

(١) السباحة والأسفار عند الصوفية هي نوع من المجاهدة ، يلجأ إليها الكثير منهم فمسبحون في أماكن نائية بعيدة عن الناس والممران حتى تم لهم صحة الخلوة ، فإذا لم يتحقق لهم في مكان ما شدوا رحالهم إلى مكان آخر - وهي في الأصل عادة قديمة إعتادها الذوق العربي قبل الإسلام ولم ينكرها الذوق الإسلامي ، بل أن بعض الباحثين يردون هذه الرياضة أو المجاهدة إلى تاريخ الأنبياء أنفسهم مثل إبراهيم وموسى عليهما السلام ، بل أيضاً هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام يعتبرها بعض الصوفية نوعاً من السباحة .

راجع : الإمام القشيري ، سيرته ومذهبه في التصوف : إبراهيم بسيوني ، ط مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٢م (المترجم) .

(*) هو أحمد بن عمر بن محمد الأندلسي المرسى ، الأنصاري ، قال ابن الملقن الشيخ العارف الكبير ، نزيل الأسكندرية ، صاحب الشاذلي وصحبه تاج الدين بن عطاء الله والشيخ ياقوت مات سنة ٦٨٦هـ ، وكان كثيراً ما يتشد :

يا عمرو ناد عبد زهراء يعرفه السامع والنائي لا تدعني إلا نيا عيدها فإنه أشرف أسمائي

راجع طبقات الأولياء لابن الملقن . مصدر سابق ، ص ٤١٨ (المترجم) .

الأندلسي الأصل الذى إنضم إلى حلقة بالأسكندرية ، كان يعتبر كخليفة له ، وقد بنى من أجله رباطاً مع المسجد . ووجد أية طريقة شاذلية إنما ترجع تماماً إلى المرسى وخليفته تاج الدين ابن عطاء الله عباس (*) (ت فى القاهرة ١٣٠٩م / ٧٠٩هـ) الذى كتب عن سيرة حياة وأقوال كل من أبى الحسن وأبو العباس وجمع أورادهما ، وقد حافظ التلاميذ على الطريقة الشاذلية زوايا متناثرة مع إتصال قليل ببعضهم البعض . أما فى أفريقيا فقد حُفظ اسمه حياً بواسطة مجموعة صغيرة من التلاميذ الذين كان يتبادل معهم أبو الحسن المراسلات بعد إجباره على مغادرة البلاد (١) .

وكانت الوفائية إحدى الفروع المصرية أسسها شمس الدين محمد بن أحمد وفا (١٣٠٩م / ٧٠١هـ - ١٣٥٩م / ٧٦٠هـ) والذى كان اسم ابنه على (١٣٥٧م / ٧٦١هـ - ١٤٠٤م / ٨٠٧هـ) أحد أعظم الأسماء فى الصوفية المصرية وقد انتشرت الوفائية فى سوريا وعاشت فى مصر فى القرن الحالى .

وخلال دورة أو إنتشار أعمال ابن عطاء الله بدأت الطريقة الشاذلية فى الإنتشار فى المغرب الذى رفضت الشيخ ، ولكنها ظلت تراثاً فردياً .

(*) هو ابن عطاء الله السكندري المعروف صاحب « الحكم العطائية » حققها الدكتور عبد الحليم محمود ، وكذلك التنوير فى إسقاط التدبير الذى طبع عام ١٩٧١م ، طبعة محققه بالقاهرة ، كما أنه كان محور دراسة قيمة للمرحوم الأستاذ الدكتور / أبو الوفا التفتازانى .

(المترجم)

(١) وقد كتب إثنان من هؤلاء التلاميذ سيرة مختصرة لشيخهما الشاذلى تتضمن بعض حكاياته : الأول هو : محمد بن الصباغ وكتابه بعنوان درة الأبرار وحقفة الأنوار . والثانى هو عبد النور العمرانى وكتابه بعنوان فى مناقب أبو الحسن الشاذلى (المؤلف) .

ملا ميٲا^(١) فى الغالب . رغم عدم إستعمال اسمه هكذا فى ذلك الحين ، واضعة تركيزاً كبيراً على إثراء الحياة الداخلية ، ولم يرتدى الشاذليون أية عادة ، ولم تشجع أية صيغة شعبية من الزهد ، وبات واضحاً أن الفقر لا يعنى حياة التسول أو الإنسحاب التام من الحياة العادية ، بل هو - بالأحرى - مصطلح يشير إلى الحياة الداخلية ، وقد أوضح هذا للإشارة إلى التناقض مع الحركة الشاذلية خلال القرن الخامس عشر ، والتي يرجع إنتشار سلسلة أبى الحسن إلى حد كبير ، وهى حركة زاهدة تأثرت بها كل عائلة فى المغرب .

والفترة الأولى من حكم المرينيين بمراكش (فترة حكم كاملة من ١١٩٥-١٤٧٠م) والحفصية المبكرة بأفريقيا (من ١٢٢٨ - ١٢٥٤م) كانت هامة لازدهار التصوف الغربى فمثل السلاجقة فى الشرق ، فإن المرينيين والحفصيين صاحبهما تأسيس المدارس باحتضان شيوخ الصوفية وزواياهم ، فأبو الحسن الماربانى بعد إستيلائه على تلمسان (١٣٣٧م) احتضن وأيد بناء مؤسسة كبيرة حول ضريح أبى مدين عن طريق بناء مسجد ومدرسة وحمامات شعبية ، وأبنية ملحقة ، وبهذا فإن الفقه والتصوف أصبحا رفيقين يتحمل كل منهما الآخر . فالتصوف فى المغرب ، كما هو فى السودان النيلية ، قد أصبح مادة للدراسة المنتظمة المتوافقة مع إكتساب العلوم القانونية (الشريعة) وهذا تناقض مع علاقة هذين الفرعين فى الشرق الأدنى العربى عموماً ، حيث كان التصوف الكلاسيكى^(٢) فقط هو المحتمل أو المقبول .

(١) الملامبة فرقة صوفية لها خصائصها المميزة وسيأتى الحديث عنها بعد ذلك فى سياق الكتاب وفى تعليقات المترجم .

(٢) المقصود بالتصوف الكلاسيكى هو التصوف السنى البعيد عن الشطحات أو الإغراق فى النواحي الفلسفية الإلهية كالإتحاد والحلول والولاية وغير ذلك . (المترجم) .

من الواضح أن التقليد المدينى الأساسى المستمر حفظ فى المغرب متميزاً تماماً من الشاذلية ، والتي كانت حينذاك مصرية أكثر منها مغربية ، ومعروفة فقط فى تونس ، وانتشرت ببطء فقط نحو الغرب ولم تصبح شعبية إلى أن جاءت إنتعاشة القرن الخامس عشر .

والواسطى ^(١) فى كتابته بالعراق حوالى ١٣٢٠م يطلق على التراث المدينى اسم التلمسانية . أما الزوايا المرتبطة بها فقد قدمت النذور التى بدأت منها الحركة الشعبية .

ويذكر ابن قنفذ فى كتابه « أنس الفقير » الذى وضعه عام ١٣٨٥م والذى يعنى فيه أساساً بحياة أبو مدين يذكر ستة طوائف فى مراكز الغربية هى الماجيريون نسبة إلى محمد صالح بن سعيد الماجيرى (عاش فى الفترة من ١٥٥٠م/ ٥٥٠هـ إلى ١٢٣٤م/ ٦٣١هـ) وهو تلميذ لأبى مدين والذى قضى عشرين سنة بالأسكندرية ، وعند عودته إلى مراكز وجد أن الرابطة فى أضفى ، كشفت حركة الحجاج للأراضى المقدسة ، وقد كتب « تلقين الورد » وقد عانى الكثير من عداوة الفقهاء ، وفى نهاية القرن السابع عشر كان نظامه فى حالة إرتباك ، وقد كتب أحد أحفاده أحمد بن إبراهيم الماجيرى سيرة حياة جده سماها المنهاج الواضح . كى يرى اسم الشيخ من تهمة البدعة التى ألصقها به المتعصبون المالكيون ، وكذلك لسرد كراماته أو مظاهر فضل الله عليه .

(١) الواسطى : هو تاج الدين عبد الرحمن الواسطى ، مؤرخ معروف بكتابه « ترياق المحبين فى طبقات خرقات المشايخ العارفين » . والكتاب نشر بالقاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ، وهى الطبعة التى يرجع إليها المؤلف كثيراً . (المترجم) .

أما الجماعات المجاورة من البربر فقد شملت الشعبيين المنتسبون إلى
أبي شعيب أيوب بن سعيد وهو ولي معتق من أزميز (ت ١١٦٥ م) وأحد
مشايخ لأبي يغزى ، والحاجيون نسبة إلى زكريا يحيى الحاجي ، والغاماتيون
(أو الأغماتية) أو الحزميرية نسبة إلى زيد عبد الرحمن الحازميري
(ت ١٣٠٧ م) ومجموعة بينى أمغار معروفة باسم السنهاجيون تركزت حول
رباط بنى حوالى ١١٤٠ م ، وجماعة الحجاج التى كانت عضويتها قاصرة
على أولئك الذين أدوا فريضة الحج .

٣ - المناطق الإيرانية والتركية والهندية :

فى العالم الإيرانى مزج الصوفية تراثى الدين الداخلى (القلبى) والذين ارتبطا - فىما بعد - باسم الجنيد (الصوفى العراقى) من ناحية والمرتبطة بأبى يزيد البسطامى (الملامتى الخراسانى) وقد قال الصوفية الإيرانيون للتعبير عن فردية أشد وبالتالى ففى هذه المنطقة انعكست مثل هذه الإتجاهات فى الفرق المتأخرة ، فالكثير من الصوفية قد جذبوا بشدة نحو (على) كمصدر للتعاليم السرية أو الباطنية ، وأفكار الإمامية الإثناعشرية ^(١) وإلى درجة أقل الإسماعيلية ^(٢) التى عاشت تحت عباءة التصوف ^(*) بعد

(١) الإمامية الإثناعشرية : هى فرقة من غلاة الشيعة ، تمسكت بحق على فى ورثة الخلافة دون الشيوخ وعثمان ، وقالوا بالثنى عشر إماماً ، دخل آخرهم (المهدي المنتظر) السرداب بسامراء ومن أهم معتقداتهم : (١) الإمامة تكون بالنص إذ يجب أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق بالمعين لا بالوصف. (٢) أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نص على إمامة على يوم غد يومض. (٣) العصمة : كل الأئمة معصومون عن الخطأ والكبائر والصغائر . (٤) العلم : كل إمام من الأئمة أودع العلم من لدن الرسول - صلى الله عليه وسلم . (٥) خوارق العادات يجوز أن تجرى الخوارق على يد الإمام وتسمى معجزة . (٦) الغيبة : يجوز للإمام أن يغيب كما حدث للمهدي . (٧) الرجعة : يعتقدون بأن الحسن العسكري سيعود فى آخر الزمان . (٨) التقية : وهى أصل من أصول الدين ، ومن تركها كان بمنزلة من ترك الصلاة . (٩) متعة النساء . (١٠) يعتقدون بوجود مصحف لديهم يسمى مصحف فاطمة . (المترجم) .

راجع : تاريخ الإمامية وأسلانهم من الشيعة : عبد الله فياض - مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٠م .
(٢) الإسماعيلية : فرقة باطنية ، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام ، تشعبت فروعها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر ومن أشهر فرقهم : القرامطة ، الفاطمية ، الحشاشون ، البهرة ، الأغاخانية ، الواقفة ، إسماعيلية الشام . وأهم معتقداتهم : ضرورة وجود إمام معصوم ، يؤمنون بالتقية والسرية ، يقولون بالتناسخ والإمام عندهم وارث الأنبياء ، ينكرون صفات الله أو يكادون - لأن الله فى نظرهم فوق مستوى العقل ، ولا يقيمون الصلاة فى مساجد عامة المسلمين .

راجع : الإسماعيلية تاريخ وعقائد : إحسان إلهى ظهير . لاهور ، ١٩٨٥ . (المترجم) .

(*) نحول القارئ العزيز إلى سلسلة كتبنا فى الفرق الإسلامية - نشأة الفرق فى الإسلام - الشيعة تاريخ وعقائد - قراءات عن المعتزلة . (المترجم)

ذلك فهذه الفرق برزت للضوء ودعموا أنفسهم فى شكل فرق جديدة كالذهينى والفورية خشبة النعمة الله ^(١) ، والبكتاشية ^(٢) ، أو كما مع الصفوية ^(٣) ، التى أصبح رئيسها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى الحاكم فى إيران الذى تحول فعلاً من النظام السنى إلى النظام الشيعى .

إن شجرة الأنساب الروحية ، التى تظهر بعض نواحي تفرع الترائين التقليديين تفيد على الأقل فى تقديم أسماء الصوفية المشاهير الذين كانت قيادتهم وأفكارهم لها تأثيرها بعد ذلك على الفرق اللاحقة .

(١) نعمة الله . كان صوفياً علوياً متصل نسبة بعلى بن أبى طالب عن طريق إسماعيل بن جعفر ، ولد فى حلب (٧٣١هـ/١٣٣٠م) ونشأ فيها قبل نزوحه إلى إيران ، وتوفى فى إيران سنة (٨٣٤هـ/١٤٣١م) . أما طريقته فقد كانت تتميز بذكر ممارسه وهم جلوس ويميلون بأجسامهم من اليسار إلى اليمين وهم واضعون أيديهم اليمنى على ركبهم اليسرى وأيديهم اليسرى على ركبهم اليمنى ، وكانوا يسجدون للشيخ نعمة الله قبل الذكر وكان حنفياً ، وكان شيعياً إنعاشياً .

راجع : كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، ج ٢ ، النزعات الصوفية فى التشيع ، دار الأنذلس ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٢ م ص ٢١٦ وما بعدها . (المترجم) .

(٢) البكتاشية : أسسها الحاج بكتاشى الصوفى ، ولد بينسباور ، ودرس فى خراسان ، وأخذ عن الشيخ لقمان الصوفى ، ثم هاجر إلى الأناضول وتوفى بها سنة ٧٣٨هـ وتقوم عقيدتهم على مزيج من تعاليم الإسلام والمسيحية ، ولذا كان عندم الاعتراف بخطاياهم لشيخوهم على طريقة الاعتراف لرجال الدين النصراني ، يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وألوهية على .

راجع : سميج الزين ، الصوفية فى نظر الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٥٥١ . (المترجم) .

(٣) يقصد إسماعيل الصفوى الذى مات شاباً فى الثامنة والثلاثين سنة ٩٣٠هـ بعد أن نجح لأول مرة فى تأسيس دولة صوفية شيعية ، فتم بذلك حلم طالما تاق التشيع إلى تحقيقه ، ذلك هو إستغلال التصوف لصالح الدعوة الشيعية .

راجع كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ٣٦٨/٢ ، مرجع سابق . (المترجم) .

وكان هناك شخصان هاما في التاريخ الصوفي بآسيا الوسطى وهما أبو الحسن الخرقاني (ت ١٠٣٤هـ) والذي اعتبر نفسه الوريث الروحي للبسطامي ، وأبو علي القرمذى (ت ١٠٨٤هـ) . وإثنان مهمان من تلامذة القرمذى اشتقت عنهما الخطوط الرئيسية للنسب الصوفى : وهما أحمد الغزالي^(١) (ت ١١٢٦م/٥٢٠هـ) ، وهو الأخ الأصغر لأبى حامد الغزالي الشهير ، ويوسف الحمداني (١٠٤٩م/٤٤١هـ - ١١٤٠م/٥٣٥هـ) واسم أبى حامد الغزالي قد أدخل في الشجرة ليوضح لماذا كان اعتباره ضئيلاً في التدريس ، وكذلك في إنتشار الفرق المختلفة ، وهي تأتي تماماً داخل تعريفنا للصوفى . ورغم أن زهده أو تصوفه الذوقى والفكرى يعترف به تماماً ، فإنه لايعتبر كصوفى ممارس في نظر أصحاب الحزب والغنوصيين الباطنيين^(٢) .

ويذكر الأفندى عبارة جلال الدين الرومى يقول فيها : « يغوص الإمام محمد فى بحر العلوم فى عالم الملائكة ، أنه قد كرس جهده لإرشاد الناس فى هذه الدنيا الفانية ، فمن له ذرة حب للصوفية مثل أحمد الغزالي فإنه يعد بمن لهم قيمة عظيمة ... » .

(١) هو أحمد بن محمد بن محمد أبو الفتح الغزالي ، أخو الغزالي ، قال ابن الملقن فى طبقات الأولياء عن كبار الوعاظ السادات ، صاحب كرامات وإشارات طاف البلاد ، وخدم الصوفية بنفسه . وكان مائلاً إلى الإنقطاع والعزلة ، خرج إلى العراق ، ومات بقزوين سنة عشرين وخمسمائة . راجع طبقات الأولياء لابن الملقن ، ص ١٠٢ . (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف بهذا أن أباً حامد الغزالي رغم أنه اتجه فى آخر حياته إلى التصوف واعتبره هو الطريق الصحيح للمعرفة بل هاجم الفلاسفة والمتكلمين من هذا المنطق - إلا أنه لم يكن صرفياً ممارساً أو منضماً إلى فرقة من فرق الصوفية . (المترجم) .

كان القرن الثاني عشر هو فترة تحول فى هذه المناطق نحو التصوف الفارسى بشكل خاص مهد لها الشعراء الصوفيون مثل أبو سعيد بن أبى الجنيد (١٠٤٩م-٩٦٧هـ) وبهذه الحركة ارتبط أبو يعقوب يوسف الحمدانى البوزانجيردى (١٠٤٩ - ١١٤٠) بصفة خاصة وقد ترك موطنه فى قرية لور - كورد بمحافظة حمدان متوجهاً إلى بغداد حيث درس الفقه على يد الفقيه الشهير الشافعى أبى إسحاق الشيرازى (ت ١٠٨٣هـ) وقد تفرغ بذكاء وكرس نفسه لعلم النظر (الفلسفة العقلية وأصبح مسئولاً عن فصل من الدارسين ، وفجأة هجر كل التأملات النظرية التى كرس جهده لها وانسحب إلى رياضة روحية ليعبد نفسه للتفرغ للأشياء ذات الأهمية الحقة . وهى الحياة الشخصية للتعبد فى خدمة الله جل جلاله) ودعوة الناس لله ، وإرشاد معاصريه إلى الطريق المستقيم فعاد إلى حمدان ثم إلى مرث^(١) ، مقسماً وقته بينها وحران ، وقد نسب الكثير من الصوفية المشاهير أنفسهم إليه ، ولكن من اثنين من خلفائه بصفة خاصة نشأ خطان رئيسيان للنسب : أحدهما فارس مشتق من عبد الخالق الفوجزدانى والثانى : تركى مشتق من أحمد اليسافى .

إن طريق هؤلاء الصوفية العظام فى آسيا الوسطى ، بعد أن تأصلت بين الإيرانيين ، وكذلك سيطرت على الأتراك فى توسعاتهم ، كان عاملاً هاماً فى تسهيل توافقهم مع الإسلام فهذه الفرق والإتجاهات قد إنتشرت مع تنقلاتهم، وهى عملية زادت سرعتها بواسطة الغزوات المغولية ، وأصبحت مؤثرة بصفة خاصة فى الأقاصى البعيدة للبلاد ، فى الأناضول والهند يقف

(١) سبق الإشارة إليها فى هامش للمترجم .

أحمد اليسافى كنموذج أصلى لكل الصوفية الأتراك وعنه نشأ الحاج بكتاشى كنوغ من الرموز الزاهدة الصوفية لمئات المهاجرين الأتراك الدراويش والشيوخ كما استعمل اسمه كرمز لفرقة شهيرة^(١) ، وقد كان التراث اليسافى تركياً تماماً منذ البداية ، فقد بدأ أحمد اليسافى تدريجه على يد شيخ تركى اسمه الشيخ بابا أرسلان ، وبعد موته توجه أحمد إلى بخارى - التى كانت ماتزال إيرانية فى ذلك الحين - ليضم إلى حلقة يوسف الحمدانى وأصبح خليفته الرابع ، ثم استقال من وظيفته ، وعاد إلى تركستان ليصبح رئيس مجموعة من الشيوخ المتسبين للأتراك . وقد تفرع خط طويل من الزهاد الأتراك سلسلة نسبه والذى - نتيجة هجرة الشيوخ والعلماء - انتشروا بين أترك الأناضول ، وبينما انتمت المولوية - التى ازدهرت بين الأتراك فى حلقات معينة بالأناضول - إلى التراث الإيرانى ، والخلواتية المشتقة من هذا التراث التركى بآسيا الوسطى ولكن سنتناولها فى الفصل القادم .

بعد أن أدخلنا الجدول النسبى^(٢) أو الإنتساب ، فقد يكون من المفيد ملاحظة أن خطوط النسب حتى ذلك التاريخ أو هذا العصر لاتتضمن الإنحدار وفقاً لقاعدة واحدة ، فالصوفية لازالوا يتجولون باحثين عن مشايخهم ، والكثيرون لم ينقلوا أى تراث بعينه ولكنهم كونوا فرقهم الخاصة نتيجة لمصادرهم المتعددة من الإستنارة وهذا هو الشأن خصوصاً فى حالة مؤسس الفرق ، والإختلاف بعد تأسيسهم هو أنهم أصبحوا سلاسل طرق حقيقية بمعنى أن القول أن قد احتفظ بوعى برجوعه خلال أشخاص معينين .

(١) يقصد فرقة البكتاشية . (المترجم) .

(٢) راجع هذا الجدول فى ملاحق الكتاب . (المترجم) .

وهذه السلاسل من السلطة غالباً ماتكون شديدة التعقيد ، بينما السلاسل المرتبطة التى من تؤسس إلى سلفية تميل إلى أن تصبح مستقرة أو ثابتة ، تتفاوت خطوط كل خليفة بمفرده عودة إلى المؤسس والطرق الرئيسية التابعة أو الناجمة من التراث بآسيا الوسطى ، والتي عاشت فى بعض الصيغ كانت هى الكبراوية ، والبسافية ، والمولاوية والتفشلدزية ، والشيثية ، والبكتاشية ، وسنطى لمحّة قصيرة عن مؤسس وتطور هذا التراث - باستثناء الحاج بكتاشى ، الذى تعتبر علاقته بالفرقة التى نسبت إليه عارضة ، بينما جاءت الفرقة نفسها أكثر تناسباً داخل المرحلة التالية من الظهور .

أ - الكبراوية :

عن نجم الدين كبرى (من ١١٤٥م/٥٤٠هـ - ١٢٢١م/٦١٨هـ) نشأ الكثير من سلاسل النسب الصوفى أو الفرقة المشتقة ، وقد اختفى أغلبها الآن ولكنها هامة من أجل المجال التاريخى للفرق ومن أجل أسانيدها لممارسات الذكر ، ورغم أنه ولد فى خوارزم فقد تبع نجم الدين منهجاً من التعليم الزهدى أو الصوفى فى مصر على يد الشيخ السايح^(١) الفارسى روزبهان الوزان المصرى (ت ١١٨٨م - ٥٨٤هـ) وهو تابع للشيخ أبى نجيب السهروردى والذى تلقى عنه أول خرقه له ، ولكن لم تبنى الحياة الصوفية الكاملة إلى بعد أن قاده بحثه إلى الشيخ فرج من تبريز الذى عاش حياته كصوفى كامل أما أستاذه الآخر فكان عمار بن ياسر البدليسى (ت ١٢٠٠هـ) ولكن تدريبه الحقيقى تم على يد إسماعيل القصرى

(١) السايح هنا من السياحة بمعناها الصوفى ، فرغم أن روزبهان الوزان من أصل فارسى إلا أنه اشتهر بكنيته (المصرى) كما هو واضح فى السياق . (المترجم) .

(ت ١١٩٣م / ٥٨٩هـ) الذى أعطاه خرقة التبرك ، وقد استقر فى النهاية فى موطنه خوارزم وبنى خانقاه ، وفيها درب عددًا من الرجال المرموقين ، بما فيها مجد الدين البغدادي (ت ١٢١٩م) والذى كان شيخاً للشاعر الفارسي الكبير فريد الدين العطار (ت ١٢٢٥م) وهو مؤلف كتاب (منطق الطير) وهى قصة مجازية أو تعبير رمزي يقتضى أثر الحج الروحي خلال الوديان السبعة (المراحل) بتبصر عميق ، وقد مات نجم الدين ضحية إستيلاء المغول على خوارزم فى سنة ١٢٢١م ورغم أن معظم أعماله باللغة العربية فإنه كتب بالفارسية كتاب (صفات الأدب) لإرشاد المبتدئين ، الذى شكل علاقة هامة فى الاتجاه نحو إضفاء الطابع الإيراني على التصوف .

والملاحظ أن كثير من خلفاء نجم الدين لم ينشأ أى فرع للفرق ولكن بالأحرى استقرت محلياً طائفة كوبراوية حول ضريح الخليفة ، الذى ألحق به أبنية للإجتماع الديني وأبنية إضافية ، والكثير من المؤسسات من هذا النوع زارها ابن بطوطة سنة ١٣٣٣هـ ، التى تشمل المؤسسات التى بناها نجم الدين نفسه خارج خوارزم ، وتلك الخاصة بسيف الدين الباخريزي (ت ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ) الذى تلقى ولاء تبرك الإسلام من خان القبيلة الذهبى ، والذى بنى ضريحه ومسجده فى بخارى تحت رعاية تيمور ، وخليفة آخر هو الشيعي سعد الدين نجم الحموي أو الحموي (ت ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ) والذى حافظ المنحدرون منه على طائفة محلية حول ضريحه فى بحر آباد بخراسان .

والفرق الرئيسية المشتقة من نجم الدين كانت :

(-) الفردوسية :

وهى فرع هندي من خط عن الباخريزية ببخارى والسالف ذكره .
وتشتق الفردوسية اسمها من خليفة يسمى بدر الدين فردوس ، والذي كان
خليفة نجيب الدين محمد (ت فى دلهى عام ١٣٠٠ م) وهو الذى أدخل
النظام الهند .

(-) النورية :

فرع بغدادى ، أسسه نور الدين عبد الرحمن الأسفراينى (ت
١٣١٧ م / ٧١٧ هـ) وهو شيخ السيمنانى .

(-) الركنية :

فرع خراسانى مشتق من ركن الدين أبو المكارم أحمد بن
شرف الدين المعروف عموماً علاء الدولة السيمنانى المتوفى
(١٣٣٦ م / ٧٣٦ هـ) .

(-) الحمدانية :

فرع كشميرى من الركنية أسسه سيد على بن شهاب الدين بن
محمد الحمدانى بن حمدان (ولد ١٣١٤ م / ٧١٤ هـ) المتوفى فى نجلى
(١٣٨٥ م / ٧٨٦ هـ) ودفن فى خوتلان فى طاجيكستان والاستقرار النهائى
للإسلام فى كشمير يعزى إلى ثلاث زيارات لهذا الصوفى السائح فى أعوام
(١٣٧٢ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٣ ميلادية) وقد ارتبط بهجرة سبعمئة صوفى
يبحثون عن ملجأ من المغول تحت رعاية تيمور تبعهم ثلاثمئة آخرون بقيادة
ابن على مير محمد .

(-) الإغشاشية :

فرع خراسانى أسسه إسحاق الخوطالانى (أغتيل بواسطة جواسيس شاه روخ فى ١٤٢٣م/٨٢٦هـ) وهو تلميذ على الحمدانى ، ومنه خلال تلميذه عبد الله بارزى شابارى مشهدى ، جاءت الفرقة الشيعية للذهبية المتمركزة اليوم فى شيراز وهو المصطلح الذى يسمى به خط نجم الدين دائماً. ويسوق بصورة محيرة .

(-) النوربخشية :

فرع خراسانى ، مشتق عن محمد بن عبد الله المسمى نوربخشى (ت ١٤٦٥م/٨٦٩هـ) وهو تلميذ إسحاق الخوطالانى الذى طور معتقداته الشيعية الخاصة ، ومنه نشأ مرة ثانية خطان : الأول خلال ابنه قاسم فيض بخشى ، والذى واصل النوربخشية ، والثانى خلال شمس الدين محمد اللاهيجى (اللاهيجانى : ت ١٥٠٧/٦م - ٩١٢هـ) والذى كان له خانقاه فى شيراز ، وهى نشأت مستقلة .

وكانت السيمنية(*) أكثر أهمية من حيث تأثيرها فى التطور الفكرى للفرق فى آسيا الوسطى ، والفرق الهندية حتى رغم أن فرقة السيمنية لم تكن ذات أهمية كبيرة ، وقد ولد السيمنانى فى (١٢٦١م/٦٥٩هـ) فى قرية خراسانية فى سيمنان من عائلة عريقة فى الخدمة الوطنية ودخل فى خدمة البوذى (الخان أرغون : ت ١٢٨٤م/٦٨٣هـ) ثم كنتيجة لتجربته فى الحال اللاإرادى اتبع الحياة

(*) يقصد الركنية (الترجم).

الصوفية الزاهدة وبعد تغلبه على المصاعب الأولية مع (أرغون) فقد سُمح له بأن يستمر في منهجه الجديد ، ولقن أو بدأ في السلسلة الكوبراوية على يد الكاسترفى الاسفراينى ، وبعد أداء الحج وقضاء بعض الوقت في التدريب في دورات في خانقاه شيخه في بغداد استقر في موطنه الأصلي في سيمنان ، وأسس خانقاهه الخاصة وعاش هناك في هدوء حتى وفاته عام (١٣٣٦م/٧٣٦هـ). وقد ألف العديد من الأعمال واتبع مساراً دينياً سلفياً، مويداً التفسير الحرفى للقرآن ، والتمسك الشديد بالشرعة كأساس ثابت للتقدم مع الطريقة ، كما أستنكر التمرينات الجارية البدعية في التفكير الصوفى، وليس في الممارسات الصوفية ، وقد أتهم وأدان الأفكار المتعلقة بالولاية ومعجزات الأولياء ، وناقش النظريات الإلهية لابن عربى ، ليعلمهم أن العالم هو إنعكاس - وليس إنشاق عن الحقيقة الإلهية ، وقد أخذ تبنى أسلوبه النقشبندى الهندى أحمد السيرهندي - هذا الأسلوب الذى عرف موحدۃ الشهود والذى يتناقض تماماً مع وحدة الوجود عند ابن عربى .

ورغم كونه هذا الصوفى المعتدل في المجال التفكيرى ، فإنه كان زاهداً وصوفياً كاملاً . كما تبنى وعمل على نشر ممارسة الذكر . والمشتقة من طرق اليوجيون (الممارسون لليوجا) بالإضافة إلى صيغة خاصة من هزأت الرأس التى طورها شيخه الكاسيرتى كما علم أو درس ذلك الشكل من التوجه الذى يهدف إلى الإتصال - خلال التركيز - بأرواح الصوفية المتوفيين، وهو بصفة خاصة أسهم إسهاماً فريداً فى نموذج رؤية نجم الدين ولونه المرتبط بالمراحل الصوفية للتنوير التقدمى أو المستمر .

(ب) انيسافية :

أحمد بن إبراهيم بن علي من ياسى (مدينة سميت فيما بعد تركستان) كما ذكرنا أنه تربى فى تراث يوسف الحمدانى ولكنه رجع إلى وطنه فى تركستان وتوفى هناك فى (١١٦٦م/٥٦٤هـ) ورغم أننا نعرف القليل عن حياته ، فإن أهمية أحمد فى تكوين التراث الإسلامى التركى ليس محل خلاف ، والتراث الياسافى له الكثير من الفروع الدينية والاجتماعية والثقافية ، وقد لعب دوراً فى نشر الإسلام بين القبائل التركية، وفى تأقلم الإسلام بالأوساط البدوية التركية ^(١) وفى التوفيق اللغوى خلال قصائد أحمد وخلائد من الدراسين مثل يوسف إمهى (ت ١٣٣٩م/٧٤٠هـ).

وكانت الياسافية طريقة من المتجولين أو السائحين وكان يوجد القليل من الفروع المميزة أو المقار الدائمة ماعدا تلك المرتبطة بأضرحة هؤلاء المشايخ، والتي أصبح الحج إليها سمة دائمة للإسلام ^(٢) بآسيا الوسطى . والطريقة الياسافية كانت طريقة مقدسة ووسيلة للممارسة الدينية التى حلت محل الديانة القديمة للأتراك أكثر منها طريقة للتصوف .

(١) إن العادات التركية التى دخلت الشعائر والممارسات الدينية أعطت طابعاً عرقياً للطريقة : مثل أنماط الملابس والذكر فى حلقات ومشاركة النساء فى الحضرة وأساليب التضحية بالماشية. هذه الأشياء التى استمرت بين الدراويش مثل فرقة البكتاشية كما استخدمت اللغة التركية فى المبادات غير الصلاة . (المؤلف).

(٢) الأفضل أن نقول : سمة مميزة لمسلمى آسيا الوسطى ، وليس للإسلام ، لأن الإسلام - كما ذكرنا فى تعليق سابق - ثابت بمقاصده وأهدافه وعبادته وهى أمور لا يلحقها تغير وفقاً لتغير المكان، فالحدث هنا عن سلوكيات الأفراد - سواء كانت تتفق أو لا تتفق مع تعاليم الإسلام الثابتة - وليس عن الإسلام . (المترجم).

وقد نشر هولاء المتجولون التراث فى أنحاء تركستان وبين الكرناميز^(١) من شرقى تركستان شمالاً إلى داخل ترانوكياتا (ومنطقة الفولجا) وجنوباً إلى داخل خراسان ، وغرباً إلى داخل أذربيجان ثم الأناضول ، حيث شاركوا خلال أشخاص مثل يونس أمرى فى تكوين الجانب الشعبى من المدينة التركية الإسلامية الجديدة ، ولكن حيث لم تجعل الياسافيين من نفسها تراثاً مميزاً ، تؤسس إما قوة العقيدة لحضرتى تركستان^(٢) . كما كان يطلق على أحمد فى القرن الثامن الهجرى فيوضها استعداد تيمور لبناء أو لتشييد صرح (استكمل فى ١٣٩٨ م / ٨٠١ هـ) على سيرداريا^(٣) مكون من بناء ذو قبتين إحداهما على قبر أحمد والأخرى فوق المسجد .

لقد ركزت الفرقة على الخلوة (الرياضة الروحية) أما الخلواتية التى تطورت فى منطقة أذربيجان وانتشرت فى الأناضول فيمكن إعتبارها كامتداد تركى غربى لليسافية وهى تزعم أيضاً أن بهاء الدين النقشبندى وسليلها خلال السلطان الدرويش خليل ، والسليل الحنيف للفرقة كانت الإيكانيية المشتقة من كمال أبكان الخامس فى السلالة الروحية لزنجى عطا ، والشيوخ الياسافيين ظلوا يذكرون فى القرن السادس عشر باسيا الوسطى وحتى فى كشمير .

(١) الكرناميز هم - من الناحية التاريخية - شعب من الرعاة الأتراك يشكلون حوالى ثلث سكان كرنمزيا إحدى جمهوريات الإتحاد السوفيتى السابق على حدوده على الصين . (المترجم) .
(٢) حضرتى تركستان : لقب تركى معناه ميجل أو مقدس تركستان . (المترجم) .
(٣) اسم نهر هناك .

(ج) المولاوية :

تقع هذه الفرقة في فئة خاصة ، حيث تشتق من مهاجر فارسي إلى الأناضول انتمى إلى التراث الخراساني أكثر من أى تراث البغدادى ، كما أنها فرقة محلية أيضاً ، انحصرت تأثيرها على آسيا الصغرى والمناطق الأوروبية العثمانية ، وهذه التكيات كالتى أسست في أماكن أخرى ، وكذلك في دمشق والقدس والقاهرة قد كانت أساساً من أجل الأتراك .

ولد جلال الدين في بلغ عام ١٢٠٧ م لأب يدعى بهاء الدين ولد (١١٤٨-١٢٣١م) وانغمس التراث الصوفى الخوارزمى وقد أدت الصعوبات المحلية وتقدم المغول بالعائلة إلى التحول والرحيل (١٢١٧م) والذي انتهى بهم بداخل المنطقة التى يحكمها السلاجقة الروم . وهنا كانت كنية جلال الدين بالرومى فى ١٢٢٥م وقد ظلوا لبعض الوقت فى مكان يسمى لاراند (القارامات الآن) حتى دعاة للزيارة كايقوباد الأول إلى عاصمة قونية ، حيث قضى جلال الدين بقية عمره .

كان تدريبه الصوفى قد بدأ على يد والده وتقدم متمشياً وفق خطوط نمطية ثابتة على يد لاجئى بلخى آخر يسمى برهان الدين محقق الترمذى^(١) (ت ١٢٤٤م) ولكن حياته تحولت حينذاك إلى اتجاه جديد ، والذي حوّل من تابع متزن إلى متصوف زاهد يحوّل رؤاه إلى شعر فارسي ملهم ، وقد حدث هذا عام ١٢٤٤م خلال فترة الخمس عشر شهراً التى ارتبط خلالها بالدرويش المتجول الذى يدعى شمس الدين التبريزى ، وقد

(١) نسبة إلى ترمذ ، وهى مدينة على نهر جيحون ، وهو - أى برهان الدين الترمذى - غير المحدث والحكيم المعروف الترمذى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى . (المترجم) .

كان جلال الدين واقعاً تحت تأثيره لدرجة الهوس، الأمر الذى جعل حياته مشتتة عندما تأمر المريدون ضد الدرويش ، ونتيجة لفرع جلال الدين فإنه إختفى بصورة غامضة مثلما ظهر، وفى الحقيقة فإنه قتل بواسطة مريدى الدرويش بتشجيع سرى من أحد أبناء جلال الدين .

لهذا أطلقت هذه التجربة القوى الخلافة لجلال الدين ووضعت على طريقة جديدة . اشتقت اسمها من لقب « مولانا » الذى أطلق على مؤسسها .

ويشير ابن بطوطة الذى زار قونية سنة ١٣٣٢م إلى الطريقة باسم الجلالية . وقد تطورت الطريقة كتنظيم قائم بذاته عقب موت جلال الدين عام ١٢٧٣م .

وهذه الفرقة معروفة جيداً نتيجة لشعبيتها المعطاء لممارساتها الصوفية وشهرة سيد الشعر الصوفى « المثنوى » ^(١) الذى نحتاج فقط للإشارة إلى مكانه فى السياق العام للطرق .

والمثنوى الشهيرة هى تجمع غير متماسك نوعاً بين إنطلاقات جلال الدين الرومى وتأملاته القصصية وقبل كل هذا مجموعة الحكايات الرمزية المعبر عنها فى صورة شعرية ، ويعتبرها المولوية كإلهام للمعنى الداخلى للقرآن، وكانت تسمى جامع القرآن فى فارس .

(١) المثنوى : هو أهم كتب جلال الدين الرومى وهو مجموعة من الأشعار فى ستة مجلدات كان يلقبها بلا أعداد (إنطلاقات أو نفثات) تعبر عن عشقه لله على نحو شعرى منحصر ، ويبدو فكره خلالها متأثراً بالغزالي وابن عربى ومزید الدين العطار . (المترجم) .

ونتيجة للإرتباط الوثيق بين مؤسسى الفرقة وبين السلطان السلجوقى الحاكم، فقد طورت الفرقة إجتاهات إرستقراطية ، وأصبحت هيئة غنية ، ولعبت دوراً ثقافياً هاماً فى تركيا ، وساعدت فى إستمالة أنواع معينة من النصارى^(١) إلى الإسلام . وغالباً من البداية فإنها كانت فرقة وراثية ، وقد خلف جلال الدين وكييله حسن حسام الدين ، النابغة المتأمل للمثنوى ولكن بعد موته (١٢٨٤م/٦٨٣هـ) فإن الخلافة مرت إلى ابن جلال الدين - بهاء الدين سلطان ولد ومنذ ذلك الحين فإن الخلافة الأسرية كانت نادراً ماتكسر - وقد حدث تطور المبادئ والتنظيم حول اسم مولانا على يد سلطان ولد، وأعطت أعماله تدعيماً للتصوف الجمالى والعاطفى لشيخ الطريقة ، وحين مات فى سن متقدم (١٣١٢م/٧١٢هـ) كانت الفرقة قد انتشرت على نطاق واسع فى الأناضول كما أنشئت لها عدد من المراكز الوليدة .

أما خليفة جلال الدين أمير عارف (ت ١٣٢٠م) فقد سافر كثيراً مدعماً هذه المراكز ، وفى عهده تم تدعيم المبادئ والشعائر والتنظيم ، رغم أن طموحه الخلاق قد لقى فى عهد سليم الثالث حين أثمرت الفرقة شاعرها الأخير العظيم غالب ديدى (محمد إسعاد ١٧٥٨ - ١٧٩٩م) وقد ظلت الفرقة متماسكة ولم تتعرض للانقسام كالخلواتية . وإن كان هذا معنى أيضاً أن تأثيرها كان محدوداً داخل تركيا^(٢) .

(١) لا أعرف ماذا يقصد المؤلف بعبارة أنواع معينة من النصارى إلى الإسلام فهل معنى أن من يدخل الإسلام من النصارى هو نوع معين غير سوى من النصارى !!! أم أن من يدخل الإسلام من النصارى هم نوع معين يتصف بالموضوعية والعلم والثقافة وهى الصفة التى لاتوافر لكل النصارى !!! وأنا أفضل الرأى الثانى . (المترجم).

(٢) أما خارج تركيا فقد كان للمولوية تكاها فقط فى دمشق وحلب وبلقوسيا والقاهرة، وبعض المدن القليلة الأخرى حيث يتواجد سكان أترك .

وقد أصبح أعضاء هذه الفرقة مشهورين بإخلاصهم للموسيقا وبطبيعة ممارستهم للذكر حيث عرفوا في أوروبا بأنهم الدراويش الدوارين^(١) أما الرقص فهو رمز الحياة الكونية للمسارات والأجرام والمعقد جداً في شكله وإن كان وحدة في جوهره فقد كان يشار إليه دائماً في قصائد جلال الدين الغنائية المعروفة باسم (ديوان شمس الدين تبریزی).

(د) الخواجاتية - النقشبندية :

لم يعتبر التراث النقشبندی بهاء الدين النقشبندی مؤسساً للطريقة التي تحمل اسمه وخطوط النسبة (سلسلة التربية) لا تبدأ به ، ففخر الدين على ابن حسين الذي كتب تاريخ الطريقة المسماة « شحات عين الحياة » بدأها بأبي يعقوب يوسف الحمداني (ت ١١٤٠م) بينما خليفته بالتعين الروحي عبد الخالق الفوجدلاني (ت ١٢٢٠م) يمكن إعتباره منظماً لاتباعاته الخاصة، فهو المسئول عن التأكيد على الذكر العقلي النقي ، كما صاغ القواعد الثمانية^(٢) التي حكمت الطريقة الخواجاتية ، وهو الاسم الذي عرفت به السلسلة ، وقد تعلم عبد الخالق الصبغة الخاصة « للطريقة » من حبس الدم (كتم النفس) من الخضر ، وهو روح الباطنية الإسلامية .

(١) كلمة الدوارون جاءت من أنهم يؤدون أذكارهم وهم وقوف على شكل دائرة ويدورون حول متصفين أثناء أدائهم للأذكار ، ومن هنا سميت مناسبات أداء الذكر باسم حلقات الذكر.

(المترجم)

(٢) هذه القواعد الثمانية ، والتي زادها بهاء الدين إلى إحدى عشر سوف نذكرها فيما بعد.

(المؤلف)

أما خلفاؤه فهم كالآتي :

- عارف روجارى (ت ٢٥٩هـ / ٦٥٧م).
- محمود أنجبىر مغنوى (ت ١٢٤٥م / ٦٤٣هـ) أو (١٢٧٢م / ٦٧٠هـ).
- عزيزات على الراميشانى (ت ١٣٠٦م / ٧٠٥هـ) أو (١٣٢٧م / ٧٢١هـ).
- محمود بابا الشماس (ت ١٣٤٠م / ٧٤٠هـ) أو (١٣٥٤م / ٧٥٥هـ).
- أمير سيد قللى البخارى (ت ١٣٧١م / ٧٧٢هـ).
- محمد بن محمد بهاء الدين النقشبندى (ت ١٣١٨م / ٧١٧هـ) أو (١٣٨٩م / ٧٩١هـ) (١).

أما بهاء الدين فقد قضى فترة تلمذته على يد كل من الشماس والقللى (صانع القللى) ولكن كان له أيضاً روابط تركية ، وتوجد قصة رومانسية عن لقائه بالدرويش التركى الذى يدعى خليل الذى رآه أولاً فى المنام ، وإرتباطه اللاحق به حتى أصبح هذا الدرويش فى النهاية (١٣٤٠م) السلطان خليل لترافسوسكانيا ، وخدمه بهاء الدين لمدة ست سنوات ولكن بعد سقوط خليل (١٣٣٧م / ٧٤٧هـ) عانى بهاء كراهية ورفض النجاح الدينوى ، وعاد إلى قريته (ريوارتون) بالقرب من بخارى . وإستأنف منهجه

(١) معظم هؤلاء أتوا من مناطق قريبة من مدينة بخارى كما هو واضح من نسبتهم أو كنيثهم ، إذ أن معنى ، روجار ، رايمان هى قرى بالقرب من بخارى .

الروحي الذي انقطع ، ومثل معظم الرجال الذي سميت الطرق باسمهم لم يؤسس بهاء الدين منظمة أو تنظيمًا ، وإنما كانت طريقته موروثه . ولكنه جمع حوله الزهاد المتشابهين في التفكير والمستعدين للنضال ، والسعى نحو قيمة للحياة الصوفية ، وفق خطوط الملامتية دون الظاهر أو الإنصراف عن العبادات ، لأن كما قال : فإن الظاهر للدنيا والباطن لله (الظاهر للمخلق ، والباطن للحق) .

ورغم ما أصابها من تعديل خلال تقلبات الوقت فإن هذه الطريقة لم تفقد طابع عبقرية عبد الخالق في قيمة قيادتها ، وتعاليمها وفقاً لشعائرها ، فمن وجهة النظر الإسلامية كانت هامة خصوصاً في التأكيد على تمسك الجماهير التركية بالتراث السني ، وكان ضريح بهاء الدين ومسجده الملحق بناءً رائعاً شيده عام ١٥٤٤م عامر عبد العزيز خان ثم أصبح أكثر الأماكن أهمية للزيارة ^(١) في آسيا الوسطى وقد استمعا الشاعر الصوفي الفارسي العظيم جامي من بهاء الدين خلال وسبط ، أما خارج آسيا الوسطى فإن الفرقة قد انتشرت داخل الأناضول والقوقاز ، وبين شعوب الجبل في كردستان (حيث أصبحت عنصراً في الجنسية الكردية) كما انتشرت جنوباً حتى الهند ، ومع ذلك لم يصبح لها شعبية في العالم العربي .

(١) هناك فرق بين الزيارة لأضرحة الأولياء وبين الحج إلى بيت الله الحرام . والمؤلف لا يفرق بين الأمرين في استعماله لكلمة واحدة ترجمتها الحج .. وربما يكون هذا بغير قصد !!؟
(المترجم)

(هـ) الشيشتية :

من القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فإن الصوفية بآسيا الوسطى كانوا مهاجرون جنوباً إلى الأراضى الهندية ، وكذلك غرباً إلى داخل الأناضول ، وقد تزامن تكوين الأنواع المختلفة من الخانقات الجماعات الصغيرة مع تأسيس السلطنة فى دلهى ، وبالإضافة إلى السهرارودية البغدادية فإن الفرقة الأخرى الوحيدة التى أصبحت واضحة ومؤثرة فى الهند أثناء هذا العصر التكوينى كانت هى الشيشتية ، أما الفرق التى أدخلت فيما بعد مثل الشطارية (عبد الله الشطار : ت ١٤٢٨م) والنقشبندية به (مع بانى بالله : ت ١٥٦٣م) والقادرية (عن طريق محمد عزت من أوش : ت ١٥١٧م) فلم تكتسب إطلاقاً إتساع الولاء والنفوذ مثل هذين الإتجاهين (أى الشيشتى والسهروردى).

والشيشتية هى إحدى الخطوط البدائية ، فمعين الدين حسن شيشتى المولود فى سجستان حوالى ١١٤٢م/٥٣٧هـ قد جذب مبكراً إلى الحياة الصوفية الهائمة المتنقلة وخدم شيخه عثمان هارفانى أثناء سياحاته لمدة ٢٠ سنة تقريباً فمؤرخو سيرته (متأخرون وليسوا محل ثقة) يدعون أنه قد التقى ومنح سلطة التعليم على يد معظم الصوفية المعروفين فى هذه الفترة التكوينية بما فيهم ليس فقط عبد القادر الجيلانى ولكن أيضاً الآخرين الذين ماتوا قبل أن يولد ^(١) والطريقة لا تعتبر مرتبطة بالخط السهروردى بالرغم من استخدام عوارف المعارف ^(٢) والكتاب مرجع أساس للفرقة ، وهذا وقد التقى

(١) هذه الروايات التى تتضمن أسماء بعض الصوفية الذين ماتوا قبل ولادته وتدعى أنهم التقوا به هى التى جعلت المؤلف يشك فى صحتها ويصف دائماً بأنهم ليسوا محل ثقة. (المترجم).

(٢) عوارف المعارف: هو الكتاب الذى ألفه شهاب الدين السهروردى ويعتبر دستور الفرقة السهروردية.

معين الدين بقطب الدين بختيار كاكى (ت ١٢٣٦م/٦٣٣هـ) الذى أصبح - فيما بعد - خليفته فى دلهى ، وقد ذهب معين الدين إلى دلهى عام ١١٩٣م/٥٨٩هـ ، ثم إلى أزمير ، مقر حكومة هندوسية هامة ، حيث استقر نهائياً حتى توفى عام ١٢٣٦م/٦٣٣هـ ، وقد أصبح ضريحه مركزاً مشهوراً للزيارة ^(١) .

أحد المبتدئين على يد قطب الدين بختيار يدعى فريد الدين مسعود المعروف باسم جانجى شاكار (١١٧٥ - ١٢٦٥م) يعتبر هو المسئول الأول للتعريف والإنتشار الواسع لهذا الخط ، إذ علم الكثير من الخلفاء الذين توجهوا إلى أماكن مختلفة بالهند ، وبعد موته حافظوا على خاتماواتهم كمعاهد مستقلة وأصبحت الخلافة فيها موروثه ، والأشخاص المهمون فى السلسلة الشيشتية هم نظام الدين أولياء (ت ١٣٢٥م/٧٢٥هـ) وخليفته ناصر الدين شراع الدهلوى (ت ١٣٥٦م/٧٥٧هـ) الذى عارض السياسة الدينية لمحمد بن طلق ، ومن النظامية تفرعت الكثير من الفروع وقد وجد خط منفصل هو الصابرية المشتقة عن علاء الدين على أحمد الصابر (ت ١٢٩١م/٦٩١هـ) .

(ح) السهروردية الهندية :

فى المجلات العربية والفارسية نسب قليل من الشيوخ أنفسهم مباشرة للسهروردى مثل الموالين من فئات (الطوائف) فى التراث الشاذلى الذين يدعون بأنهم شاذلية ولكن السلسلة السهروردية انتشرت فى الهند كمدرسة

(١) فى الأصل : للحج . راجع تعليقنا السابق . (المترجم)

من النسب الصوفى لتصبح واحدة من الطرق الكبرى ، أما شخصياتها البارزون فكانوا نور الدين مبارك العرنوى ، وهو تلميذ لشهاب الدين الذى كان ضريحه مشهوراً بالهند (فى دلهى) . وحמיד الدين بن ناجور (ت ١٢٧٤م/٦٧٣هـ) وهو الخليفة الشهير بشهاب الدين إلى أن نقل ولاءه إلى الشيشتى ، وقطب الدين بختيار كاكى ، أما رجل الدعاية الرئيس فى السند والبنجاب فقد كان تابعاً آخر هو بهاء الدين زكريا (ت ١١٨٢ - ١٢٦٨م) من أصل خراسانى ، الذى عمل فى مولتان ، وخلفه ابنه الأكبر صدر الدين محمد عارف (ت ١٢٨٥م) واستمرت الخلافة فى نفس العائلة، ولكن أيضاً منه تشعبت أعداد كبيرة من الخطوط المستقلة ، وبعضها أصبح معروفاً فى الهند كفرق غير شرعية ، وقد أصبح أحد الخطوط المعتدلة وهم خلفاء جلال الدين سيرجنوشى البخارى (١١٩٣ - ١٢٩١م) فى أووش مركز إنتشار هام .

وعلى العكس من الشيوخ الشيشتين - الفرقة الوحيدة النشطة فى الهند - فقد اقتفى بهاء الدين سياسة دنيوية ، مرتبطة بالأمرء ، متقبلاً التشريف والثروة ، مكوناً لثروته الكبيرة ، وقد اتبع هو وأتباعه خطأ معتدلاً مسائراً العلماء ورافضاً السماع ^(١) بالصورة التى انتشر بها بين الشيشتين.

(١) السماع هو من المصطلحات الصوفية الهامة ، والمعنى الحرفى للكلمة يعنى التلاوة العلنية، وقد تكون هذه التلاوة منغمة أو مصحوبة بالألحان فى بعض الأحيان . ولكن هذا المصطلح له أبعاده العميقة الأخرى عند الصوفية ، والملاحظ أن المؤلف يشير - غالباً - إلى المعنى اللفظى للكلمة. (المترجم)

الفصل الثالث

تكوين الطوائف

تكوين الطوائف

بينما الطريقة هي الأسلوب أو المنهج فإن الطائفة هي التنظيم أو المنظمة ورغم ان الخائفه كانت توصف بحق بأنها طوائف ، وطالما أنها كانت منظمات من جماعات منفصلة فلم تكن هي الفرق كما نعرفها ، أما اكتمال تطورها كطوائف أو فرق بهذا المعنى المتخصص خلال القرن الخامس عشر فقد تزامن مع نحر الامبراطورية العثمانية .

أما المغرب فقد تزامنت هذه المرحلة مع ظهور الشريفة ومايسميه الفرنسيون : مشيخه الطرق maralo ourisme وفي الحقيقة هناك أربعة مناطق للتغير الهام وهي : فرس وآسيا الوسطى ، والاناطول .^(١) (الروم) ، والهند ، المغرب .

لقد حدث التطور الكامل لرواء التصوف المتنوع في المناطق الإيرانية وفي نفس هذه المناطق حدث ارتباطها بحياة الناس العاديين خلال الدراويش المتجولين الأيرانيين والأتراك ، ثم جاءت الغزوات المغولية ، منذ حوالي ١٢١٩م حين بدأت الحركات المغولية داخل خراسان وحتى ١٢٩٥ م كانت آسيا المسلمة خاضعة لسيطرة حكام غير مسلمين وأصبح الاسلام من وضعه كدين للدولة ، ولكن تولى غزان خان الحكم (من ١٢٩٥ م إلى ١٣٠٤ م) أصبح الاسلام الدين الرسمي مرة أخرى في آسيا الغربية ، ولكن كان هناك هذا الاختلاف عن وضعه في ظل الحكومات السابقة وهو أن الصوفية قد حلوا محل العلماء كأوصياء للاسلام عند المغول كممثلين مهمين للدين وأثناء هذه الفترة أصبح الصوفيون - في نظر الناس - ممثلين الدين بطريقة جديدة . وبعد موتهم فقد ، استمر الصوفيين في ممارسة نفوذهم ، وأصبح المقام وليس المسجد هو رمز الاسلام ، فقد أصبح المقام وهو منزل الدراويش وحلقة منشدى الذكر ، هي الصيغ الخارجية للدين الحي في نظر الايرانيين وكذلك كان الاتراك والتتار ، وقد استمر هذا الوضع .

١- هي آسيا الصغرى أو تركيا الحالية ، أما وضعها بـ (الروم) فيرجع إلى أنها كانت تعرف باسم «بلاد الروم» قبل الفتح الاسلامي لها . المترجم

أما تيمور الذى أزاك الدول الباقية واللاحقة التى تشكلت بعد انهيار النفوذ المغولى - فقد كان شيئاً ولكنه اظهر احتراماً شديداً للأولياء ومقاماتهم ،ولتى كان قد بنى منها الكثير أو اصلحها.

واصبحت الأناضول . حيث تبع انتشار الاسلام حركة الانترك غربا من القرن الثالث عشر إلى أن أصبح العثمانيون قوة عالمية وقاموا بتنظيم الحياة الدينية للمناطق التى حكموها - أصبحت الأناضول مسرحاً للتفاعل والفوضى الدينية ، وليس من السهل الحديث عما كان يحدث هناك وكانت الحكومات الغازية (٢) للأناضول فى القرنين الثالث والرابع عشر بهدف تدمير التدعيم الدينى قد ربطت نفسها بالمنطقة الاسلامية الوحيدة الموجودة فى مناطق الحدود المتاخمة والتى كان منها بعض عناصر نشطة-وهم الدراويش الانترك المتجولين أو ما يطلق عليهم بالتركية «البابات» من آسيا الوسطى الذين صاحبوا وتبعوا ودعموا الثوار . وقد وفرت الفرق برمزيتها المستعارة وصيغ الدخول أو التحاق بها وسيلة لتدعيم وتأييد تكريس الغازى كمحارب مخلص فى سبيل الاسلام .

ويكتب بول ونيك . Pavlwittek (٣) فيقول :

«نجد فى السيراتاريخيه لشيوخ المعلقين التى كتبها «الأفلاكي» (٤) فى

(١) تيمورلنك : فاتح آسيا ، ولد بالقرب من كشى من أعمال ما وراءالنهر سنة ١٣٣٦ م وفى عام ٧٨٢ هـ سنة ١٣٨٠م غزا تيمور بلاد فارس فبدأ بتجراسان فدانت له ، تم فتح جرجان وما زتدران وسجستان الواحدة بعد الأخرى مات فى عودته من حملته له على المغول.... وقرب إليه رجال الدين وأصحاب الطريقة النقشبذية الجديدة ، وكان يصطحب فى غزواته حاشية كبيرة من رجال الدين والعلماء والادباء ، داخرة المعارف الاسلامية ١٠ / ٢٩٩ (المترجم)

(٢) نسبة إلى «غازى» لقب الأسرة الحاكمة ، وكلمة غازى تعنى فى الأصل للغوى مجاهد أو محارب . (المترجم)

(٣) فى كتابه «قيام الامبراطورية العثمانية» ط ١٩٥٨ ص ٥٩ . المؤلف

(٤) هو شمس الدين احمد الافلاكي صاحب كتاب «مناقب العارفين» والذي يرجع اليه المؤلف كثيراً (المترجم)

حوالى منتصف القرن السابع عشر أثاراً واضحة للاحتفال بمنح لقب «غازى» يمكن مقارنته بمنح لقب «فارسى» فى الغرب ، وأصراراً كيف ان أحد الأمراء قد نصب كسلطان للغزاه على يد شيخ طريقة دراويش المعليف . فقد تسلم من يد الشيخ عصا أو صولجان الحرب والتي وضعها الشيخ فوق رأسه بنفسه قائلاً: بهذه العصا سوف أخضع كل انفعالاتى ثم اقتل كل أعداء الدين .

وهذا الاحتفال يعنى ان الأمير قد قبل الشيخ كرئيس له . كما توضح كلماته أن صفات الغازى تتضمن أيضا الالتزامات الدينية .

وأثناء فترات السلاجقة والعثمانيين الاوائل كانت الهرطقية أو الابتداعية هى السمة البارزة للكثير من ممثلى الاسلام ، خاصة فى الاناضول الشرقية والجنوبية ، فكثير من الباهات أو الدراويش كانوا شيعة حمر الرؤوس ^(١) وحروفين ^(٢) وآخرون كانوا قلندريين ^(٣) وأبدال وهى كلها أسماء تغطية «تركية»

كانت الياسافية المنتشرة من التركستان هى «طريقة» للمتجولين الذين اعطاهم ارتباطهم بأحمد الياساقى سلسلة نسباً روحياً اى تركيا مميّزاً ومن الموروثات المتنوعة للإتجاهات الاسلامية الهرطقية والخرافات الاناضولية النصرانية والتركية جاءت الفرقة البكباشية والتي كانت غير محدودة فى البداية ثم أصبحت منظمة ومركزة بدرجة عالمية .

(١) لكى يتميزوا عن الحروفيين الذين كانوا يضعون اللباس الأبيض على رأسهم ويدهم اشارة الى الكفن الذى يلبسه جنود المهدي فى مبايعتهم له على الموت . (المترجم)

(٢) لا شك ان الحروفية نشأت وظهرت فى أيام تيمور، وبعد فضل الله بن عبد الرحمن الحسينى اولد سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) وت سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م مؤسس الحروفية . وكانت دعوته مبينة على انه خليفة الله كآدم وعيسى ومحمد اجتمعت فيه مثل الصوفية والشيعة لإنفاذ العالم بالدم .

والحروقة ، كما يوحى اسمها ، فرقة جديدة اعتمدت على النتائج التى توصل اليها الباحثون فى الحروف منذ القديم ودفعوا بها فى عجلة التطور واستغلوها بحيث كونوا منها دنيا كاملاً يتخذوا أصوله من قيم الحروف العددية تم التصرف فى الأرقام . فالحروفية دين صوفى شيعى مغالى .

انظر : الصلة بين التصوف والتشيع . كامل الشيبى ٢ / ١٥٥ (المترجم)

(٣) سبق التعليق عليها المترجم

وان كانت محدودة بحفزها نظاماً دينياً فى نطاق ضيق ونظاماً لأماكن
الايواء ولها ارتباط بفرقه «الفتوة» العسكرية .

وهناك اتجاه تركى آخر نشأ من هذا الاطناب بمنطقة تبريز^(١) مظهراً
اتجاهاً ملامتياً قوياً . أصبح مميزاً بارزاً كالحلوانية والبيرامية وقد استمرت او ظلت
هذه الفرق غير متماسكة ومنقسمة تفرخ كثيراً من الفرق التركية المتميزة ،
ولكنها انتشرت أيضاً من نطاق واسع فى العالم العربى فى صورة الفرق التى
أخذت طابعها المحلى .

ذكرنا ان هذه المرحلة الأخيرة من التنظيم قد تزامن مع تأسيس الامبراطورية
العثمانية «حوالى ١٤٠٠ كم» كان العثمانيون هم سادة الاناضول وانتصروا على
المماليك السوريين والمصريين عام ١٥١٦ و ١٥١٧ م

وفى تركيا تحقق توافق فى ظل العثمانيين نتيجته تسامح ثلاثه اتجاهات
دينيه متوازية هى : الفقه السنى الرسمى والتكايا الصوفية وعقيدة الشيعة .

المذهب الشيعى الذى لم يكن مسموحاً به فقد أضطر للبحث عن ملجأ
داخل الجماعات الصوفية . وقد كانت البكتانسية^(٢) بين هذه الجماعات هى

(١) تبريز : عاصمة الاقليم الفارسى اذربيجان ، وهى احدى البلاد الهامة الواقعة بين استنبول والهند ،
فتحتها العرب سنة ٢٢ هـ الموافق ٦٤٢ م يقال ان زبيدة زوجه الخليفة هارون الرشيد هى التى امرت
بتشيد هذه المدينة على هذا النحو . دائرة المعارف الاسلامية ٩ / ١٧٦ المترجم
(٢) البكتانية : كما أشرنا الى أنها تنسب الى خنكار الحاج محمد بكتاش الخراسانى النيسابورى
المولود فى نيسابور سنة ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م وينسب خنكار هذا نفسه الى انه من اولاد ابراهيم بن
موسى الكاظم بن جعفر الصادق وانه تلقى العلم عن الشيخ لقمان الخراسانى الذى أمره ان
يسافر الى تركيا فى زمان السلطان اورخان العثمانى .

والطريقة البكتاشية مزيج كامل من عقيدة وحدة الوجود وعبارة المشايخ وتأليفهم وعقيدة الشيعة فى
الأئمة . ولقد دخلت الطريقة البكتاشية مصر على يد قبوغوستر ، وبعد حل هذه الطريقة فى تركيا
على يد السلطان محمود الثانى . أصبحت مصر هى المقر الرئيسى لهذه الطريقة من يناير
١٩٤٩ راجع فى ذلك .

الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة د. عبد الرحمن عبد الخالق مرجع سابق ص ٤٣٣ وكذلك

دائرة المعارف الاسلامية ٧ / ٤٦٧ المترجم

التي وفرت لها أقصى تعبير . أما العثمانيون خلال مهمتهم لبناء أو تأسيس نظام إداري مستقر فقد اعتمدوا على مجموعة العلماء المنظمة التكوين كعمود فقرى أو أساس للنظام ككل . وقد أصبح تأسيس المدارس سمة لهذا الاخلاص . فقد بنت هذه المدارس في برزة نيقيا - على سبيل المثال - في أعقاب انتصارهم في ١٣٢٦م ، ١٣٣١م^(١)

ولكن كان للفرق أيضاً مكانها فقد أصبحت التكايا والزوايا أكثر انتشاراً في المدارس وكان الاختلاف الأساسي هو مبني كانت المدارس تتشابه فيما عدا الحجم والسمعة والأداء للمتطلبات الرسمية للإسلام .
فإن أماكن العبادة من كل الأنواع تخدم كل حاجة دينية .

أما في الأراضي العربية فكان هناك فرق واضح بين «الخاتقاوات» والمؤسسات الصوفية الأخرى فالخاتقاوات التي كانت الحكومة تحدها وتنظمها من البداية وهو الثمن الذي تدفعه (للحكومة) للاعتراف الرسمي والشيء هذه الخاتقاوات كانت تضعف وتتلاشى عندما تفشل في أن تصبح متكاملة مع تقديس الولي ، وبالتالي فإن المنظمات الصوفية مالت لامتصاص الحركات الشعبية طالما كانت هذه هي الطريقة أو الوسيلة الوحيدة التي تبقى أو تستمر بها هذه الحركات الروحية .

وطوال تاريخ هذه الامبراطورية التي شمل نفوذها العالم العربي كله تقريباً (حيث كانت تونس والجزائر دوله تابعه ، ولكن ظلت مراكش خارج نفوذها) فقد لعبت الفرق «الصوفية» دوراً هاماً في الحياة الدينية والاجتماعية وحتى السياسية وعندما سقطت الدولة العثمانية فإن هذه الفرق تحطمت كذلك .

في نفس الوقت الذي أصبحت فيه الحكومة العثمانية قوة عالمية كانت هناك فرق صوفية تمد فارس لأول مرة منذ أن فتحها العرب بأسرة حاكمه دينها الرسمي هو المذهب الشيعي ومن الطريف ان المنطقة التي نشأت بها هذه الحركة وهي أذربيجان وجبلان هي المكان الذي نشأت وترعرعت فيه حركة الدراويش

الأتراك الذين أظهروا ومارسوا نوع معروف من الاسلام^(١) الذى انتشر بالاناضول
هذه كانت تختلف تماما عن التيار الصوفى الفارسى ، والتى انت منها
المولوية مؤثرة فى القطاع الايرانى ، والتى وفرت أيضا الدافع والقوة البشرية المؤيدة
للحركة الشيعية الكبرى للصفيين^(٢) .

وقد استمر النظام بوضعه نظاما تركيا كبيراً لمدة طويلة بعد أن أصبح حركة
عسكرية ، وكان له اتباع أقوياء فى مناطق او انحاء آسيا الصغرى بل ان التراث
البغدادى قد اثر على الدراويش الأتراك ، ولكن خلال تيار آخر يرتبط بالولى
الكردى «أبر الوفا تاج العارفين» خلال الدراويش الباس الخوراسانى ،

هذا التطور للفرق والارتباط الكامل لعقيدة الولى بها ساهم فى تدهور
التصوف كطريقة زاهدة فقد ضم الاستبصار الروحى واصبحت «الطريقة الصوفية
معبدة وظاهرة» .

ومنذ هذه الفترة - ما عدا فى فارس (ايران) - لم تعد الكتابات الصوفية
تظهر أو تعبر عن أصالة حقيقية ، انحصرت هذه الكتابات فى التجمع والمراجعات
والتبسيطات والتكرار الذى لا ينتهى ، والزخرفة والحواشى على الأفكار الرئيسية
القديمة ، المبينة على كتابات الزهاد الأوائل كما كتبوا تنويعات على قصائدهم
فى التحميس والموالد فى نثر مسجوع ، وسلسلة من التضمرات مثل «دلائل
الخيرات» للغازولى والكتيبات التى تعنى بالنواحي الفنية للفرق والتفاصيل المتعلقة
بالعلاقة بين الشيخ وتابعيه والقواعد المنظمة للروايات والابتهاال ودراسة الطقوس
الدينية كما ظهر العديد من مجموعات السير التاريخية عن الأولياء (طبقات
الأولياء) او الحكايات الخالصة من كرامات الأولياء مثل (مناقب العارفين) ومع

(١) نوع معروف من الاسلام . سبق التعليق على مثل هذه العبارات (المترجم)

(٢) الصفيون: هم الاسرة الحاكمة لفارس (ايران الحالية) منذ عام ١٥٠٢ حتى عام ١٧٠٦ :

أسسها اسماعيل الأول وسميت باسم خلفه صفى الدين ، ومؤسسها هو الذى أعلن المذهب
الشعبي الطابع الدبنى الرسمى للدولة .

(المترجم)

«الاقوال» او المجالس وهى مجموعات لبعض احاديثهم والمكتوبات (المراسلات او الخطابات) ومن الكتاب الأصلاء القلائل العرب نذكر «عبد الغنى النابلى» تون ١٧٣١ م، ١١٤٣ هـ

وطريقة التى تفرغت إلى خطوط كثيرة منذ بدايتها هى النقشدية وكان متسكا بقوة الجانب الايمانى للتصوف وبينما قد يكون حقيقيا - كما تؤكد الكتاب الدينين ان التعبير الروحى وثيق الارتباط بتطور وقوة : القيم العقيدة للدينون تشدد «الفقه» «والكلام» فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين قد ادى على الاقل قد اسهم فى تدهور «التصرف بل ربما كان كلاهما علامات اكثر منها أساساً للضعف الروحى الاكثر عمقا .

لقد أوضحنا ان «الطرق» كانت فى جوهرها مدارس مصرية واثناء هذه المرحلة الثالثة فقد طور أنشأ الرجال الذين ربطوا أنفسهم بهذه التقاليد الأقوم فرقا جديد ، باستادات الممتدة كلا الاتجاهين منهم أنفسهم كمناطق مركزية «كما يقول أبو الفضل العلامى : اى روح مختارة . وخلال كبح شهوات النفس الأمانة . وفى عبادة الله- تدخل دافعا للسلوك والتى يستمر ابتناؤها الروحين فى تعاقب للمحافظة على إضاءة نور العقيدة ، يعترف بها كمؤسسة لخط جديد»^(١)

ليس من الممكن عند نقطه معينة نقول هنا ان الطريقة المنتسبة لشيخ ما قد تماسكت وتحولت إلى طائفة باكثر مما يمكن ان نقول هنا تبداً : «الطريقة

(١) ابو الفضل الملامى فى كتابه «عنى أكبارى»

المؤلف والكتاب - هنديان ، وقد حقق هذا الكتاب ونشرة جاءيت Jarett . H.S. ونشر فى

١٨٩٤

وتوجد اشارات إلى طوائف تحمل أسماء مشاهير الصوفية القدماء وهذه الطوائف قد تكون نشأت عن طريق معلم تحمل نفسه لسية أو بشكل أكثر شيوعا خلال رغبة الشيخ فى ربط نفسه بتراث معين من الماضى ، متلقيا المواقف والقبول خلال حلمه ، وقد استت زوايا للدراوش البسطامية فى القدس وجرون فى حقوق الثامن الهجرى تنتسب الى الصافى البسطامى (توفى عام ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ م) ، وتزعم هذه الفرقة ان طبغور البسطامى هو شيخها الأصلى ، عن طريق توليه روحية خلال أحدى الرؤى . من كتاب راغب الطباخ «إعلام النبلاء» فى تاريخ صلب المؤلف

الشاذلية عدا فيما يتصل بأنها تبدأ مع الشاذلي ولكننا نعلم متى بدأت أغلب «طوائف» القرن الخامس عشر ، وقد تفرغت الكثير منها إلى مئات «الطوائف» المنتسبة إليها فالزاوية الرفاعية . التي زارها ابن بطوطة كانت - بالفعل طائفة - مكتملة في اتجاه الرئاسة الكثير من الفرق لتطبع وراثته اما في السابق ، فقد كان الرئيس يعد تابعا ليخلفه . فاذا فشل هذا ، فقد ينتخبه المریدون ، ولكن الآن فإن خليفته يعد بدرجة متزايدة او ينتخب من بين عائلته .

وقد أصبحت الفرق مؤسسات ذات طابع ترابطي واقترب اعضاؤها الرسميون من طبقه الوعاظ اكثر من اقترابهم عن طبقة أخرى في الاسلام بينما كانت الزوايا معادلة للكنيسة المحلية وتوقف الشيخ عن التدريس مباشرة ولكن يخول سلطته في التدريس والتلقين لممثلين (الخلفاء) وأحاطت شخصية الشيخ قداسة خاصة مرتبطة بالنفوذ المستمد من الولي المؤسس للطائفة والذي أصبح وسيطا بين الله جل جلاله والإنسان فاذا ميزنا المرحلة الاولى بكونها تؤثر على الفرد كعبد للمولى عز وجل والثانية كخاضع للقاعدة فان هذه المرحلة اذن قد توصف كخضوع لشخص يمتلك «البركة» رغم انها تحتوى - طبقا وعلى خواص المرحلتين السابقتين .

والصعوبات في توافق هذه الافكار مع عقيدة وشريعة الاسلام كانت ملحوظة لمدة طويلة فقد هوجمت الفرق بحرارة بواسطة المتعصبين مثل ابن تيمية^(١) . ولكن الآن وجد اتجاه مماثل عمليا فالمؤسس وورثته الروحانيون

(١) يقول ابن تيمية : أن الناس تنازعوا في طريقهم فطائفة ذمت التصوف والصوفية بوقالوا : إنهم مبتعدون خارجون عن السنة ، وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم افضل الخلق وأكملهم يعد الانبياء..... ويرى ابن تيمية أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله فقيهم السابق المعترف بحسب اجتهاده ، وفيهم المعتقد الذي هو اهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجهد فيخطيء ، وفيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب ، ويرى ابن تيمية أن من المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاصي لربه ، وقد انتسب إليهم طوائف من اهل البدع والزندقه ابن تيمية الفتاوى ١٧ / ١١ بتصرف ويتضح من هذا النص ان ابن تيمية لم يتجن عليهم وانما حكم بأنهم مجتهدون في طاعة الله ، والمجتهد عرضه للخطأ ، وذلك لابتداعهم وخروجهم عن اتباع السنن . وهذا الرأي لابن تيمية شديد لأنه لم يهاجمهم دائما ولم يمتدحهم تعصبا . وهكذا يجب ان يكون رأى العلماء .

(المترجم)

يؤكدون اخلاصهم «لسنة البنى (صلعم) كمرحلة ضرورية أولية في لائحة أو قانون المنظمة أو الفرنسة ، ولكن تعتبر هذه كمرحلة دنيا فقط من أجل العامه وقد ربطت الفرق واجباتهم اليومية «ذكر الأوقات» مع الصلوات المفروضة وذلك تلاوه الأذكار فوراً بعد اداء الصلاه ، رغم ان التقاليم الدينية المنظمة كان لها في الواقع نفوذا أقل وقوة محدودة عن تلك التي للفرق ولتبرير تعاليمهم وممارساتهم فشيخ الطرق نسبوها إلى النبی (صلعم) نفسه او الى الصحابه المباشرين والذين يرجعون إليهم نسيتهم^(١)

بالإضافة إلى ذلك فان مؤسس كل الفرق من القرن الخامس عشر حين اكسبوا صفتهم النهائية ، ادعوا انهم مأمورين بواسطة الرسول (صلعم) في الحلم^(٢) ليؤسسوا (طريق) جديد «او طريقة» واقعية ومثل هذه الطريقة تعرف باعتمادها على السلسلة الاب تتميز عنها في نواح فرعية فقط مثل أسلوب مختلف لاداء «التذكر» الاكثر اهمية كورد جديد مسلم للمؤسس بواسطة البنى (صلعم)^(٣) والطائفة التي تكون في جماعة منظمة وحيدة قد تتوسع أو لا تتوسع الى نظام اوسع من الراكز التابعة ، والبنى نفسه بكونه سلطتها الفاتحة او الخارقة فان الوحي التاريخي قد يستبعد عمليا إلى مكان ثانوي^(٤) ايا كانت الطريقة التي

(١) بمعنى ان يعطى هؤلاء الشيوخ كانوا يزعمون اتسابهم الى بعض صحابه الرسول عليه السلام المترجم

(٢) يبنى ان نفرق منذ البداية بين الرؤية والحلم فكما قال رسول الله - صلعم - الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ، وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله «صلعم» - من رأى في المنام فقد رأى حقا فان الشيطان لا يتمثل في صورتي» ومعنى ذلك ان تلك الرؤيا رؤيا صدق وتأويلها حق ، وأن الرؤيا نوع من انواع الكرامات . راجع الرسالة القشيرية ص ١٧٥ وما بعدها (المترجم)

(٣) التلقى عن الرسول عليه السلام - كما يزعم بعض الصوفية - يتم من الطريق الرؤى ويوضح لنا الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال هذا الحال فيقول : من أول الطريق يتبدى المكاشفات والمجاهدات ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الانبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويتقبلون منهم قوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .. المنقذ من الضلال : للغزالي تحقيق د/ عبد الحلیم محمود «دار الكتاب» المترجم (٤) المقصود بالوحي التاريخي في هذه العبارة هو الوحي المنزل على الرسول عليه السلام أما انه تحيل مكانه ثانوية عند بعض غلاة الصوفية فهذا يشير الى ان هؤلاء الغلاة يقولون بأزليه الإلهام الصوفي

يستخدمونها في «أحزابهم» فان مشايخ كل طائفة يدعون انهم ما نحو القوى الدينية (البركة) والتي تمكنهم من توضيح الحقيقة بطريقة خارقة وكذلك الأتيان بالمعجزات ، وهي الوظيفة التي تكون مساندة غالباً ولكن ليس بالضرورة الأكثر أهمية .

بينما توريث «البركة» من المؤسس لابنه أو أخيه أو ابني أخيه قد بدأ في بعض الجماعات مبكر حتى منذ القرن الرابع عشر فانه لم يصبح منتشر حتى القرن السادس عشر ولم يصبح عاماً على الإطلاق . ففي المغرب أصبح مرتبطاً بتوقيع واحترام خاص للمقدسات الموروثة لدرجة ان الجماعات اكتسبت نقطة انطلاق انتسابها الى اسم ولي أو شيخ لقبيلة أو أسرة معروفة .

فالمغاربة - بمعنى ما - أعادوا توجيه ما فيهم - وهو تحول ارتبط في كثير من الحالات في حركة التعريب .

وكانت الخلافة في المولوية موروثه عادة ، واصبحت اليونسية ^(١) طائفة وراثية في دمشق منذ حوالي عام ١٢٥٠م ، كذلك طائفة دمشقية وراثية أخرى هي «السعدية» أو «الجباوية» ^(٢) والتي لازالت موجودة .

وبدأت القادرية «كطائفة» محلية في بغداد مع فروع عائلية في دمشق وحماه ، أما في حضر موت فان كيان «العلوية» زرعها العائلي فقد كانت وراثية داخل الأسرة اسمه بالعلوي ^(٣) فقد تأسسها علي يد محمد بن علي محمد توفي

(١) نسبة الى يونس المصري

المترجم

(٢) السعدية هي الطائفة عائلية تدعى ان سعد الدين الجباوي بن يونس الشباني والمتوفى عام ٧٣٦هـ - ١٣٣٥م) هو مؤسسها وقد أخذ الطريقة من الفروع اليونسية والرفاعية ، وأشتهرت مع محمد بن سعد الدين (المتوفى ١٠٢٠هـ / ١٦١١م الذي دخل الطريقة يمكنهم عاد الى دمشق لاستقلال بركته وقد أفلح في ذلك وأصبح واسع الشلاء ثم تلاه ابنه سعد الدين (المتوفى ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م) ورغم ان الفرقة لم تنشر (وهو غير يونس المصري) حيث سادت سمعيتها نتيجة لاحتفاء لانها النصف سنوية بالقاهرة التي كان شيخ الطريقة يركب فرساً يسير به نون الدراويش الساجدين على الأرض ، وقد منعت هذه الاحتفالات في عهد الخديوي توفيق المؤلف

(٣) كلمة «باء» تعني آل أو أسرة علوي وهي أسرة كان فيها الكثير من الصوفية وتحيد أصلها إلى جعفر

١٢٢٥ م . هذه الجماعة يمكن اعتبارها فقط كطريقة عائلية ممتدة وهناك فرع آخر من الخط العلوى ، وهو الطائفة العبد روسية ببلدة ترميم^(١) والتي أسسها ابو بكر بن عبد الله العبدروس (توفي فى عدن ١٥٠٩ م / ٩١٤ هـ) الذى اكتسب السلسلة الكبرى والذى انتشرت فرقته خلال حركة أعضاء والأسرة داخل الهند واندونيسيا ، والساحل الشرقى الافريقيا ولكنها دائما طريقة خطية ذات تأثير ضئيل .

وفى كل انحاء الامبراطورية العثمانية أصبحت الخلافة الوراثية واسعه الانتشار فى القرن الثامن عشر ، ولكنها ما تزال ممارسه عامه

اما فى تركيا نفسها فقد كانت الفرق الاكثر اهمية هى الخلواتيه والبكتاسنيه والمولويه والنقشبذيه ، ولكن طالما ان الطرق الى الله متعددة تعدد الارواح فهناك الآلاف من الطرق والفرق الدينية وقد كانت المولويه عبارة عن أخوه ارستقراطية فكرية ثقافية تجتذب أتباعها وحمايتها فى الطبقات التى تتفق مع هذه الشروط .

وقد ذكرنا من قبل أنها فرقة متمركزة^(٢) . ولم تنشر خارج آسيا الصغرى وكان حلم فرحان، أو غلو الذى أعقب حكم السلاجقه عام ١٣٠٠ تقريبا قد مال إلى تفصيل البابات ولكن مع مجيء العثمانيين فان المولويه استعادت قوتها .

وكانت الخلواتية فرقه شعبية قائمة على احترام المرشد وتعويضه والنفوذ، واشتهرت بدقتها للحسم فى تدريب الدراويش، وفى نفس الوقت تشجيعها للإنفرادية ، وبالتالي فقد تميزت بعملية اتسام ولعادة الإنقسام بشكل مستمر ، وقد اعتبرت كواحدة من «السلاسل الرئيسية أو منبع مدارس مختلفة ومع ذلك فإن أصولها غامضة او غير معروفة إذا أنها تفتقد الشخصية المرشده الرئيسية التى تقف خلفها مثل باقى الطرق ولكن على الاحرى تعتمد على ارتباطها الصوفى فى التراث الملاماتى ، وترجع فى اصلها إلى اشباه الزهاد الفرس أو الأكراد أو

(١) ترميم بلدة فى حضرموت

المترجم

(٢) يقصد المولويه .

الأتراك شبة الاسطوريين على التوالي مثل ابراهيم الزاهد (الجيلاني) ومحمد نور الخلواتي و(ظاهر الدين) «عمر الخلواتي» فاذا كان الاول هو الـ البير الأكبر^(١) صفى الدين (توفي في ١٣٣) مؤسس الصوفية فان تاريخ الغرفة يعطينا القليل من المعلومات فقد كان اسمه الحقيقي هو ابراهيم بن روشان السبخاني وقد توفي بين ٦٩٠ - ٧٠٠ هـ (١٢٩١ - ١٣٠٠ م) وكان درويشا متجولا مرتبطا بالسلسلة السهروردية وقد أمضى صفى الدين أربع سنوات - أمضاها بحثاً عن هدايته قبل لحاقه نهائياً بالطريقه بين تلال جيلان ، وعلى كل حال . فان عمر الخلوتي (الخلوي قبل أنه توفي حوالي ١٣٩٧ م - ٨٠٠ هـ) في قيصرية بسوريا يعتبر هو المؤسس بمعنى أنه هو الذي صاغ القواعد للصوفية الذين حملوا هذا التكليف .

كما توجد كذلك إشارة إلى آخره هو يحيى الشرواني (توفي ١٤٠٦ م) وهو مؤلف «ورد الستار» الخلوتي ومعلم عمر الروشاني بكونه الشيخ الثاني (المعلم الثاني) أنه مؤسس الغرفة الخلوتية ولذلك فان هذه الطريقة لم تكن لها مؤسس مطلقاً او رئيس واحد او مركز محدد ولكن بعض الصوفيه والمقيمين في الصوامع في منطقة أربيل^(٢) ذكروا ان نظامهم الزاهد وقد ارتبط باسمه^(٣) وفي هذه الطريقة فقد وجدت مدرسه صوفية كان تركيزها الاساس على الزهد الفردي والخلوة وكطريقة مميزه فانها انتشرت أولاً في شروان وبين الزكمانيين^(٤) في أذربيجان ثم انتشرت في مقار طوائف متعددة في الأناضول ثم سوريا ومصر والحجاز واليمن ودار الانتصارات العثمانية .

(١) PIR بير كلمة فارسية معناها الأكبر . وتطلق على المرشد الصوفي (الشيخ) في ايران والهند المترجم.

(٢) أربيل : والأرمنية ارتفعين ثم أصبحت ارتفيل . أقصى بلدان أذربيجان شرقاً . وأزدهرت هذه المدينة في عهد الصفرين على يلدشخ مورع هو اسحاق صفى الدين الذى لقب بـ (شيخ صوفية أربيل ، الذى أصبح ضريحه محط انظار الناس . راجع دائرة المعارف الاسلامية ٥٤١/٢ (المترجم)

(٣) أى يحيى الشرواني .

(٤) الذين يلبسون الصوف الاسود

كان آخر الدخول المبكر صيد للخط الخلوتى الى داخل الاناضول على يد محمد شمس الدين المعروف باسم «اميرسلطان» المتوفى (١٤٣٩م) والذي هاجر من بخارى إلى برزه وكان هو الملقب سليمان شلى (ابناحمد بن عمر المتوفى فى ١٤٢١م) وهو مؤلف «المولده» المولود التركى المشهور ، والمؤسسون الاساسيون فى تركيا والذين نشأت عنهم فروع مميزه هم حاجى بيرام (توفى فى ١٤٢٩م) ٥٢ الذى أظهر تراثا ملامتياً قويا،والشيخ^(١) عمر روشانى من تبريز (توفى ١٤٨٧م) وقد كان للتراث الخلوتى روابط قوية فى البداية مع تقديس الأمام «على» الاثنا عشرى كمايدو فى القصة القائلة بأن عمر الخلواتى قدشرع هيام اثنى عشر يوماً تشريعاً للاثنا عشر إماماً^(٢) ، ولكن شيوخ الطريقة عندما وجدوا مسألتهم القوية فى الاناضول اضطروا إلى تعديل أنفسهم للتوافق مع الحكم السنى ،أما تعاليمهم

(١) ديدى Dede كلمة تركية معناها شيخ أو درويش المترجم

(٢) الاثنا عشر إماما الذين يتخذهم الشيعة الإمامية أئمة لهم يتسلسلون على النحو التالى

١- على بن ابي طالب رضى الله عنه - رابع الخلفاء الراشدين ، وقد مات غيلة على يد الخارجى

عبد الرحمن بن ملجم فى مسجد الكوفة فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ. ويلقبونه بالمرتضى

٢- الحسن بن على ويلقبونه بالمجتنى .

٣- الحسين بن على ويلقبونه بالشهيد .

٤- على زين العابدين بن الحسين (ت ١٢٢) ويلقبونه بالسجاد .

٥- محمد الباقر بن على زين العابدين (ت ١١٤) ويلقبونه بالباقر

٦- جعفر الصادق بن حمد الباقر (ت ١٤٨) ويلقبونه بالصادق .

٧- موسى الكاظم بن جعفر الصادق (ت ١٨٣) ويلقبونه بالكاظم

٨- على الرضا بن موسى الكاظم (ت ٢٠٣) ويلقبونه بالرضى

٩- محمد الجواد بنعلى الرضا (ت ٢٢٦) ويلقبونه بالتقى

١٠- على الهادى بن محمد الجواد (ت ٢٥٤) ويلقبونه بالثقى

١١- الحسن العسكري بن على الهادى (ت ٢٦٠) ويلقبونه بالركية

١٢- محمد المهدي بن الحسن العسكري (٠٠٠٠٠) ويلقبونه بالهبة القائم المنتظر .

راجع للمترجم كتب

نشأة الفرق فى الاسلام ط٣ مكتبة النور ١٩٩٤

الشيعة تاريخ وعقائد ط١ مكتبة النور ١٩٩٠

المترجم ١٣١

العلوية فقد عدلت ، وثم أبعادها والحاقتها بمجموع تعاليمهم السرية .
وفيما يلي الطوائف الخلوية الأناضولية الأساسية .

الاحمدية : احمد شمس الدين بنماتيه (توفى ١٥٠٤م - ٩١٠هـ)

السنبلية : سنبليسان يوسف (توفى ١٥٢٩م / ٩٣٦هـ) شيختكبه خوجا
مصطفى باشافي اسطنبول، وقد خلفه مصلح الدين مركيز
موسى (توفى ١٥٥٢م - ٩٥٩هـ) والذي اشتهر بمسجد خديمه
(مذب بينى كايو) ببشره المعجزة.

السنانية : ابراهيم أم سنان ، توفى (١٥٥١م - ٩٥٨هـ) أو ١٥٥٧م /
٩٨٥هـ

الاعت باشية : شمس الدين اعين باشا توفى ١٥٤٤م / ٩٥١هـ .

الشعبانية : شعبان والى توفى (١٥٦٩م - ٩٧٧هـ) فى قسطنطيني

الشمسية : شمس الدين احمد سيواس توفى فى ١٦٠١م - ١٠١٠هـ

من مصادر أخرى ١٥٢٠م - ٩٢٦هـ وسميت ايضا التورية - السيواسية
باسم عبد الأحد نوري سيواس المنوفى ١٦٥٠م - ١٥٦١هـ اسطنبول المصرية او
النيازية: محمد نيازى المصرى من برزه (بورصة) المتوفى فى متعاه بجزيرة لمنوس
فى ١٦٩٤م - ١١٠٥ لها تكايا فى اليونان والقاهرة وكذلك فيتركيا .

الجراحية : نور الدين محمد الجراح ، توفى ١٧٣٣ / ١١٤٦ (او ١٧٢٠ /
١١٣٣) فى اسطنبول وسميت ايضا النور الدينية .

الجمالية : محمد جمال بن جمال الدين أقصر الدرنوى المولود فى اساسيا
توفى ١٧٥٠ - ١١٦٤ فى اسطنبول .

- أسس . الزاوية «الخلوتينه الأولى فى مصر ابراهيم جولشنى من أصل
تركى (من عميد ، وباريكر) وكان مريداً د. عمرو شينى من عبيدين (توفى
١٤٨٧ / ٩٩٢) . مؤيداً لابن عربى^(١) الشيوصوفى والذي أعلنت

ضده (فتاوى) الاعدام وقد وصل ابراهيم إلى منصبه وتبعه في سلوكه المخزى والذي عمل استاذة في ظله (٢). بعد الاحتلال الصفوى لتبريز اصبح ابراهيم لاجئاً ، واستقر أخيراً بمصر (١٥٠٧م) حيث استقبل بترحاب قنصوه الغورى . وبعد الاحتلال العثمانى اصبح شخصيته شعبية بين الجنود الاتراك ، وقد دبر اعداؤه مكيدة ضده في اسطنبول حيث استدعى للعاصمة ليدافع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة اليه ولكنه لم يفلح في ذلك فقط بل ترك خلفه ٣ تكيات في تركيا ومات في القاهرة ١٥٣٤م / ٩٤٠هـ في زاويته خارج باب زويلة .

تابع آخر لعمر روسبني والذي أسس زاوية في العباسية على مشارف القاهرة هو شمس الدين محمد (دمرداش توفي ١٥٢٦م / ٩٣٠هـ) زاهد مشهور آخر تحول من مملوك . جركس تلقى العهد على يده «عمر رويشنى» في تبريز وعاش في جبل المقطم لمدة سبعة وعشرين عاماً . هو شمس الدين بن عبد الله الجركش (توفي ١٥٤٧م - ٩٥٤هـ)

جاء أتباع الخلوتية في مصر بصورة رئيسية حتى الآن من أو ساط تركيه ، لكن اثناء القرنين الثاني عشر الهجرى / والثامن عشر الميلادى فإن الانتعاش الخلوتى قد نشر الغرفة بين المصريين والتي امتدت داخل الحجاز والمغرب وهناك خلوتى سورى كان زائراً متردداً على مصر يسمى مصطفى بن كامل الدين البكرى وقد سعى لتكوين جماعه أكثر تماسكاً وذلك بربط الجماعات المختلفة في فرقته البكرية وعلى كل حال ، فقد كانت الرابطة شخصية أما تابعوه الرئيسيون فقد انشأوا فرقتهم بعد موته ، وكان هؤلاء هم محمد بن سامى الحفنى او الحفناوى (توفي ١٧٦٧ / ١١٨١) وعبد الله الشرقاوى ، ومحمد بن عبد الكريم عاش في الفترة من (١٧١٨ - ١٧٧٥) والذي عرفت أنظمتهم على التوال باسماء الحفناوية ، والشرقاوية والسماثية ومنها اتت الفرد لى الأخرى وهى :

(١) فى الاصل ابن العربى ولا أدرى أصرار المؤلف دائماً على ذكره بابن العربى ، لا ابن عربى ، فلا بد من (الالف واللام) تفريقاً له عن القاضى ابي بكر بن العربى (الفقيه الاندلس) المترجم

(٢) من الواضح أن المؤلف ميمخايل بشده ضد ابن عربى ، وإن كان هناك الكثير من الباحثين الذين ينصفونه ويناقشون افكاره مزينين من الموضوعين المترجم

التوال باسماء الحفناوية ، والشرقاوية والسماثية ومنها اتت الفرد لى الأخرى وهى :

الرحمانية : (فى الجزائر وتونس ، أسسها ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجبوشنولى الجرجورى (١٧١٨ / ٢٨ - ١٧٩٣) وهو تابع للحفناوى وقد حدث تطورها المميز فى عهد خليفته على بن عيسى (توفى ١٨٣٧) ولكن بعد ذلك اصبحت الزوايا المختلفة مستقلة .

الدرويرية : احمد بن محمد العدوى الدروير عاش فى الفترة من ١٧١٥ / ١١٢٧ - ١٧٨٦ / ١٢٠١ وهو مؤلف المولد المنشور وتسمى الطائفة أيضا السباعية باسم خليفته ، احمد السباعى العيان وكلاهما دفنا فى نفس الضريح . بالمسجد .

الصادية : احمد بن محمد الصاوى (توفى فى المدينة ١٨٢٥ / ١٢٤١) وهو تلميذ الدروير واحمد بن ادريس وقد تمركرت فى الحجاز

الطيبية : وهى فرع سما فى السودان ومؤسسها هو احمد الطيب بن البشير (توفى ١٨٢٤ / ١٢٣٩) تلميذ السمانى ومن هذه الفرقة أتت الهدية فى السودان .

وهناك فروع مصرية صغيرة أخرى ضمت الضيفية والسلمية والمقازية أما البيرامتية فقد نمت بداخل نفس التراث مثل الخلوتية فهى «طريقة» مستقلة ، حيث أن حاجى بيرام الانصارى اشتق من خط صفى الدين الأربلى أما فروع الروحيون فقد ضموا :

الشمسية : شمس الدين محمد بن خمرة ، خليفة حاجى بيرام (١٣٩٠ / ٧٩٢ - ١٤٥٨ / ٨٦٣) وقد أو صله بحثه الطويل عن قائد ملهم فى النهاية الى بيرام والى ، الذى أعطاه السلطة واصبح صانعاً مشهوراً للمعجزات وكان له ارتباط بسلسلة السهرورية عن طريق زين الدين الكوفى (توفى ١٤٣٥ / ٨٣٨) وهو الذى بدا للحظ

السهروردي التركي المعروف باسم الزينية كان احمد أبناء شمس الدين هو الشاعر حمدي (حمد الله) (١٤٤٨ / ١٥٠٩) الذي إلى جانب تأليفه (للمولد) كتب «شنيوة» يوسف زليمة، وهي افكار صوفية شائعة وأصبحت شعبية جداً.

الاشرفية : عبد الله بن أشرف بن محمد (توفي ١٤٧٠ / ١٨٧٤، ١٩٣ / ٨٩٩ في شين لزنك) وكان شاعراً مشهوراً ويعرف عموماً باسم أشرف او غلو الرومي

العشافية : حسن حسام الدين عشافي توفي في اسطنبول ١٥٩٢ / ١٠٠١ .

اللامية البيرامية : الشيخ عمر سكينى من نجده توفي ١٥٥٣م

البيرامية . الشطارية : كتب تاريخ هذا الفرع اليزيد عبد الباقي توفي ١٧٤٦ / ١١٥٩

الجلوئية : عزيز محمد هدائي (١٥٤٣ / ٩٥٠ - ١٩٢٨ / ١٠٣٨) وكان منظم هذه الفرقة التي تنسب الى محمد جلوتى (توفي فى برزه ١٥٨ / ٩٨٨) وبالتالي سميت أحياناً الهدائية وهناك فروعها من محمد جلوتى هي الهاشمية (هاشم بابا توفي ١٧٧٣) القنائيه (؟)

وقد نقل البيرامية الى مصر ابراهيم بن تيمور خان بن حمزه وكنية القزاز المتوفى ١٦١٧ / ١٠٢٦ ، وهو أصلاً من البوسنة، وقد سافر كثيراً واستقر فى النهاية بالقاهرة كزاهد ملازم للضريح ، وقد أخذ «الطريقة من الحد الرومي من سيد جعفر» عن عمر سكين (المتوفى ١٥٥٣) من سلطان بيرام لذلك يوجد اسمان مفقودان بين الاثنين الآخرين^(١)

(١) يذكر المؤلف انتقال الطريقة البيرامية عبر هذه السلسلة من الأسماء بمعنى أن كل من هؤلاء أخذها عن يمينه فى السلسلة كما نلاحظ رواه الاخبار أو رواه الحديث النبوى ، لاحظ فجوة زمنية بين عمر سكينى وبين سلطان بلام المترجم

أما الذين مسندا كفروع أخرى للطريقة فقد تشعبوا إلى طوائفهم الخاصة وحين توفي احمد البدوي ^(١) في ١٢٧٦ م خلفه خليفه صالح عبد العال (توفي ١٣٢٢) الذى كان مسؤولاً عن بناء المسجد الضريح فى طنطا ومسؤل ايضاً عن رعاياه الممارسات الموجودة من قبل والتي جذبت بسرعة اليها العادات المصرية وقد ظهرت المجموعات التعددة التى نسبت نفسها الى البدوية رغم ان كل منها كان مستقلاً محلياً بصفة عامة

وكطريقة فان البدوية كان ينقصها إية خاصة مميزة مثل تلك التى ظهرت فى الشاذلية ، ولم تنتج أى شخصيات تعليمية أو كتاب ولكنها كانت عقيدة شعبية أكثر ، والتي كانت أعمالها وطقوسها فى طنطا فيكل الاوقات معرضه لا ستهجان «العلماء» رغم ان ذلك كان تأثيره ضئيلاً حتى العهد الحديث ^(٢)

وأكثر الخطوط المميزة أهمية وانتشاراً هذه الطريقة المصرية متوفرأً والتوسع فى الانتشار كانت البيومية على بن حجازى بن محمد ولد فى قرية بيوم بمصر السفلى ^(٣) فى ١٦٩٦م - ١١٠٨ / ٧

ذهب للعيش فى الزوايا الخلوتية لسيدى الدمرداش فى القاهرة ولكن فى حوالى الثلاثين من عمره ، أصبح منتسباً إلى فرع الحلبية المتفرعة من البداية والتي كان يتزعمها حفيده على الحلبي (المتوفى ١٦٣٤م / ١٠٤٤هـ) أصبح مشهوراً كشخصية بارزه وتأثراً للحضرة البدوية المزعجة والتي كانت تعقد ايام

(١) هو احمد بن على بن محمد بن أبى بكر البدوى المعروف باحمد البدوى - سبق ترجمته ولد سنة ٥١٦ بفاس بالمغرب وتوفى بطنطا فى سنة ٦٧٥ . قال ابن الملقن فى طبقات الأولياء : الشيخ احمد البدوى ، المعروف بالسطوحى ، أصله من بنى برى قبيله من عرب الشام ، نسلها لشيخ برى احد تلامذه الشيخ ابى نعيم احمد - احد مشايخ الطرق وأحد اصحاب سيدى احمد الرفاعى ... طبقات الاولياء لابن الملقن ص ٤٢٢

المترجم

(٢) كان العلماء ليس لهم تأثير تماماً مالم يقوموا بتجنيد أو إثارة تأييد السلطة السياسية ، وكانوا نادراً ما يستطيعون ذلك لان الحكام كان يعتمدون على الأولياء وممثلهم الذين كانوا يتوفرون لهم

التأييد الروحى المؤلف .

(٣) الوجه البحرى المترجم

الأربعاء في المسجد الخاص بسيدنا الحسين في القاهرة وبالتالي أثارت عداوة العلماء الذين حاولوا إيقافه عن استعمال المسجد وقد كان قادراً على ضبط نفسه متماسكاً ثم منحه متوفراً شيخ الإسلام كرسياً بالازهر .

كان هدف (على) هو اصلاح الفرقة البدوية بالعودة الى نفاثها الأصلي المفترض ، ولكن المتغيرات الشعائرية التي عملها وصموده الشخص اعتبره اتباعه كمؤسس طريقة جديدة ، وقد قرر هو نفسه أن هذا يمكن ان يتحقق بنجاح اكثر من محاولته اصلاح فرقه قديمه منقسمة في نفس الوقت وقد استعاد (الخروج) الحراء (الطائفة) للبدوية مع سلسلتها ، وكذلك خصائصها الأخرى إظهاراً لولائه للبدوية .

وأثناء رحلاته المتكررة إلى مكة كان ينشر ويتحدث عن طريقه وكسب اتباعاً سواء من المواطنين أو البدو في الحجاز وبعد وفاته (١٧٦٩م / ١١٨٣هـ) انتشرت الفرقة في اليمن وحضر موت والخليج الفارسي والفرات السفلى ووادي الاندلس .

في الهند والتبت وقد سبب موت «شيخ السجادة» الثالث محمد نافع «في وقت محمد علي» انشقاقاً في الفرقة وبدأت تضعف بينما كانت الخلوتية بانجهااتها الانقسامية ، واصبحت رئاسة كل «طائفة وراثية» . احتفظت البكتاشية بتنظيم مركزي قوى مع جماعات القرية المنتسبين ، وكانت منحصرة في الأناضول ومناطقها الاوربية وأدعت البكتاشية انها فرقه سنية ، رغم انها في الواقع كانت غير ملتزمة تماماً من الناحية الدينية وكانت تكن احتراماً قوياً لبيت علي» وبذلك يمكن ان تسمى فرقه شيعية^(١)

(١) ينبغي ان نلاحظ منذ البداية ان بعض الطرق الصوفية كانت من البدايات العظيمة التي دخل عن طريقها الفكر الشيعي والمذهب الشيعي الى العالم الاسلامي وأشهر هذه الطرق الطريقة البكتاشية التي تأسست في منتصف القرن السابع الهجري ، فهي طريقة شيعية قلباً وقالباً ، ومع ذلك نشأت في تركيا عاصمة الخلافة الاسلامية ، واستطاعت التسلل حتى وصلت الى الجيش الجديد (الانكشارية) بل وإلى بيت السلطان العثماني نفسه وأسهمت اسهاماً كبيراً في تخويل العقيدة السنية .

والاعتراف الفعلى للفرقة كسنية يبدو أنه يرجع الى الحقيقة بأن الارتباط المبكر للصوفين الاثراك مع الحركات «الغازية» والحركات النقاوية «التي ساعدت العثمانيين فى موجه غزواتهم حين اصبحت السلطة العثمانية اكثر فاكثرت تحت نفوذ الأصناف السلطانية»^(١).

تنظيم الغزاه لم يكن منتشرًا ولكنه وجد قوة جديدة وتنظيمًا قويًا فى البكتاشية .

وقد ارتبط هذا التنظيم باسم الصوفى التركى شبة الاسطواى^(٢) حاجى بكتاش من خرسان ، الذى هاجر إلى الاناضول بعد ان دمر المغول الدولة السلجوقية وبقيها الخلافة ، وربما يكون قد توفى حوالى ١٣٣٧ م / ٧٣٨ هـ ، حيث يشير تاج الدين الواسطى (١٣٧٥ / ١٣٤٣) إلى الفرقة البكتاشية (مشتقة من احمد الباساقى ، والفذ جدوانى الخ بدون إضافة «رضى الله عنه» بعد اسمه ، لذا فقد ظل حيا حوالى ١٣٢٠ وعرف فى العراق^(٣)

على كل حال فان تنظيم البكتاشية لم يتطور حتى القرن الخامس عشر وقد التحقت به القوات الانكشارية التى أسسها (مراد الاول) منذ نهاية القرن السادس عشر وكان أحد نتائج هذا الارتباط مع الانكشارين وأيضا مع السلطة . ان البكتاشية نادراً ما هو حيث بسبب العقيدة أو البدع ، وان كانت السلطات العثمانية فى بعض الاحيان تتخذ إجراءات عنيفة ضد المشايخ ولكن ذلك كان خلال انغماسهم فى العديد من الثروات الانكشارية وليس نتيجة لمعتقداتهم أو

(١) الأصناف هم اتباع مذهب الإمام ابو حنيفة النعمان أحد المذاهب الاربعة الشهيرة

المترجم

(٢) حاجى بكتاش او حاج بكتاش سبق ترجمته المترجم

(٣) كتاب الواسطى الذى يعتمد عليه المؤلف فى سرد هذه الروايات هو (ترياق المهيبين فى مناقب

خيرة المشايخ العارفين) (المترجم)

ممارساتهم ، ولكن بمجرد أن قضى على القوات الانكشارية في ١٨٢٦ بسقط
البكتاشيون معهم .

وقد عاقب العلماء السلفيون البكتاشيين بوصفهم اصحاب بدع
ومهرطقية ، فقتل بعضهم ودمرت تكاياهم ، وسلمت ممتلكاتهم إلى
النقشبنديين .

وعلى أي حال ولأنهم لم يكونوا فرقة عسكرية وإن كان لهم جذوراً عميقة
في حياة الناس فإنهم عاشوا تحت الأرض ^(١) وانقسمت جماعات منهم إلى
فرق أخرى ، وحين أصبحت الظروف أكثر ملاءمة فإنهم بدأوا في الانتشار مرة
أخرى .

والعقائد الابتداعية والشيوعية ولشعائر البكتاشية لم تستمد من صاحبي
بكتاش ، رغم ان لا توجد حاجة لافتراض أنه كان أكثر استقامة عن البابات
الأخرى إذ أن اسمه ببساطة هو مصطلح يوفر موضوع الانتماء أو الكنية وقديما
نحت الفرقة نتيجة لتوفير جماعات الانبعاث متحولة إلى وحدة متماسكة تضم
عناصر من مصادر كثيرة منها الشيوعية والمبذعة والسرية ، والتي تتراوح بين الشعائر
الشيوعية آسيا الوسطى والأناضول وكلامن التركية والمسيحية الرومية ، الى عقائد
الحرفيين ^(٢)

وحينما أعدم مؤسس الحركة الحروفية فضل الله بن علي بن استراباد علي
يد ميران شاه في ١٣٩٤ م / ٧٩٦ هـ (او ١٤٠١ / ٨٠٤) تفرق خلفاؤه شيئا
كان احدهم هو الشاعر الذكر الكبير نسيحي الذي غادر تبريز إلى حلب حيث
كون الكثير من الأتباع ولكن «العلماء» ابلغوا عنه السلطان المملوكي (مؤيدا)

(١) أي كجماعة أو فرقة سرية المترجم

(٢) ذكرنا من قبل ان الحروفية هي فرقة تتمسك باللفظ وتعتمد أصل العبادة ، ووسيلة الصلة بالله .

وهي فرقة شيعية فارسية لها تأويلها الخاص للقرآن الكريم ، كما ان لها طقوسها الخاصة في

المأكل والملبس المترجم

الذى نفذ فيه حكم الاعدام فى (١٤١٧ م / ٨٢٠ هـ) ولقد قيل ان «خليفة» آخر هو العلى الأعلى^(١) والذى حكم عليه بالأعدام فى الأناضول ١٤١٠ / ٨٢٢^(٢) قد ذهب إلى الأناضول وأنشأ هناك عدة عقائد حروفية حول ولى محلى مدفون فى الأناضول الوسطى ويسمى حاجى بكتاش^(٣) ولكنه كان واحد من كثيرين ، حيث انتشرت الدعاية عن الحروفيين على نطاق واسع ، حتى رغم اضطها وهم خاصه فى عهد بابا زيد الثانى ، ولم يرجع البكتاشيون أنفسهم افكار الحروفيين إلى بكتاش ، ولكن هذا التنظيم هو الذى احتملت السلطات قد اصبح مستودعهم ، وأكد استمراريتهم ، أما الدور الفعلى لأهل الحق اثناء فترة تكوين البكتاشية فهو غير معروف وعلى أية حال خلال القرن الخامس عشر عندما كانت البكتاشية تتطور إلى تنظيم شامل ضمنت معتقدات أخرى بجانب الحروفية من البيئة الجديدة وما حولها . بعضها كانت مسيحية الأصل وأخرى اتت من مصادر مثل الفقراء ذوى العمائم الحمراء^(٤) من شرقى آسيا الصغرى

(١) واضح من التسمية مدى خروجها عن المألوف وتعارضها الشديد مع المعتقدات الاسلامية الصحيحة المترجم

(٢) هناك على ما أعتقد خطأ مطبعى . فعلى الاعلى اعدام عام ٨٢٢ هـ وهو يوافق ١٤١٩ - ١٤٢٠ وليس كما أثبتته المؤلف ١٤١٠ . المترجم

(٣) بعد اعدام فضل الله اتفق خلفاؤه على الانتشاره فى بلاد المسلمين وكرسوا انفسهم لافساد وتضليل الناس ، كما أن من أطلق على نفسه لقب (العالى الاعلى) قام سرأ بتدريس كتاب «جاوران نامه» للمقربين منه ، مؤكداً ان هذا الكتاب يمثل معتقدات حاجى بكتاش «الوالى» وقد قبله واعتقه هؤلاء بجهلهم وغفوتهم واطلقوا عليه «السره» بمعنى أن ما يروح بما فيه يستحق القتل ولنا على هذا الهامش تعليق . فنقول: ان كتاب جاوران نامه المؤلف من تأليف على الاعلى (٨٢٢ / ١٤١٩ - ٢٠) وهو موجود بخزانه كميردج المخطوط OR. 1277 وهو يميز كتاب فضل الله الحروفى : جلال الدين فضل الله بن أبى محمد عبد الرحمن الاسترابادى الذوق عام ٨٠٤ هـ المسمى جاودان نامه كبير . وهو موجود بخزانه كميردج تحت رقم محفوظ EX 127

المترجم

(٤) كلمة الكزلباش quzilbash كلمة تركية معناها الفقراء الذين يرتدون العمائم الحمراء

المترجم

وكرديستان، وكثير من هؤلاء كانوا من جماعات البدو الرحل والقرى الذى انضموا مؤخرا والتي لقت وتعلمت الولاء لحاجى بكتاش باعتباره العامل الروحي فى الحياة الدنيوية .

والبكتاشيون الحقيقيون هم أولئك الذين لقنوا تماما داخل المقر ، وربما كان أول قائد لاي تنظيم بكتاش حقيقى هو باليم سلطان (توفى ١٥١٦ / ٩٢٢) والذى كان لقبه « الصانع الاكبر » الولي الناصر الثانى او الولي الخامس الثانى والذى يعنى هو المؤسس .

وطبقا للتقليد فإنه قد اختير لرئاسه الفرقة الرئيسية ^(١) أو التكية الأم فى كوى حاجى بكتاش (بالقرب من قمر شمير) فى ١٥٠١ / ٩٠٧ أما الرئيس المنافس فكان هو « الشليى » الذى اعترف بسلطه الكثير من جماعات القرية . مدعياً أنه يتحدد من حاجى بكتاش فقد سمع عنه انه على اتصال بقيام من « كالنذر أو غلو » الذى أيدته دورايش متعددون وتركمانيون والتي بدأ فى ١٥٢٦م وقد أصبحت هذه الوظيفة موروثه على الأقل منذ ١٧٥٠م بينما كان الديدى الرئيس المشتق من (باليم سلطان) رئيساً موارياً مختاراً .

هذه الفروض للأصول وتعقد المجموعات تؤيد الاقتراض بأن المجموعات المتعددة كانت تعتبر منشقة وعرضه للحكم بأعدامها فى ظل نوع الحكومة السنية والتي كان العثمانيون يتجهون إليها .

قد كسبت الحق فى المكان المقدس والملجأ تحت المظلة التى تحويها وتعملها كلها وهى مظلة التنظيم البكتاش .

ومن (باليم سلطان) انبثق النظام التلقينى البكتاش المنظم مع مبتدئين يقيمون فى التكايا والكائنه بالغرب من المدن وليس داخلها لتمييز عن جماعات القرى ، بل ان التنظيم ككل قد تكون من مثل هذه العناصر المتنوعة التى امتزجت بمرور الوقت لتعبر عن الاخلاص للمثال والعرض المشترك وبالمثل فإن

(١) البير أبفى Pir evi كلمة تركية تعنى الفرقة الرئيسية .

الشعائر والرمزية الاساسية بالإضافة إلى عادة الفردية التي كانت تمارسها فئة من دراويشهم وقد نسبت الى (باليم سلطان) ولكن منذ منتصف القرن الرابع عشر فان الطريقة فقدت حتى هذا الاتجاه ، فنرى زاهداً مثل ابن عباد يقاوم ويعمد نتيجة الجفاف الروحي لهذا العهد .

فى نفس الوقت ، فقد انتشرت صيغة شيعية من الانقطاع للعبادة قائمة على «الذكر» رغم انها تحت ممارستها بواسطة الحضر فقط وجماعات (الارابه)

سئل الشيخ ابو اسحاق الشاطبي (توفي ١٣٨٨ / ٧٩٠) عن شرعية طائفة نسبت نفسها للتصوف والتنظيم الذى سيجمع أعضاء هافى كثير من الليالى فى منزل أحدهم والذين قد يعتمدون ممارساتهم ببعض الهتاف منسجم النغمات ، ثم يتجهون إلى الانهال فى الفناء والتصفيق بالايدي والتفوه ببعض التعبيرات الصوفيه الزاهدة ويستمرون حتى ينقض الليل واثناء فتره المساء فقد يتقاسمون الطعام الذى أعده صاحب المنزل لكن كان المطلوب شيئاً أكثر ، وقد أتى هذا مع حركة «البركة» المعمه والتي انتشرت فى بدايتها فى الغرب فى اوائل القرن الخامس عشر وانتشرت فى المغرب بطريقة جعلتها قادرة على اختراق وتحويل وعى الناس العاديين ذاته ليس فقط أحياء الفقراء الحضريه ، ولكن فى سهول الوديان والجبال والصحراء ، هذه العملية من التغيير الاجتماعى ارتبطت أيضاً بموجه مقربه للتعريب ، ما عدا فى مراكش وقد غيرت موقف البرابرة نحو الاسلام ، وكان نفوذ المشايخ بدرجة جعلت قبائل بأكملها تعتبر نفسها منحدره من هؤلاء ، فكل الرجال الأنقياء أو المتدينين قد سموا أنفسهم الأشراف واصبحت البركة ليست مجرد منحة ولكنها شرع يمكن ان يتجه لأسفل ، وأن يورث الشهرة الشعبية لاي مدين مثلاً مصدرها ليس من تراثه الصوفى الذى حافظ عليه بل خلال تقوية احترام الضريح بواسطة السلاطين (الحكام) وقد نمت مؤسسات أخرى كثيرة حول خوارق الشيوخ الاوائل مثل تلك المرتبطة بأب محمد صالح المدفون فى رباط «الصفافى» على شاطئ الأطلنطى .

(١) سبق ان اشرنا انه فى افريقيا يوجد بلدان لم يدخلها الاسلام بجيوشه بل دخلها الدعاء بانكارهم ، وكان بعض اولئك الدعاء من اتباع الطرق الصوفية خاصة الشاذلية والقادرية

المترجم

وابو عبد الله محمد بن سليمان الجازولى مؤلف الكتاب الشهير (دلائل الخيرات) قد ارتبط اكثر من اى شخص آخر بهذا الاتجاه الجديد (الذى تميز كثيرا من الحياة الاسلامية فى المغرب وقد دخل للطريقة الشاذلية فى (تايط) بجنوبى مراكش على يد ابي عبد الله محمد بن أمغار الصغير وقد أظهر منحة المعجزات وأعترف به كولى ضم اتباعاً من كل الفئات اتباع فى طريقية .

وكان الطريق الصوفي (المنهج) قد ازدهر فى ذلك الحين بواسطة الوسيلة السهلة للارتباط بنفوذ أو سلطة أولئك الذين شرفهم الله جل وعلى . هذا النجاح للجازولى هو الذى جعل حاكم أصفى - بعد أن أقام الجازولى مركزاً بها يطرده وقد توفى مسموماً وفقاً لرواية اما فى عام ١٤٦٥م / ٨٦٩هـ او ١٤٧٠م / ٨٧٥هـ .

لم يكون الجازولى طريقة بل كانت طريقة هى الشاذلية ولا طائفة لكن نشأ عنه شيء اكثر عمومية وهى مدرسة مكرسة باهداف ودوافع جديدة قائمة على التركيز الشديد علىبنى (صلعم) واكتساب القوة من خلال ترتيب (دلائل الخيرات) وبالإضافة الى انبثاق الكثير من الطوائف عنه والتي أسسها اتباعه واتباعهم وانتشر الولاء بسرعة شديدة للدرجة أن الكثير من الفرق الاقدم (حقيقه كانت مراكز - زوايا) وانقرضت أو ذبلت .

أما الانتعاش الاسلامى اللاحق قد استمد القوة من اسباب أخرى ، وكان موجهاً ضد الاحتلال البرتغالى للأماكن الساحليه (بن ١٤١٥ - ١٥١٤) وامبرياليه المخزن^(١) الذى كانت أنشطتها قد وجهت لمدة طويلة نحو احتواء الطوائف الجديدة بكسب ولاء الشيوخ الكبار وموازنة أحدهم ضد الآخر ، وفى نفس الوقت ، فقد بين هذا كيف كان على كثير من القوى الشرقية أن تعتمد على الحركة الدينية كما لم يهرب أى قطاع من الحيناه المغربية من تأثيرهم او نفوذهم ، رغم انه كان كثيرا ما يكون على حساب روحانيتهم أما فكرة التقديس أو الطهارة قد فقدت تماسكها واصبحت صفة ميكانيكية ويمكن القول - بأوسع

(١) اسم حكومة مراكش

المعاني أنه بينما في التصوف الشرقي ظلت المثاره الفردية أساسية . فانها في الغرب قد اصبحت فقط شيعية حين أضفى عليها الطابع التجمعي .

كان المغرب هو منطقة «طريقة» لنفسها لا لفرق الميثقة من الجازولى لم تنتشر خارج المنطقة ، ولكن في المغرب نفسها فانها مع خط مواز كانت تعبر عن التاريخ الدينى حتى العصر الحالى ، وأمر الفروع الهامه كانت «العيسوية» ومؤسسها محمد بن عيسيعاش من ١٤٦٥ الى ١٥٢١م قد تلقى سلطته من احمد الحارثى (توفى بين ١٤٩٥ و ١٥٠٤) وهو تلميذ للجازولى ، والذي خلفه كشيخ لزاوية (مكنسه الزيتون) وقد تبنى الممارسات الزاهدة التى بها أصبح الدرايش محضيين أو ذوى مناعة ضد السيوف والنيران ، عن الرفاعية أو من أحد فروعها إما حين كان باعج او من رفيقه السورى «بيغان المحجوب الحلبى» الذى شاركه نفس الضريح ، وبعد خليفته الأول . استمرت الخلافة فى عائلة المؤسس ولكن مركز الغرفة تحرك الى أوزيرا بالغرب من ميديا حيث أسس حفيد المؤسس ماكل «الزاوية» الرئيسية حتى اليوم ...

ان الطريقة التى انعشت بها الثورة الدينية خطوط «البركة» القديمة يمكن ان تصدرها الفرقة الحنصلية وهذه الفرقة انبعثت من أبى سعيد الحنصلى فى القرن الثالث عشر ، وهو تلميذ لآبى محمد صالح (توفى ١٢٣٤م وكان ولياً نصيراً للمصافيه التى انعشت كطائفة مميزة بواسطة ابو ايمن سعيد بن يوسف الحنصلى وقد خدم الكثير من الشيوخ ولكن شيخه الملهم كان مصرياً شاذلياً وهو عيس الجندى الدمياطى الذى أعطاه قصيدة شعر تسمى (الدمياطية عن التسعة وتسعين أسماً للمولى عز وجل) والتى ألفها ابو عبد الله شمس الدين احمد بن محمد دمولانا) الدمياطى الديروطى (توفى ١٥١٥م / ٩٢١هـ) والتى اصبحت (ورد) الحنصليه وفى احد الأيام عندما كان يصلى بجانب ضريح ابن العباس المرسى بالاسكندرية تلقى الدعوة التى حددت رسالته الدينية ولكن الإجازة لنشر الطريقة والبدء فى الطريقه الشاذلية جاءته من (على بن عبد الرحمن التازمونى) المتقدم

(١) فرقه او طريقة مغربية

فى التقليد الجازولى المميز وقد بنى «زاويته» فى عيط مترف وتوفى هناك ١٧٠٢/ وفى ١١١٤ وفى ظل ابنه وخليفته ابو عمران يوسف توسعت الفرقة بدرجة ملموسة بين البربر من مناطق اطلس ولكنها ضعفت بعدان قتل يوسف على بن مولاى اسماعيل ١٧٢٧ قد تكون ارتباط حركة التغيير الجازولى مبالغاً فيها نوعاً لأنه بالاضافة إلى الحنصيلة فإن الكثير من الفرق المستقلة قد اعبدت تكوينها من العائلات الرابطة الأقدم .

أماتقديس العنبر للصوفية الاوائل مثل عبد السلام بن شين والتي أصبحت فرق زوايا منفردة فيبدأ أيضاً فى هذا الوقت ولكن المجال الاكثر اهمية للانتساب فينبثق من أبى الباس الرمى^(١) والوقائية المصرية وفيما يلي الفرق الرئيسية :

- الوقائية : المؤسس : محمد بن محمد بن احمد وفاء (توفى ١٣٥٨م) .
منبثقة من ابن عطا الله السكندرى (توفى ١٣٠٩ / ٧٠٩)
وتذكر هذه الفرقة لايضاح استمرارية التراث المصرى . السورى
القومى ، وهو أقدم من التراث المغربى ويتميز عنه تماماً .

العروسية : أسست حوالى عام ١٤٥٠ أو ١٤٦٠م على يد أبى العباس احمد ابن عروس (توفى فى تونس ١٤٦٣م والذى ارعى أيضاً ارتباطاته بسلسلة قادريه أما فرعها الليبى فهود السلامية) أسس ١٧٩٥ م

(١) هو احمد بن عمر بن محمد الاندلس المرسى الانصارى ، قال ابن الملقن : الشيخ العارف الكبير ، نزىل الاسكندرية ، صحب الشاذلى وصحبه تاج الدين بن عطاء الله السكندرى والشيخ ياقوت . مات سنه ٦٨٦هـ ، وقبره بالاسكندرية ، طبقات الاولياء ابن الملقن ص ٤١٨ . ويحكى عن أهميته فيقول الشعرائى « دخل - يعنى المرسى ابو العباس - على الشيخ ابا الحس الشاذلى فى القاهرة وهو يقرأ عليه كتاب المواقف للمتقربى ، وقال لى : تكلم يا بنى : بارك الله تعالى فيك ، اعطيت لسانا من ذلك الوقت ثم قال : والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشمرات وأمسك على لحيته لأنوها ولوحبوا على وجوههم ، ثم قال : إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات وعرف جميع اللسن الهاما من الله عز وجل .

انظر عبد الوهاب احمد بن على الشعرائى : الطبقات الكبرى ط القاهرة ١٩٢٥

المترجم

٢ / ١٤

على يد عبد السلام بن ساطم الاسمر الفيتورى من زلتين Zliten

الزروقية : فرقة مراكشية سسها أبو العباس احمد بن عيس البرنس المعروف بالزروق . ولد فى مراكش (١٤٤١م / ٨٤٥هـ وتوفى فى مصراته فى طرابلس فى ١٤٩٤م / ٨٩٩هـ أو بن عامى ١٥١٥م / ٩٢١هـ ، ١٥٢٤م / ٩٣٠هـ وقد درس لبعض الوقت فى زاوية أبي الصباحى احمد بن عقبة الحضري النبل ، وابن عروس أحد مدرسيه المتعديدين .

الراشدية أو اليوسفية : أسسها أمد تلاميذ احمد الزروق يسمى احمد بن يوسف الملبانى الراشدى توفى ١٥٢٤م - ١٥ / ٩٣١هـ هذيمه فى ملياته الفرق المتفرغة عن الفرق السابقة يمكن أن تذكر :

أ) الغازية : ابو الحسن بن قاسم الغازى (معروف عادة كغازى بلقاسم) توفى ١٥٢٦م وهو تلميذ احمد الراشدى .

ب) السهيلية : محمد بن عبد الرحمن السهيلي وهو أصلا من ينبع على البحر الاحمر (السعودية الان) وهو تلميذ ايضا لأمن الراشدى ومن بين تلاميذه المؤسسين لتفرق .

١- عبد القادر بن محمد : (توفى ١٦١٤م / ١٠٢٣هـ) وهو مؤسس الشيخية أو أولا وسيدى شيخ الأورانية . وفى حوالى ١٧٨٠ انقسمت إلى فرقتين الشراجة والحراية .

٢- احمد بن موسى الكرزازى : (توفى ١٦٠٧م / ١٠١٦هـ) وهو مؤسس الكرزازية .

ج) الناصرية : المؤسس هو محمد بن ناصر الدين الدرعى (توفى ١٦٧٤م / ١٠٨٥هـ) وقد تمركزت فى تمعوت فى وادى درعا ،

ومنها انبعثت الزيرية عم محمد بن عبد الرحمن بن ابي
زيان (توفي ١٧٣٣ م / ١٢٤٥ هـ) وهو معروف عموماً
كمولاي بوزيان الذي اسس «زاوية» قتاره وبمجرد ان امتدت
جذور المفاهيم الجديدة في المغرب ، فإن البربر المقيمين في
موريتانيا وساحل الحزام السوداني قد دخلوا تحت نفوذها
ومع ذلك فإن عمر الشيخ (توفي ١٥٥٣ م) من قبيلة عرب
الكونتا والذي كان يعتبر الداعية الاول قد لقن والتحقيق
بالقرن القادى (١)

وليس التراث الشاذلي الجزولي وهذا تفسير الانتشار الكبير للقادرية في
غرب افريقيا حتى أدخلت التيجانية (٢) في القرن التاسع عشر .

أما التكامل الكامل لتقديس الاولياء مع الفرق فهو ما يميز الانظمة هذه
المرحلة والطائفة توجد لنقل النبض المقدس أو بركة مؤسس ، والتراث الزهدى فهو

(١) أدخل الفرع القادري في فاس بالمغرب حوالى عام ١٤٦٦ على يد اللاجئين من اسبانيا بعد
هزيمة المسيحية المؤلف

يطلق المؤلف على هذه الهزيمة اسم استعادة النصر او الاسترداد Reconquest وفقاً لميولة الغيبة
بطبيعة الحال المترجم

(٢) التجانية : تنسب الطريقة التجانية الى احمد بن محمد بن المختار التجاني المولود سنة ١١٥٠ هـ
١٧٣٧ م ونسبته الى بلدة تسمى (بنى توجين) قرية من قرى البربر في المغرب ، وينسب نفسه الى
الرسول - صلعم - كما هي عادة كل من أسس طريقة صوفية ، سار اولاً في الطريقة الخلوتية ثم
أسس طريقة لنفسه سماها باسمه بعد استقراره في مدينه فاس بالمغرب وبنى فيها زاوية لمريديه وقد
ادعى التيجاني انه خاتم الأولياء جميعاً والغوث الأكبر في حياته وبعد مماته ، وأن ارواح الأولياء لا
يأتها الفتح والعلم الريانى الا بوساطته هو ، وأنه اول من يدخل الجنة هو وأصحابه واتباعه ، وأن
الله شفعه في جميع الناس الذين يعيشون في قرنه الذى عاش فيه ، وان الرسول اعطاه ذكراً
يسمى صلاه الفاخ بفضل أى ذكر قرىء في الارض سبعين ألف مرة بما في ذلك القرآن الكريم
راجع : الفكر الصوفى : عبد الرحمن الوكيل ص ٣٥٠ ، الصوفية في نظر الاسلام سمح الزين
ص ٤٤٦ (المترجم)

أمر ثانوى ، ورغم ان محمد بن عيسى مثلاً فى الفرع الشاذلى - الجازولى -
فان تأثيره - الذى كان قابلاً للانتقال عبر أخلافه كان بصفه أساسية أمراً شخصياً
له يكون أساسيا فى حداته .

ولكنها لم تكن تماماً عقيدة الولى تماماً لأن الرابطة بالتصوف تظل هامه
وتظهر فى التدريس وخلال الطقوس سواء الشخصية أو الجماعية مثلما تظهر فى
الاحزاب والذكر الاجتماعات الحضرية المتكررة والمتابعة .

وهناك مظهر آخر لهذه المرحلة هى انها وفرت وسيلة لاحتواء داخل
الاسلام - كل النواحي الخارجية والبعيدة فى الديانة الشعبية مثل «البركة» التى
تتجسد فى شكل لمسها والتعاويذ والتماثيل والوسائل الميكانيكية الأخرى للوقاية
والأمان .

وقد تزامن الاتجاه الجديد فى المغرب مع تطور الولاية أو المرابطية المميزة ،
وهى أكثر اتساعاً من الطوائف وأخذت الشريفة شكلها الخاص ^(١) بعد اكتشاف
ضريح مولاي ادريس الثانى فى ١٤٣٧م فى فارس فى عهد آخر الولاة المرينيين
عبد الحق بن على سعيد (توفى ١٤٦٥م وفى النهاية وصل حكم السعديين الى
السلطة ومنذ ذلك الحين لم يستطيع أحد فى هذه المنطقة أن يتأمل شغل أن
منصب ، سواء دين أو غيره ، ما لم يعترف به أنه من نسل البنى (صلعم) .
والحكم الشريفى لبنى سعد أسسه محمد الشيخ المهدي (توفى ١٥٥٧م) والذى
كانت محاولة للوصول الى السلطة قد بدأت عام ١٥٢٤ ، قد نجح بمساعدة
هؤلاء الزعماء الدينين .

كان للانتعاش المغرب تأثير ضئيل على مصر والاراضى العربية حيث كان
الاتجاه نحو التوافق (او الالتزام) الاكبر والاكبر بالتراث الشرعى ، على الأقل فى

(١) نسمع لأول مرة - من بركة الأمراء ، فى أواخر القرن الثالث عشر ، ومرتبطة بالأمير عبد الحق ،
فقد كانت بركته ذاتمة الصيت ودعوته مستجابة ولذلك؛ كانت سراويله وعطاء رأسه محل تقديس
واحترام كبير من عند بعض الناس الذين كانوا يأخذونها لزوجاتهم فى حالة الخاض لتخفيف آلام
الولادة المؤلف .

الفرق المعترف بها ولخاضعة للاشراف ومرافقة الحكومية ، وما حدث بالفعل هو ان العقيد المفروض على أعمال العقل كان فعالاً في كبح التصوف التأملى الفكرى ، لدرجة ان قليلا من الاستبصار الحقيقى الأصيل متوقفاً من الكتابات الصوفية ولكن الاتهامات الرسمية لم يكن لها تأثير على الممارسات الشعبية للفرق وخصوصا تقديس الأولياء ومع ذلك لم يكن هناك بالتأكيد أساق واضح ، فقد كان هناك رجال مثل شاهين وهو المتعبد الزاهد على جبل المقطم من ناحية ومن ناحية أخرى هناك الشعرانى ومعظم الاشكال المتطرفة من احتفالات الذكر والمولد

رغم ان الغرفة الشاذلية^(١) ظهرت فى الاسكندرية ، فان جزورها لم تمتد إلى سوريا حتى بداية القرن السادس عشر ، اما المسئول عن تأسيسها بصفة نهائية فهو الصوفى الراكش على بن ميمون بن ابى بكر عاش فى الفترة من ١٤٥٠ / ٨٥٤ الى ١٥١١ / ٩١٧ هـ فبعد مزاولته لأعمال لها متفاته والتى شملت فترة انغماسه فى قتال البرتغالين. فقد جرب الهداية والتحق بالفرع المتنبى فى تونس وفى سنة ١٤٩٥ / ٩٠١ رحل شرقاً الى القاهرة ومكة وسوريا وبروسه ثم عاد الى حماه (سوريا) ثم الى دمشق ، ولأنه كان من النحط الملامتى فقد رفض ان يحافظ على الخلوة او يلبس او مستعمل (الخرقه) ومنع اتباعه ان يلعبوا دوراً فى الحياة الاجتماعية العادية (خصوصاً طلباء الفانم من عظماء هذه الدنيا، ولم يحقق أى شهره فى العالم السورى إلى ان عاد من الروم (بروسه) الى حماه فى ١٥٠٥ / ٩١١ وقد ذهب الى دمشق، وهناك جذبت شهرته

- كمرشد إحيائى للدين الاسلامى - أعداداً غفيرة الى ان جاء يوم عانى من انقباض شديد بينما كان فى الصالحية (فى خانقاه) فى دمشق وقد لازمته

(١) تنسب الى على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابو الحسن الشاذلى العزير الزاهد ، نزيل الاسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية ينسب الى شاذلة وهى قرية بشمال افريقيا وينسب الى الحسن بن على بن ابى طالب ، كان كبير المقدار ، عالى المقام ، له نظم ونثر ، ومتشابهات ، وعبارات فيها رموز ، حج مرات ، ومات بمصحراء عيذاب فى طريقه للحج سنة ست وخمسين وستمائة طبقات ، الاولياء ابن الملقن ص ٤٥٨

هذه الحالة حتى غادر قاعة المحاضرات وبدأ يبحث عن الأماكن الواقعة في اعماق الوديان وعلى قم الجبال ، بناء على اقتراح محمد بن عرقه ، ذهب الى مجدل ماعوش (في لبنان) ، حيث توفي هناك بعد عدة شهور .

ان رفيق «علي» أثناء فترة محاولته محمد بن عرقه فهو المسئول أساساً عن انتشار المدينية في سوريا ، حيث بعث الاتجاه الجديد نفحه من الحياة الجديدة للتصوف المتهالك ، وقد كان محمد بن عرقه ضابطاً حركياً على جانب من الثراء ، والذي تحت تأثير علي بن ميمون ترك كل شيء ليتبع طريقتهم ، وبعد موت شيخه قام بتطوير التنظيم الذي عرفت فيما بعد بالخوارق أو العراقية (١)

وفي آسيا الوسطى فان فترة القرنين الفاصله بين الغزو والمغولي وتأسيس النظام الصفري في (فارس) فكان فترة قلق وحاسمة في مستقبل الاسلام في المنطقة ، فالعواقب المباشرة للغزوات المغولية كانت هي إبعاد الاسلام كدين للدولة في كل انحاء المنطقة وكان على الاسلام أن يتوافق مع الحكام غير المسلمين ذو الديانة البدائية أو البوذيين أو المسيحيين المتخفيين كما كانت هذه الفترة مليئة بالاحتمالات وكانت النتيجة هو انتصار الاسلام كدين سائد لآسيا الوسطى .

أما دور التصوف فقد كانت له أهمية ملموسة ، ليس كطريقة ولكن خلال رجاله ذوي النفوذ ، والذي ظهر ايضاً بعد موتهم من قبورهم ، والتي أقام الحكام المغول الكثير من مبانيها المهم أن اثنين من الامراء المغول الاوائل قد اعتنقوا الاسلام وهما بېرك من القبيلة الذهبية وغازان من تبريز وبحثا عن عالم صوفي بدلا من عالم سني ليعلنوا أمامه دخولهم في الاسلام ، ويترك حكم في الفترة من ١٢٥٧ - ١٥٦٧ ، وهو خان القبيلة الذهبية وقد ذهب خصيصاً

(١) ألف ابن عرقه كتاباً عن طريقته استمده من ابن ميمون وسماء السنيه العراقية في لباس حزقة الصوفية ، كما كتب القصيدة اللامية من الاسماء الحسنى والتي كانت تنتشر في الحضرة ... ورجع هذا الخط إلى أبي يعقوب يوسف الكومي القيس (توفي عام ١١٨٠م) وهو شيخ ابن عربي ولذلك فهذا الخط مبدئي وليس شاذلياً ، ما ابن ابن سعد الدين علي - فهو المسئول عن الانتشار المحدود للفرقة في الحجاز (المؤلف)

الى بخارى^(١) للاعتراف بالاسلام على يدى الكوبراوى سيف الدين سعيد البخارى (توفى ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ) بينما غازان خان ابن ارغون فقد استدعى الصوفى الشيعى صدر الدين ابراهيم من «خانقائه» فى بحر أباد فى ترسان لاداء الدور الرسمى لرجل الدين فى الاحتفال على اراضى المراعى بين جبال البورز فى ١٢٩٥م / ٦٩٤هـ والتي اعلن فيه خان أمام المغول بدلا من المسلمين دخوله فى الاسلام وان الاسلام هو ديانة المغول الغربيين ولذلك كرمز لاستقلاله عن التحالف مع جورخان فى بكين .

ولذلك فقد كانت آسيا الوسطى منطقة المهام الدينية ، وهناك كان الدراويش المتجولين لهم كل الأهمية ، وفى نفس الوقت اكتسب الاتجاه الاسلامى فى كل مكان . مراكز ثابتة للتعبيرفى الاضرحة والتي كان لها دراويشها الحفاه كما اصبحت مركزاً للشيخ وخلفته من المريدين .

ابن بطوطة شاهد ذو قيمة على انتشارهم الواسع لان هذه الاماكن بكرمها الواسع كانت اماكن توقف لجماعات المسافرين قفى (بسطام)^(٢) مثلاً فقد أقام ابن بطوطة فى الخانقات الملحقة بضريح أبى يزيد البسطامى حيث زار أيضا خانقاه للحسن الحزقانى ولكن الكثير من الاضرحة والتي أصبحت الخانقاوات مرتبطة بها فلم تكن اضرحة للصوفيين طالما ان الحصول على البركة لم يكن له علاقة بالتصوف .

(١) تجارى مدينة فى التركستان على المجرى الأسفل لنهر زرافشان ومنذ الثورة الروسية اصبحت تجارى جزءاً من جمهورية اوزبكستان السوفيتية، وعاصمتها طشقند .

«الترجم»

راجع دائرة المعارف الاسلامية ٦ / ٣٦٤

(٢) بلدة من اعمال خراسان الفارسية على منحدرات جبال اليرز مؤسسها بسطام خال كسرى الثانى ... ويوجد بمدينة بسطام قبور اولياء كثيرة كقبراى يزيد البسطامى ، ويرجع تاريخ المسجد الحالى

وفيه ضريح هذاالوالى الى بداية القرن الثامن عشر

«الترجم»

راجع دائرة المعارف الاسلامية ٧ / ٢٤٠

وقد كتب ابن بطوطه يقول

يوجد خارج سمرقند ضريح على شكل قبه وهو خاص بقشام بن العباس بن عبد المطلب الذى استشهد أثناء غزو تلك المدينة ويقوم أهل سمرقند بزيارة القبر فى لبالى الاثنين و الجمعة ويفعل التتار مثلهم ويقسمون بالولاء له على نطاق واسع ويحضررون معهم المواشى والاغنام وكذلك النقود التى يقدمونها لرعاية المسافرين نزلاء الخانقاه والضريح المبارك .

وقد زار ابن بطوطه أضرحة أخرى غير صوفية تتضمن ضريح على الرضا المتوفى ٨١٨م بالقرب من طوس وهو موجود داخل خناقاه وضريح عكاشه بن محض الأسدى وهو من الصحابه ، خارج بلخ وقد أخذ شيخ الضريح ابن بطوطه فى جولة لزيارة الكثير من أضرحة تلك المدينة ، والتى شملت ضريح النبی حزقیال ، ومنزل الصوفى ابراهيم بن أدهم^(١)

والذى استخدم بعد ذلك مستودعاً للميره ، وتوضح روايته ان الاتراك والمغول الرحل قد شاركوا المسلمين فى اعتقادهم فى بركة الاولياء .

أخذت الحركة الاسلامية اشكالا متفاوتة داخل التراثين التقليديين السنى والشيعى ، وكانت الحكومات الخانيه سنيه رسمياً ، ولكن الافكار والولاءات الشيعية كانت حية للغاية كما تشير المصادر التاريخية وتوضيح السهولة النسبية التى حققت بها الثورة الصفوانية .

وخلال التراث السنى فان الفرقة النقشبندية قد لعبت دوراً مميزاً ولقد

(١) ابو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور من كورة بلخ ت ما بين ستى ١٦٠ - ١٦٦ هـ .
ترك المملك و السلطان وأقبل على الزهد والتصوف ومن الواضح ان قصة تصوف ابراهيم صيغت على نمط قصة بوذا

راجع : الرسالة القشيرية . مصدر سابق ص ٨

دائرة المعارف الاسلامية ١ / ١٤٩

«الترجم»

أوضحاً كيف ان بهاء الدين النقشبندى الذى اعطى سلسلة الخواجانية قد أصبح ببساطه احد اكثر التقاليد الصوفية القائمة قوة ورغم أن النقشبندية كانت ايرانية وحضرية بشكل واضح فقد تنبأها الكثير من القبائل التتارية كنوع من الرابطة الدينية القبلية وكانت لها وضعها فى انتصاراتهم بعد موت شاه أخ (١٤٤٧ / ٨٥٠) اثناء هذا القرن فان التقدم السريع للفرقة من آسيا الوسطى فى اتجاه غربا داخل الاناضول وجنوبالى داخل شبه القارة الهندية أدى هذا التقدم إلى انقسامها إلى ٣ فروع رئيسية .

والملاحظ أن حامى^(١) قد أدخل فى هذه الشجرة ، ليس من اجل اهمية خاصة فى السلسلة ولكن لتأثيره على التصوف الفارس والتركى والهندي . وكذلك بكتابه عن حياة المتصوفه فى كتابه «نفحات الانس» الذى انتهى من كتابته فى ١٤٧٦ / ٨٨١ ورغم انه لم يكن شيخاً متممياً^(٢) فيقال أنه قد اعطى الطريقة النقشبندية مير على شرنواى الذى عاش فى الفترة من ١٤٤١ الى ١٥٠١ م حسن قام هذا الوزير للسلطان التيمورى ابو الغازى حسين بفترة اعتكاف فالرياضة الروحية عام ١٤٦٧ م / ٨٨١ هـ وكان على شيز مشهوراً كناصر للفنون والأداب وككاتب مميز فى الشر والشعر وخصوصاً كشاعر بارز فى جاتاي التركى :

وقد أسس ومنع خناقاه اخلاصية فى حراة كما فعل (شاة رخ) وكذلك حوالى ٩٠ «رباطاً» ويعنى هذا الاصطلاح هنا «استراحات»

كان اكثر الاشخاص نفوذاً بعد بهاء الدين هو خواجه أحرار المعروف شعبياً بـ (حضرة إشان) والذى انبثقت منه كل الفروع الاقليمية الثلاث وهى الأسيوية الوسطى ، والتركية الغربية ، والهندية .

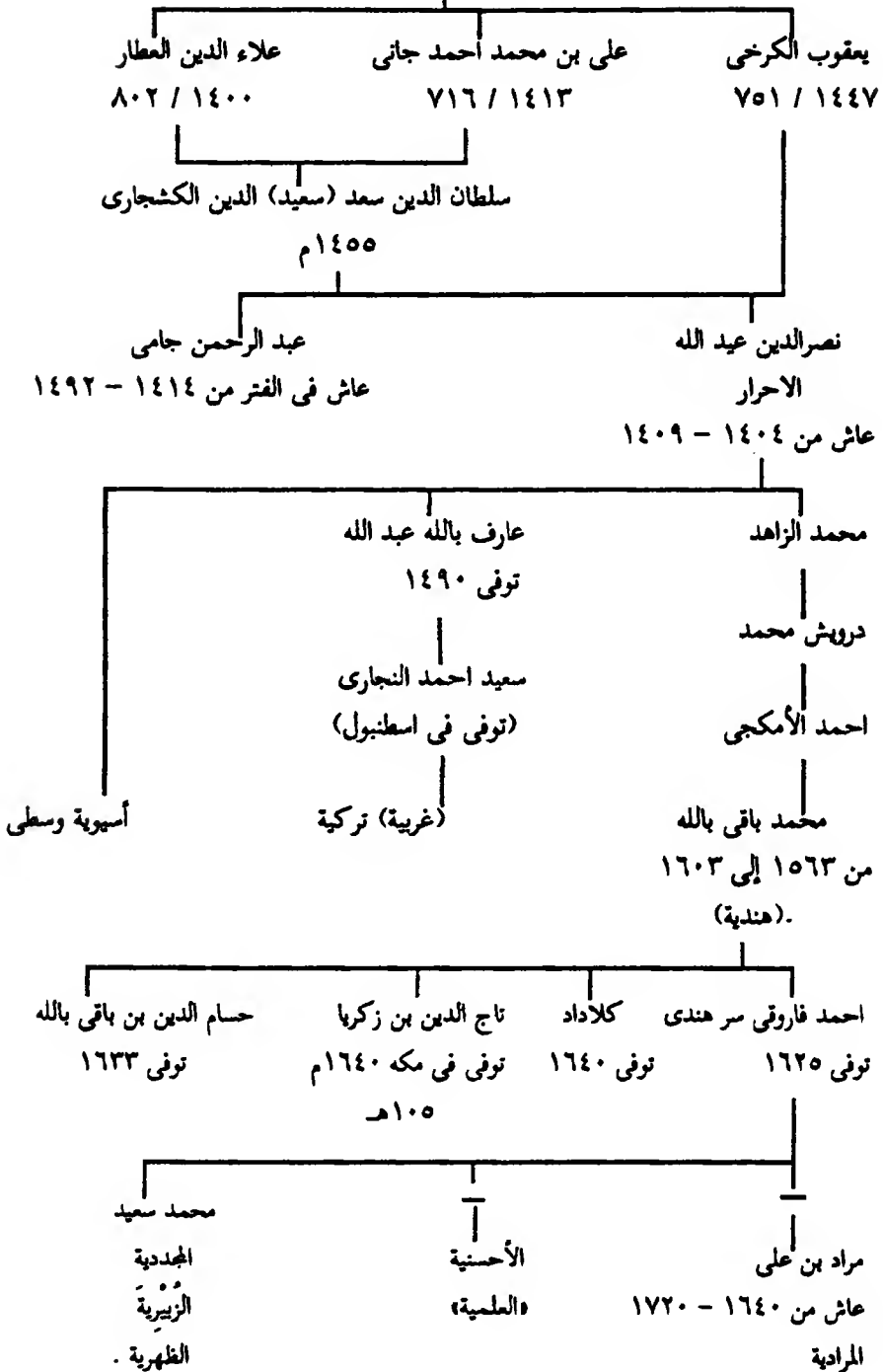
(١) بقصد عبد الرحمن جامى

الترجم

(٢) أى متحياً إلى فرقه صوفيه معينه

الترجم

بهاء الدين النقشبذى (توفى ١٣٨٩ م)



كان اعضاء هذه الفرقة مسئولين بدرجة كبيرة عن انتشار الاسلام بين الأوزج الذين حقق بينهم خواجه أحرار قوة روحية عظيمة كما لعب بينهم بعد ذلك دوراً سياسياً وكان رؤساء كل الدول المستقلة التي خلفت المغول (ما عدا في فارس) قد فضلوا الفرقة السنية يتحرمون شيوخها أثناء حياتهم وبينون الاضحية والمقامات فوق قبرهم والخانقارات لإيواء دراويشهم .

ورغم ان هذه الفرقة قد ضعفت بمرور الوقت فقد ظلت الفرقة السائدة بالمنطقة مع مراكز كبيرة لها في سمرقند ومرف وكييف وطشقند ، وحراه وكذلك في بخارى ، وكانت توجد أيضا جماعات هامة في تركستان الصينية وافغانستان وقارس وبلوخستان والهند»

وقد دخلت الفرقة في الهند لأول مرة في عهد بابوز (توفي ١٥٣٠م) ولكن ناشرها الحقيقي هو محمد باقى بالله بيراج عاش في الفترة من ١٥٦٣م - ١٦٠٣م والذي استقر أخيراً في دلهي . كان خليفته من الأحرار هو محمد الزاهد وهو درويش محمد ثم احمد الامكانجي الذي أرسله الى الهند الناشئ الآخر الذي استقر في لاهور، هو خواند محمود (توفي ١٤٢م / ١٥٢٣هـ) والذي عمل ابنه على انتشار اتباعه .

ومن الخطوط المتعددة المنبثقة من باقى بالله كان يوجد خطان - اللذان تناقضا كثيراً في النظره - هناك من خلال ابنه حسام الدين احمد المتوفى ١٦٣٣م / ١٥٧٤م ييقان خطأ إيجابياً تأليها شاملاً .^(١) إلى جانب حركة سنية متعصبة أثارها تلميذ باقى وهو احمد فاروق سرهندي عاش في النذة (١٥٦٣ الى ١٦٢٤) وشهرته (مجدد الألفين الثانيه) والذي من خلال نفوذه، هاجم ارتباط التصوف بالزهد الذي يتناقض مع الشريعة ودافع عما عرف بعد ذلك كعقيدة الشهودية المنبثقة من السمائية ، وكان رد فعله ضد المحاولات المتردد «لا كبير» نحو التوفيق بين المعتقدات الدينية قد غضب عليه جلب الأمبراطور

(١) وهو مذهب يقول ان الله والطبيعة شيء واحد وان الكون المادى للانسان ليس الا مظهر من مظاهر الذات الالهية .

وقد كتب ابن بطوطه يقول

يوجد خارج سمرقند ضريح على شكل قبه وهو خاص بقشام بن العباس بن عبد المطلب الذى استشهد أثناء غزو تلك المدينة ويقوم أهل سمرقند بزيارة القبر فى لبالى الأثنين و الجمعة ويفعل التتار مثلهم ويقسمون بالولاء له على نطاق واسع ويحضرون معهم المواشى والاغنام وكذلك النقود التى يقدمونها لرعاية المسافرين نزلاء الخانقاه والضريح المبارك .

وقد زار ابن بطوطه أضرحة أخرى غير صوفية تتضمن ضريح على الرضا المتوفى ٨١٨م بالقرب من طوس وهو موجود داخل خناقاه وضريح عكاشه بن محض الأسدى وهو من الصحابه ، خارج بلخ وقد أخذ شيخ الضريح ابن بطوطه فى جولة لزيارة الكثير من أضرحة تلك المدينة ، والتى شملت ضريح النبى حزقيال ، ومنزل الصوفى ابراهيم بن أدهم^(١)

والذى استخدم بعد ذلك مستودعاً للميره ، وتوضح روايته ان الاتراك والمغول الرحل قد شاركوا المسلمين فى اعتقادهم فى بركة الاولياء .

أخذت الحركة الاسلامية اشكالا متفاوتة داخل التراثين التقليديين السنى والشيعى ، وكانت الحكومات الخانيه سنيه رسميا، ولكن الافكار والولاءات الشيعية كانت حية للغاية كما تشير المصادر التاريخية وتوضح السهولة النسبية التى حققت بها الثورة الصفوانية .

وخلال التراث السنى فان الفرقة النقشبندية قد لعبت دوراً مميزاً ولقد

(١) ابو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور من كورة بلخ ت ما بين سنتى ١٦٠ - ١٦٦ هـ . تركا الملك و أقبل على الزهد والتصوف ومن الواضح ان قصة تصوف ابراهيم صيغت على نمط قصة بوذا

راجع : الرسالة القشيرية . مصدر سابق ص ٨

دائرة المعارف الاسلامية ١ / ١٤٩

«الترجم»

هذه الحالة حتى غادر قاعة المحاضرات وبدأ يبحث عن الأماكن الواقعة في اعماق الوديان وعلى قم الجبال ، بناء على اقتراح محمد بن عرافه ، ذهب الى مجدل ماعوش (في لبنان) ، حيث توفي هناك بعد عدة شهور .

ان رفيق «علي» أثناء فترة محاولته محمد بن عرافه فهو المسئول أساساً عن انتشار المدينية في سوريا ، حيث بعث الاتجاه الجديد نفحه من الحياة الجديدة للتصوف المتهالك ، وقد كان محمد بن عرافه ضابطاً حركياً على جانب من الشراء ، والذي تحت تأثير علي بن ميمون ترك كل شيء ليتبع طريقتهم ، وبعد موت شيخه قام بتطوير التنظيم الذي عرفت فيما بعد بالخواطرية أو العراقية^(١)

وفي آسيا الوسطى فان فترة القرنين الفاصله بين الغزو والمغولي وتأسيس النظام الصفوي في (فارس) فكان فترة قلق وحاسمة في مستقبل الاسلام في المنطقة ، فالعواقب المباشرة للغزوات المغولية كانت هي إبعاد الاسلام كدين للدولة في كل انحاء المنطقة وكان على الاسلام أن يتوافق مع الحكام غير المسلمين ذو الديانة البدائية أو البوذيين أو المسيحيين المتخفيين كما كانت هذه الفترة مليئة بالاحتمالات وكانت النتيجة هو انتصار الاسلام كدين سائد لآسيا الوسطى .

أما دور التصوف فقد كانت له أهمية ملموسة ، ليس كطريقة ولكن خلال رجاله ذوي النفوذ ، والذي ظهر ايضا بعد موتهم من قبورهم ، والتي أقام الحكام المغول الكثير من مبانيها المهم أن اثنين من الامراء المغول الاوائل قد اعتنقوا الاسلام وهما بييرك من القبيلة الذهبية وغازان من تبريز وبحشا عن عالم صوفي بدلا من عالم سني ليعلنوا أمامه دخولهم في الاسلام ، ويترك حكم في الفترة من ١٢٥٧ - ١٥٦٧ ، وهو خان القبيلة الذهبية وقد ذهب خصيصا

(١) ألف ابن عرافه كتاباً عن طريقته استمده من ابن ميمون وسماه السنية العراقية في لباس حزقة الصوفية ، كما كتب القصيدة اللامية من الاسماء الحسنى والتي كانت تنتشر في الحضرة ... ويرجع هذا الخط إلى أبي يعقوب يوسف الكومي القيس (توفي عام ١١٨٠م) وهو شيخ ابن عربي ولذلك فهذا الخط مديني وليس شاذلياً ، ما ابن ابن سعد الدين علي - فهو المسئول عن الانتشار المحدود للفرقة في الحجاز (المؤلف)

مستولا عن ادخال فرقته فى الهند وقد ولد فى حلب واستقر ١٤٨٢ فى ادتشش فى السند والتى كانت تعتبر لفترة طويلة مركزاً سهرورديا وقد كسب حمايته سلطان دلهى (سيكندار لودى) و١٥١٧م ليخلفه ابنه عبد القادر (ت ١٥٣٣) ربح المركز البغدامى للفرقة رضاء وحماية الحكم العثمانى استقامة الدينية وسلفيته^(١) . وقد تحرك أعضاء آخرون من العائلة ايضا الى الهند حيث وجدوا انها مشمرة وتبعهم مزيد من الأعضاء ، والذين كونوا فروعاً مستقلة .

وفى القرن السابع عشر فقد أخذت فرصه جديدة للحياة . وحدث تغير مدهش فى تدريسيها (وحتى الآن ظاهرية وليست زاهدة وممارساتها وقد توسعت تحت قيادة رؤساء مختلفين بما منهم شاه ابو المعاطى (توفى ١٦١٥م وميدان مير (توفى ١٦٥٥م) وأعلاشاه بادخشى (توفى ١٦٦١) وكان الأخيران مدرسين، دارا شيكوه) أثناء فترة حياته الاولى والاكثر استقامة وسلطية وقد وسع المشايخ الهند والقادريون عملية التوافق مع الافكار والعادات الهندوسية الى حد كبير للغاية ومن الطبيعى فى منطقة متباينة مثل الهند ان تتكون الفرق المحلية الهندية وكانت اكثرها اهمية هى الشطارية وهى ذات أصل غامضه ويقال ضمن التراث الطيفورى ، ولكنها تنسب الى أحد خلفاء شهاب الدين السهروردى الملقب . عبد الله الشطار ، وكان شيخه محمد عارف (نسبة غير معروف) قد ارسله إلى الهند ، وكان أولا فى جوانيو عاصمه ابراهيم شاه شرقى (فترة حكمهم ١٤٠٢ الى ١٥٤٠) ثم دفعته المتاعب الى الذهاب الى ماندو عاصمه الدولة الاسلامية الصغيرة مالو (مولتان) حيث توفى (فى ١٤٢٨ او ١٤٢٩) وانتشرت طريقته على يد تلاميذه خصوصا النبغالى محمد علاء ، المعروف باسم قازان الشطارى ولكنها

(١) عندما استولى اسماعيل الصفوى على بغداد عام ١٥٠٨ حطم جنوده القبور بما فيها قبر عبد القادر وطردها اسرته ، فلجأ بعض افرادها الى الهند ، ولما جاء السلطان سليمان العظيم فقد اصدر تعليماته باعادة بناء عام ١٥٣٤ ، وكذلك فعل مراد الرابع عام ١٦٣٨ ، وقد تمكنت الاسرة بعد ذلك من بناء المسجد الحالى .
المؤلف

لعقيدة (على) بدون أن يصبح إمامه شيعية بأى شكل شيعى ، وبالطبع فان معظم الفرق ترجع بأصولها الى (على) وتمنحه مكانه خاصة كوسيط من خلاله ثم نقل تعاليمهم السرية ولكنها فى أى حال ظلت سنية .

لقد ظلت السلسلة الصوفية العلوية المستمرة لمدة طويلة ، وبالتأكيد منذ منع الاعتراف العلنى للشيعية الاسماعلية فى مصر (عام ١١٧١م ، وسوريا (مصيف ١٢٦٠) وانتصار بيرس ١٢٧٢ ، وسقوط علاموت (١٢٦٥) حينما وجد الكثير من الشيعة مكانا بداخل الأنظمة الصوفية احدى أكثر السلاسل الباقية قدماً والتي أظهرت إتصالاً غرضياً مزدوجاً بالامام على (وراثياً وتلقينياً) هى السلسلة صور الدين محمد بن حموي (توفى ١٢٢٠ / ٦١٧) والتي تنتمى إلى عائلة فارسية الأصل والتي أشتهر أعضائها الصوفيين هو الشيعى سعد الدين بن حموي .

المذهب الشيعى . تحت عباءة الصوفية تبارأ خفياً قويا داخل الفرق الكبرى ، والخلوتية والبكتاشية والبيرامية ، أما فى الامبراطورية العثمانية اضطر أن يظل مستتراً ، ولكن فى فارس كانت توجد الكثير من الحركات الصوفية الشيعية المتعددة رغم أنه مع تكوين الحكومات الشيعية فان الفرق الصوفية ومشايخها لم ترحل تماماً فى الواقع لنا الفرق الصوفية السنية ، فمن الطبيعى أن يقابلها استياء المجتهدين الشيعة لكونها قد أنكرت الأمام من أجل المرشد (القطب) ولكن الصوفية الشيعيين قد عانوا أيضاً وقد ازدهر الفكر الشيعى اثناء الفترة الصفوية فى نهضة رحب بها رجال مثل الصوفى الشيخ محمد باقر (توفى ١٦٣١) وقاضى سعيد الكومى (توفى ١٦٦١) والملاصدرا الشيرازى (توفى ١٦٤٠ م / ١٠٥٠ هـ)

واكثر الحركات الصوفية الشيعية أهمية من وجهة النظر التاريخية كانت هى الصفوية والتي بدأت كفرقة سنية ومؤسسها هو صفى الدين (١٢٤٩ / ٦٤٧ - ١٣٣٤ / ٧٢٥) الذى أدى انه منحدر من الامام السابع ، موسى الكاظم وقد ولد فى أردبيل فى اذربيجان الشرقية . وعانى صعوبة ومتاعب فى العثورة على الراشد (الموجه) ولكنه اكتشف فى النهاية شيخاً زاهداً وظل معه لمدة خمسة وعشرين عاماً حتى موته (١٢٩٤ م / ٦٩٤ هـ) ثم خلفه ، ومن صفى الدين

كانت الخلافة وراثية فقد تلاه صدر الدين توفى ١٣٩٣ ، ثم خواجه على توفى ١٤٢٩ ثم ابراهيم شاه توفى ١٤٤٧ ثم جنيد وقتل فى معركة ١٤٦٠ ثم صدر وقتل فى معركة ١٤٨٨ ثم شاه اسماعيل توفى ١٥٢٤ وهو مؤسس الحكم الصفوى .

ليس من الواضح حتى اصبحت الفرقة شيعة فقد أظهر خواجه ميولاً شيعة ، وحين فر الشيخ جيند والذى به بدأ الدور المناضل ألى (أو ذون حسن) رئيس حكم الاغنام البيضاء، مع عشرة آلاف من المحاربين الصوفييين (الغزاه الصوفية) ،الذين يعتبرون ان المخاطرة بحياتهم فى طريق شيخهم الكامل أقل درجات الولاء والتضحية وقد زار ضريح صدر الدين القناوى والذى اتهمه ملازمه والمشرف عليه الشيخ عبد اللطيف بأن هرطقى ، وكان الشيخ صدر - مسرلاً استجابة لالهام سماوى - عن أمر اتباعه ان يستخدموا غطاء رأس قرمزى اللون يتكون من ١٢ قطعة قماش مثله الشكل كدلالة عن الاثمة الاثنى عشر والذى أدى أن يعرفوا أو يطلق عليهم المصطلح التركى الذى يعنى ذوى (الرؤوس الحمراء) وكانت صيحة المعركة للشاه اسماعيل هى (الله الله وعلى ولى الله) قد جعل الاعتقاد الشيعى الاثنى عشرى هو دين الدولة ، وفى الحقيقة هو الدين الوحيد المقبول فى مناطق سيطرته وقد كسب الصفويون فى النهاية تأييد الجماهير سلالة التوربخش والمشييش^(١) .

أما الصفوية كفرقة تركية قوية فقد كان لها اصدائها الملموسة فى الاناضول دينياً وسياسياً ، والكثير من الفرق التركية الخلوتية والبيرامية والجلوتية والتي تزعم أنها سنية فكانت مرتبطة بنفس التراث بينما من بين الكثير من النواحي السياسية يمكن أن تذكر صعود مصطفى بيركلوجا فى ١٤١٦م الذى أيدته الشيخ بدر الدين أبن فاض سيمو والشاه اسماعيل فى سعيه من أجل السلطة وجدد تدعيماً قوياً فى مثل تلك الأنحاء ، اذ أنها كانت متأثرة بهذا التراث

(١) اما المشييشية: فهى فرقة مغربية الأصل نسبة الى عبد السلام بن مشيش

المترجم

راجع الموسوعة الصفوية

وخصوصا بين سكان خليج أديا تبكية سبخق والتي يقال ان سكانها قد انحدروا من الايرانيين المهاجرين ذوى (الرؤوس الحمراء) او ان السلطان العثماني بيازيد الثانى قد وجد صعوبة فى كبح ثورة الشيخ شاه كولى لتدعيم الشاه اسماعيل .

وقد استمر التنظيم الصوفى ، والذي جاء على اكتافة الحكم وظل يخدم الحكومة ، ومع خليفة الخلفا فى القمة، ولكنه تتدهور بشكل مستمر الى ان أصبح فى زمن الصوفين هدفا لعدادة واضطهاد المجتهدين الشيعة .

أسس فرقة النعمة الله نور الدين محمدنعمه الله بن عبد الله الذى ادعى «انه يتحدر من الامام الشيعى الخامس محمد الباقر» وقد ولد فى حلب عام (١٣٣٠م / ٧٣٠هـ) من عائلة ذات أصل ايرانى وقد توجه الى مكة فى سن ٢٤ حيث أصبح تلميذا ثم خليفة (عبد الله اليافى الذى عاش فى الفترة من ١٢٩٨ الى ١٣٦٧) الذى اختفى امداده الزاهد حتى أبى مدين (الفرع المصرى) وبعد موت عبد الله اليافى أخذ طريقه الى أسيا الوسطى مسافرا من خائفاه إلى أخرى فى سمرقند حراه ديزه وقد طرده (تيمور) من مناطق ما بعد سكسونيا ، ثم استقر فى النهاية فى ماهان بالقرب من كيرمان حتى وفاته فى سن متقدمه عام ١٤٣١م / ٨٣٤هـ.

كان نعمه الله كاتباً وافر الانتاج من الصوفية النادرين فى النثر والشعر على حد سواء ، وقد تمتع برعاية الملوك له ، وهذا التحيز لعظماء هذا العالم استمر عند المنحدرين منه ويكتب W.ivanow (١) ان هذه الطريقة . كانت دائما انتقالية فى عضويتها، وشغلت وضع التنظيم الاستقراطى وقد أصبحت فيما بعد من الواجهة فى الطبقات الأعلى بالمجتمع الاقطاعى أن يكونوا اعضاءاً بهذه الطريقة . ومنذ عقود قليلة مضت اتجهت كل الطبقات تقريبا مثل صغار الكتبة الحكوميين

(١) إيفانوف W.ivanow هو مؤلف كتاب «الأدب الاسماعيلى» ودراسة بيبلوجرافية؛ وكذلك كتاب

«دراسات فى بدايات الاسماعلية» المؤلف

وصغار التجار والعاملين فى أعمال أخرى مشابهه فى فارس الى الانتماء الى فرقة الملاسلطان ، أو الجونا بادية ، وهى فرع من النعمة الله بمركزها الرئيس فى بيد خت وجنوباباد . بدون اية تضحية باستقامتهم الدينية الشعبية فى عيون الناس .

وظلت ماهان مركز الفرقة ولكنها انتخبت فروع أخرى بجانب الجونا بادية الرئاسى وحبا فى الشامى ، أما فى حياه المؤسس فقد انتشرت بالهند حيث الحاكم البهمافى دكان احمد شاه والى (توفى ١٤٣٦) والذى احتضنها فى مناطق نفوذه ، ولكنها اضطهدت لبعض الوقت فى ايران ومع ذلك كسبت أرضية بعد نهوض حكم فاجار ١٧٧٩م) وهى اكثر الفرق نشاطا فى ايران فى الوقت الحاضر .

أما التوربخشيه فيمكن وضعها ضمن الفرق الشيعية فعقائد نوزنخش^(١) كانت شيعية فى اتجاهها ، رغم انه هو نفسه إدعى الإمامه بالاختيار الالهى وليس بالانتساب . ونتيجة لذلك فقد كان له مسلكا مغايراً ومجازفاً ، أما أعضاء الجماعه فى كشمير حينما تعرضوا للاضطهاد أدعوا أنهم سنين ولاشك أنهم بهذا يمارسون حيلة التقية^(٢)

(١) هو محمد بن عبد الله ولد فى قايان بالقرب من الأحساء سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ ، وينتهى نسبه بالإمام موسى بن جعفر ، تلمذ على الشيخ اسحق الخنلاني تلميذ السيد على الهمراتى الذى أعجب بذكائه حتى لقبه بنور بختش بمعنى واهب الانوار وكانت طريقة محمد نور بختش تتميز بلس السواد باعتبار هذا اللون رمزا للنور والحياة الكامفين . تميزاً عن الحروفية اللذين كانوا يلبسون اليباس . الف نوربختش كتاب سماء (الشجرة الوفية فى ذكر المشايخ الصوفية) ومجموعة شعرية من الواردان .

راجع الصلة بين التصوف والشيع ٢٩٤/٢ (المترجم)

(٢) التقية : يعنونها الشيعة أصلاً من أصول الدين، ومتركها كان بمنزلة من ترك الصلاة ، وهى ... واجبة لا يجوز رفعها حتى يخرج القائم ، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الله تعالى ، كما يستدلون على ذلك بقوله تعالى (إلا أن تقوامنهم تقاه) ، وينسبون إلى ابي جعفر الإمام الخامس قوله (التقية دينى ودين أبائى ولا ايمان لمن لا تقية له . وهى شرعت لأجل مداراة مخالفينهم ، وكتمان اعتقادهم راجع الشيعية وتحريف القرآن: محمد مال الله، مكتبه ابن يتيمه

بالبهرين ط ٣ - ١٤٠٩

المترجم
١٦٢

تقديم : ان الصعوبة فى تناول تاريخ الفرق ينبع من الحاجة للتعبير لطريقة متماسكة بصورة معقولة عن التطور والتنظيم لحركة الروح والتي لم تكن وثبة ومن ثم فان المرء يقدم انطباعاً بالدقة التى لم تكن موجودة ، لذلك فأننى حين تتبع أثر تطورها خلال ٣ مراحل يجب أدراك ان هذا لم يكن اكثر من تعميم للاتجاهات وانه فى المرحلة النهائية فان المراحل الثلاثة قد ظلت فى الوجود متعاصرة .

لقد ميزت فى البداية المراحل (كمؤثر على الفرد) باعتبارها خضوع لله **(مرحلة الخائفة)** والخضوع للقاعدة **(مرحلة الطريقة)** والخضوع الشخصى **(مرحلة الطائفة)** ولكن هذا يعنى ببساطه تصنيف الطريقة البحث عن الهدف الأولى والأساس للصوفية ، وبهذا التأصيل ، فان أى تخطط أو خطة تتضمنت ميّزاً أكثر صلابه وحدة عما تبرره الوقائع ويمكن تلخيص الاتجاهات كما يلى :

المرحلة الأولى : الخائفات :

وهو العصرالذهبى للزهد . فهناك شيخ وحلقه تلاميذه ، يتجول أحيانا ، ذو تنظيمات بأقل قدر ممكن من اجل الحياه المشتركه أدى فى القرن العاشر الى تكوين الجماعات الدينية الغير متباينة والغير متخصصة وقد أصبح الارشاد تحت شيخ مبدأ مقبولا وهى حركة .

ارستقراطية عقليا وعاطفيا ، والطرقالفردية والجماعية للتأمل والممارسات هى من أجل تشجيع او تحفيز الانجذاب أو النشوة الصوفية .

المرحلة الثانية الطريقة

فى القرن الثالث عشر فترة السلاجقه ، وهى فترة تكوينية من ١١٠٠ - ١٤٠٠ م) وتحول عقيدة وقاعدة وطريقة وتطور مدارس التدريس المستمر للصوفية الزاهدة ، سلاسل الطرقالمشتقة من الاستنارة وهى حركة بورجوازية وجعلالروح الزاهدة ملتزمه وقابلة للتعليم بداخلالتصوفالمنظم وفقا لمقياس التراث .

والشريعة وتطورأنواع جديدة من الطرق التجميعية لتحفيز النشوة الصوفية .

المرحلة الثالثة (الطائفة)

فى القرن الخامس عشر وهى تأسيس الأمبراطورية العثمانية وفعل الولاية متمثلاً مع العقيدة والحكم (القاعدة) وقد أصبح التصوف حركة شيعية وأسس جديدة تكونت فى خطوط الطريقة ، متفرعة إلى هيئات متعددة أو فرق ملتصقة تماماً بتقديس الولي .

ان تنظيم ما لا يمكن تنظيمه بصورة مناسبة أى الحياة الزاهدة الشخصية ، قد نشأت بصورة طبيعية خلال الحاجة إلى الهداية والارتباط بالملهمين (المؤمنين) المتسبين ولكن التنظيم قد حمل بداخله بذور التآكل والانهار فخلال عقيدة الزهد للفرق فإن الحرية الفردية الخلافة للزاهد قيدت ووضعت للالتزام والخبرة الجماعية والهداية فى ظل الشيوخ الاوائل فلم تعوض الحرية الروحية للباحث ولكن المرحلة النهائية المنظمة الخضوع لرغبة الشيخ المستبدة قد حولته الى عيد روحى وليس عبداً لله ولكن لكائن بشرى حتى رغم انه من اختيار الله .

بالاضافة إلى ذلك فان المحتوى الزهدى للفرق قد اصابه الضعف فى العالم العربى خاصة فان النزاع بين المذاهب العلنية والخفية او السرية للاسلام فقد كسبه فقهاء الشريعة . وقد سعى لاحضاع العنصر الزاهد كما سعى لجعل الزهد غير ضار بواسطة تحمل الكثير من مظاهر الخارجية واشكاله الخارجية فى مقابل الخضوع ، وقد تنافس شيوخ الفرق فى اظهار ولائهم واتباعهم للشريعة ، وفى هذه العملية فإن فرقاً كثيرة قد فرغت من عناصرها الاساسية ، وتركت مع اغلفتها الفارغة المكونة من عبارات صوفية والتنظيمات والممارسات فقط ^(١) .

لقد اكتسبت الانظمة اشكالها النهائية من التنظيم ومن الممارسات الروحية ، أما البدع فقد أصبحت متكاملة تماماً . اما روحهم واهدافهم فقد أخذت طابعاً

(١) واضح هنا أن المؤلف يعتبر مجرد الاتفاق مع الشريعة الحقاً والاسلام - فى جوهره - أمراً يجعل

التصوف بلا مضمون أو معنى ، وهذه النظرة لا ترى فى التصوف الاسلامى غير مظاهره السطحية

بل وتجاوزته وشطحاته ، وهى نظرة خاطئة الى جانب تحاملها الشديد

المترجم

نمطيا ثابتاً من نماذج شكلين ، ولم يكن من الممكن المزيد من التطور ، ولم يكن هناك المزيد من العمل للتبصر الزاهد الذى كان يمكن ان يشكل نقطه انطلاق جديدة سواء فى المذهب أو الممارسة . وفيما يلى السمات الرئيسية : -

أ - المبدأ السلطوى

احترام وتقديس شيخ الطائفة وريث بركة الولاية والخضوع التام لسلطانه .

ب- التنظيم المطور :

الذى يجسد مبدأ السلطة المتدرجة مع مجال عام من التوحد ، اما التنوعات فيمكن التعبير عنها فى نواحي ثانوية .

ج - قسمان رئيسيان من الموالين .

هم : المريدون المهرة والاتباع العاديين

د - مبدأ تلقينى : -

اسناد سرى قوى ، أما بالنسبة للمريدين فهناك احتفال محدد ، وملابس متشابهة موحدة، واحتفال ايسر ولكن يشمل قسم الولاء للاتباع العاديين .

هـ - مبادئ تنظيمية تتعلق بالغزل ومهام الذكر، وصلوات التراويح والصيام والمهام القاسية الأخرى للموالين .

و - الذكر الجماعى بالتنسيق مع الايقاع الموسيقى ، وضبط النفس والتمرينات الرياضية لاثاره الانجذاب أو النشوة كمحور للاجتماع .

ز - عقيدة او مذهب مرتبط بأضرحة الاولياء والارتباط بالاولياء ، الأحياء أو الاموات مع النوعيات والخواص المتضمنه او المحتواه فى مصطلحات البركة والكرامة ، والتركيز على البركة الذى يؤدى الى التجمع الدائم حول الفرق الجديدة .

الفصل الرابع
حركات الإحياء
في القرن التاسع عشر

حركات الإحياء، بالقرن التاسع عشر

١ - إتجاهات الإحياء :

قبل القرن التاسع عشر لم يعان العالم الإسلامى أية إنتكاسات رئيسية نتيجة لتوسع الغرب ، وقد كان المغرب مهدداً ، ولكن تحت المحافظة على حاله من توازن القوى فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فقد أعاق البرتغال طموحات السلطان سليم فى السيادة على المحيط الهندى، ولكن هذا تغير فجأة نتيجة التوسع العثماني التركي على حساب أوروبا المسيحية وكان التوسع الأوربي الأسبق قد تجنب الإمبراطورية العثمانية التى احتضنت أراضى بعث الإسلام ، ويعتبر الغزو النابليوني لمصر فى ١٧٩٨م بصفة عامة نقطة ملائمة يبدأ منها تاريخ التحقق الأول للتهديد الذى يمثله التوسع الأوربي .

لقد حدث تطوران أدبا إلى الإهتمام المكثف بالإسلام فى ذلك الحين هى الحركة الوهابية ^(١) وحركة الإحياء والتجديد داخل الفرق الصوفية ،

(١) الوهابية : مؤسسها هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن راشد التميمي ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة ، كان والده عالماً ذا معرفة تامة بالحديث والفقه وغيرهما ، قاضياً . وقد تلقى الإمام محمد بن عبد الوهاب العلم عن مشايخ كثيرين ، وله مؤلفات عديدة منها على سبيل المثال كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد ، الإيمان ، أصول الإيمان . وخلاصة الدعوة الوهابية :

- فى باب صفات الله تعالى وأسمائه : الإيما بما فى كتاب الله وسنة رسوله من غير تحريف أو تأويل .

- فى توحيد الألوهية : تتضمن الدعوة شهادة أن لا إله إلا الله من نفى إستحقاق العبادة بجميع أنواعها عن سوى الله تعالى .

- الرسل : وجوب الإيمان بهم وبما جاء من عند الله .

- فى مسائل القضاء والقدر والحبر والإرجاء والإمامة . تدعو إلى إلترام معتقد السلف الصالح . ==

ولم تكن أى منهما إستجابة للتهديد الأوربي ، فقد كان لهما جذورهما فى القرن الثامن عشر والأكثر من هذا فإنهما تنبأ بالحاجة إلى الإصلاح ومواجهة حالة السبات والنوم التى استغرق فيها العالم العربى تحت الحكم العثمانى .

رفضت أولى هذه الحركات شرعية النظام الجامد المدعم بواسطة الإجماع خصوصاً تلك الممارسات التى أوجدت تسوية لوحداية الله (عز وجل) وقد ركزت على العودة إلى بساطة الإسلام ونقائه ^(١) الصرف وفسرت الجهاد ضد المشركين باعتباره الحرب ضد أولئك الذين شوهوا نقاء الإسلام مثل أولئك المستغلين للبركة . ^(٢)

فقد رفض الوهابى أية فكرة للوساطة بينه وبين الله حيث لا يمكن أن توجد أى علاقة من وجهة نظره ، ومع فكره للسمو الإلهى والعقيدة الحاكمة كانت هى المعارضة الشديدة المنظمة لكل البدع وقد صدم

== - فى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهم أفضل هذه الأمة بعد نبينا .
- فى علماء الأمة من أهل الحديث والتفسير والفقه أثبتت الدعوة لهم الفضل والإمامة .
- فيما يتعلق بدعاء المسلمين وأعراضهم . دعت إلى إلتزام ما فى كتاب الله وسنة رسوله . من تحريم جميع ذلك .

وتوفى محمد بن عبد الوهاب عام ١٢٠٦ عن عمر يناهز الثنتين وتسعين سنة .
راجع : بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ج ١ ، ج ٢ ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م . (المترجم) .

(١) هنا يذكر المؤلف هذه العودة بأنها ، عودة إلى الإسلام الأسطورى Mythical الأمر الذى يدل على موقفه غير المنصف من الإسلام . وهو ما أشرنا إليه من قبل . (المترجم) .

(٢) المقصود هنا هم المتصوفة ، فالحركة الوهابية - كما نعرف - حركة سلفية متشددة تقف موقف الرفض الكامل من الممارسات الصوفية وخصوصاً فى أشكالها المتطرفة . (المترجم)

الوهايون العالم الإسلامى حين قاموا فى البلاد التى استولوا عليها بتدمير أضرحة الأولياء بما فيها ذلك الضريح الذى للإمام الحسين بن على فى كربلاء فى ١٨٠٢م وقد أمكن تحجيم النشاط السياسى للحركة ولكن تأثيرها المثير كان قد انتشر على نطاق واسع ، كما أكد هجومها على الفرق الحاجة للإصلاح .

كانت كل التنظيمات العربية تضعف فى حياتها الداخلية وكانت الفرق كما رأينا متدهورة جداً ، وبداخلها كانت الطريقة الصوفية الحققة قد ضعفت رغم أن بعض الأفراد والحلقات الصغيرة استمرت فى إتباع الطريق الصوفى ، أما حركة الإحياء التى حدثت فى محاولة لمواجهة الموقف فقد نشأت نتيجة جهد ثلاثة رجال ولدوا كلهم فى المغرب .

وقد إتخذت هذه الحركة مسارين هما : التقليدى والإصلاحى فمسار مع الخطوط التقليدية انبثق من إلهام وإيماء رجل مستتير هو الدرفاوى ، الذى أيقظ الحماس العاطفى وحفز الباحث نحو الحياة التأملية بين الموالين والإتباع داخل التراث الشاذلى .

وقد أدى هذا إلى تكاثر الفرق الفرعية ، فى شمال أفريقيا بصورة رئيسية مع فروع فى سوريا والحجاز أما الحركة الإصلاحية فقد انبثقت من أحمد التيجانى وأحمد بن إدريس وكان نشاط الأول متمركزاً فى المغرب ، محتفظاً بهذا الاتجاه ، رغم أنه انتشر فى غربى ووسط وشرقى السودان . وقد حافظ على وحدته فقد كان خلفاؤه محصنين ضد فيروس الإلهام النبوى للمناداة والتمسك بطرقهم الخاصة المفضلة^(١) . والحركة التى أثارها أحمد

(١) لاحظ أسلوب المؤلف عند تناوله للوحى النبوى ، وتماطفه الشديد مع أى خروج - أو شطوح - صوفى عن تعاليم الشريعة .

ابن إدريس كان مركزها فى مكة وبعد وفاة ابن إدريس فإن رئيس تلاميذه طالب بطريقة متوازنة بالإبتعاد عن طريقته أو يتلقى التوجيهات السماوية لتأسيس طرقهم المميزة .

واستجابة للتحدى الذى تشكله الحركة الوهابية ، حاول أحمد بن إدريس بصفة خاصة أن يحافظ على الناحية الداخلية (الباطنية للإسلام) المرفوضة تماماً من الوهابيين ، مع قبول كامل للناحية الظاهرية وإتهام صارم للمبالغات التى أفسدت الطرق الصوفية ، هذه الأهداف باعدت بين كل من العلماء ومشايخ الطرق أو الفرق فى الحجاز .

وقد كان له أيضاً رؤية إسلامية شاملة لقد حاول أن يربط المؤمنين بعضهم ببعض خلال إلتحام كامل بالشرعية إلى جانب الإسلام ذى النزعة العاطفية القائم على صحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والإخلاص له وتجسيد شخص للقدرة الإلهية لها فعلها ونشاطها فى العالم ، كل هذه الفرق الجديدة كان يحركها الحماس الوعظى والدعوة لزيادة عضويتها .

أكد كل منهما ^(١) على أن الغرض من الذكر هو الإتحاد مع روح الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكثر من الإتحاد وبالله ، وهو التغير الذى أثر على قاعدة الحياة الصوفية أو بالتالى فإنهم سموها طريقتهم « الطريقة المحمدية » أو « الطريقة الأحمدية » والتسمية الأخيرة لاتشير إلى أسمائهم الشخصية لكن إلى اسم النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد أكدوا بدرجة أقل على « سلسلة » السلطة . فقد رفضتها التيجانية تماماً لأنهم أكدوا على

(١) أحمد التيجانى وأحمد بن إدريس .

حقيقة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أعطى لهم تصريحاً مباشراً لتلقين الطريقة ، وقد تميزت الطرق الجديدة بتحولها ضد الزهد والإنصراف عنه وتركيزها على الممارسات العملية .

حافظت طرقهم على الصوفية الطقوسية والأخلاقية القائمة . وليس لديهم إلا القليل في منهجهم وتدريبهم مما يعتبره الصوفيون القدماء زهداً وقد اتضح هذا في ممارستهم ونقص إرشادهم للجدد من المريدين ورفض التدريس السرى ، وبعض النواحي الأخرى مثل نوع المادة المستمدة من التصوف الكلاسيكى ، خصوصاً التراث النبوى (السنة النبوية) والتي ضمنوها في كتاباتهم لتبرير كل عبادة ، فلم يعتقدوا فى الإرشاد الشخصى أو السير على الطريق الصوفى وفى هذا فإنهم قضوا مع التراث المستمر للإرشاد الذى حافظ عليه شيوخ الخلوتية والشاذليون . وقد وجد القليل من المريدين من نوع الدراويش فى زواياهم ، رغم أن ممارسى الزهد كانوا مائزولون بارزين فى الفرق التقليدية وخصوصاً الدرقوية الجديدة .

٢ - المغرب :

أ - التيجانية :

إن النظرة الجديدة فى المغرب مرتبطة بالتيجانية فأبو العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجانى ولد فى ١٧٣٧م / ١١٥٠هـ فى عين ماضى فى جنوب الجزائر ، وقد أصبح منتسباً إلى الكثير من الأنظمة ومقدم^(١) للخلوتية . والقصة التالية التى يقال أنها مأخوذة مباشرة من أحمد نوضح

(١) « مقدم » لقب صوفى يطلق على شيخ مجموعة داخل الفرقة الصوفية . (المترجم)

كيف أنه تلقى الدعوة في تلمسان عام ١٧٨٢م / ١١٩٦هـ ليؤسس فرقته المستقلة . إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - منحه الإذن لدخول الطريقة أثناء فترة هروبه من الإحتكاك بالجمهور من أجل تكريس نفسه لتطوره الشخصى ولم تكن لديه الجرأة بعد لإدعاء المشيخة ، حتى أعطى الإذن عندما كان فى حالة بين الإستيقاظ والنعاس لتعليم وتدريب الرجال كافة دون تحديد ، كما منحه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الورد الذى كان عليه أن ينقله (١) .

بعد هذا الحدث توجه إلى الصحراء ، وهذه الظروف بالذات غامضة، ولكن يبدو أنه وقع فى مشاكل مع السلطات التركية ، وأخيراً استقر فى واحة بو سمعون فى ١٧٨٦م / ١٢٠٠هـ استقبل إلهامه النهائى (الفتح) (٢) وفى ١٧٩٨م / ١٢١٣هـ فى مقر تعبد به بالصحراء . ومرة أخرى يبدو أن هذا كان تحت ضغط . وانتقل إلى مراكش لبدأ دعواه الواسعة فى مدينة فاس . حيث استقبله بحفاوة مولاى سليمان وظل هناك حتى وفاته فى ١٨١٥م .

لقد أقام أحمد سيطرته على خطوط حاسمة ، فقد تبنى المسار الخلوتى أولاً من أجل سلسلة خلافته ، رغم أن تدريسه يدين بالكثير للشاذلية، والفرق بين الإرشاد والتعليمات (التربية والتعليم) واضحة فى تدريسه ولكنها لم تجد سبيلها فى الأحكام التالية للفرقة ، فالإلتزامات كما

(١) جوهر الممانى وبلوغ الأمانى فى قبض الشيخ التيجانى كتاب يحتوى على المحتوى الرئيسى للمذهب التيجانى ومبادئه وكذلك حياة المؤسس ، وهو يعرف باسم الكتانى ، وهو من تأليف أبو الحسن على الحرازى تلميذه الرئيسى فى فاس .

(٢) يبدو أن هذه مرحلة أخرى ادعى فيها وصوله إلى مرتبة قطب الأقطاب عام ١٣٩٩ .

(المؤلف)

كان متوقعاً فى نظام صمم للتوسع كانت بسيطة ، فهو لم يفرض أية عقوبات تكفيرية أو رياضات روحية أو فترات إعتكاف ، ولم تكن الشعائر معقدة، وقد أكد فوق كل شئ الحاجة إلى وسيط بين الله (سبحانه وتعالى) وبين الإنسان ، وأن وسيط العصر هو شخصياً وخلفاؤه من بعده ، أما أتباعه فلم يمنعوا فقط من إعطاء (عهد الولاء) لأى شيخ بل منعوا كذلك عن القيام بأى توسلات أو تضرعات لأى ولى آخر خلافه . وأولئك الذين من فرقته حين أعطاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإذن ليؤسس طريقته الرسولية ، تلقى التفوذ الإلهى خلال توسطه فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبره « ليس لأحد الشيوخ الطريق فضل عليك لأننى وسيطك ومعطيك الحقيقة ذاتها ، وأهجر كل فرقة فيما يتعلق بالطريق الصوفى^(١) .

على ذلك أن التيجانيين كان لهم سلسلة واحدة ترجع إلى المؤسس الذى على « الذكر » الهادى حتى فى التجمع ، وأدان الزيارات والمواسم المقدسة التى كانت شديدة الشيوع فى المغرب لأنها كانت كلها مرتبطة بأصحاب البركة القدماء .

ولذلك فإنه لم يكسب فى البداية أتباعاً شعبيين ولكنه عين منظمين محليين (مقدمين)^(٢) أى فرد يعلم الولاء بدون الحاجة لأى تدريب . بخلاف ما فى الأحكام والالتزامات الشعائرية فى التركيز الرئيسى كان على هجر كل القيود . أو الإرتباط بشيوخ غيره ، ولذلك فإنه عند وفاته كان أتباعه انتشروا على نطاق واسع ، وكان نظام المشاركة فى كامل قوته .

(١) نقلاً عن كتاب الجواهر السابق الإشارة إليه .

(٢) أى قادة أو شيوخ فى عيون داخل الفرقة .

قبل وفاة أحمد كانت الحركة الوهابية قد بدأت فى التأثير على شمال أفريقيا مباشرة ، وفى ١٨١١م/١٢٢٦هـ ، أرسل سعود بن عبد العزيز ، القائد الوهابى ، ثم ملك الحجاز رسالة إلى مولاي سليمان بمراكش يدعو شعبه لاتباع طريق الإصلاح فقام مولاي سليمان ^(١) بتعيين ابنه أبى إسحاق إبراهيم مسئولاً عن موكب الحج السنوى الذى كان يصحبه «العلماء» الذين بدورهم كان لديهم الكثير مما يقال حول إلغاء الوهابيين لتقديس وزيرة الأولياء وقد رأوا أن التأكيد على المبادئ الوهابية والتمسك بها هى وسيلة لإضعاف تأثير شيوخ الطرق ، لقد صاغ مولاي سليمان تقريراً مطولاً تناول فيه هذه الموضوعات عن إنتهاك السنة ، وقد أيد أحمد كل هذا، رغم أنه لم يكن محبوباً من العلماء . طبقاً لسياسته فى الإذعان للسلطة القائمة والتي كانت تميز نظامه بنظرة خاصة ، وكانت الخطبة التى تقرأ فى كل المساجد تعتبر فى نظر ذوى السلطة لإعلان الحرب وبداية العصيان المسلح فى الفترة من (١٨١٨ - ١٨٢٢م) والذى انغمس فيه الأمهرش شيخ الفرقة الوزانية والذى عرف فيما بعد بالدرقاوى .

(١) لقد وجد سيدى محمد بن عبد الله (١٧٥٧ - ١٧٩٠م) فى الحركة الوهابية أسلحة مناسبة لظروفه ، لبدأ كفاحه ضد التصوف المكشع فى هذه المنطقة فعمل على هدم عدة مؤلفات فى الكلام والتصوف ، وكذلك فإن مولاي سليمان (١٧٩٢ - ١٨٢٢م) حاول أثناء كفاحه الذى قام به ضد الزوايا ، وبشكل حيوى أكثر أن يدخل العقائد الوهابية إلى مراكش ، ومع ذلك فإن المحاولة لم تدم طويلاً ، فلقد ظهرت الوهابية فى مراكش فى نهاية الأمر على أنها مذهب غير قابل للتوافق إلا فى حدود ضئيلة جداً مع النزعتين الشرفية والمرابطة اللتين كانتا مستمرتين فى طبع المذهب السنى المغربى بطابعهما .

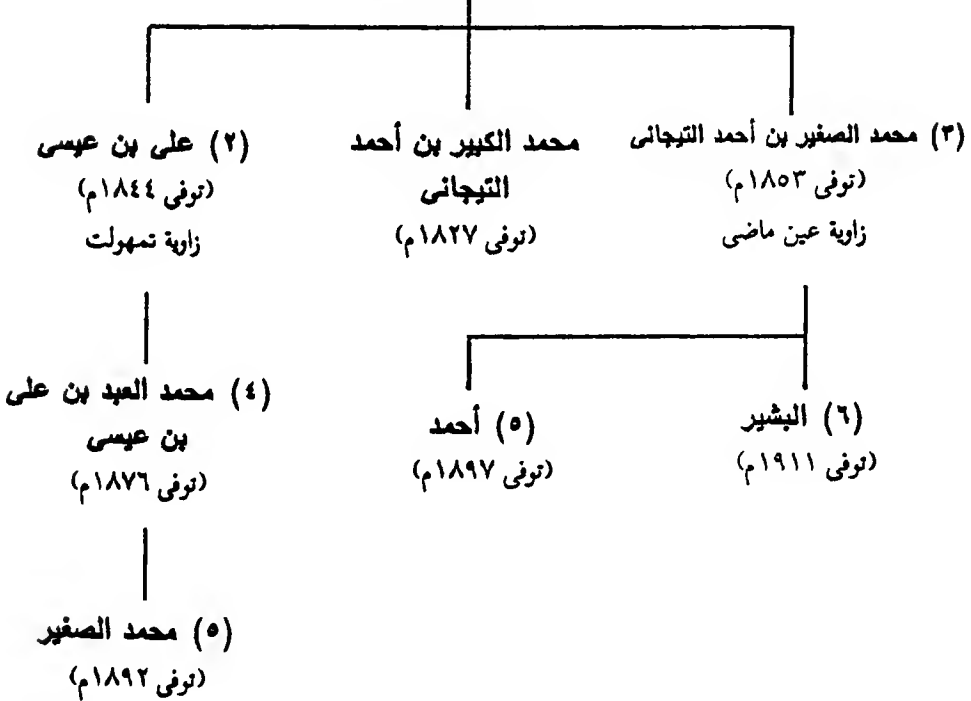
راجع : تأثر الدعوات الإصلاحية بدعوة محمد بن عبد الوهاب . د. وهب الزحيلي ، دمشق ، ١٩٨٣م ، ص ٣٢٤ .

ورغم أن أحمد دفن في فاس ، حيث أصبح ضريحه مزاراً ، فإن اتجاه الفرقة تحرك إلى مركزين بالجزائر قد اختار أحمد مقدم زاوية تمهولت بالقرب من تماسين ، هو علي بن عيسى (توفي ١٨٤٤م) كخليفة له ، وأوصى بأن الخلافة يجب أن تكون متبادلة بين عائلته وعائلة علي بن عيسى وقد شجع علي أبناء أحمد علي جعل (عين ماضي) موطنهم عندما توفي فإن الخلافة ذهبت إلى ابن أحمد ، محمد الصغير ثم مرة أخرى إلى الخط الآخر (كما هو مبين في السلسلة) .

سلسلة مشايخ الفرقة التيجانية

أحمد التيجاني (*)

توفي ١٨١٥م تقريباً



(*) الأرقام تشير إلى تتابعهم في مشيخة الطريقة . ووضح منها إنتقال الخلافة بين أولاد أحمد التيجاني وأولاد علي بن عيسى وفقاً لوصية أحمد التيجاني مؤسس الفرقة . (المترجم)

لم يحدث إنشقاق خطير فى الفرقة حتى وفاة محمد العبد عام ١٨٧٦م ، حين انفصلت المجموعتان عقب جدال حول الخلافة ، وكانت النتيجة أن هذين المكانين أصبح لهما سلطة محلية مباشرة ، وقد استقلت المجموعات بنفسها فى كل أنحاء أفريقيا ، ولكن توسع الفرقة وانتشارها لم يضعف نتيجة لذلك ، ولم يطمح الشيوخ المحليون فتأسس فروع جديدة ومع بداية القرن العشرين أصبحت الفرقة التيجانية من أهم الفرق الصوفية فى مراکش والجزائر .

وانتشرت الفرقة جنوباً فى الصحراء الكبرى غربى السودان وبعد ذلك فى السودان (أعالى النيل) ، وأخيراً فى وسط السودان ، وقد حققت أول ظهور لها فى غرب السودان حين اعتنقها جماعات مشايخ زوايا المرابطين من قبيلة عدى على المغربية ولكنها ظلت ذات طابعاً قليلاً وماكانت تنتشر لو لم ينقلها بين الزنوج أحد أفراد الطوكولور^(١) من فوتاتور^(٢) وهو الحاج عمر ، الذى استفاد من قسم الولاء لربط الاتباع به شخصياً وعمل على نشر التيجانية بالقوة ، ومنذ وفاته سنة ١٨٦٤م استمرت الفرقة فى الإنتشار ، خصوصاً بين قبائل الغولدة والطوكولور الذين اعتبروها فرقة أرسقراطية بالمقارنة بالفرقة الأكثر تواضعاً وهى القادرية وهى الفرقة الوحيدة الأخرى التى توجد فى غرب أفريقيا .

(١) إحدى قبائل الزنوج .

(٢) قرية بهجنوب السودان .

واستقر الكثير من المغاربة التيجانيين المسافرين إلى الحج في القاهرة والسودان النيلي وأدخلوا فرقتهم^(١) . وقد أشرنا إلى أن أى فرد كان على استعداد لنشر الفكرة يتم تعيينه مقدماً . ففى السودان النيلي مال أتباعها إلى أن يكونوا منحدرين أساساً بقبائل الفولد والتكولور من السودان الغربى ، الذين استقروا هناك . أما فى السودان الأوسط فإنها انتشرت فقط فى هذا الفرق ذات طابع فولبى ، أما خارج أفريقيا فإن الولاء للتيجانية كان قليلاً ورغم أنها حصلت على « زاوية » فى مكة فقط أنضم إليها فقط بعض السودانيين الغربيين المستقرين هناك وكذلك بعض المهاجرين .

(ب) النهضة التقليدية « الدرقاوية وفروعها » :

قبل الانتقال إلى أحمد بن إدريس والحركات التى ألهمها أو أقامها والتى أثرت على أفريقيا الشرقية والجزيرة العربية يمكننا أن نتناول حركة مغربية أخرى توازن مع التيجانية وكان لها فى الواقع طابع من النهضة الشعبية . وأصبحت الطريقة الأكثر إنتشاراً ، وتعداداً والأكثر تأثيراً فى شمال أفريقيا .

هذه البقظة بدأت نشاطها على يد قائد زاهد فى خلافة الشاذلية الزروقية هو أبو حمد (أحمد) العربى الدرقاوى . والذى سار على إتجاهات تقليدية ، كان معاصراً للتيجانى ، فلم تتطابق الحركتان . وبعد وفاة الدرقاوى فقط أصبحت حركته طريقة مميزة أو بخلاف التيجانى . فهو لم

(١) كان هناك تياران من الإنتشار للتيجانية فى السودان النيلي خلال الفترة المصرية (أى تبعية السودان لمصر) : التيار الأول كان مغرباً بمثله ويقوده محمد بن المختار الشنقيطى والذى عرف باسم واد العلبة (ت ١٨٨٢م) والتيار الثانى خلال تحركات السودانيين الغربيين سواء للهجرة أو للحجم . (المؤلف)

يتلق أية تعليمات من الرسول ليؤسس طريقة ، وقد كتب القليل ، وهو يقول بصفة خاصة أن ذكره مستمدة من أستاذه على العمران الجمال^(١) توفي (١٧٧٩م) وكان خلال حياته كلها يبدو ضحية الظروف التي لم يكن له سيطرة عليها .

ويؤكد الدرقاوى نفسه على عدم الإنغماس فى شئون هذه الدنيا ، فقد كان شديد الحماس فى وعظه بعدم إستقلال البركة فى الفرق الصوفية القائمة ، ومع ذلك فرقته أصبحت معروفة - وساءت سمعتها - كحركة سياسية دينية ، وقد أصبح هو نفسه منغمساً فى هذا النشاط أما مولاى سليمان (فترة حكمه من ١٧٩٣ إلى ١٨٢٢م) فقد سعى فى البداية للإستفادة من القوة الكامنة الناشئة من هذا الشيخ المستنير^(٢) فى تدعيم وضعه ضد الأتراك فى أوران وتلمسان . ولكنه فمياً بعد - كما رأينا أذان ممارسات الفرق وقد عارض الدرقاوى أحد مقدميه « وهو عبد القادر بن شريف » لمهاجمة الأتراك فى أوران (من ١٨٠٥ - ١٨٠٨م) ومع ذلك فإنه - بعد ذلك - أيد قادة الثورات ضد حكم مولاى سليمان ، ولم يكن هو الروح القائدة فى هذه الحركة المناضلة ، ولكن استغله آخرون وأصبح السلطان معادياً له ، وقد سجن الدرقاوى نتيجة لذلك ثم أطلق السلطان الغالى عبد الرحمن (حكم فى الفترة من ١٨٢٢ إلى ١٨٥٩م) سراحه وبعد ذلك تشنت نظامه فقد أخذت قوته وأنشطته السياسية تضعف .

بعد وفاة الدرقاوى فى زاويته فى بوبريج شمال فاس مباشرة ، وبين قبلية بنو زروال ، فقد أقاموا حول اسمه ما أمكن أن يعتبر طريقة جديدة فى

(١) اسمه بالكامل هو (أبو الحسن على بن عبد الرحمن الجمال الفاسى) . (المؤلف) .

(٢) يقصد الشيخ الدرقاوى مؤسس الفرقة . (المترجم) .

أنها خطأ محددًا من النسب كان أن انتشر تلاميذه على نطاق واسع مكونين زواياهم الخاصة ، ولكن محتفظين بنسبهم إليه وأصبحت الدرقاوية أكثر الفرق أهمية في مراکش ، وكلها إنتشرت أيضاً عبر المغرب وكان لها عدد قليل من المقدمين في مصر والحجاز . وبعض المجموعات بالزوايا المؤسسة منذ فترة طويلة ، قد ربطوا أو نسبوا أنفسهم إلى الخط الجديد ، وكان ضمن هؤلاء الأمهوتشي الحنصالية الذين هجروا نسبهم بالناصرية والتحقوا بالدرقاوية لأسباب سياسية أكثر منها دينية . وفيما يلي أهم الفروع وهى :

(١) تأسس الزاوية فى بربويج : حيث دفن الدرقاوى ومعظم خلفائه أما الزوايا والوكلاء الفرعيون فكانوا فى تتوان وطنجة وغمارة ... إلخ. وقد انتقل المركز الرئيسى إلى قرب زاوية فى أماجوط (زمجوت) بعد ١٨٦٣م .

(٢) البدوية : وهى من الفرع المراكشى الغربى ، وأحياناً يشار إلى أتباعها باسم « الشرفاء » والمؤسس هو أحمد البدوى تلميذ الدرقاوى ودفن فى فاس^(١) ولكن الفرع تم تنظيمه (زاوية فى جوز) بواسطة خليفته أحمد الهاشمى بن العربى والذى بعد وفاته (١٨٩٢م) أدت الإضطرابات على الخلافة إلى تأسيس (الزوايا « المناهضة ») .

(٣) البوزيادية : مؤسسها هو محمد بن أحمد البوزيادى (توفى ١٨١٤م) تلميذ الدرقاوى أما تلميذه ابن عجيبه (أبو العباس أحمد توفى ١٨٠٩م) فيتميز بإنتاجه الأولى الضخم .

(١) واضح أن أحمد البدوى هذا غير أحمد البدوى المدفون فى طنطا ، وإن كان هذا الأخير أيضاً قد ولد فى فاس . (المترجم) .

(٤) الغمارية : مؤسسها هو أحمد بن عبد المؤمن ، وضريحه في توشجان .
(٥) الحراقية : شمال مراكش ، ومؤسسها أبو عبد الله محمد بن محمد الحراق (توفي ١٨٤٥م) .

(٦) الكتانية : زاويتها في فاس وأسسها عام (١٨٥٠م تقريباً) محمد ابن عبد الوهاب الكتاني وكان حفيده بنفس الاسم ، وقد عمل على تطويرها منذ ١٨٩٠م وقد سجنه الوزير أحمد ، وأُخلى سبيل الكتاني قبيل وفاته ولكن نظامه نما ، وقد أحدث توسعاً ملموساً أثناء حكم مولاي عبد العزيز ولكن مولاي رافد عامله بخشونه أدت إلى وفاته ، وقد أغلقت كل الزوايا واختفت الفرقة تقريباً ولكن أعيد تكوينها عام ١٩١٨م تقريباً بتوجيه عبد الحى ... !!

(٧) بو الغزاوية أو الجدية : تأسست في مراكش الشمالية الشرقية زاويتها في دريو على يد محد (الجدى) بن أحمد الطيب البوغراوى (توفي في مراكش ١٩١٤م) .

(٨) الفروع الجزائرية:

أ - المهاجية أو القدورية : المؤسس سيدى بو عزة المهاجى موستنجانم^(١) الذى خلفه تلميذه محمد بن سليمان بن عودة القدور من ندروما .

ب - العلوية : أسسها أحمد العلوى الذى بعد أن قضى تلمذته فى العيسوية ، أصبح تلميذ محمد البوزيادى (توفي ١٩٠٩م) ثم

(١) مدينة ساحلية فى الجزائر . (المترجم) .

أعلن إستقلاله فى ١٩١٤م ، وتوفى فى ١٩٣٤م ، ودفن فى
الزاوية تجزيت بالقرب من مستجنام .

ج - بالإضافة إلى ذلك فهناك زوايا مرتبطة بـ : محمد الميسون بن
محمد (الميسون) رئيس الفرع الجزائرى (ت عام ١٨٨٣م /
١٣٠٠هـ) وعدا بن غلام اله توفى ١٨٦٠م وضريحه وزاويته
بالقرب من تيرين والعربى ابن عطية عبد الله أبو الطويل
الونشريس .

(٩) المدينة :

(أ) الفرع الطرابلسى والجزاى المتكون بعد وفاة الدرقاوى على يد
محمد حسن بن حمزة المدنى ، المولود فى المدينة وهو تلميذ للدرقاوى فى
بويريج وقد عاد إلى المدينة ، حيث لقن الكثير من الخلفاء وبعد وفاة
الدرقاوى استقر فى طرابلس حيث كون طريقتة الخاصة وتوفى فى مصراته
فى (١٨٤٦م / ١٣٦٣هـ) فى ظل ابن المانى وخليفته محمد ظافر .
أصبحت فرقة جديدة تتميز أكثر من مجرد فرع ، أما المقدمون فقد انتشروا
على نطاق واسع فى تونس والجزائر وليبيا (فزان) ، والحجاز وتركيا حيث
لعبت الفرقة دوراً إسلامية موحداً ^(١) وتفرع منها مايلى :

(ب) الرحمانية : فرع حجازى مؤسسها هو محمد بن محمد بن
سعود بن عبد الرحمن الفاسى ، الذى ذهب إلى مكة عام ١٨٥٠م حيث
بنى زاوية وتوفى ١٨٧٨م .

(١) المقصود هنا هو فكرة الوحدة الإسلامية الشاملة التى كانت فى أوجها فى أواخر القرن الماضى

وأوائل القرن الحالى الميلاديين وهى ما عرف فى الكتابات الغربية باسم Pan - Islamism .

(المترجم)

(جـ) اليشروطية : أسسها على نور الدين اليشروطى المولود فى
بىزر^(١) ١٧٩٣م وتوفى فى عكا ١٨٩١م.

لقد جذبت الفرقة عضويتها فى مجال واسع من الجماعات
الإجتماعية، وكان سكان المدن يتلون أذكارهم و « الحضرات » المحلية
ويذهبون أحيانا فى زيارات للأضرحة ، ولكنهم كانوا يمارسون حياتهم
العادية، أما بين رجال قبائل الجبال القرويين . فإن الارتباط المحلى كان يعتبر
رباطاً مجدداً بقوة روحية بشير الحماس الذى كثيراً ما دخل فى نزاع مع
الفرق الأقدم . وقاوم السيطرة السياسية للنفوذ الأجنبى^(٢) وبالإضافة إلى
الطفيليين الذين نسبوا أنفسهم بالزوايا فإن هذه الفقرة كان لها عدد
غير عادى من الموالين والأتباع الذين عاشوا معروفين كدراويش ، يحملون
العصا ويلبسون الخروق البالية « المرقعة » ومسبحة ذات حبات خشبية
كبيرة حول أعناقهم التى كانت ممنوعة عند السنوسيين ، متجولين من
مكان لآخر يتلون الإبتهالات ويرتلون القرآن ، وهذه الدروشة المتجولة ترجع
إلى الدراوى نفسه، كما كانت أيضاً فرقة تفسح مجالا للنساء ، وفى
عام ١٩٤٢م يذكر أنه كانت توجد ثمانية سيدات كقادة للحلقة
(مقدمات) فى مراکش .

(١) مدينة فى تونس . (الترجم) .

(٢) حوالى عام ١٨٣٦م أصبح المقدم عبد الرحمن منغمساً فى مقاومة الإحتلال الفرنسى للجزائر ،
كما استمرت مقاومة الدراوية بشكل أو بآخر حتى عام ١٩٠٧م (المؤلف).

(٣) الحركات المنبثقة من أحمد بن إدريس :

(١) أحمد بن إدريس :

إن المصلح الآخر العظيم هو أحمد بن إدريس بن محمد بن علي المولود في ميسوريا بالقرب من فاس في (١٧٦٠م / ١١٧٣هـ) من عائلة تقية. ولقد مر خلال المراحل العادية للدخول في المنظمات العريية وكان أحد مدرسيه هو أبو المواهب عبد الوهاب التازي الذي أدخله في فرقته أما مدرسه الآخر في الطريقة الصوفية فكان أبو القاسم الوزير . وقد نشأ ابن إدريس في التقليد الصوفي الرسمي القائم على التراث الشرعي فكان اعتراضه على تبجيل الأولياء بالمغرب ، والذي كان يمارس متخفياً بالتصوف . ويقول مؤرخ سيرته أنه أقام ممارسته الصوفية تماماً على أساس القرآن والسنة معتبرها الأصول فقط ورافضاً الإجماع ماعدا ما كان للصحابة والذي قامت عليه سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . من الواضح أن هذا جاء في فترة متأخرة من حياته وبعد أن صار تحت النفوذ الوهابي ، لم يكن إهتمامه محدداً بتدريس الأوراد والأذكار لحث الناس للإلتقاط في رياضة تعبدية وعزل أنفسهم عن البشرية ، فمثل هذه الممارسات قد تكون ذات فائدة للتطور الفردي لشخص المريد ولكنها ليست مناسبة للغرض الأسمى والذي كان يهدف إليه وهو محاولة توحيد المسلمين برباط الإسلام . وسرعان ما هجر أحمد المغرب ولم يعد إليه مطلقاً ، وبعد أداء الحج عام ١٧٧٩م استقر بالقاهرة لمزيد من الدراسات ، ثم عاش حياة غريبة في قرية الزيفية بمحافظة قنا ، وعاد إلى مكة مرة ثانية عام ١٨١٨م واستقر هناك كمصلح ديني يسعى لإعادة الإيمان النقي كما كان قبل أن يشوهه العلماء ، فضلاً على أنه وثب فجأة ، ليس كعضو معروف من رجال الدين بالمكان الذي

مورست فيه حدة السيطرة الوهابية . فمن الطبيعى أنه لم يلتق ترحيباً ، فالعلماء الذين كانت قلوبهم مليئة بالحقد والحسد والكراهية ، جادلوه واختلفوا معه ولكن فيوض إلهاماته السماوية وفصاحته تفجرت وتبين أنه يقف تماماً فى الطريق المستقيم . ثم أصبح واحداً من أشهر المدرسين فى المدينة المقدسة ^(١) وتجمع حوله عدد كبير من التلاميذ ومن بين الكثير بين الذين أخذوا عنه الطريق ببساطة للمشاركة فى قوته أو التبرك كان عن حسن ظافر المدني . لم تخف كراهية العلماء له إطلاقاً كما وجهت إليه تهمة الهرطقة (الكفر) ولذلك كانت حياته معرضة كثيراً للخطر فاضطر إلى الفرار فى ١٨٢٧م إلى زيد ثم إلى مدينة صابيا فى عسير ، والتي كانت لاتزال فى ذلك الوقت تدين بالولاء للوهابية . ولكن أهلها تركوه فى سلام طالما أنه كان متعاطفاً مع عقائدهم الإصلاحية ، وتوفى سنة ١٨٣٧م .

بينما ظلت التيجانية موحدة وحتى فيما بعد فإن الإضطرابات الداخلية التى لم تؤد إلى تكوين فروع جديدة فإن الإدرسية قد إنقسمت فوراً بعد وفاة السيد وانتهج تلاميذه الأكثر تأثيراً مناهج مستقلة وكان أهمهم هو محمد بن على السنوسى ، مؤسس السنوسية ^(٢) ، ومحمد عثمان الميرغنى

(١) يقصد مكة المكرمة .

(٢) صاحب الدعوة السنوسية هو الإمام محمد بن على السنوسى الكبير الخطايبى من محلة الواسطة فى وهران بالجزائر ، ولد سنة ١٢٠٢هـ / ١٨٨٧م ، وتوفى سنة ١٩٥٩م حضر الإمام السنوسى مكة حاجاً ، ومكث يطلب العلم فى مكة وقت دخول آل سعود ١٨٢٩م فعاشر اتباع الدعوة الوهابية وتلمذ على علمائها واعتنق مبادئها وأنشأ أول زاوية فى جبل أبى قبيس (الجبل المشرف على مكة سنة ١٨٤٢م) والزاوية الثانية فى بركة بالجبل الأخضر سنة ١٢٥٧هـ وتابع إنشاء زوايا فى ليبيا ومصر وصحرائها الغربية وتونس ، حتى بلغ عددها ٥٢ زاوية ولقد أتت هذه الحركة الإصلاحية أكلها ، وغيّرت مجرى حياة الناس فى ليبيا تغييراً تاماً ، وقاموا بفضلها الغزو الإيطالى مقاومة عنيفة ، وانتشرت هذه الدعوة إنتشاراً واسعاً ونشرت الإسلام فى أفريقيا الغربية .
راجع : نظام الإسلام ، د. وهبة الزحيلي ، مطبوعات كلية الشريعة ، جامعة دمشق ، ص ٤٩٣ ، ١٤٠٣هـ (المترجم) .

مؤسس الميرغنية . وهذه مع عدد من الفروع كانت طرقاً مستقلة تظهر
إعترافاً سطحياً فقط بولائها لأحمد بن إدريس ، وبالتالي اتبعت مسارات
مختلفة فى تدريسيها وتدريسيها ، وكانت السنوسية هى الفرقة الوحيدة التى
استبقت نمط من إدريس الأهداء فى الذكر والذى منع الموسيقى والرقص
والحركات المبالغ فيها ، فالحصول على الإنجذاب الصوفى فى المفهوم
العادى الفج لم يكن هدف الذكر السنوسى .

وكان المتوقع من الإخوان العمل من معيشتهم وكانوا يهجرون الدنيا
إلى مراكز « زوايا » مستقلة فى الواحات وفى أعماق الصحارى أما ماكان
محل تركيزهم فهو ذكر التأمل . فخلال التأمل فى جوهر ذات الرسول -
صلى الله عليه وسلم - كان المريد يسعى إلى الوحلة معه ^(١) .

والميرغنية باعتبارها قد ورثت موروثاً صوفياً آسيوياً خاصاً فقد أخذت
غالباً الاتجاه المضاد فقد أكد أتباعها على قيمة الموسيقى والرياضات
الجسمانية فى تعبدهم ، رغم أن المبالغات لم يكن مسموح بها فلم يكن
لهم زوايا ولا (فقراء) مكرسين لحياة الخدمة والتعبد ولم يصغوا إلى تركيز
على أسلوب المجاهدة والتأمل ، مؤكدين أكثر على قداسة العائلة الميرغنية .
والتي من خلالها يمكن للمرء العادى أن يحصل على الخلاص والتوبة .

هاتان الفرقتان - واللذان كان لهما تأثير هام عبر التاريخ - أى المرغنية
فى الدنيا منذ البداية كفرقة آسيوية والتي واقعت أسلوبها فى التعبير على
الحياة الأفريقية الكوشيتية والسنوسية المناضلة بنجاح فى البداية لإنجاز

(١) للسنوسى كتاب يضم مجموعة خاصة من الإتهالات والصلوات على الرسول - صلى الله عليه
وسلم - اسمه السلسيل المعين . (المؤلف) .

مهمتها داخل أغوار الصحراء والتي كانت تدهوراً بعد الحرب العالمية الثانية
- هاتان الفرقتان تستحقان مزيداً من الوصف .

(ب) الميرغنية أو الختمية ^(١) :

نحو نهاية القرن الثامن عشر توجهت العائلة الميرغنية بعد طول بقاء أو
إستقرار فى آسيا الوسطى إلى مكة والتي عرف إشرافها إدعاءهم بأنهم
ينتسبون إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - كان جد محمد عثمان وهو
عين الله المحجوب توفى (١٧٩٢م / ١٢٠٧هـ) صوفياً معروفاً تماماً ، وقد
تبعه محمد عثمان فى خطواته ، ومثل السنوسى فقد سعى لدخول الطرق
داخل الكثير من الفرق بقدر الإمكان ، ولكن شيخه الحقيقى كان أحمد
ابن إدريس وقد أرسله أحمد كداعية للإصلاح إلى مصر والسودان النيلي
عام ١٨١٧م قبل غزو محمد على مباشرة . ولكنه لم ينجح بصورة بارزة ،
ولكنه تزوج من سودانية ، وجاء ابنه منها وهو الحسن ليؤسس فى النهاية
طريقة كانت أكثر الطرق أهمية فى السودان الشرقى .

وعاد محمد عثمان إلى مكة ثم صحب أحمد بن إدريس إلى صابيا
ولكنه بعد موت سيده عاد إلى مكة ، حيث اتبع منهجاً منافساً أو مختلفاً
عن تلاميذ أحمد الآخرين ، وحسن أمين على السنوسى وإبراهيم الرشيد ،
وقد ادعى كل منهما أنه خليفة أحمد بن إدريس وأسس طريقته المستقلة .

(١) تنسب إلى محمد عثمان الميرغنى السودانى المتوفى سنة ١٢٦٨هـ ، سمي نفسه الختم ، أو
خاتم الأولياء ، وجعل هذا الاسم أيضاً علماً على طريقته الصوفية ، حيث سماها (الختمية) أى
خاتمة الطرق جميعاً !!! .

راجع الفكر الصوفى ، عبد الرحمن عبد الخالق ، مرجع سابق ، ص ٢٦٠ . (المترجم) .

وكان محمد عثمان فى مكة أكثر نجاحاً فى البداية عن الآخرين ، حيث كانت عائلته معروفة هناك وأظهر نفسه ليس كشيف مصلح مثل أحمد فكسب تأييد الشرفاء المكيين وقد أشار قليلاً فى كتاباته إلى مايدى به لأحمد، ومثل السنوسى أذى بأن طريقته « شاملة » محتوية على أساسيات النقشبندية والشاذلية والقادرية والجشيدية والميرغنية عن جده . لذلك فإن أى فرد يأخذ الطريقة عنه ويتبع مساره سيربط نفسه بسلاسل أو أسانيد هذه الطريقة.

وقد أرسل أبناءه إلى دول مختلفة جنوب الجزيرة العربية ومصر والسودان النيلي وحتى الهند ، وفى كل من هذه الدول تكونت نواه من الأتباع قبل وفاته عام ١٨٥١م / ١٢٦٨هـ فى الطائف . التى انسحب إليها عقب إزدياد عداوة العلماء وكانت الدعاية أكثر نجاحاً فى السودان المصرى، حيث كان ابنه الحسن قد استقر فى كسلا وأسس فرقة الختمية (توفى ١٨٦٩م).

وحين أعلن محمد أحمد ^(١) أنه المهدي فى السودان عام ١٨٨١م فإن العائلة الميرغنية مثل كل الفرق الأخرى القائمة قد قلدت مناصب فى ظل النظام التركى المصرى. قد عارضت إدعاءاته .

(١) هو محمد أحمد بن عبد الله ، المولود فى جزيرة (لبب) بالقرب من نقلا ، حوالى سنة ١٢٦٠هـ والمتوفى سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م ، بدأ بدعوته سراً فى جزيرة أبا ، وقد تمكن من توحيد الكلمة وتأليف القلوب وجعل من السودانيين أمة جديدة أية تتمسك بتماليم الإسلام القوة وخاض معهم حروباً كثيرة ضد الإنجليز .
راجع : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا . حسن أحمد محمود ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، ص١٣٤ . (المترجم).

وأثناء المهديّة فقد تعرّضت العائلة للنفي ولكن مع عودة الإحتلال في ١٨٩٨م فإن السلطة الميرغنية أعادت تكوين نفسها وقد عارض الميرغنيون بشدة إنفصال الخلفاء ليؤسسوا فروعهم الخاصة ، ولكن كان هناك استثناء واحد الذي صرح باستقلاله محمد عثمان ، وكان هذا هو الفرقة الإسماعيلية التي أسسها عام ١٨٤٦م إسماعيل بن عبد الله عاش ١٧٩٣ - ١٨٦٣م) في الأبيض بمحافظة الخرطوم بالسودان الشرقي .

عالج الإسلام في السودان الشرقي القائم تماماً على العربية التوفيق بين الشريعة والتصوف ، وقد وجدا الدعاة والدينيون أدوار الفقيه أو الفقير «الصوفي» أو المعلم (يدرس القرآن) تحت مصطلح شامل هو «الفقي» ، كما كانت مؤسستهم التي وجدت كل هذه الوظائف تعرف باسم «الخلوة» نجم عن هذه التأكيدات الجديدة نوع مختلف من المنافسة الدينية ، والإخلاص للفرقة الصوفية ولم يوضع تركيز على الزهد والممارسات والتدريس الصوفي ولكن إعتماًداً كاملاً على الميرغنيين ، والإخلاص لمن كسبوا الوعد بالحبشة ، واشتهرت الفرق العائلية والقبلية القديمة في البقاء وحافظت على الروح القديمة ، في مقابل التعصب التشريعي الذي سرعان ما انفجر في رفض المهدي ميراثه الصوفي .

(ج) السنوسية :

محمد بن علي السنوسي (من ١٧٨٧ إلى ١٨٥٩م) لإنغماسه في الخلافات حول خلافة أحمد بن إدريس فقد قام بتأسيس أول زاوية له عام ١٨٣٨م في أبو قبيس ، وهو تل يشرف على الكعبة ، ولكنه رغم إكتسابه لعدد من الأتباع لم يستطيع حماية نفسه ضد كل من العلماء والعائلة

الميرغنية العميقة الجذور بمكة ، فقد أجبر على مغادرة مكة عام ١٨٤٠م واستقر أخيراً فى التلال وتعرف بالجبل الأخضر عام ١٨٤٣م داخل يرة^(١) حيث أسس الزاوية البيضاء ، هذه المنطقة الخصبة نسبياً فى وسط الصحراء القاحلة كانت تمثل مركزاً مناسباً للتأثير على القبائل البدوية ، والإتصال بالموالك القادمة من السودان الأوسط ، ورغم أنه كسب الكثير من القبائل البدوية فى هذه المنطقة ، فلم يثير إلا إستجابة ضعيفة بين المزارعين ، وسكان الخضر الذين كانوا مرتبطين بالفرق كما دفعته نظرتة فى الوعظ والتدريس أن ينظر فى الاتجاه الجنوبى أى القبائل شبه الجاهلية التى تعادى بعضها البعض ، وهى قبائل الصحراء إلى جانب الشعوب السوداء بالسودان الأوسط .

وفى ١٨٥٦م نقل مركزه الرئيسى من البيضاء إلى جفوب فى أعماق الصحراء الليبية ، ليتجنب التدخل التركى وكذلك ليزيد من تأثيره فى الصحراء الوسطى ، وهناك أسس زاوية متعددة الوظائف والتى تشبه الرباط القديمة فى طبيعتها الشبه حدودية ولكنها كانت أكثر شمولاً فى خواصها أو مميزاتها الإسلامية والإجتماعية^(٢) .

كان محمد بن على أكثر قرباً وإخلاصاً من أى فرد آخر من خلفاء أحمد فى إتباع أهدافه فى المضى على إزالة أسباب عدم الوحدة بين

(١) فى الأصل Grenaica ، والصحيح ما أثبتناه . (المترجم) .

(٢) كانت الزوايا السنوسية عبارة عن مراكز إصلاحية ، والزاوية تعتبر خلية دين وعلم ، ومركز حكم وإدارة ، ومركز زراعة وتجارة ، وتربية عسكرية ناجحة وحرماً آمناً لمن يلجأ إليها .
راجع : حاضر العالم الإسلامى للأمير شكيب أرسلان ، ٣/ ٣٩٩ . (المترجم) .

المسلمين، ومثل الشيخ أحمد بن إدريس فإنه دعا إلى العودة إلى المصادر الأولى للقرآن والسنة ولما كان هذا يعنى رفض الإجماع والقياس وبالتالي كل الصرح الكامل للإسلام التشريعى ، فإن النتيجة التى لم يتصورها أحمد أو محمد بن على كانت هى عداوة العلماء والتى إزدادت حدتها وقد زعم محمد بن على بأن كل سلاسل الفرق الموجودة قد جمعت ووحدت فيه هو وأن كتابه : السلسيل المعين فى طريق الأربعين ^(١) يصف فيه متطلبات الذكر ليوضح كيف أن طريقته تفى بمتطلباتهم جميعاً ولم يمكن تسمية كتاباته أنها كتابات صوفية بأى مفهوم حاسم لهذا المصطلح أما كتابه (المسائل العشر) مثلاً ، فهو يتناول المشاكل العشر التى تواجه المرء عند تنفيذ شعائر الصلاة ، وقد استمر فى تنفيذ هدف أحمد فى السعى لتحقيق نقاء الصوفية العملية وخلوها من السمات المبالغ فيها والشاذة ، وقد ركز أو اهتم بالنواحي التعبدية لتلاوة (الذكر) مستهجنًا العروض المزعجة والمجنونة، التى ارتبط بها الذكر وفى نفس الوقت ، وحيث أنه كان أيضاً داعية عملياً، فإنه لم ينسى حاجات الناس العاديين وسمح بالممارسات المتصلة بتشريف الأولياء .

لقد حاول السنوسى تحقيق تنظيم إسلامى بسيط للمجتمع عن طريق الوسائل السلمية ولذلك تركزت حركته فى المناطق الغير ممكن الوصول إليها بالصحراء ، والبعيدة عن مراكز التميز مثل مكة . لأنه فى دولة بلا تاريخ فقط ، كان مثل هذا الهدف ممكن الإنجاز رغم أن التاريخ فى الواقع كان يجرى ويتخطى هذه الفرقة أما فكرته المثالية عن الوحدة (وحدة التفكير

(١) ذكرنا أن كلمة الأربعين أو الأربعينية تشير إلى فترة إعتكاف عند الصوفية . (المترجم).

والعبادة والعمل) فقد أدت إلى التنظيم الشامل للزاوية وكل زاوية محلية أى طلبة الثقافة الإسلامية والتي بدأت فى بيئة بدوية أو معادية كانت الوسيلة لتنظيم الموالين وخلالها تحقق التوسع والإنتشار وكل منها تتكون من مجموعة من المباني المنشأة حول حوش داخلى به بئر ماء ، وتضم هذه المنشآت مقر « المقدم » ويمثل السنوسى وعائلته وعبيده وتلاميذه إلى جانب المسجد والمدرسة وحجرات للطلبة وأماكن أو قلايا المحافظة على المراقبة، جناح للضيوف لاستعمال المسافرين المارين أو المواكب المارة ، ويحيط هذه الإنشاءات المترابطة جدار يمكن الدفاع عنه إذا دعت الضرورة أما حوله فكانت توجد أراضى يزرعها « الاخوان » لم تكن الزاوية مقراً غريباً أو منعزلاً بل اعتبرت متممة إلى القبيلة التى يقع فى منطقتها ، والتي كان يؤخذ من أعضائها الكثير من الاخوان لذا فأنها كانت مركز الوحدة القبلية وهذا أعطاهما قوة لتبقى وتعيش ويكتب إيفانز برتشارد ^(١) قائلاً :

« بخلاف رؤساء معظم الفرق الإسلامية ، التى تفككت بسرعة إلى قطاعات مستقلة بدون إحتكاك أو توجيه مشترك فقد كانت قادرة على المحافظة على هذا التنظيم كاملاً ومسيطرة عليه كما كانوا قادرين على فعل هذا عن طريق تآزر وتعاون الفرق مع التركيب القبلى .

الفروع الإدريسية الأخرى :

لم يطالب أبناء أحمد بن إدريس فوراً بالخلافة ، وقد اعترف ابنه محمد ابراهيم الرشيد كخليفة لوالده ، كما أن أتباعه فى صابيا قد قدموا ولاءهم له ، والابن الآخر عبد المتعال اتحد أولاً بالسنوسى وقضى بعض

(١) إيفانز برتشارد عالم أنثروبولوجى بريطانى شهر له كتب متعددة عن قبائل السودان . (المترجم)

الوقت معه فى جمبوب ثم ذهب إلى دنقلة على النيل النوبى ، وجعل نفسه رئيساً للفرقة أما فى عسير الغربية فقد احتفظ محمد وأخلافه بفرعهم فى إنسجام مع فرقة السودان النيلى ولقد حدث فى عسير أن محمد بن على (١٨٧٦ - ١٩٢٣م) الحفيد الأكبر لأحمد قد أصبح حاكماً زمنياً حين أسس الحكم الإدريسى لعسير سنة ١٩٠٥ م .

أما إبراهيم الرشيد ^(١) (توفى فى مكة ١٨٧٤م) ، شيخ السودان المصرى، فقد استمر بالتقاليد الدعائية لأحمد ، والذي كان خليفته الرسمى حسب إدعائه . وقد أنشأ عدة زوايا فى الأقصر ونقلها وكذلك فى مكة حيث كسب شعبية وأتباعاً خصوصاً بعد أن برأ نفسه بنجاح من تهمة الهرطقة المنسوبة إليه من العلماء ، وهناك أخيه وتلميذ له يسمى محمد بن صالح أسس فرعاً فى سنة ١٨٨٧م فى فرقة مشتقة . وهى الصالحية كان مقرها مكة ، والتي أصبحت مؤثرة فى الصومال خلال وعظ وتدريس الصومالى محمد جوليد (توفى ١٩١٨م) وتكوين التجمعات السكنية أما حركة محمد ابن عبد الله الحسن (الملا المجنون) كان أصلها بين الصالحية .

أما محمد المجذوب الصغير عباس (١٧٩٦ - ١٨٣٢م) الحفيد الأكبر لأحمد بن محمد (١٦٩٣ - ١٧٧٦م) مؤسس المجذوبية ، والمنبثقة عن الشاذلية فى مقاطعة دامر فى السودان النيلى وبعد تلقى دراسته على يد أحمد بن إدريس فى مكة عاد إلى السودان ، وأعاد إحياء طريقته الموروثة ونشرها بين قبائل الجيلاتين والبيجا .

(١) ينبغى التفرقة بينها وبين الرشيدية المراكشية (والمعروفة أيضاً باسم اليوسنية) وهى فرقة من التراث الشاذلى (ولكنها مستقلة عن السلسلة الجازولية) أسسها أحمد بن يوسف الرشيدى (توفى عام ١٥٢٤م / ٩٣١هـ) . (المؤلف).

(٤) الفرق الصوفية فى آسيا :

إن النهضة التى وصفت فيما سبق لم تمتد إلى آسيا إلا بصعوبة ومع ذلك فإن مكة فى القرن التاسع عشر كانت أكثر مراكز الفرق أهمية فى العالم الإسلامى ، فقد كانت فرقة ممثلة هناك وقد ألقى أو حل الوهابيون الفرق مع إلغائهم لمذهب تقديس الولى ، فى تلك الأجزاء من أراضى الجزيرة العربية اتى سيطروا عليها ، ولكن بعد حملات محمد على فى سلطتهم السياسية أصبحت محصورة فى نجد ، فازدهرت الفرق فى الحجاز أما فى عسير فقد رأينا أحمد بن إدريس قد وجد فعلاً حماية فى ظل الوهابيين من إتهام العلماء المكيين ، وقد وجد تلاميذه استجابة فى أفريقيا أعظم مما فى مكة العربية ، بل إن كل الفرق المنبثقة عنه كانت ممثلة بواسطة الزوايا فى مكة ومعظم موسسها عاشوا هناك . ورغم أن السنوسى مثل أحمد نفسه قد وجد أن مكة مكاناً مستحيلاً ولا يمكن أن يتابع هدفه من تأسيس طريقته المجددة فإن زاويته فوق أبى قبيس استمرت فى الإزدهار وقد أسست زوايا فى مدن أخرى بالحجاز وكسبت الفرقة ولاء بعض البدو .

فى مكة كانت الفرق فى وضع مماثل فقد مارست تأثيراً كبيراً بين الحجاج لدرجة أن مكة أصبحت مركز إنتشار كبير ، لأن الكثيرين دخلوا فى فرع أو أكثر بينما عاد آخرون كخلفاء ، معلقين عليها أنبوبة حول أعناقهم تحتوى على إجازاتهم (تصريح بالتدريس أو جمع الأنصار) فمثلاً نجد الشيخ (أبو ندرىش الأول) من النقشبندية وقد تلقى تلقينه فى مكة حوالى ١٨٤٠ م ، رغم أنها تمت بطريقة أخرى ، حيث كانت البداية من مكة حيث وجدت النقشبندية الهندية درجات متفاوتة من إقامتها وإستقرارها

فى المدن العربية ، والحجاج العائدون (ماعداء فى أفريقيا الزنجية) فقد مارسوا أحياناً نفوذ فى مواطنهم الأصلية والذى فاق فى وزنه ذلك الذى للممثلين الرسميين للإسلام .

فى نفس الوقت فإن العلماء والأشراف وهى الطبقة الحاكمة المكية فى كل الأمور الدينية والمدنية تحت حماية الأنظمة الخديوية أو العثمانية ، قد قدروا تأثير قادة الفرق ، حيث لم يكن الإحترام فقط هو الذى ابتعد من وجودهم ، ولكن أيضاً الأموال أبعدت عن حوزتهم^(١) . وكانت الإتهامات والإضطهاد لقادة الفرق من الأمور العادية . وقد رأينا كيف كان مستقلاً مثل أحمد بن إدريس كان مجبراً على مغادرة الحجاز كذلك الحالة المتأثرة بصفة خاصة كانت هى إتهام الشاذلى على بن يعقوب المرشدى السعدى الذى إتهمه بالهرطقة مجلس العلماء فى ١٨٨٦م وسلم إلى السلطات الدنيوية ، التى عذبتة حتى الموت ، فى نفس الوقت فقد أخذت الإجراءات على يد السلطات الدنيوية لإضعاف نفوذ قادة الفرق .

وحين غزا محمد على الحجاز فى ١٨١٣م فقد أسس النظام الإدارى الذى كان فى قوته وسارى المفعول فى كثير من أجزاء الإمبراطورى العثمانية بواسطة وضع الفرق من وجهة النظر الإدارية تحت إشراف ومسئولية شيخ الطرق وهو المعين لكل مدينة . وقد كتب A. Le Chatalier :

(١) يصور المؤلف الخلاف بين العلماء وبين المتصوفة على أنه نزاع على السلطة والمال فقط ، ويبدو - كما أشرنا من قبل أنه يدافع عن التصوف أياً كان ما يحدث باسمه وتحت عباءته من أفعال تتعارض مع الشريعة فى يع الأحيان - والظاهر أن المؤلف يجد فى موقف هذا فرصة بهاجم فيها العلماء المسلمين والسلفيين دون محاولة التعرف على مدى صحة موقفهم من تجاوزات المتصوفة. (المترجم) .

« إن دور هذا الوكيل كان محدوداً بوضوح فى أن وظيفته كانت أن يعمل كوسيط بين السلطات المحلية وبين الفرق فى منطقته فيما يختص بالشئون الدنيوية كالإشتراك فى الإحتفالات الشعبية ، أو ممارسة شعائرهم فى المساجد وإدارة الأوقاف والتعرف على رؤسائهم وقادتهم ، وهذه الوظائف لا يبدو من أول وهلة أنها ذات طبيعة تخوله سلطة عامة على الفرق الصوفية ولكن ممارسة الاختيار المستمر لشيخ الطرق الشخصى ذو مكانة شعبية أو رئيس لعائلة تتمتع بالنفوذ الدينى الكبير قد أدت إلى موقف جعل له سلطة فى الواقع كانت من قبل التى لرؤساء الفرق ، وقد إعتادوا على تقديم أنفسهم إليه فى الشئون المادية ، كما أن (المقدمين) اعترفوا به كرئيساً روحياً لهم ، ولكونه مسئولاً بتحديد ترشيحاتهم ، فقد انتهى إلى حد تعيينهم بنفسه وقد قبلوه رئيساً أعلى لهم وفقاً لنظام تصاعدى وكان تقريره أو ترخيصه الإدارى قد أصبح معادلاً للإجازة أو الرخصة القانونية .

أدى التحول الأول إلى الثانى وهو بتجميع ممثلى المدن لكل الفرق تحت توجيه ورئاسة أحدهم ، وهو الذى كان فى الأصل وكيلاً شخصياً لشيخ الطريقة الذى وصل إلى فرض نفسه كمتصرف للنفوذ الدينى ثم استبدل باسم شيخ السجادة وهو نائب المنطقة .

إن الحركات الجديدة الروحية فى الشرق الأدنى العربى قد وجدت صيفاً أخرى من التعبير عنها فى الفرق الصوفية فقد أسس فرقاً جديدة (١)

(١) إن النشاط الرئيسى فى هذا المجال حدث داخل الخلوية ، ولكنه لم يأخذ شكل أو علاقة حياة جديدة ، إذ أن الإنقسام كان دائم الحدوث فى هذه الفرقة ، أما المجموعات الجديدة فتضم :
١ - الصاوية : مؤسسها أحمد بن محمد الصاوى (ت فى المدينة ١٨٢٥م / ١٢٤١هـ) وهو تلميذ أحمد الدردير .

أما الفرق العائلية فكانت مستقرة تماماً إذ أن التقليد العائلي والولاء الحالي قد أكدا استمرار فيها .

بعد الغزوة الوهابية في سوريا ١٨١٠ م عندما هددت دمشق فإن شيخ النقشبندية هناك ضياء الدين خالد عاش في الفترة (١٧٧٨م / ١١٩٢هـ - ١٨٢٦م / ١٤٢٠هـ) عقب زيارة إلى الهند تحرك ليقوم بإصلاحات^(١) وقد نجح في التوحيد في مجموعة من الطرق الموحدة بين الفروع المتعددة في سوريا والعراق وتركيا الشرقية ، ومع ذلك لم تنجح محاولته إذ بعد وفاته فإن خلفائه قد اعتبروا أن مجموعاتهم في حلب واستبول والمدن الأخرى مؤسسات مستقلة تماماً .

كانت دعاية الشيخ خالد ناجحة في جعل أعضاء العائلات القادرية الهامة في كردستان تتحول إلى النقشبندية ، مع تأثير ملموس على التاريخ اللاحق للقومية الكردية ، أما عبد الله بن الملا صالح الشهير بعد أن أصبح نقشبندياً جعل نهري هي مركزه وجاءت عائلته حيث سيطرت على السلطة الدينية ، خاصة في ظل عبید الله (١٨٧٠ - ١٨٨٣م) الذي فرض سلطته على منطقة واسعة ، وقد كان على عداء مع عائلة أخرى هي عائلة

== ٢ - الإبراهيمية : مؤسسها قشوالی إبراهيم (ت ١٨٦٦م / ١٢٨٣هـ) .

٣ - الخليلية : مؤسسها حاجی خليل جردالی (ت ١٨٨١م / ١٢٩٩هـ) في جرد .

٤ - الفيضية : مؤسسها فیض الدین حسین (ت في استنبول ١٨٩١م / ١١٠٩هـ) .

٥ - الحالية : مؤسسها حسن حالي « على الأعلى » (ت في أدرنة ١٩١١م / ١٣٢٩هـ) .

(١) يقال أن أستاذه هو محمد بن أحمد الأحصائي من أسرة شيعية معروفة (ت في بغداد

١٧٩٣م / ١٢٠٨هـ) ولكنه بعد ذلك زار الهند وهناك اتصل بعبید العزیز بن علی الله .

(المؤلف)

البارزاني، وقام أحد خلفاء خالد والمدعو تاج الدين بتوطيد نفسه في برزان وهي منطقة كردية في شمال العراق ، وأصبح فرعه عاملاً هاماً في القومية الكردية، وقد كسب ابن تاج الدين ، عبد السلام وحفيده محمد مكانة روحية سامية بين القرويين في الجبال شمال نهر زاب الذين تخلوا عن الولاء القادري ، وجاءوا لتكوين تجمع قبلي جديد هو البرزاني - المستقل فعلاً عن السلطة العثمانية .

وفي سنة ١٩٢٧م لصقت الفرقة سمعة سيئة خاصة حين أعلن أحد تلاميذ شيخها الخامس أن شيخه أو سيده هو تجسيد لله ، وأنه هو نبيه وقد عاش هذا النبي عدة شهور فقط ومات الدين الجديد معه ، وكذلك فإن لتاريخ اللاحق للبرزانيين لم يكن له مكان في تاريخ الفرق الدينية .

رغم أنه لم توجد نهضة في عالم الشرق الأدنى فإن الاتجاهات الإصلاحية لهذا العصر قد أثرت على الفرق ، فقد هوجمت بشدة من أولئك المتأثرين بصرامة الوهابيين ، من العلماء الرافضين والكارهين لنفوذهم وكذلك المصلحين ، والرجال الجدد كما كانوا معرضين لضغوط متفاوتة غالباً من الهيئة الحكومية مثل كبح المبالغات مثل ذلك الإحتفال المسمى الدوسة^(١) بالقاهرة ، بل إنه لم تحدث حركات إصلاحية حقيقية ، وهذا صحيح خاصة في تركيا والعراق وسوريا وقد عانى في البكتاشيون هزيمة ساحقة حين ألغيت القوات الإنكشارية في ١٨٢٦م ، ومع ذلك إنه تحت الحكم المتسامح نسبياً لعبد الماجد (١٨٣٩ - ١٨٦١م) فإن الفرقة أعادت تكوينها واستعادت نفوذاً واسع الانتشار ، وهذا يوضح أن الرابطة الإنكشارية

(١) سبق التعليق عليه .

لم تكن جوهرية لحيوية الفرقة أما الإنتشار الرئيسى للفرقة فى البانيا فقد حدث أثناء هذا الفرق بعد كبح الإنكشاريين بينما الجماعات المعارضة (الإسلام السنى) للغزاة الأتراك قد ضمت نفسها جميعاً للفرقة وكانت مراكزها الرئيسية فى تيرانا فى نفى الوقت وأثناء هذا القرن فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، ظلت الفرق تقوم بدورها فى رعاية الحاجات الدينية آمال الأعداد الضخمة من الناس العاديين أما الهجوم عليها فقد كان ذو تأثير ضئيل نسبياً ، أما الأسباب التى أدت إلى التدهور الفعلى أثناء القرن العشرين فسوف تناقشها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

لقد تجاوزت الأنظمة كل حدود الولاءات السياسية داخل الإسلام ، وقد اتجه إنتباه السلطان عبد الحميد نحو هذه الناصية وقيمتها المحتملة فى رؤيته للوحدة الإسلامية الكاملة ، وخلال عمل كتبه ابن مؤسس الفرقة المدنية (الدرقاوية) وهو الشيخ محمد بن حمزة ظافر المدنى من مصراته بليبيا هذا العمل هو النور الساطع ^(١) وهو أساساً طريقة أو منهجاً تدريسياً فرقة تتبع خطوطاً نمطية ثابتة ، ولكن كان بالكتاب قسماً يتناول المبادئ التى تشكل أساس الحركة الإسلامية الكلية ، وقد رأينا أن هذه المبادئ قد وجدت قبل ذلك فى كتابات أحمد بن إدريس رغم أن كل تلاميذه رفضوا هذه الناحية من تعاليمه ، وحتى السنوسى فقد اختار دوراً سلبياً فى الصحراء ، وقد اشترك الشيخ ظافر فى الدعاية للحركة وقد خصص له السلطان منزلاً قرب قصر (يلدز كيوشك) و ثلاث تكيات مدنية أقيمت فى أسطنبول .

(١) نشر هذا الكتاب فى أسطنبول عام ١٨٨٤م / ١٣٠١ هـ ، أما علاقة مؤلفه محمد بن حمزة ظافر بالسلطان عبد الحميد فقد بدأت قبل أن يتولى منصب السلطنة . (المؤلف).

ومن هذه خرجت الدعاية ساعية إلى التأثير على مشايخ الفرق المختلفة، أما المعروفون بحماية النفوذ الإمبراطوري ، قد ربحوا وظائف بين الجزائريين الذين استخدمهم الفرنسيون (وكانت توجد زاويتان في الجزائر) ولكن في مراكش فقد كانت العلاقة مع الحكومة التركية ليست جيدة ، وفي يرقه أصبحت مرتبطة بالسنوسية التي كسبت الكثير من الأعضاء المدنيين ، وقد وجد أيضاً مقدمون في مصر والحجاز .

في سوريا كانت « الطريقة » المدنية ممثلة بواسطة « طائفة » متميزة وهي البشروطية التي أسسها التونسي نور الدين علي البشروطي (المولود في بنزرت في ١٧٩٣م / ١٢٠٨هـ) والذي انتقل إلى عكا في فلسطين عام (١٨٥٠م / ١٢٦٦هـ) حيث توفي^(١) في (١٨٩٢م / ١٢١٠هـ) وقد بدأ تلقينه بإسراف وأسس زواياه في طارشيحه (١٢٧٩هـ) والقدس وحيفا ودمشق وبيروت ورودس^(٢) .

جمع عبد الحميد حوله شيوخ الفرق الأخرى وكان أسوأهم سمعة هو أبو الهدا محمد السعيد (١٨٥٠ - ١٩١٩م) من فرع السعيدية من الرفاعية ، وهو فرع عائلي قديم بالقرب من حلب ، وقد بدأ أبو الهدا منهجه (كفقير) بسيط، ينشد الأغاني الصوفية في شوارع حلب اكتشف أنه يمتلك قوى غير عادية ، ثم ظهر فيما بعد بأسطنبول حيث جذبت أغانيه أو

(١) هناك عرضاً لجوانبه ووسائله ومبادئه الصوفية في كتاب من وضعه بعنوان (رسالة إلى الحق) الذي طبع في بيروت سراً ، وقد أكلمته ابنته فاطمة البشروطية التي اضطرت إلى نقل مقر رئاسة الفقرة إلى بيروت بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨م .

(٢) أما في الهند فقد كان سعيد بن محمد المعروف (ت ١٩٠٤م) هو الذي عمل على نشر الطريقة الشاذلية ، وكان قد تلقى الطريقة في عكا. (المؤلف).

أناسيده وقدراته غير العادية فى التراث الرفاعى إنتباه الشاب الذى أصبح فيما بعد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) وبطريقة ملحوظة فقد كان قادراً على - خلال قدراته الفلكية والتنجمية - المحافظة على تأثيره على السلطان والذى استمر خلال كل التغيرات حتى خلعه نهائياً ، ولقد أثر على السياسة الدينية للسلطان وكان مؤمناً متعصباً بالحق السماوى للطريقة الرفاعية وأوليائها ، والدور العربى فى التصوف ^(١) وكان كل المصلحين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أمثال جمال الدين الأفغانى والكواكبي ومحمد عبده يكرهون تأثيره على السلطان ووجهات نظره حول الإسلام الخطى والتقليدى واعتبروه مثلاً لكل ماكانوا يواجهونه .

وفى آسيا الوسطى يوجد القليل مما يستحق التسجيل خلال هذا القرن ، ففى تركستان وفى القوقاز كانت توجد نهضة دينية للنقشبندية فى الخمسينات من القرن الماضى ، فقد اخترقت هذه الفرقة داخل داخستان عند نهاية القرن الثامن عشر ، وقد حاول قائد يدعى الشيخ منصور أسير ١٧٩١م أن يوحد القبائل القوقازية المختلفة لمعارضة أو منهضة الروس ، ولقد تفوق على الأمراء والنبلاء يويشتان وداغستان ، وكذلك الكثير من الجركسيين ، الذين بعد كبح حركة مراد وفرض الحكم الروسى (١٨٥٩م) فضلوا المنفى عن الخضوع للحكم الروسى ، وقد حظيت الفرق بالثقة بقيامها بضم هذه الجماعات القوقازية للإسلام حتى وإن كان هذا مجرد عامل لتوحيد العشائر المختلفة .

(١) له كتاب بعنوان « تنوير الأبصار - فى طبقات السادات الرفاعية » ، طبع فى القاهرة عام ١٨٨٨م/١٣٠٦ هـ . (المؤلف) .

سُحِقَ التراث الصوفي الغنوصي في العالم العربي والمغرب خلال خضوع الصوفيين للشريعة والاتفاق مع التعاليم الإسلامية ولكنه ظل باقياً في إيران الشيعية حيث كان هناك ما يسمى المدرسة الأصفهانية للثيوصوفية التي لمعت في الظلام السائد^(١) مع بعض الأضواء مثل الملاسدرا والملاهادي. الصنبرواري (١٧٩٨ - ١٨٧٨ م).

وفي الهند في القرن الثامن عشر ، كان النقشبندی المسمى قطب الدين أحمد والمعروف بشكل عام باسم الشاه ولي الله بدلهي (من ١٧٠٣ إلى ١٧٦٢ م) فقد حقق دفعة فكرية جديدة للفكر الديني داخل سياق الفرق الصوفية بينما أحد معاصريه الأسبق الشيشي شاه كلیم الله جهانا بادي (من ١٦٥٠ - ١٧٢٩ م) قد نشر قوة ونشاطاً في مجال الممارسة الصوفية والإنقطاع للعبادة لقد حاول ولي الله إدخال روح جديدة في الفكر الإسلامي وإصلاح الإنقسام بين الشرع والتصوف .

لقد وضع الأساس للفلسفة الدينية المدرسية وعبر الهوة بين علماء الشريعة والمتصوفة ، ولطف الجدل والخلاف بين مؤيدي عقيدة وحدة الوجود ونقادها ، وأيقظ روحاً جديدة في البحث الديني لقد خاطب جميع قطاعات المجتمع الإسلامي . الحكام والنبلاء والعلماء والزهاد والجنود والتجار ... إلخ . وحاول بث روح جديدة من العبادة فيه ، وكان لعهد

(١) لاحظ أسلوب المؤلف عندما يتحدث عن التمسك بالشريعة والتعاليم الإسلامية ومنع التجاوزات لبعض المتوصفة أو أدعياء التصوف ، فيصف هذا كله بأنه « الظلام السائد » أما أصحاب المعتقدات الغنوصية - وهي أفكار دخيلة على الإسلام - فيصفهم بأنهم الأضواء التي لمعت وسط هذا الظلام السائد ... !!! (المترجم).

التعليمى مدرسة الرحيمية ، قد أصبح نواه حركة ثورية لإعادة بناء الفكر الدينى فى الإسلام وقد تهافت عليها الباحثون من كل أنحاء البلاد^(١).

أما عمل شاه حكيم الله فقد كان فى اتجاه مختلف ، فقد أيقظ وأعاد حيوية النظام الشيشتى وفقاً لخطوط الأولياء فى حلقة الأولى ، وفحص نمو الاتجاهات السرية وأرسل تلاميذه فى كل مكان لنشر المثاليات الصوفية الشيشتية وكان قيام عدداً من الخانقافات الشيشتية فى البنجاب وديكان والحدود الغربية الشمالية وأوتار برادنس ، راجعاً إلى جهود أتباعه الروحانيين^(٢).

والشئ الملحوظ هو أن اليقظة النقشبندية فى الهند قد أثرت على الشرق الأدنى العربى وأن قليلاً من المدن العربية الرئيسية كانت بدون حلقة من المريدين ومن جهة أخرى فإن الخط الشيشتى لم ينتشر غرباً ، فأحد الشيشين (صابرى) يسمى (إمداد الله) قد استقر فى مكة حوالى منتصف القرن وكان له تأثير كبير على الحجاج الهنود ولكنه لم يعرض الطريقة على غير الهنود ، ولذلك يمكننا القول أنه بالرغم من حدوث هذا التوسع وتأسيس الخانقافات الجديدة فى الهند ، فإن عمل هؤلاء الرجال لم يكن له نتيجة مثل تلك التى نجمت عن توجيهات وإلهامات .

والآن تأتى التحذيرات الأولى من نوع مختلف من التغير الذى كان عليه أن يتجنب هذه الفرق تماماً ، وحتى الآن فإن معظم الحركات الفكرية الأكثر أهمية فى الهند الإسلامية قد حدثت خلال وداخل الفرق ، ولكن

(١) نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثالث . (المؤلف).

(٢) المرجع السابق .

بعد شاء ولى الله فإن التوجيه من أجل التغيير قد أتى من خارجها فمن الواضح أن ابن ولى الله وهو عبد العزيز (١٧٤٦ - ١٨٢٤م) وحفيده إسماعيل (١٧٨١ - ١٨٣١م) كانا شخصيتين بارزتين فى النظرة الجديدة التى تفتحت.

وموازيا للتأثير المحمدى للأحمدىين^(١) المقربين كان أحمد (الثالث) وهو أحمد بارلىفى (توفى ١٨٣١م) وهو تاج لابن ولى الله ، عبد العزيز الذى تبع خطوطاً أصولية وحتى السياسية ، بينما حافظ على ميراثه الصوفى ، وقد كتب عزيز أحمد^(٢) .

واصل سيدى أحمد بارلىفى تراث ولى الله لتجميع الفرق الثلاثة الصوفية هى القادرية والششتية والنقشبندية موحداً بينها مع عنصر رابع للخبرة الدينية هو النظام الخارجى والظاهرى . والذى سماه الطريقة المحمدية (طريق محمد) وكان شرحه هو أن الفرق الثلاثة الصوفية مرتبطة بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بطريقة خفية بينما الرابع لكونه ظاهرياً فهو يؤكد على التطابق مع الشريعة ، ولذلك فهو قد سخر ماترك من الخبرة الصوفية الداخلية فى الهند الإسلامية ، المتدهورة أوائل القرن التاسع عشر لصالح ديناميات حركة الإحياء الأصولية الإصلاحية .

يقع التغيير اللاحق فى المناخ الدينى بالهند بدرجة كبيرة خارج مجال هذه الدراسة أما داخل الفرق فكانت توجد حركة صغيرة مهمة ذات أنشطة

(١) هما أحمد التيجانى وأحمد بن إدريس .

(٢) فى كتاب بعنوان « دراسات فى الثقافة الإسلامية فى البيئة الهندية » باللغة الإنجليزية ، طبع فى أوكسفورد ١٩٦٤م . (المؤلف).

وليدة مثل حركة مولانا أشرف على من ثانا بهادان (توفى ١٩٤٣م) وفى نفس الوقت فإن الخلفية الفكرية الصوفية قد استمرت تعبر عن نفسها فى الكثير من نواحي الحياة الهندية كما أثرت على المصلحين مثل محمد إقبال، وقد استبعدنا من هذا الكتاب مناقشة الفرق الصوفية فى المناطق التى دخلها الإسلام بعدما حقق صورته المتميزة ، ولكن من الضرورى الإشارة باختصار إلى الفرق فى جنوب شرق آسيا فى القرن التاسع عشر نظراً لأن هذه الفرق قد تدهورت فى القرن العشرين مثلما حدث فى قلب العالم الإسلامى .

إن إنتشار الأنظمة فى شبه جزيرة الملايو وبصورة رئيسية فى القرن التاسع عشر ، قد حدث خلال توسط الحجاج أو عن طريقهم ، وكانت الفرق الرئيسية التى انتشرت هى القادرية والنقشبندية والسمانية ، وقد أدخلت الأحمدية الإدريسية فى ١٨٩٥م وازدهرت لفترة من الوقت وإن كانت محدودة المجال .

وفى أندونيسيا أيضاً فإن الحج كان هو الوسيلة التى نفذت خلالها الطريقة الصوفية ، والدليل الوثائقى الأول يظهر فى القرن السادس عشر فى شكل شعر صوفى وكتابات أخرى ، ففى سومطرة كان الزهاد الأوائل هم حمزة . فنصورى (توفى ١٦١٠) وتلميذه شمس الدين السمطرانى (توفى فى باسانجا ١٦٣٠) وكان هؤلاء الرجال زهاداً من النوع الغنوصى ، وبالتالي لم يتركوا خلفهم تنظيمات ثابتة مستمرة ، وقد أدخل أحدهم ويدعى عبد الرؤوف بن على من سنحل أدخل الشطارية فى إتشه فى (١٦٧٩م / ١٠٩٠هـ) ليس من الهند كما كان متوقفاً ، ولكن من مكة حيث لقن بواسطة أحمد قوشاش وجاء لكى يكرم كولى محلى ، وفيما بعد

حدث الإتصال بحضرموت الذى أصبح سمة للحياة الأندونيسية وأدى إلى إستقرار العرب فى أجزاء معينة أدخلوا فيها فرقهم الخاصة .

كان دخول الإسلام فى جاوه مرتبطاً بأسطورة الأولياء التسعة -
والتي كانت مقربة على الساحل الشمالى الشرقى فى أوائل القرن السادس
عشر - الذين درسوا الطريقة الصوفية افتتحوا عهداً جديداً فى الحياة
الأندونيسية ، ويبدو أن أقوى إهتمام محلى كان طلب العلم ، بمعنى أن
تلقى المعرفة الباطنية أصبح هدفاً للمريدين المنقطعين للحياة الدينية .
والشطارية باعتبارها أقدم الأنظمة المعروفة ، أدخلت من الحجاز نحو نهاية
القرن السابع عشر .

والنقشبندية أيضاً أدخلت من مكة ، وبعد ذلك من تركيا إلى سومطرة
حوالى ١٨٤٥ م ، واثرت المناقشات بين أتباعها وأتباع الشطارية المستقرين ،
ولكن كانت حول موضوعات تشريعية وثانوية عنها حول التصوف ،
ودخلت السمانية سومطرة خلال عبد الصمد بن عبد الله (توفى ١٨٠٠ م)
وهو التلميذ السومطرى للسمانى الذى عاش فى مكة ولقن وحيد الحجاج
من بلده .

انشرت الطرق فى كل هذه الأنحاء بعد أن اكتسبت صيغتها أو
شكلها المحدد ، والرغبة فى المحافظة على التنظيم والأشكال الطقوسية للفرق
الرئيسية ، بالإضافة إلى إنتشار كتبها العربية ، أكدت توحداً عاماً للممارسة ،
أما الاختلافات فكانت توجد فى الحذف أو الإستجابة فى النواحي الأقل
أهمية مثل شكل الإحتفال بالأعياد ، وفى حياتهم الإجتماعية وإستجاباتهم
السياسية ، ولم يوجد أى تكييف خلافه ، أما الصيغ والمعتقدات المكتسبة فقد

إندمجت فى الهيئة الإنسانية الجديدة ، وإن كان بالتجاور وليس بالانتشار والتداخل . فالقديم والجديد موجودان يوازى كل منهما الآخر .

فى هذه الناحية ، فإن التماثل مع الإسلام فى غرب أفريقيا عنه كان واضحين ، فالمسلمين الأندونيسيين فى الديانة المنبثقة من الخلفية الثقافية المختلفة الموجودة من قبل ، وطبيعة التعليم الإسلامى المبكر عن طريق الوفود الإسلامية .

وقد بين سنوك هدرجرونجى Snoruck Hargrouje أن التجار الهنود الذين استقروا فى الموانئ الماليزية والأندونيسية قد ركزوا أكثر على التفكير أكثر منهم على السلوك ، وأن هذا فتح الطريق لاستقبال الأشكال الهرطقية الإبتداعية من التصوف .

وفى أفريقيا ، على النقيض ، فإن التركيز كله كان على السلوك والعمل الواقع أنه فى أفريقيا السوداء ^(١) ذاتها لم تجد هذه الأشكال أية مداخل بالإضافة أن الطريقة الصوفية نفسها لم تكتسب الأفارقة ، أى مل تجد لديه إستجابة ، أن هناك قرابة أصيلة اعتقاد الأفارقة فى وحدة الحياة وبين العقيدة الصوفية فى الوحدة الوجودية ، فقد حقق الأندونيسيون درجة أكبر كثيراً للتوفيق بين العبادات الدينية الحقيقية عما فعله الأفارقة ^(٢) .

(١) للمؤلف كتاب تناول فيه الفرق بين الزوج والآسيويين فى استجابتهم لتقديس الأولياء وللذكر، وعنوان الكتاب « أثر الإسلام فى أفريقيا » نشره عام ١٩٦٨م فى كل من بيروت ولندن .

(المترجم)

(٢) نفس نعمة المؤلف ، فهو يرى فى التصوف بأشكاله المتطرفة - جزء من الإسلام ، بل يعتبره الجزء الأهم . (المترجم) .

وبينما كان التصوف التأملى غير معروف فى الإسلام الزنجى^(١) فقد كان يمارسه ويتميز به بعض الأندونيسيين إذ أن الفرق لم تلعب دوراً أكبر بينهم عما كان فى إسلام السودان أخرى . وبينما كانت الشريعة الإسلامية كعامل قوى التأثير فى الحياة الاجتماعية قد لقيت نجاحاً كبيراً فإن ممارسات وطقوس الفرق الصوفية قبلت بلا صعوبة ، فالشيوخ قاموا بتصنيف بعض الكتب الدراسية وأعداداً كبيرة من الكتيبات بالعربية ، واللغات المحلية ولكنها كانت خالية من الأصالة . ويمكن تلخيص ذلك بالقول بالرغم من أن التصوف كطريقة فردية قد تبعه قلة من الناس بحماس شديد ، فإن النواحي التجمعية للفرق كالحضرة ، والحج للأماكن المقدسة والأضرحة^(٢) اكتسبت أهمية قليلة نسبياً فى حياة المسلم الأندونيسى .

والعنصر الذى نستخلصه مما كتبناه فى هذا الفصل هو أن البقطة للفرق الصوفية فى القرن التاسع عشر كانت مؤثرة وموجهة أساساً نحو الأنشطة المتعلقة بالدعوة للدين ، ونشره فى المناطق الطرفية من العالم الإسلامى ، وفى أجزاء كثيرة من أفريقيا والسودان النيلية والصومال كانت أثر التنظيم الصوفى مباشراً أما فى غرب أفريقيا فقد كان غير مباشر .

(١) هنا نلاحظ أن المؤلف - مثل غيره من غالبية المستشرقين - يتحدث عن الإسلام فينسب إلى المناطق والأمم . فهناك إسلام زنجى وإسلام أفريقى وإسلام آسيوى وهكذا ، وهذه نظرة خاطئة ومغرضة . فالإسلام - فى جوهره - واحد ، ويبدو أن الهدف من هذه النظرة المغرضة هو الإبتعاد عن الجذور الموحدة للإسلام . (المترجم) .

(٢) مازال المؤلف يساوى بين الحج لبيت الله الحرام وهو من أركان الإسلام وبين زهارة الأضرحة التى يطلق عليها أيضاً اسم الحج . أما الحج كبيت الله الحرام الذى اكتسب أهمية قليلة فى حياة المسلم الأندونيسى فليس معناه عدم أهمية الحج وإنما عدم كثرة حجاج بيت الله من أهالى أندونيسيا لإرتفاع التكاليف حيث أن الحج لمن استطاع إليه سبيلاً . (المترجم) .

الفصل الخامس

التصوف والفلسفة الالهية لدى

الفرق الصوفية

(١) يقصد المؤلف بهذا العنوان التفرقة بين تصوف القلب وتصوف العقل لدى الفرق الصوفية (المترجم)

بمجيء محمد صلعم - خاتم الانبياء فان دائرة النبوة قد اغلقت ، ولكن الله جل جلاله - لم يترك عباده منذ ذلك الحين دون ارشاد إلى الطريق اليه ^(١) عز وجل وكان المرشد بالنسبة للغالبية هي الشريعة المنزلة «الموحاه» فهي للمجتمع ككل ، وكان العلماء هم ورثة الانبياء باعتبارهم صحاه الشريعة ومقصر بها

اما بالنسبة لآخرين فان الشريعة الظاهرة رغم قبولها لم تكن كافية فالدين ليس وحيا فقط ، ولكنه ايضا سر باطن ، وبالنسبة للشيعة فان المرشد او الموجه في هذا لعالم وذا الحكمة الالهية هو الامام المعصوم ^(٢) ، وكان الإمام ايضا ولى الله ، وأن اغلق دائرة النبوة بشر بمنح دائرة اخرى هي دائرة الولاية والشيعة الصوفى عزيز الدين التسفى يشرح المفهوم الشيعى للولى تتابع الانبياء منذ القدم لإقامة عقيدة قائمة على الوحي الالهى ، وكان محمد عليه السلام هو خاتم الانبياء ، اما الآن فهذه دورة الولاية التى تظهر - وتظهرها - الحقائق الباطنية ، وعلى ذلك فرجل الله - يظهر - الولاية وهو صاحب الزمان او الإمام فى عصره ^(٣) فلآخرين ردهم الذين عرفوا فيما بعد كصوفية فان الاتصال بالله كان امر ممكنا فرسالتهم - رغم انها بحث فردى - هي ان تحقق بين الرجال ادراكا للحقيقة الداخلية التى تجعل الشرع صحيحا فعلا ، وقد تضمنت هذه

(١) قال رسول الله - صلعم - إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة امر دينها
احزجه الترمذى وقال حسن صحيح «المترجم»

(٢) يقول الكلينى فى أصول الكافى «قال الامام جعفر الصادق : نحن خزان علم الله نحن تراحمة أمر الله، نحن قوم معصومون ، أمر الله بطاعتنا ونهى عن معصيتنا نحن حجة الله البالغة على من دون السماء وفوق الارض ...» ، وروى عن محمد بن مسلم انه قال: سمت ابا عبيد الله عليه السلام يقول : الأئمة بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا أنهم ليسوا بأنبياء ، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما ما خلا ذلك فهم بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجع الاصول من الكافى . محمد بن يعقوب الكلينى

- تحقيق على الغفارى ط ٤ سنة ١٣٩٢ ص ١٦٥ وما بعدها «المترجم»

(٣) ما بين المعكوفتين كتب فى الاصل بالفرنسية «المترجم»

الطريقة عادة مرشداً ، ولكن كان هناك الكثير ، اما مفهومهم الكلى للهداية او الارشاد فكان مختلف عن مفهوم الشيعة ، وقد تمسك الصوفية بادراكهم الخاص عن الولاية ، ولكى اولياءهم كانوا رجالا عاديين يختارهم الله ، وفى نفس الوقت فأن فكرة الولاية السابقة للخلق منذ الأزل كانت متضمنة فى الفكر الصوفى بتأثير الغنوصية الشرقية ^(١) ، رغم ان هذه الفكرة ، تتناسب اصلاقا بدرجة مريحة مع البناء الصوفى الاكثر نقاء ^(٢) كان عليهم ان ينسوا وجود أزليا قبل الخلق وتركيبا هرمياً لهؤلاء الأولياء وربطهم بحكومة الدنيا عن طريق النور المحمدى المحايث (الوجود) جميعاً ، ولكن بعض الصوفيين لم يعتقدوا بوجود أى دائرة الولاية قد خلفت دائرة النبوه لأن الأخيرة كانت طراز فريداً خاصاً ، قابلاً متنبهاً للاتصال بالله فيما الولاية استقرار ودائمة الحركة ولا نهائية، ولا معنى هذا تقليلاً من مكانه الانبياء المبلغين للرسالات بالنسبة للأولياء طالما ان كل رسول هو ايضا ولى . ويكتب ابن عربى ^(٣) :

«الولاية شاملة كل شىء ، فهى الدائرة الكبرى ، فكل رسول يجب ان يكون نبيا ^(٤) وحيث ان كل نبي يجب ان يكون ولياً فأن الرسول يجب ان يكون ولياً »

(١) كما سنجد عند الجيز فيما بعد (المؤلف)

الغنوصية من الغنوس والغنوسيس ، وهى كلمة يونانية معناها المعرفة ، ولكنها أخذت معنى اصطلاحياً هو التوصل الى المعارف العليا بنوع من الكشف او التنوق ، والتغنوصيون يعتبرون عقيدتهم أقدم عقيدة فى الوجود ، وهى نوع من الوحي الالهى ولكنه مختلف عند باقى الاديان ، فى أن دائرته لا تتوقف اطلاقاً ، وقد يكون أصل الغنوصى من فارس او الهند ، والغنوصيه تؤمن بنوع من الثنائية بين الله والمادة ، وقد تسلل الغنوص إلى اليهودية فيما يعرف باسم (القيالا) كما دخلت الى المسيحية باشكال مختلفة ، وقد عرف المسلمون الغنوصية اليهودية وأثرت فى فكر فلاسفة المتصوفة كالاسماعيلية وابن عربى وبعض الفرق الصوفية الاخرى

راجع نشأ الفكر الفلسفى فى الاسلام ١ / ١٨٦ دار المعارف الطبعة الثامنة (المترجم)

(٢) تعتبر هذه اشارة - او اعترافاً - من المؤلف بوجود تصوف سنى لا يتعارض مع - ولا يخرج عن - تعاليم الاسلام الصحيحة (المترجم)

(٣) فى الاصل ابن العربى ، والصحيح ما أثبتناه. راجع الفتوحات حـ ٢ المترجم

(٤) ليس من شك فى ان كل نبي رسول ، وكل رسول نبي ، وان الله لا ينبئ الأنبياء الا ليرسلهم الى الناس ليبلغوا ما يوصى اليهم؛ راجع تاريخ الانبياء فى ضوء القرآن والسنة . محمد الطيب

النجار . دار الاعتصام ط ٣ ١٩٨١ ص ١٤ المترجم

انها نقط النبوه باعتبارها وظيفة وطرأاً للاتصال هي المنتهية ، وتوجد عدة درجات من الأولياء وهذا يظهر بشكل نمطى واضح فى تفوق الخضر على موسى فى المعرفة^(١) .

وكلمة قداسة الاجنبية ليس ترجمه مناسبة «للولاية وكذلك كلمة قدیس Saint لكلمة الولی سواء عند الشيعة أو الصوفية رغم أنا تمسكنا بالاستعمال الجارى فى هذا الكتاب ، ففى المفهوم الصوفى فان الولی تترجم أفضل بأنه الملتجئ الى الله ، مثل الولی يمكن ان تكون الوافى أو الحامى وكذلك المعتمد عند الشيعة فإنها تشير إلى الامام أو كلمة الله والمرشد الخالد .

شيوخ الصوفية مثل «الأئمة» يملكون أيضا معرفة باطنية ولكن بخلاف الائمة فإن معرفتهم الباطنية قذاتهم عن طريق تعاقب الانساب بل عن طريق

(١) قصة الخضر عليه السلام التى وردت فى القرآن الكريم فى سورة الكهف من الآية ٦٠ - ٨٢ ، وفى السنة النبوية المطهرة نستخلص منها : -

١- ان الله - تعالى - اراد ان يؤدب بنيه موسى عليه السلام الذى قال جوابا عن سؤال لا أعلم على الأرض اعلم منى ، أن كان يجب ان يرد علم ذلك إلى الله تعالى ، فأراه الله ان هناك عبدا لا يعلمه هو على علم من علم الله لا يعلمه موسى

٢- ان الخضر أخبر موسى بأن علمه وعلم موسى بجوار علم الله لا شيء

٣- ان الشريعة التى كان عليها الخضر لم تكن فى حقيقتها مخالفه للشريعة التى عليها موسى ، وإنما كان يخفى على موسى فقط الخلفية التى من أجلها فعل الخضر ما فعله .

٤- وجود الخضر على دين وشريعة غير شريعة موسى كان أمراً سائفاً وسنه من سنن الله قبل بعثه محمد عليه السلام .

هذه هي قصة الخضر عليه السلام فى القرآن والسنة ، ولكن المتصوفة جعلوا من هذه القصة شيئا مخالفا تماما ، فقد زعموا ان الخضر عليه السلام حى الى ابد الدهر ، وانه صاحب شريعة وعلم باطنى يختلف عن علوم الشريعة الظاهرة ، وانه ولي وليس بنى ، وأن علمه علم لدنى بموهوب من الله بغير وحى الأنبياء ، وان هذه العلوم اكبر واعظم من العلوم التى مع الانبياء ، فكما ان الخضر وهو ولي فقط كان اعلم من موسى فكذلك الاولياء من أمه محمد

راجع : قصص الانبياء ص ١٨١ وما بعدها ، وكذلك الفكر الصوفى ص ١٣٠ وما بعدها المترجم

الترقى الروحي والواقع انها وصلت إليهم بفعل وأرادة الله . من ناحيتين الاولى
هى النقل من محمد (صلعم) خلال سلسلة من السادة المختارين والثانية عن
طريق الإلهام المباشر من الله وغالبا ما يكون هذا الإلهام خلال توسط الخضر عليه
السلام مثل جبريل عليه السلام إلى محمد (عليه الصلاة والسلام)

هذه الاتجاهات الثلاثة للهداية الروحية هى داخل تراث الاسلام تماماً رغم
أنها لم تتوافق بعضها مع البعض على الإطلاق فكل من التصوف والتشيع كانت
محاولات لحل المعضلة الاسلامية الدائمة للوحى النهائى الحاسم ، ولكن كل
من هذا الاتجاهات اعترفت عمليا بالطبيعة النهائية للطراز النبوى النهائى للإتصال
بالله ، على كل حال فأنهم لم يعتقدوا أنه بنهاية هذه المرحلة فان عنايه الله
المباشرة بالبشر وقد انتهت ، وكانت مهمة الصوفية والشيعة هى المحافظة على
المعنى الروحي الإلهي فكلاهما كان متهما بالمعادلة

التوحيد

_____ الحقيقة ، ولكن طرقهما كانت مختلفة تماماً
الشرع

وبينما فى كثير من النواحي اقترب الصوفية من الشيعة بدرجة أوثق ففى
نواح أخرى فى بعض الجوهريات كانا قطبين متافرين ، وهذه تتعلق بتصوراتهما
المختلفة لأساس المجتمع ، فالصوفية داخل المسار أو التيار الرئيسى للاسلام فالأساس
فى نظرهم هو الشريعة أما بالنسبة للشيعة فالاساس هو الإمام ، الامام المعصوم .
والصوفية يعيشون ويفكرون على مستوى مختلف تماماً عن ذلك الذى للشيعة ،
قد اعتقد الصوفية بإمكانية الإتصال المباشر بالله ، وكان هدفهم هو كمال الروح
والصعود الروحي الى الله .

ويختلف الصوفية عن الشيعة بأسلوبين معينين هما «الطريقة والذكر»
والاتجاه السائد عندهم - هو اتباع الطريق الصوفى ، أما الشيعة فهم - على
العكس - احتاجوا الى امام وسيط وتوغلوا داخل عالم من الغموض والمعانى
الخفية ، والتحول التلقينى السرى . وقد تبنى الصوفية أيضاً مدخلاً أو أسلوباً

نموذجياً متضمناً مصادر شيعية ، وكذلك غنوصية أخرى ، خصوصاً بعد أن هدم التشيع العلني كمهنة ، ولكن تبني الصوفية عناصر من النظام الغنوصي الشعبي ، فإن اتجاه مثل هذه العناصر قد تغير ، وفي هذا الخصوص فإن التغير كان مماثلاً للتبني الموازي للعناصر الأفلاطونية الحديثة والمسيحية داخل الصوفية ، فبمجرد دخولها فإنها لم تعد أفلاطونية أو غنوصية مسيحية شيعية.

لقد ذكرنا ان علياً قد تبع محمد صلعم - كنقطة بدايه للسلاسل الصوفية وهنا أيضاً نشأت مفاهيم خاطئة فعلى الرغم من ان الصوفية ارتدوا بسلاسلهم الباطنية إلى علي^(١) . واعطوا للسلسلة الشرف العظيم ، فانها ليست كسلسلة الامام في اى مفهوم شيعى ، وحين سئل الجنيّد عن معرفة الامام على بالتصوف فقد أجاب السؤال بغموض : لو كان عيا اقل انشغالا بالحروب فقد كان من الممكن ان يساهم بدرجة كبيرة فى معرفتنا بالامور الباطنية (المعاني) لانه كان هو الوحيد الذى منح العلم اللدنى^(٢)

والصوفية نادراً ما كانوا شيعة^(٣) عدا فى ايران (فارس) مع تسليمنا بسماح مناسب للغفران الذى يوفره مذهب «التقية» ، فقد اعتبروا المعتقدات الشيعية حول الامام غير متوافقة مع التصوف ، وبالمثل فى تبني البيعة الشيعية فان القسم بالولاء للشيخ الذى أخذ عنه الطريقه ممثلاً للولى المؤسس والذى بين يديه يكون «المريد»

(١) ظهر الاتجاه الباطنى فى فكرة سلسلة الانتقال من على فى القرن الخامس الهجرى فقد كانت تتضمن فى آن واحد سلاسل موازية كلها تعتبر الامام على نقطة بدايتها ، ولكن كل واحدة منها تمر خلال سلسلة من الائمة (المؤلف)

راجع سلاسل صدر الله بن حمويه فى ملاحق الكتاب المترجم

(٢) يقصد «بالعلم اللدنى» العلم الباطنى الذى يلتقى فى القلب الهاما أو روحيا هو فى نظرهم لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عن ذلك فقال (وعلمناه من لدنا علماً) (المترجم)

(٣) يقول نيكلسون : ان التصوف يمكن أن يتفق مع الفكر - وقد فعل هذا فى أحيان كثيرة ، ولكنه نادراً ما يتفق مع الفرقة السرية ، وهذا يفسر السبب فى ان الاغلبية العظمى من الصوفية كان على صلة وثيقة الاتجاه الدنى المعتدل للجماعة الاسلامية المؤلف

مثل الجثة في يدى (المغسل) وقد فكروا في السلسلة التي تحمل مذاهب المؤسس ، مراجعة به إلى على والنبي (صلعم) بطريقة مختلفة تماما عن الأفكار الشيعية ، كان معظم الصوفية يهتمون منذ ان تولى الجنيد ^(١) قيادة الطريق بالمحافظة على موقفهم داخل التيار الاسلامى الرئيسى والذى قامو بالتصالح والتوافق معه ، وبداخله أصبحوا محتملين ومقبولين من المسلمين الآخرين ، وأى نقص قد يشعر الصوفية أنهم فيما يتعلق بالمفهوم الغنوحى «صاحب الزمان» المهدى ، وقد عوض في النهاية عن طريق فكرة قطب العالم والزمان (محمود الد نيا والآخرة) .

رغم اهتمامنا بتركز أساساً على التعبير أو المظهر الخارجى فيجب أن نقول شيئا عن المعتقدات في علاقاتها بالممارسات .فالتصوف الاسلامى، قد أثبت أنه

(١) ابوالقاسم بن محمد بن الجنيد الخراز ، ولد في نهاوند بإيران ، ونشأ ودفن في بغداد سنة ٢٩٧ / ٩٠٩ م . كان أبوه قواربها وكان هو خرازاً تلقى معارفة على يد ابي نور الكلبى ، وتلقى التصوف على يد عمه سرى السقطنى . واستاذة الحارث المحاسبى ، ويدور تصوفه حول التوحيد باعتباره اساس تجربته الاتحاد الصوفى ، فالتوحيد ليس برهنه لوحدة الموجود الالهى بواسطة حجج عقلية وانما هو عيش لوحدة الله المتقالية نفسها. ولقد اعتنق الجنيد مبدأ الانصال الصوفى اعتناقاً تاماً . ومن أشهر مؤلفاته : دواء الارواح ، كتاب الفنا ، كتاب التوحيد

ويذكر الخطيب البغدادى استاذة فيقول : اخبرنا ابو نعيم الحافظ ، قال : سمعت على بن هارون الحرى ، ومحمد بن احمد بن يعقوب الوراق يقولان : سمعنا ابا لقاسم الجنيد بن محمد غير مرة يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة .ومن لم يحفظ الكتاب ، ولم يكتب الحديث ولم يتفقه فلا يعتدى به

راجع في ذلك :

تاريخ الفلسفة الاسلامية . هنرى كوربان - ترجمه نصير مروه ، حسن قبيلس المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات ط١ بيروت ١٩٦٦ ص٢٩٠ وكذلك التنسك الاسلامى . محمد غلاب الكتاب الثامن والستون . المجلس الاعلى للشفون الاسلامية ص١٠١ . وايضا تاريخ بغداد للخطيب البغدادى مصدر سابق ٢٤١ / ٧ (المترجم) .

تتخذ موقفاً ومتوازناً فيما يتعلق بما هو متضمن فعلاً في الممارسة الصوفية .

لقد عرفنا التصوف من الناحية الواقعية باعتباره نتيجة للتجربة الدينية الهادفة الى الادراك المباشر للحقيقة . والتصوف هو طريقة قبل أن يصبح ثيوصوفياً.^(١) والتي وجدت حيث ينشأ الخداع الذاتي، فالمنهج (او العقيدة) محاوله للتعبير العقلي عن التجربة الصوفية والتصوف باعتباره وعياً حدسيا روحيا بالله عز وجل ، متى إلى مجال الدين الطبيعي الكوني وليس الدين الموحى^(٢) ولذلك فعلى المستوى الصوفي ويبدو عدم وجود اختلاف أساس بين الأدهان طالما أن التجربة هي نفسها من الناحية الفعلية . فالتجربة المباشرة لها الأولوية على الوحي التاريخي ، ومن هنا نشأ التعارض بين حماة الشريعة وبين التصوف^(٣) وقد كتب ابن عربي «الله معروف فقط بواسطة الله» ويقول اللاهوتيون المدرسيون: انا اعرف الله بواسطة ما خلقه سبحانه وتعالى «ويتخذ دليلاً شيئاً ليس له علاقة حقيقة بالهدف الذي يسمى إليه فهو يعرف الله عن طريق الظواهر فهو يعرف قدر ما تعطيه الظواهر ولا شيء أكثر من هذا»^(٤)

في نفس الوقت ، من الحق ان الاختلافات الاساسية بين الأدهان انما تقع في مكان آخر بخلاف هذا المستوى من الخبرة فما يزال التصوف لا يمكن

(١) الصوفية او التصوف او المذهب الباطني، وهو الايمان بأن المعرفة المباشرة بالله ، او بالحقيقة الالهية ، يمكن ان تتم للمرء عن طريق التأمل او الرؤيا والنور الباطني وبطريقة تختلف عن الادراك السعي الحسي المادي او اصطلاح التفكير المنطقي والثيوصوفيه : هي معرفة الله عن طريق التأمل الفلسفي او الكشف الصوفي «المترجم»

(٢) في الاصل ابن العربي والصحيح ما أثبتناه

(٣) هنا يبدو بوضوح الفكرة التي يتمسك بها المؤلف ، وهي ان التصوف شيء مختلف تماماً عن الدين المنزل ، بل هو مختلف عن كل الادهان وهي فكرة - ذكرنا أكثر من مرة - انها غير صحيحة ، فالتصوف الاسلامي المعتدل ، والبعيد عن الشطحات الفكرية والمبالغات السلوكية لا يتعارض مع الاسلام ، بل قد نشأ داخله ومتوافقاً معه . المترجم

(٤) فالمعرفة عن طريق ما أمر به الدين ليست كافية - في نظر المؤلف - والمعرفة الحققة هي المعرفة الباطنية الصوفية في صورتها المتطرفة !!! المترجم

اعتباره واحداً ، ونفس الشيء أيا كان المجال الدينى الذى يوجد فيه رغم ان الفروق (الثقافية والمحتوى والاتجاه) هى فروق نسبية ولا تنهال فرقة الوحدة الاساسية لتجربة الصوفية (١)

ان الدين المعلن يفعل اكثر بكثير من مجرد القواعد اللغوية الملونة والصيغ الأخرى للتعبير الرمزى ، تتضح طبيعته التصوف عن طريق مظاهرها داخل الإطار الكامل لثقافة معينه ، وفى الاسلام فالتصوف مرتبط ومحدد عن طريق الشعائر والعبارات المتعارف عليها (حتى رغم أنه يتوازن مع هذه) .

والتصوف الاسلامى - حتى صيغته الكاملة التطور لا يمكن ان يعتبر توفيقاً بين الديانات أو المعتقدات ، حقيقة انه يضم ويدمج بين الكثير من الاستيصارات الروحية المختلفة ولكنه خلال عملية الاستيعاب والهضم ، فانها تغيرت واعطت توجهاً إسلامياً فريداً . ومؤلفات الصوفية الاسلامية لا يمكن ان تدرس وتقدر وتقيم بعيداً عن بيئتهم (الباحثون النصارى قرأوا ومراراً أفكارهما الخاصة خلال تعبيرات المسلمين) أو بعيداً عن انتاجهم العملى فى أعمال الفرق . وقبل التصوف ، فنحن فى حاجة لتحديد معنى مصطلح «التيوصوفية» لان هذه الكلمة ايضا يمكن ان تعنى أشياء مختلفة كثيرة ، فبينما التصوف حركة استجابة للروح نحو الله (جل جلاله) والتي تتضمن التمسك بالحقيقة على المستويات الداخلية ، فان التيوصوفية هى تلك الفلسفة الإلهية التى تنفرع من خلال هذه الاستنارة الداخلية فهى تصوف العقل تميزا بها عن تصوف القلب .

ولذلك فالتصوف والتيوصوفية هما التجربة الشخصية والتعبير عن السر الذى يمكن داخل الأديان ، والدليل على الحقائق التى تتخطى الخبرة التجريبية ،

(١) بمعنى ان التصوف واحد فى كل الاديان ، ويصرف النظر عن كل الاديان، وهذا الكلام قد يكون مقبولا إذا اقتصر فهمنا للتصوف على جانب الزهد الاخلاقى ، إما اذا انتقلنا الى المعتقدات والشعائر فالامر يختلف تماما ، ويصبح للتصوف الاسلامى شخصيته المستقلة تماماً

فالتصوف الاسلامى هو التعبير الصحيح عن الحقيقة الاسلامية للتمشية مع مسارات الاستبصار والتي لا يمكن الوصول إليها عن طريق آخر . وتحدث الصوفى بلغه خيالية عن الغربة والرمز والأسطورة ومن خلال هذه اللغة يمكنه التعبير عن حقائق لا تصل إليها الفلسفة الإلهية الرسمية ، ويكتب ابن عربى قائلا : « ان الباطنيين لا يمكن أن يوضحوا مشاعرهم وأحوالهم للآخرين فهم يمكنهم فقط الاشارة إليها رمزياً لأولئك الذين بدأوا تجربته مشابهه ^(١) »

ومأساه كبار الصوفيين فى مجال التعبير تنشأ من حقيقة أن عليه ان يرد التجربة الشخصية المركزة ، الى مستوى الفكر المجرد وهو مستوى يصبح فيه الاتصال مع غير الصوفى مستحيلاً ^(٢)

وسيط واحد للاتصال المتاح للمسلم هو الشعر، لان الصيغ الغير لفظية للرمزية الدينية (ما عدا خط اليد) كانت قد منعت فالشعر فى العالم العربى والفرسى ، ليس فنا منعزلاً ، ولكنه يلقى تعبيره وسط الجماعة ، والشعر له فئوته فى اللقاء ، والانتشار والمصاحبة الموسيقية ، وحول هذه الأخيرة نشأت الخلافات او الجدل .

والتصوف فى صورته المتطورة وصل إلى درجة احتضان المجالات المختلفة للجدهاء وهذه تحتاج إلى توضيح إذ كان علينا أن نرى العلاقة بين نواح مثل اتباع الطريق الصوفى ، وتلقى المنح السماوية أو كيف ارتبطت الطريقة والولاية .

أ - لدينا التصوف الذى يبحث عن الكمال ونظهير الروح وطريقة المجاهدات والجهاد الروحى وطريقة الصعود خلال مراحل مختلفة المقامات الموصلة

(١) للمتصوفة تعبير مفضل يتعلق بحرمتهم فى انشاء سر أحوالهم هذا من عرف الله كل (اى تعب)

لسانه من كتاب ترجمان الاشواق لابن عربى المؤلف

(٢) للمتصوفة مصطلحا تهم الخاصة التى يعرفون وحدهم معانيها ويصعب بل قد يكون من غير الممكن - للغير أن يفهمها (المترجم)

الى الله ، وحياء التأمل والمشاهدة والتي يكون الزهد مرحلة أوليه وأساسية تلك الحياة القائمة على ذكر الله عز وجل الذى يجب أن يتغذ تحت توجيه أو إرشاد

ب - وفى ارتباط متكامل مع هذه الطريقة خلال المجهود الشخصى توجد طريقة الاستنارة أو الكشف وخلال اتباعهم طريقهم فان الصوفية يوهبون بهديتهم الصوفية (الحال) وهى هدية مجانية من المولى سبحانه وتعالى والفرق بين المقام والحال ^(١) يجمع هذين الجانبين من الطريق :

الحالات وهبات بينما المراحل مكتسبات ^(٢) فهناك افتراض أو شرط مبدئى لاستقبال «الحال» هو إتباع قاعدة محدودة بدرجة للحياة ، فلاشراق ^(٣) هو هدف الاعتقاد فى امكانيه الوميض المفاجئ للنور الالهى .

ان ارتباط هذين الاثنين يكون «السلوك» وهو سلم الكمال عند الفرق الصوفية ، والذى عن طريقه يمكن تخطى أو التعالى على التفرقه بين الخالق والمخلوق ، هذا الارتباط بين طريق المجاهدة والاشراق بواسطة النور الالهى يمكن ان يفهم حين ندرك أن هذا النوع من الاشياء هو حقيقه يتجربه كل يوم .

وقد نفكر فى العالم الذى يتابع طريقه الشاق بالتجربه المعملية ، والتي يأتيه حلها فى ومضه مفاجئه من الحدس ، ولكن لا توجد ومضه بدون كفاح

(١) الحال : هو ما يحل بالقلوب من صفاء الاذكار ، إنه نازلة نزل بالقلوب فلا تدوم أى انه معنى يرد على القلب من غير تعمد صاحبه ، ومن هنا كانت الاحوال من قبل المواهب اما المقام فإنه يشير الى نوع من الكسب الثبات ، ولكنه كسب لا يعد فيما نرى داخلا فى المجال العقلى من قريب او بعيد ، إن معناه مقام العيد بن بدى الله عز وجل فيما بقاء فيه من العبادات والمجاهدات بالرياضات والانقطاع إلى الله .

انظر : ثورة العقل فى الفلسفة العربية . أ. د. عاطف العراقي دار المعارف ط ٥ ١٩٨٤ ص ١٣٩

المترجم

(٢) يقول القشيري « الاحوال مواهب ، المقامات مكاسب » (الرسالة ص ٣٢) ويرى المتصوفة ان هذين

الجانبين يعبر عنهما القرآن الكريم فى الآية ٣٩ من سورة العنكبوت

المترجم

(٣) هناك مصطلحات صوفيه أخرى لهذا المعنى هى : التجليات واللوائح واللوامع ، وكلها تعبر عن

تجربة متشابهة . (المترجم)

ومثل هذه الاستبصارات تعطى وتتيح ظهوراً لشيء معطى ومع ذلك فالجمال التالى يتعلق بالعلاقة بين العبقريه والحس .

جـ - والمنحة الصوفية التى ذكرت أنفا يجب التفرقة بينها وبين العبقريه الباطنية او المعرفة الغنوصية «المعرفة» وهى العرفان عن الشيعة،والتي تمكن أولئك المفضلون من الكشف عن أسرار العالم غير المرئى للحقيقة والتأمل فى اسرار الوجود ، وهذا يختلف عن استنارة الصوفية ، رغم ان نفس المصطلح «المعرفة» وقد يستعمل فى هذه الحالة ، والثيو صوفية خلف الفرق تعتمد على كل من النوعين مع اضطراب فى النهاية ، وعند الصوفية فان الأسرار الالهية تكشف عنها تدريجياً ، وفى تناسب مع النمو الروحى للشخص وقابليته للتلقى ولكن هناك رجال ذو مواهب . خاصه منحوا فهماً صوفياً للحياه ، لاعلاقة له بالنظام الزهدى او الاساليب الصوفية الخاصة بالطريقة او هبة الولاية ، رغم انه مثل الولاية عبارة عن مقدرة فردية ، وبهذه المناسبة قد نفكر فى السهروردى المقتول وابن عربى وابن سيعين وفى اشباههم من غير المسلمين مثل أفلاطين وابكهارات وبوهم ، ورغم تفرد هذه العبقريه فقد بحث الرجال عن هذه المعرفة الباطنية ، كما تطور وسائل الحصول عليها ، ومن خلال تلك الطرق الفنية ، أى خلال التزاوج بين الإنسان والطبيعة نشأت اسرار من السر الذى يجس الرجال فى عبودية للعالم الطبيعى .

د- أخيراً ، يجب علينا ان نميز «الولاية» فهى بطريقة عرضية داخل مجال التصوف، ولكنها جوهرية لها علاقة ضئيلة بالصوفية ويبدو هذا محيراً، فى أن مؤسس الفرق أصبحوا يعتبرون أولياء بينما الزهاد لم يكن يعتبروا أولياء ، ولكن جوهر التدريس المبكر عن «الولاية» هى ان الأولياء كانوا غير معروفين لأقرانهم من الناس .

ولا غراض عملية فنحن فى حاجة الى التمييز بين نوعين من الولى :

أولاً : أولئك المختارين ليكونوا مع الله منذ الأزل

ثانياً : أولئك ذوى الانسانية الذين كانوا على ما يبدو قد اختارهم الله لتلقى منحاً او مزايا خاصة خلال فعل «المنه» ، فالتطور الاول كان تطوراً مبكراً

فى الفكر الصوفى حيث نجد الجنيد يؤكّد : للمولى عز وجل صغوة بين عبّيده وهما لأطهرين خلفه ، وقد اختارهم الولاية وميزهم بمنحهم بكرامة الفريده ، وهؤلاء الذين خلفهم لنفسه وليكونوا معه منذ الأزل !!!

هذه المنحة او الهبة مثل المعرفة الباطنية (الغنوص) التى نوقشت أنفا ، لا دخل لها بمميزات او عقبات الطريقه الصوفى ومن المحتمل ان تكون وليا مع ذلك خاليا تماما من المنح الصوفية وبالمثل من الممكن بالتساوى ان تكون صوفياً نورانياً بالمشاهدة السامية لله . دون ان تكون ولياً ان فصل الولاية عن التصوف وارتباط الفرق بالولاية يعبر عن ضعف علاقة الفرق بالتصوف .

ولما كان من غير الممكن فى دراسته عامه مثل هذه ان تتناول تفصيلاً مفاهيم أو تصورات مختلف الفرق ، فاننا ستقتصر على ذكر تصورات سائدة معينه ، واتجاهات شائعة عن أغلب الفرق واضعين فى اعتبارنا المميزات والفرق التى ذكرناها من قبل

يبدأ الصوفى المسلم بالتوحيد (الشرع) وخلال اتباعه الطريق الصوفى فإنه يسمى إلى الاختراق أو النفاذ إلى معانيها الباطنية . وهو يعتقد ان «التوحيد» «الشرع» الذى يمارسها كحقيقة واحدة ، هى اساس العالم وبقائه ، وهو يدرك بعق سر الكون ويعتقد ان من الممكن التخلص من عنصر اللاوجود وان يكتسب الصلة بالله متمشياً مع اتجاهات البصيرة الاسلاميه ، وعقيدة التوحيد مركزية وأساسية ، ولكن الصوفى الصق بها معنى صوفياً ، مثلما يفعل مع الشرع . أما الشيوصوفى المسلم فهو يذهب إلى ما هو ابعد من ذلك كثيراً ، ولكن عقيدة الشيوصوفيين ليست محور اهتمامنا ما عدا عندما تتصل بعض جوانبها بفكر الفرق الصوفية ، فالشيوصوفيون الكبار أولئك الذين توغلوا فى الإزمات التى كشف فيها عالم الاشياء الخفية ، فانهم بصفة عامة حاموا على هامش الاسلام واتهمهم أهل السنة الذين يرون أن الله وسر العالم هى أمور ليس من الممكن معرفتها أو إدراكها .

وقد اعد القشيري ^(١) طريقة للمسلمين لإيجاد طريق وسط «تهتم الشريعة بمراعاة المظاهر الخارجية للدين (الشعائر) والعبادات» والمعاملات بينما (الحقيقة) تهتم بالرؤية الداخلية للقادرة الإلهية (مشاهدة الربوبية) فكل شعيرة ليست مشبعة بروح الحقيقة لا قيمة لها ، وكل روح للحقيقة لا تقيد بالشريعة فهي غير كاملة ، وقد وجدت الشريعة لتنظيم الحياة البشرية ، بينما الحقيقة تجعلنا نعلم التصرفات الإلهية ، فالشرع لخدمة المولى عز وجل ، بينما الحقيقة لتأمله . فتوجد الشريعة لطاعة أمرنا الله به بينما الحقيقة تهتم بمشاهدة النظام وتأمله ، وقد أعلن سبحانه أن أحدهما خارجيه والأخرى داخلية ، وقد سمعت أبا علي الدقاق ^(٢) يقول : أن آبه (آياك نعبد) هي لتدعيم الشرع بينما (اياك نستعين) هي لتأكيد الحقيقة ولتعلم ان الشريعة هي الحقيقة لان الله سبحانه وتعالى فرضها علينا ، وان الحقيقة هي ايضا الشريعة لانها المعرفة بالله عز وجل وقد فرضها الله علينا كذلك .

وأولئك الذين حافظوا على تعاليم شيوخ الطرق قادرة الانظمة قد بلغوا أقصى حد في تأكيد استقامتهم الدينية او تمسكهم بالشريعة ، فلا نجد بالتالي أية طريقه معترف بها مشتقة من تعاليم رجال مثل ابن عربي ^(٣) ،

(١) ولد عبد الكريم ابو القاسم القشيري سنة ٣٧٦ هـ في خراسان ، وذهب الى نيسابور وتلمذ على يد الدقاق ، وفي سنة ٤٤٣ الف رسالته القشيرية ٤ وفي سنة ٤٤٨ ارتحل الى بغداد وتوفي فيها سنة ٤٦٥ . ومن أهم مؤلفاته الرسالة القشيرية ، والترتيب في طريق الله .

راجع التنسك الاسلامي / محمد غلاب ص ١٠٤ المترجم

(٢) هو احتاذ القشيري ، ومن كبار اساتذة الزهد في نيسابور «المترجم»

(٣) هذا ليس معناه انكار وجود سلاسل (صوفية) تزعم أنت بها الى رجال مثل الحلاج ، ويقول ابن تيمية ان ذكر ابن سبعين كان بصيغة العبارة (لا يوجد الا الله) ومسنده او نسب يعتمد على سلطة الحجاج وغيره من غير الاقبياء - وابن سبعين كمفكر اشراقي عنوص ليس بالضرورة صوفيا - بعد طردة من سبته - بشمال افريقيا ، فجأ أخيرا الى مكة وظل لفترة طويلة ثم اعتقل بمنزله الى ان مات عام ١٢٧٠ م / ٦٦٩ المؤلف

وابن سبعين^(١) ورغم ان الافكار المتطورة للتصوف لا يمكن تصورها بدون الأخذ في الاعتبار تأثير افكار الأول والتي انسابت وتسلت في طريق غير مباشر الى داخل تعاليم الفرق، وبالتالي وبالرغم من هذا التكيف الظاهر مع الشريعة ، فان شيوخ الطرق لم يتغلبوا تماما على شكوك أهل السنة فأهل السنة لا يترددون عموماً في شجب القول المأثور للقشيري الذي اقتبسناه بعاليه ، وهو أن الشريعة هي الحقيقة ، وهم لا يثقون في الزعم بأن التصوف كان طريقة باطنية أو ديانة غامضة متاحة فقط للختارين هذه الناحية كان يهتم بها لشيخوخ الطرق بصفة خاصة بتخفيف حدتها وقد نجحوا في هذا ، محولين التصوف في النهاية إلى نظام من الإنقطاع للعبادة وأخلاقيات اعلى ومجاهدات وانطلاق وجداني ، في

(١) هو عبدالحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن محمد، كان يكنى ابا محمد ، وبلقب قطب الدين اشتهر بأبن سبعين ، كما عرف بأبن داره (اى احد الفرسان)وابن سبعين نفسه إذا كتب اسمه يكتب عبد الحق ويضع امامه دائرة عبد الحق ه ولا تعنى هذه الدائرة الدارة (التي هي الحلقة) بل ايضا الرقم ٧٠ والذي كان يبر عنه في الكتابه القديمه . قال عنه ابن الملتن «قطب الدين المتزهده الفيلسوف المجاهد ، نسب الى امور الله والله اعلم بها ، مات بمكة في شوال سنة سبع وستين ومستمائه عن خمس وخمسين سنة ، قال عنه ابن كثير (ابن سبعين عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين المقدس) الرقوطة نسبة الى رقوطة بلدة قريه من مرسية ولد سنة ٦١٤ واشتغل يعلم الاوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الالحاد ، وصنف فيه وكان يعرف السيميا وكان يلبس بذلك على الاغنياء والامراء والاغنياء .

ولعل امر ما تميز به ابن سبعين من آراء صوفيه قوله بالوحدة المطلقة التي هي عنده موضوع علم خاص يسميه يعلم التحقق ، وعنه نشأت نظريته في التحقق اى الفرد الانساني الكامل المتحقق بالوحدة المطلقة ، وامتاز اسلوبه بالرموز والاصطلاح الوضعي ، وتعمد ان يقرنه بعلم يمكن ان يحتوي الاسرار الصوفية في معرفه كنه الكون ، وتعرف النفوس الرياضية في العوالم ، فاهندى إلى علم الحروف الذي اتقنه والف فيه حتى اكتسب من وراثته شهرة واسعة .

راجع في ذلك

طبقات الاولياء : ابن الملتن ص ٤٤٢

البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢٦١

الصوفية في نظر الاسلام سميح الزين ص ٥٢٢ المترجم

نفس الوقت ففى داخل فكرتهم عن الولاية فإنهم حموا وضمنوا القبول الفعلى لمذهبهم أو اعتقادهم الخاص فى الاختيار أو الاصطفاء .

لقد اوضحنا ان التصوف لم يتوافق تماما داخل التركيب النبوى الاسلامى ، ولكن سمح له بوجود مواز له ، وان الفرق عن طريقها لبعض جوانب النظرة الصوفية ان تتوازن مع طاقة وحاجات الانسان العادى ، يوما ينخلى مجال هذا الكتاب التوسع فى موضوع طرق التصوف فى تنوعاتها الكثيرة ولن نحاول اكثر من لفت الانتباه الى جوانب خاصة نجد تعبيراً عنها فى الفرق الصوفية. إن الصوفية المبكرة كانت عليها ان تواجه تضمنات مذهب التنزيه ، اى أنه لا يمكن أن توجد مشاركته متبادله بين الله (سبحانه وتعالى) والانسان ، حيث يمكن ان يوجد فقط الحب بين المتشابهين ، والله لا يشبه احلاقاً أبداً من خلقه. أما الصوفية فقد حطموها الحاجز الذى وضعه من صاغوا مثل هذا الاعتقاد ، حيث ان الاساس الحق للمدخل الصوفى هو الاعتقاد - وفى الواقع هو المعرفة المجربة - بأن هناك قرابة داخلية ، أو علاقة بين الإنسان والخالق أى بين الخالق والمخلوق ، رغم ان اهتمام الصوفية كان دائماً فى أما عقيدة او مذهب الحب (القرآن سورة ٥ / ٥٤) ^(١) التى بشر بها الصوفية الأوائل مثل ذو النون المصرى ^(٢) ، ورابعة العدوية والمحاسبي ، والحلاج فقد كانت موضع شك كبير فى نظر المعتزلة والمتكلمين بالنصوص وفقاً للمسار الضيق للإسلام السنى !! وفى الفترة الثالثة حينما بدأ البحث عن طرق لتأمين حق الطريقه الصوفيه ، وفقدت الصوفيه بساطتها وتركيزها على الوحدة وذلك خلال تحولها الى طريقة باطنية وايضا تحول

(١) الاشارة هنا الى الآية ٥٤ من سورة المائدة

(٢) فسوف يأبى الله بقوم بجهنم ويحيونه ٥٤ المترجم

(٢) هو ابو الفيض ابن ابراهيم المصرى ، ولد فى اخميم من اسرة نوبية اشتهر بالتقوى والاخلاق الكريمة . سجن ببغداد وتوفى بمصر سنة ١٢٤٥ / ٨٦٠ م .

يرى ان علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله - صلعم - فى اخلاقه وافعاله وأوامره وسنته ، مثل عن التوبة فقال : توبه العوام تكون من الذنوب وتوبه الخواص تكون من الغفلة .

انظر الرسالة القشيرية للقشيري ص ٨ المترجم

فهل كان هناك - فى الواقع - اى تفرقه بين الله والانسان .

هذه الصوفية المبكره كانت غير معروفه لرجال الفرق ، فلم يقرأوا كتابات الصوفية الأوائل^(١) والحق ان اقوالهم كانت تقيس فى آداب الفرق فى صيغته «حديث» صوفى ، ولكن هذه الاقوال لم تكن تستعمل داخل الفرق لتدريس طريقتهم ولكنها أختيرت بعناية ، واقتبست بغرض تصوير وتأيد هدف معين ، اى مذهب معين او تنظيم معين ونذرة جمل الحديث سواء النبوة أو الصوفية فى كتابات الصوفية الاوائل يجب ان تقارن بانتشارها فى كتابات شيوخ الفرق عن النظام الصوفى ، كما هو ملاحظ مثلاً فى عوارف المعارف لشهاب الدين السهروردى ، فالأولى كتبت نتيجة التجربة المباشرة أما الثانية فكانت ملحة مرتبطة بالحاجة لبيان أهمية كل عبارة وسبقها الزمنى .

كانت الفرق عبارة عن حاملات للحياة الصوفية وليست جوهرها، ولم تكن فى الحقيقة حاملات كاملة موقفه ولكنها كانت الوسيلة المنظمة والتي عن طريقها انتقل التجمع الشاسع من الخبرة الصوفية إلى كثير من الانواع المختلفة من المتأملين .

وهناك صعوبة واحدة فى التفهم والتفسير تنشأ نتيجة الاصطلاح الصوفى^(٢) فلم يكن التصوف عقيدة كما قلنا ولكنه نشاط ، وحجج الى العمق ، فالصوفية لم يمكنهم الاحتفاظ بتجربتهم لأنفسهم فقد كان عليهم التعبير عنها فى كلمات وحتى يتمكنوا العمل من القيام بهذا . فقد وفروا لانفسهم مفردات متخصصة مكمله لتلك الخاصة بالشريعة الاسلامية ، فمثلاً تترجم كلمة «الهام» عموماً إلى وحى وهى فى استعمالهم قريبة المعنى من الوحى الشخصى رغم

(١) يمكن ان نحصل على فكرة بسيطة عن مدى شيوع هذه الكتابات من خلال معرفة عدد المحفوظات الباقية ، قد اخفت كتب كثيرة بينما بقيت نسخ وحيدة لمعظم الاعمال الهامة المؤلف

(٢) فى الأصل عوارف ، والصحيح ما أثبتناه . (المترجم)

(٣) الاصطلاح الصوفى يقصد به هنا ألفاظ الصوفية ومعانيها .

تقابلها مع كلمة (وحي) وهو الوحي النبوي البسيط الغير شخصي وبالمثل تطلق كلمة كرامات على الأفعال غير العادية للأولياء . كانت تتقابل مع المعجزات وهى المعجزات النبوية بالدالة على صدق النبوة فالمصطلحات المأخوذة من القرآن كانت تعطى معان خاصة ، فعندما سئل ذو النون أجاب قائلاً «توبة العامة هى التوبة عن الذنوب أما التوبة الخاصة فهى التوبة عن الغفلة»^(١) . ومع ذلك فان التعبيرات الاكثر تكاملاً مع الفكر الصوفى والتعبير الصوفى او الكلمات الرئيسية مثل معرفه^(٢) «وجبر» «معنى» «حقيقه» فلا توجد فى القرآن . وهذا لا يشكل أى صعوبة ، ويمكن للمرء دائماً ان يتعلم المفردات ولكن تنشأ الصعوبة من حقيقة أن كل كاتب صوفى ذى بصيرة يحول معنى المصطلحات التى يستخدمها لتطابق استعماله العاطفى الشخصى الخاص ، طالما أن معناه قائم على تجربته الشخصية المتخيلة ، كما يجب التسامح ، والتعارض كذلك عن تناقص واضطرابها . وليست قائمة على تصور موضوعى للفظ من جانب الكثير من الباحثين الغربيين للتصوف . وكذلك المدافعين عن مذهب وحدة الوجود^(٣) الصوفى .

(١) الغفلة بالمعنى الصوفى الدقيق - كما هى هنا - معناها نسيان الله ولو للحظة ، أما بمعناها العام

عند الصوفية ايضا فهى الاستقلال بالنفس المترجم

(٢) قال القشيري : المعرفة على لسان العلماء هو العلم فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم وكل

عالم ، بالله تعالى عارف ، وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق

سبحانه باسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى بجميل اقباله وصدق الله تعالى فى جميع احواله

... ومن امارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى ، فمن زادت معرفته زادت هيئته

انظر الرسالة ص ١٤١ « المترجم »

(٣) يمد ابن عربى المؤسس لمذهب وحدة الوجود بشكله الكامل ، ويقوم مذهب على أن الوجود كله

واحد بل وأن وجود المخلوقات عن وجود الخالق ، ولا فرق بينهما من حيث الحقيقة . أما الفرق

الظاهر بين الوجودين ، فلا يمدو كونه اسراً بعض به الحس الظاهر . والفرق بين وجود الله

ووجود المخلوقات انما يتراءى للإنسان ، لأنه ينظر الى الله بوجه ، والى المخلوق بوجه آخر ، ولو

نظر اليهما بوجه واحد ومن عين واحدة ، لزال ذلك الفرق ، ولأدرك (الذاتية الواحدة التى

لاصبح فيها ولا فتره . انظر الصوفية معتقداً ومسلماً : صاير طعيمة - مرجع سابق ص ٢١٩

وكذلك الصوفية فى نظر الاسلام سميح الرين ص ٤٦٠ المترجم

وهو المذهب الذى يقول ان الله والطبيعة شىء واحد ، وان الكون المادى والانسان ليس الامظاهر للذات الالهية . على كل حال فان الفرق قد سهلت الأمر أمامنا فبدخلها أصبحت معانى المصطلحات ذات طابع ثابت بنفس الطريقة مثل المراحل^(١) التى وضحت أو حددت طبقا للانماط التى وضعها أولئك الشيوخ الذين جعلوا الاستبصارات والممارسات التى وضعها مؤسس الفرق ثابتة ، ونتيجة لذلك فان صراع النفس يجب ان يضاف للزهو ، أو الكبير الروحى باعتباره أحد مخاطر حياة الدرويش ، طالما ان الطرق والنماذج تميل أن تتبع آليا دون أن تكون بالضرورة متطابقة مع أى خبرة داخلية معاشة ومعنى الاصطلاح الهابط من العلاقة بالله عز وجل إلى العلاقة بالولى المتوفى أو الشيخ الحى الوسيط بين الله والإنسان .

لذلك ، فالمراقبه ، وهى تعنى جرفياً أيضاً التأمل^(٢) بدرجات تكتسب بمعانى جديدة إلى ان تصل لتعنى عند الفرق الصوفية . المشاركة فى كينونه ما هو موضوع التأمل أى الله أو محمد - صلعم - أو أى شيخ للمرء حيا او ميتا .

لما كانت الفرق هى من جهة (طرقا) عملية ، ومن جهة أخرى مستودعات للقنوت الباطنية ، وفى نظر البعض من حكمه الهية ، فان مذهبهم يتخذ شكله الكامل بوضوح فالعبارات - أكثر من الايمان - هى التى تجمع الإخوان والمعتقدات يجب ان تستخلص من قيمة ممارسة «الذكر» لاكتشاف ما الذى يهدف اليه ، ومن الأقوال المأثورة المتكررة والصلوات وتواشيح الشيوخ المؤسسين ومكونى الطرق ، وكذلك من الكتب عن السلوك الصوفى او القواعد الصوفية (أداب او حقوق الطريق) والتى تحتوى من التنظيمات الخاصة بمثل هذه الأمور مثل العلاقة الداخلية بين الشيخ والمبتدئ ، وقواعد الشعائر ، ومحاله قيمة

(١) مراتب الطرق عند الصوفية أو المقامات المترجم

(٢) فى دراسة مبكرة للتصوف قام بها السراج فى كتابه اللمع تعتبر المراقبة هى أولى مراتب او مقامات الطريق الصوفى (المؤلف)

خاصة فى حياه قادة الفرق ومجموعات أقوالهم (حكم) وقد يدعى المرء بأنه داخل الفرق - فان العقيدة والتعاليم الصوفية تنتقل خلال الأقوال والوصايا والحكايات الرمزية ، فنحن صوفى مثل جلال الدين الرومى رسم صورته الكلامية والحكايات الرمزية واستعار انه بدون تطبيق داع ، وبدون محاولة شرح او تصوير تلك النواحي من الحقيقة التى كان له موهبة رؤيتها بدون محاولة اقامة أو بناء نظرية ما حول معنى الوجود .

وعمل شعبى مثل «المفاخر العلية فى مآثر الشاذلية» لاحمد بن محمد العباد ، يتكون من مجموعة من أقوال أبى الحسن على مرتبه حسب الموضوع ، مع قسم طويل خصص «لأحزابه» ، ولكن لا يوجد شىء عن طبيعة التركيب المذهبى المتناسك حيث لا تملك «الطريقة» أى منها ، كل هذا بعيداً عن السلسلة الغنوصية والتي تهدف الى نقل وتفسير العقيدة الباطنية المحفوظة من أجل اصحاب الطريق فقط .

ان الحقيقة التى يبحث عنها الباحث هى حقيقة وجودية ، ويجب ان تدركها الشخصية ككل ، ولذلك فالناحية المعرفية وسيطه خلال اتحادهما المتكامل بالممارسة ، فالعمل والغناء والمجاهدة والرقص مع الرمزية المصاحبة لها هى الصيغة الأولية أو الأساسية للتواصل ، أما التدريس فهو - نسبياً - شىء ثانوى وفى اى حال فهو لا ينفصل عن الممارسة المتطورة وقد درس الشيخ الرمزية الصوفية على المراحل للمريد ، مختيراً باستمرار واختبر باستمرار تقدمه ، ويخصص له مهاماً عبادية وابتهاليه تتزايد تدريجياً ، وكان من المعتقدات ان المريد عندما يمارس هذه المهام يكون قادراً على فهم الاشياء الغير قابلة للتدريس اى يستطيع ان يدرك الحقيقة بالبديهية .وعليا ، فان المجالات الرئيسية الثلاثة للاعتقاد الدينى وهى الايمان والطقوس التى يعبر خلالها عنه ، وطريقة الحياة وفقاً لهذا الايمان توضح فى علاقة متوافقة متوازنة ، فالايمان ليس فهماً عقلياً خالصاً فالاعتقاد يحتفظ بقوته لأنه نظام للحياة ، والشعائر أو الطقوس هى الوسيط الذى يحمل ويعيد فرض التحفظ بالتعاليم بديهيًا.

ولذلك قد أقام التصوف اساليب صوفية لمساعدة المريد على الوصول الى (المعرفة الباطنية) ، ولذلك فالمعرفة لمست غنوصاً عقلائياً ولكنها أدراك مباشر لله عز وجل ادرك للشيخ الطريق أن الاتجاه الزاهد^(١) باعتباره تجربة فردية فيه تكون النفس تحت تأثير الحالة - مفتوحة تماماً - وعرضه للزيف وخداع النفس كما توجد طرق صوفية لآلهة أخرى غير الله ، ولذلك فقد أصرروا وأكدوا على ضرورة الارشاد وتحت رعاية موجة او مرشد مجرب وفي المرحلة التالية يصبحوا هم انفسهم الوسيط بين الله والانسان . ويكتب جلال الدين الرومي «عندما يقبلك الشيخ فأسلم نفسك له ، واذهب معه مثل موسى تحت قياده الخضر... فقد اعلن الله ان يده (يد الشيخ) هي يد الله ، إذ قال «يد الله فوق ايديهم» وإذا سار احد -وهو استثناء نادر- في الطريق الصوفي وحده (دون شيخ) فهو يصل الى هدفه خلال مساعده وفصل قلوب الشيخ فيد الشيخ لا تنسحب عن الغائب ، فيده ليست إلا يد وقبضة الله والفقير من كتاب مثنوى لجلال الدين الرومي ويتضح من الفقرة الأخيرة ان جلال الدين الرومي يرى أنه حتى الساعون بمفردهم هم - من الناحية الروحية - في رعاية التوجيه والارشاد .

في المرحلة الأخيرة فانهم أنكروا حق الفرد ، وليس فقط في البحث عن الطريق بالمحاولة والخطأ ، ولكن حتى تحت وفي ظل التوجيه لأن الشيخ كانوا هم الوسطاء وهم الذين يحدون المهام الروحية ، والتي أصبحت عملية آلية ، وقد تضمنت بداية المريد اخضاع ارادته لارادة الشيخ ، فيبدأ كتيب التيجائي «الحمد لله الذي أعطى كل شيء سبباً ، وجعل الشيخ الوسيط سبباً للاتحاد بالله» ورغم ان الفرق كانت تجسداً للتجربة الصوفية .

ان سميتها الخاصة - مع ذلك هي ان المعرفة بالله تعتمد على الولاية والولاية تنقل خلال الشيخ ، ولقد ذكرنا ان تغييرات قد حدثت في معنى المصطلحات الصوفية ، فكلمة (توجه) التركيز العقلي فمثلاً تعني في اصطلاح

(١) المقصود هنا هو الزهد الفردي أو التصرف الفردي بدون الانضواء تحت لواء فرقه معيناً أو الأخذ

عن شيخ بعينه المترجم

الفرق الشرقية ، المساعدة الروحية المعطاءة التي يعطيها الولي لمريده ، او المرشد لمريده . وفي هذه المجاهدة يركز الشيخ (فى حالة جذب) على المريد مصوراً غزل خط الرابطة بين قلبه الصنوبرى ، وقلب «المريد» الذى يمكن ان تتدفق القدرة إليه . وفي نفس الوقت على ان يصح دعاءاً سلبياً لقدرة الشيخ المتدفقة ، وعند آخرين فأن التوجه يكون محاولة الاتصال بروح الشيخ المتوفى .

ان شيوخ الطريق كانوا مدركين تماماً لأخطار التعرض للإتهام بالبدعة ، فالاسلام قد احتفظ بالتصور المسيحى للهراطقة . كانحراف عن أصول الاعتقاد^(١) . والأصولية هى موضوع ممارسة اكثر منها اعتقاد (٢) ، وهى اتفاق مع الشريعة ، ورفاهية المجتمع بتضمن اتباع الشريعة ، وقد رأينا أنه لا يوجد ما يثير الدهشة فى تأكيد شيوخ الفرق على مراعاة الشريعة، حيث كانوا يعتقدون ان هذا كان تواجداً مع الوحدة الالهية ، فهم ببساطة يزعمون وجود معرفه خارجية ومعرفة داخلية (العلم الظاهر والعلم الباطن) ولذلك مالت (الطوائف) الى ان تكون فى وضع متناقض ، ونادراً ما تعرضوا للهجوم على اساس العقيدة ولكن غالباً على اساس الانحرافات فى الممارسة .

كان أول اهتمام لمؤسس وقادة الطائفة هو تأكيد استقامتهم الدينية وهذا ببساطة يتم تحقيقه بالوسيلة الاسلامية . الحقيقة لا يجاد أسناد ومن اجل تجنب اى تويخ عن (البدعة) فإن كل ما يحتاجه الشيخ هو ان يثبت انه قد تبع منهج أحد الصوفية المشهورين ، عند ذلك ان فى استطاعته ان يستخدم سلطه شيخه ، وكل الروابط ترجعوا وترتد الى احد الخلفاء الأربعة الراشدين كسند لتعاليمه

(١) المقارنه هنا غير صحيحة سواء من الناحية التاريخية ، او من الناحية الموضوعية فالإتهام بالهرطقة (الكفر) فى المسيحية (خصوصاً فى المصور الوسطى ، كانت له اسبابه التاريخية - طبقياً واجتماعياً - الى جانب دلالة الموضوعية ، اما مفهوم البدعة فى الاسلام فهو امر مختلف تماماً .

ونحيل القارئ العزيز الى كتابنا : البدعة فى الدين - الانجلو المصرية ط ١٩٨٩ . المترجم

(٢) هذه الحملة ايضا - على الاقل - غير دقيقة لأن الأصولية هى فى الجوهر - تمسك باصول العقيدة بنعكس على السلوك والممارسة . المترجم

وممارساته ، وهذا الارتباط أو الاسماء الصوفى يسمى سلسلة ، وكما ضغطت افكار جديدة عن صوفية بارزين فى الماضى ، جعل هذه الافكار قابلة للاحترام وكذلك وفرت السلسلة عودة مذهبية او عقائدية ، وكذلك خطأ للنفوذ إلى اولئك المهتمين ، هذا الادعاء بان هؤلاء الخلفاء كانوا صوفية قد ابتكر أثناء الفترة التى كان التصوف يكافح سعيًا للاعتراف به ، ضد معارضته أهل السنة، ويرفض ابن خلدون كل هذه الادعاءات ، فلم يكن أى من هؤلاء الخلفاء الاوائل كما يقول كان يتميز بأى ممارسة دينية معينة خاصة قاصرة عليه وحدة. ويربط على الهجویری كل خليفه لناحية من النواحي المختلفة للطريق الصوفى (المنهج) فابو بكر يمثل الطريقة التأملية (المشاهدة) وعمر الطريقة التطهيرية (المجاهدة) وعثمان الصداقة مع الله (الخلا) وأما على فهو الموجه إلى مبادئ وممارسة الحقيقة الالهية، وعمليا فإن سلاسل الطرق ترد فقط إلى ثلاثة من هؤلاء الخلفاء فعلى هو المصدر الاولى الرئيس وبعضها له خط إلى أبى بكر او عمر، ولكن لم أصادف خطأ لعثمان .

والسلسلة المتطورة للفرق تحتوى قسمين هما :

«سلسلة البركة» فهى تربط الشيخ الحالى خلال المؤسس «للطائفة» مع مؤسس الطريقة ، بينما «سلسلة (الورد)» فهى تربط مؤسس الطريقة بأحد الخلفاء الاوائل وبالنبي (صلعم) ورواية هذه السلاسل تشكل جزءاً من الممارسات الروحية لأغفاء والحقوق وقد تستخدم مصطلحات أخرى فالنقشبندیون يسمون السلسلة من المؤسس الى الرسول (سلسلة الذهب) وتلك التى من المؤسس الى الشيخ (سلسلة التربية) وحلقاتها يسمون الشيوخ التربية ، أو مع السهروردين (شيوخ الاساتذة)»

ان التصوف فى تطوره البسيط والذى نعتقد أنه اخفاء الطابع الباطنى على الاسلام بصورة طبيعية قد أصبح يحتوى على ليس فقط هذه النظرية من الاختيار ، ولكن نيوصوفية أيضا والتى كانت أساساً غريبا عن الاسلام ، وبدون المبالغة فى قيمة الاتجاهات نحو الألوهية الكلية يمكن ان نشيرالى ان علاقة الصوفية بالله

كانت غير عادية ، وحين يكون الفرد «مجدوباً» فانه لا يكون مسئولاً عن كلماته وافعاله ، فهو يستطيع ان يفعل أو يقول الأشياء التي قد تكون كفرية إذا قالها آخرون ، وبمعنى آخر فان ظاهرة فقد الشخصية المؤقت (وجد) قد وفر فرصة لادخال ما هو غير قابل للتفسير .

ولما كان كلفادة الفرق صوفيين مؤهلين فان كتاباتهم كانت بالضرورة مملوءة بالطريق الذي يمهدهونه او يرسمونه ليتبعه الآخرون بالارتباط الخاص بالمؤسس قد بين الميل العام والتأكيد العام ، أما متابعة والتصرف وفق الكتابات الذي يعطى المبادئ المؤيدة للممارسة والتعاليم الواجب اتباعها وخصوصاً الصلوات والابتهالات، والتضرعات والأدعية وقصائد الشعر فانها توفر لأهل السنة مبرراً متكرراً لاتهام الصوفية ، بل ان رجالاً من الحنابلة أمثال ابن الجوزي وابن يمنية، حاولوا هذا الاتهام وفشلوا . ومن الصعب الاتهام بالهرطقة في الاسلام إذا أن الحكم على الدوافع الداخلية للفرد مرجعه إلى الله ، وان حكم الانسان يقوم بدرجة كبيرة على عمل الشخص، فقط اذا أدخل الشيخ بدعاً في الشريعة او رفض الاعتراف بها عندئذ يمكن اتهمه وبالتالي فان شيوخ الفرق اكدوا أن ممارستهم الدينية كانت في خط واحد مع الشريعة تماماً ، وان كتاباتهم مزودة بالأحاديث النبوية المبررة لها .

وتدعى الفرق امتلاك نظاماً باطنياً موروثاً خلال حلقات السلسلة (أهل السلسلة) وقد درس هذا فقط لبعض الخبراء القلائل الذين ثابروا خلال منهج كامل من التدريب وتلقوا مظاهر النعم الإلهية .

فأن المرء يجب ان يكرر مرة أخرى أنه لم تدرس عقائد مجردة ، وفي داخل الفرقة فان التصوف هو أساساً طريق التطهر (طريق المجاهدة) وهذا هو الطريق الاول الذي برز مع حركة أنكار الذات والانقطاع للتصوف وسرعان ما كان هذا موازياً لطريق الاحوال التي توهب للسالك بغض النظر عن المجاهدة كعلامات لفضل الله ، وان كانت في نفس الوقت عملياً مرتبطه ارتباطاً وثيقاً بكل مرحلة

من مراحل الطريق الصوفي والذي يمكن تلخيصه في «مجاهدة / كشف» (١)

ينظم التصوف المجاهدة الشخصية ولكنها تؤكد رغم هذا دور التلقين الإلهي، والنعمة الإلهية بالكشف أو الرؤية، والنعم والتلقى السلبي «لنفس» التي تستقبل حين تفرغ نفسها من الاحداث الطارئه.

ومن هذه الكشوفات المستورات (المتأثرة تماماً بمصادر أسبق) نما نظام باطنى وقد اعتقد بعض الناس انه من الخطا التعبير عن العقيدة الباطنية فى الكتابة ليقراها كل فرد لذا فقد كتب الغزالي فى بداية كتابه «الاحياء» ان اهتمام هذا الكتاب هو بالمعرفة العملية (علم المعاملة) فقط اكثر منه بالمعرفة التأملية (علم المكاشفة) والتي لا يسمح للمرء ان يضعها فى كتب، رغم أنها الغرض الحقيقى للمريد ، ولكن التعاليم الاعمق الباطنية قد وجدت فى الحقيقة تعبيرها على الورق ليقراها الجميع ، ولكن القراء لا تعنى الفهم ولذلك بقيت «سراً» وخفيه أمام غير الملحقين ، أو غير المستنير، ولم يفهم الغزالي نفسه هذا ولذلك كتب بهذه الطريقة .

على إى حال فان هذا الاعتقاد. فى العقيدة الباطنية استمر دائماً داخل الفرق ، وقد اتحد الكثيرون على أمل الحصول على هذه المعرفة المرتبطة بالقوة ، ولكن من الناحية العملية فان ما درس كان هو منهج الطريق الصوفى ، والتدريس يجربه المريد عندما ينفذ مجاهداته فى «الخلوة» .

فى الطريقة العادية فان التركيز يكون على تخصيص مهام الصلاة وأوقات وطرز التلاوة والاشتراك فى الاشكال الأخرى للتعبد واقتفاء منهج النظام الزهدى، والوفاء بالتزامات المادية للفرقة وتلقى الخبرات الروحية، والمأثر فوق العادية ، والقوة المستمرة للأولياء.

ان مراحل الطريق - كما كانت تنقلها الفرق يجب ان تعطى أو تدرس

(١) المقصود بهذه الفقرة هو أن المجاهدة - وهو فعل بشرى تؤدي الى ما يعرف عند الصوفية باسم (المقامات) لما الاحوال وهى من فضل الله - فهى تتناسب مع المقامات التى يرقى فيها السالك او المريد الصوفى .

للمريدين حيث انها تعتبر شيئاً شديداً واقعية عن الدراويش الملتزمين، وتوجد فى الكتيبات الشعبية كما ألفت مخططات رمزية ، ولما كانت قد أسست على روايات الصوفية لحجمهم الروحي ، فان المخططات الصوفية المستخدمة داخل الفرق أصبحت ذات نمط ثابت ونقدم أشهر تخطيط للمراحل السبعة المأخوذة من سلسيل السنوسية من القسم الذى يتناول (الخلوتية) ولكنه منتشر على نطاق واسع ، ويوجد فى كتيبات الفرق الأخرى مع بعض التعديلات البسيطة ، وهذا التخطيط موجود فى كتيب قادري معروف هو الفيوضات الرحمانية ويرتبط هذا المخطط بالفكرة الخيالية عن ٧٠,٠٠٠ من حجب أو استار النور والظلمة (نور الجانب الداخلى وظلام الجانب الخارجى) التى تتداخل بين الروح الفردية وبين الواقع الذى تحجبها ، ومن ثم فهناك حاجة إلى سلسلة سباعية لتطهير النفس أو الروح حتى تسمى هذه الأشياء أو الحجب جانباً كل ١٠,٠٠٠ فى المرة الواحدة ، والقراء الذين ألفوا كتابات الصوفية سيكونون قادرين على متابعة الخريطة وآخرون لا يمكنهم العثور على مقدمه أفضل من كتاب «منطق الطير» للعطار ، حيث الوديان السبعة التى يقطعها الطير بحثاً عن الحقيقة وهى : البحث ، والحب ، والفهم الصوفى ، والعزلة ، والاستقلال ، والوحدة والحيرة ، والتحقق فى الفناء ، وما يحتاج إلى توضيح ان الغرض من نظام «الذكر» فى معناه الشامل هو تحقيق هذا التطهر.

وعلى المريد واجبات أولها :- ان ينقى نفسه أى ذاته الشخصية من ميله إلى الشهوات وثانيها : يستبدل هذه الشهوات بالحب ثم ثالثاً يجب ان يقع فى لهيب العاطفة (عشق) ورابعاً حتى يرتقى إلى حالة الوصل خامساً تحول النفس (نقاء) من خلال سادساً هبات الحيرة والانهيبار (حيرة) إلى سابعاً البقاء .

والمراحل التى تتقدم «النفس» خلالها إلى الفناء فى الانحياز أو البقاء هى :

١- حين تكون النفس الأمانة سائدة ، فان النفس التى لا تمنح الهداية

٢- وحين تكون لومة ، وتقاوم ولكنها لا تزال غير خاضعة

٣- حين تكون ملهمة .

٤- حين تكون النفس الامارة خاضعة تماماً والروح مطمئنة .

٥- حين تكون النفس راضية بالله .

٦- وحين تكون النفس مرضية .

٧- حين تكون النفس نقية مقدسة كاملة .

كل هذه المراحل السبعة للتطهر او الكشف عن المستورات بظهور ضوء
ذى لون مختلف ، ويتفاوت نظام الألوان واهميتها ولكن انعدام اللون علامة على
المرحلة النهائية لعدم التفرد (تعيين) او التحدد ولكنها عالم واحد فقط للكينونه
الخالصة والوحدة المطلقة «الاله الإنا»

ان كتيبات الفرق الصوفية وخصوصاً فرق القرن التاسع عشر نميل الى
تناول هذه العملية وفق خطوط ومسارات الحج الاخلاقي الزهدي ، اكثر منها
وفق مسارات الحج الصوفي وخاصة تتطابق مع الصفات الروحية السبع والمراحل
السبعة في تطهير النفس وكمثال نموذجي نقدم ترجمه القسم المرتبط بها من
دراسة مرغينه هي منحة الاصحاب تأليف احمد عبد الرحمن الرطبي : - (١)

«انه واجبك يا أخى ان تجاهد النفس وهذا هو الجهاد الاكبر ، الى النهاية
التي تتخلص من الصفات التي تستحق اللوم والتوبيخ خلال استبدالها بالأخرى
التي تستحق الثناء .

أ- فالنفس الأمانة (٢) من بين خواصها الجهل والبخل وحب
التملك والغرور والغضب والشهوة والحسد والغفلة وسوء التدخل في أشياء لا

(١) من مجموعة دراسات عنوانها الرسائل المرغينة، طبعة في القاهرة ١٩٣٩م / ١٣٥٨هـ وهناك

عرض اطول مراحل تطهير النفس مذكور في سلسيل السنوس ، ولما كانت الصياغة - في

المصدرين - متطابقة وكثير من المواضع فمن الارجح ان أصلهما مصدر واحد مشترك (المؤلف)

(٢) حدد الامام الغزالي العلاج لهذه النفس ، فيجب البدئ بعملية تخليها عن الصفات المذمومة

ثم تخليها بالصفات الحمودة... ويتم ذلك بطريق المجاهدة . راجع احياء علوم الدين ٨ / ١٤٣٨

مطابع الشعب (الترجم)

تعنيها وما شابه ذلك إلى جانب الكراهية والسخرية وإيذاء الآخرين أما جسدياً أو لفظياً ومثل هذه الأشياء السيئة ، وهذه هي النفس الشريرة ولكن مجاهدتها سترفعها إلى .

ب- المرحلة الثانية المقام الثاني وهي النفس اللوامة^(١) وصفاتها هي اللوم والخيلاء ومعارضة الناس ، والنفاق وحب الشهرة والنفوذ ، لذلك فإن صفاتها تكون مستحقة للوم كذلك لأنها أمراض لا علاج لها الا «الذكر» المستمر والمجاهدة الدائم إلى ان يتخلص منها حين يبلغ المرء .

ج - المرحلة الثالثة : حين تصبح النفس «الملهمة» لها كل الصفات المستحقة للثناء وهي الكرم والقناعة ، والمعرفة ، والتواضع ، والصبر والرقّة والتسامح واحتمال الأذى والصفح وقبول اعداء الناس والشهادة بأن الله يمسك بناصية كل مخلوق^(٢) ، ومن ثم فانه لم ينقد أي شيء مهما كان في الخلق وهذه النفس تسمى الملهمة لأن الله غرس فيها صفات غير أخلاقية وأخلاقية لذلك شعر عن ساعدك واهجر النوم وصل بأخلاص مكرراً «الذكر» حتى الفجر لكي تبلغ .

د- المرحلة الرابعة : والتي تصبح فيها النفس مطمئنة ومن بين صفاتها التحرر والتوكل والرقّة والعبادة والعرفان بالجميل والرضا بالقضاء ، والصبر على النوائب ، وبين العلامات التي توضح ان الحاج قد دخل الدرجة الرابعة والتي تسمى فيها بنفس مطمئنة أن يكون العبد مخلصاً تحت أي ظرف ، وبهجته الوحيدة هي الامتثال بسلوك النبي المختار حتى يرقى الى .

هـ - المرحلة الخامسة. والتي تسمى فيها النفس : راضية ومن صفاتها

(١) حال النفس هنا هو الندم على ما أقرفته من الآثام والشرور فتدأب على البعد عن المخالفات وتنشغل باللوم عند اقتراف السيئات ، حتى يصبح هذا الحال ملازماً لها ثابتاً لديها بمثابة مقام لها ومنزلة تنزل بها .

وراجع نحو علم نفس إسلامي حسن الشرقاوي ، الهيئة المصرية للكتاب د.ت ص ٤٧ المترجم
(٢) الإشارة هنا الى قول الله تعالى «إني توكلت على الله ربي وربكم من دابه إلا هو أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم» هود ٥٦ . (المترجم)

انكار كل ماعدا الله ، والاخلاص والخوف من الله ، والاقتناع بكل ما يحدث في الدنيا بدون وجيب القلب ، وبلا اعتراض مهما كان ، وذلك لأنه مستغرق في تأمل الجمال المطلق ، ومن يكون في هذه الدرجة يكون مغموراً في بحر من نعمه الله ، وسوف تكون صلاته مقبولة ، ومن المفهوم نتيجة لتواضعه ورضاه سيكون لسانه غير قادر على نطق الالتماسات ، لم يكره تماماً على هذا . عندئذ فقط قد يدعو ودعوته لن ترد ، وذكر هذا المقام (ص) واستمر فيها حتى يتضاءل وجودك المؤقت «الفناء» وتبلغ البقاء في الـ«ص» ثم ستدخل في :

و- المرحلة السادسة . والتي تسمى فيها النفس «المرضية» ومن صفاتها رقة الطبع ، والابتعاد عما سوى الله والعطف على كل المخلوقات وحنهم على الصلاة ، والعفو عن أثمهم وحبهم ، مع التعاطف مع الجميع ومساعدتهم على التخلص من الجوانب المظلمة من طباعهم ونفوسهم وبذلك تنبعث انوار طبيعتهم الروحية ، ومن بين صفات هذه النفس التوحيد بين حب المخلوق والخالق وهذا شيء مدهش وهي صعبة جداً ، الا لأولئك الذين بلغوا هذه الدرجة ولقد سميت هذه النفس «المرضية» لان الحق راضى عنها وحركتها تكون من الله (سيرها عن الله) وبكلمات أخرى فأنها اكتسبت ما هو مطلوب من معرفه عن الحى ، والباقي بذاته (الصمد) وقد عادت النفس من العالم غير المرئي (عالم الغيب) إلى العالم المشهود عالم الشهادة باذن من الله (عز وجل) من اجل إفادة الجنس البشرى بالنعم التي منحها ، او وهبها الله لها ^(١) وحين ترفى هذه النفس الى

ع -المرحلة السابعة : حيث تسمى النفس الكاملة وصفاتها تضم كل الصفات الحميدة من النفوس التي وصفت من قبل ، وبذلك يصبح كاملاً والاسم الذى يجب ان يشمل هذا الكامل به نفسه هو القهار ، وهو الاسم السابع من الاسماء الحسنى وهذه هي أنقى الدرجات لان اسم القهار هو أحد اسماء القطب ، وقد قال الشيوخ من هذا الاسم يمد القطب المريدين بالأنوار والمنح والأنباء السعيدة ، وأيضا السرور الذى ينير قلوب المريدين ، والابتهاجات والنشوات

(١) وهذه هي رحلة العودة الى عالم الشهادة ، عودة الى الرعى بتعدد العالم ، عودة في حالة متغيرة ،

لان المرشد(او القطب) يحاول ان يجعل العالم أكثر كما لا .

التي تستولى على المرء بدون أى تسبب، وإنما هي من إمداد القطب أكثر منها من ذكرهم وتحويل وجههم للمولى^(١) ومن ناحية فإن إدخال أبى حامد الغزالي المعالجة الاخلاقية ومن ناحية أخرى أسلوب الفرق في تفسيرها للطريق هي الأكثر أهمية في نظر المدخل الخارجي الواضح للتشريع الاسلامي الذي يحكم فقط على مسئولية الشخص لخارجية عن أفعاله مثل القتل وليست الكراهية .

ومع ذلك فرغم تركيزهم على الأخلاق فالتوبة تعنى الإقلاع عن الفعل وليس لها أى دلالة باطنية فلم يتمكن الفرق اطلاقاً من حل مشكلة التمييز بين الروحي والاخلاقي ، فالفضائل الاخلاقية (والسعى للنقاء الداخلي ليس مثلها) لا علاقه لها بالحجج الروحي) فهي توفر كما يقول الصوفية: معرفة الهدف ، ولكنها تترك المرء عاجزاً في القدرة لبلوغة ، هذه كانت مأساة أبى حامد الغزالي اما الملامية فلم يحتاجوا الآن يقلقوا بالنسبة القانون الاخلاقي وهذا مفهوم حتى اذا كانت هناك ما يتعارض من تماماً مع القانون الاخلاقي^(٢) ولكن ماذا عن الولي وهذا أيضاً مصطلح ديني وليس أخلاقياً حيث أن ولاية الولي اما ان موهوبه له او ان تكون جوهرية منه ، فهي مستقلة تماماً عن صفاته الاخلاقية، وحياة الأولياء توضح أنهم فوق أى مقياس أخلاقي .

ويقىس المرشد تقدم (المريد) خلال هذه المراحل بواسطة تفسير رؤاه وأحلامه التي يخبرها المريد خلال قيامه بممارساته الشخصية بالذكر في الخلوة ، فتفسير الاحلام لذلك يشكل عنصر هاماً عند الفرق الصوفية ، ويكتب السنوس عن الخلوتيه قائلاً: إن المتتمين لهذه الفرقة وكذلك الكوبراوية يشجعون ممارسة تفسير

(١) ليس من شك في ان النفس واحدة ٤ ولكي لها علامات سبعة هي أمانة... ولوامه ... وملهمة ... ومطمئنة... وراضية... ومرضية ... وكاملة . راجع احياء علوم الدين ٨ / ١٤٣٨ وما بعدها

المترجم

(٢) اذ من المعروف ان الملامية يظهرون عكس حقيقتهم ، لأنهم لا يهتمون برأى الناس بل يريدون ان يكون ظاهريهم محل لوم واستهجان الخلق ، فالهم - في نظرهم - هو رضا الله عن باطنهم

المترجم

لحلم (تعبير الرؤية) بدرجة كبيرة حتى أن بعض شيوخهم قالوا : أنه (المدار) أى المحور الذى يستقر عليه طريقتهم^(١) . وابن عطا الله مؤلف أول رساله^(٢) أو بحث منهجى عن الذكر . كتب :

«ان أول ما يبدو له من ذلك العالم هى الجواهر الملائكية وأرواح الانبياء والأولياء فى صورة آخاذه ، والتي عن طريقها تنبعث فيه حقائق معينة ، وتلك مجرد بداية حتى يبلغ المرحلة التى تتسامى فيها الصور ويواجه ظهور الحق فى كل شىء وهذا هو ثمره خلاصة الذكر ...»

ورأيه تلك الروح الباطنية للفتوصى الاسلامى ، أى الخضر^(٣) مهمه وخصوصا فيما يتعلق بالولاية وتأسيس طائفة جديدة ، وعموما فهو أى الخضر - نفسه إلياس^(٤) ، كخادم لله مرافق ومعلم موسى عليه السلام كما ورد فى سورة الكهف ، ويمتلك الخضر «الحكمة» والاسم الاعظم والمعرفة التى تمنح الولاية والقدرة على تحمل عمل الاشياء فوق الطبيعة

والخضر مجرداً عن الماديات كشخص يمثل فى الفكر الصوفى النور الداخلى «للولاية» بالتوازي والتقابل مع النواحي الشرعية والوحي للنبوة والتي يمثلها عليها موسى «وقد عبر عن دوره الوسطى بطريقة محكمة المصرى على بن محمد وفا (توفى ١٣٩٨م) ان الياس بالنسبة للأولياء مثل جبريل بالنسبة للأنبياء^(٥) . ومن الطبيعى ان معارضى التصوف لم يستفيدوا من هذا المفهوم

(١) من كتاب السلسيل للسوس ، وهناك كتابات ضخمة حول موضوع تفسير الأحلام وتأويلها ، والذى يتضمن الأنوار الملونة التى يراها النغمسون فى نظام الخلوة ، وهو جانب يؤكد عليه السوس فى عرضه لتأويل الاحلام عند الخلوتية المؤلف

(٢) اسم هذاالرسالة «مفتاح الفلاح ومصباح الارواح» وهى مطبوعة على هامش كتاب الشعرانى لطائف المتن او اللطائف الكبرى المترجم

(٣) سبق الاشارة الى قصة الخضر عليه السلام المترجم

(٤) كما فى العهد القديم المترجم

(٥) بشير ابن عطا الله الى كتاب ابن الجوزى «عجالة المتر فى شرح حال الخضر» المؤلف

بالنسبة بن عطاء الله بأبن الجوزى باعتباره ينكر وجود الخضر^(١) وقدرته قصص كثيرة فى المناقب والحكايات الشخصية والكرامات حول هذه الشخصية ، أما أهميته الكبيرة فهى ظاهرة فى الرؤى والأحلام وقد أعطى عبد العزيز ابن الدباغ «الورد» بركة الولاية بواسطة الخضر عام ١٧١٣م / ١١٢٥هـ) عند ضريح على بن هزاهيم فى فاس^(٢)

ان المسار الباطنى مختلف عن سيرورة الطريق الصوفى ولكن هذا أيضا يحتاج إلى ابضاح هنا ، طالما أننا نجده فى كل كتيبات الصوفية يتبع مراحل التطور الكونى ، وتمثل مراحل الشريعة والطريقة والحقيقة باعتبارها تجتاز المجالات الأربعة للوجود وهى الطبيعة الانسانية والطبيعة الملائكية والطبيعة الدنيا والطبيعة السماوية.

وكل الفرق المؤلهة تنادى بالشريعة كنقطة بداية ، واساس من اجل مزيد من التقدم سواء فى الحياه الموجهة أو الثورانية . هذا واضح فى الاقتباس التالى من كتب المرغنى الذى يمكن ان يكون له ما يماثله فى كل الفرق :

«تمسك تماما يا أخى بالشريعة» لأنك لا تستطيع الاقتراب من الطريقة إلا من خلال الشريعة، ولا يمكنك الاقتراب من الحقيقة الا من خلال «الطريقة فالشريعة هى الجذر والطريقة هى الفرع ، والحقيقة هى الثمرة ، فلا يمكنك ان تتوقع ان نجد الثمرة إلا من خلال وجود الجذر والفرع ولا يمكن ان يتواجد الفرع الا من خلال الجذر ، فالذى يلتزم بالشريعة ولا يتبع طريقة يكون فاسقا ، ومن ينبع الطريقة ولا يلتزم بالشريعة يكون زنديقا^(٣)

(١) هذه الموازنة الكاملة بين الوراثة الخضرية والوراثة الموسوية تظهر بوضوح فى كتابات على وفاء ابو المواهب محمد الشاذلى ، كما يروىها الشعراى فى كتابه لطائف المتن ، كما يذكر انه عندما يذكر اسم الخضر ، فإن المتكلم يقول على الفور (وعليكم السلام) كما كان الخضر حاضرا ، وكذلك بالنسبة لأولياء معينين .

(٢) ويذكر الجبرتي ان مصطفى كمال الدين البكرى قد قابل الخضر فى ثلاث مناسبات المؤلف

(٣) «منحة الأصحاب» تأليف احمد بن عبد الرحمن الرطبي القاهرة ١٩٣٩م / ٣٥٨هـ

للوجود، فعند الغوثية او الشكل - فضل اسمها البديل المراجعة - وهناك استبيان صغير مشوق يوجهة إلى الله عبد القادر الجيلاني والذي يخاطبة الله في كل جملة باحترام بقوله ياغوث الأعظم^(١) فيقول الله كل عبارة بين الناسوت والملكوت هي الشريعة وكل عبارة بين الجبروت والملكوت هي الطريقة وكل عبارة بين الجبروت واللاهوت هي الحقيقة.^(٢)

عالم الناسوت هو عالم الانسانية الذي تدركه الحواس الطبيعية ، عالم الظواهر المادية والذي يسمية ابو حامد الغزالي الذي يستخدم المصطلح وليس الجواهر عالم الملك والشهادة عالم الملكوت ، عالم السيادة هو العالم الملائكي الروحي الغير منظور ، والذي يدرك خلال البصيرة والملكات الروحية وهو في نظر بعض الصوفية الكون الكبير غير المخلوق^(٣)

عالم الجبروت عالم القدرة . وهو عالم السموات الذي يدرك خلال الدخول والالتحام في الطبيعة الالهية ، وهو ايضا عالم الاسماء والصفات الالهية «عالم اللاهوت . عالم الالهية او الربوية وهو لا يدرك حيث هنا يكون عالم الظواهر يند ربما في وحدة لازمانية .

ورغم ان هذا النوع من الاشياء يرتبط بالفلسفة الدينية الصوفية التأملية،

(١) يقول ابن تيمية في كتاب التصوف (مجموع الفتاوى) ان لفظ الغوث . لا يستحقه إلا الله فهو غوث المستفيثين ، فلا يجوز الاستغالة بغيره لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

ابن تيمية الفتاوى ٨ / ٤٣٧ مصدر سابق المترجم

(٢) يقتبسها اسماعيل بن محمد سعيد في مجموعته المسماة «الفروض الربانية طبعه القاهرة ١٣٥٣ هـ وهي عبارة عن كتيب للمريد العادي ، وهذا الحوار «الاستبيان» ذو أهمية عظمى في بيان كيف تقدم الاذكار التيوصوفية للمريد العادي ، ومن الطبيعي انها ليست من تأليف عبد القادر الجيلاني نفسه، إذ أن أسلوبها مباشر وبسيط وتضم افكاراً لا يكتبها احد الحنابلة ، ولكن الاعتقاد في الايمان الباطني السري يسمح لأي فرد ان يدرس معتقدات وأذكار لأحد الصوفية الاوائل .

(٣) لم يذكر لنا المؤلف من هؤلاء الذين قالوا بعدم خلق هذا العالم ، مع ملاحظة انه قول يتناقض مع أصول العقيدة الاسلامية المترجم

فان هذه المجالات تظهر دائماً في كتيبات الفرق وفقاً للطريق الصوفي الخصوصي مثلما في الاقتباس السابق والمنسوب الى عبد القادر الجيلاني . والناسوت ، هو حالة الانسان الطبيعية التي يعيش فيها المرء ويتبع قواعد الشريعة .

والملكوت : هو طبيعة الملائكة وعلى المرء - الوصول إليه - أن يسلك الطريقة وهي طريق التطهر بينما الجبروت : هو طبيعة القدرة والاكتساب على المرء من اتباع طريق التنوير وهي المعرفة إلى ان يتلاش المرء داخل .

الفناء : الاندماج داخل الالهية، وهي حالة الحقيقة والتي تسمى غالباً في أدبيات الفرق (عالم الغيب) عالم الاسرار غير المخلوق لقد اوضحنا فعلاً كيف ان التصوف نشط داخل النظام الموحد للاسلام ، قد تفرع إلى اتجاهين مذهب وحده الوجود ، تقديس الأولياء ، بينما في نفس الوقت يحافظ على الطريق الوسط وبعد قرون من التجريب الصوفي فان التصوف التأملي صار يحتضن مذهب العقل اللوغوس^(١) ، والذي بدون إفساد التوحيد الالهي ، قلم للأولياء والنبى أساساً فلسفياً للتعبير العملي ذلك الأساس الذي تمت صياغته استجابة حاجة الناس

فابن عربي بمذهبه عن وحدة الوجود كان يعلم - أو يقول في كتبه - ان كل الاشياء تتواجد أولاً كالأفكار في علم الله ، وهنا تنبع وإلى هنا تعود في النهاية .

لقد طور ابن عربي بصورة أكثر اكتمالاً عقيدة الوجود الاول لمحمد قبل الخلق^(٢) ، وهذا هو مذهب النور المحمدي فهو - أي الرسول - صورة الله في تقررها الاولى ، وهو الوعي الالهي وهو النور السابق للمخلق والذي خلق منه كل

(١) كان الحكيم الترمذى (ت ٨٩٨) هو أول مفكر - داخل السياق الاسلامي - يكتب عن اللوغوس ، والذي اطلق عليه كلمة الذكر (وكان الله ولا شيء فجري الذكر ، والعبارة الاخيرة من كتاب كتم الولاية للترمذى تحقيق عثمان اسماعيل يحيى المترجم

(٢) هذا الاعتقاد كثيراً ما تعرضت له الكتابات الصوفية بالمناقشة . انظر مثلاً كتاب (الفلسفة الصوفية لابن عربي تأليف ابو العلا عفيفي المؤلف

شيء ، ويسمى أيضا الحقيقة المحمدية وهي محمد الكوني في حقيقته المطلقة والعالم مظهر لهذا النور ^(١) وقد تجسد هذا النور في آدم والانبياء والاقطاب وكل منهم هو الانسان الكامل .

ان عمل المنهجيين داخل الفرق كان يهدف الى تطبيق فلسفة التصوف على حاجات المؤمن العادى ، فكان عليهم عدم التسليم أو انكار المعتقدات التي يمكن ان تتصف بانها تأليه شامله للكون ، لان مثل هذا العمل ستعطى العلماء والفرصة لاتهم التصوف، الأمر الذى ينتظرونه دائما ، وكان من السهل ممارسة الضغط على التصوف المتخصص ذى الطابع المؤسستى ^(٢)

وفى مصر فى منتصف القرن الرابع عشر كان التوجيه من السلطات المملوكية إلى شيخ المشايخ يؤكدان الطريق الوحيد الى الله هو من خلال القرآن والسنة ، كما هو مبين فى الشرع فالشيخ سوف يدين أى فرد يحيل الى الاعتقاد فى الاتحاد أو الحلول ^(٣) ، او يزعم بأن من الممكن الوصول الى الله بآية طريقة بخلاف تلك التى حددها الانبياء .

وطبعاً فان الكثير من الفرق قد حافظت على مذهبها السرى الخاص وخصوصاً الاعضاء المستهجنين الذين ادخوا هذه المذاهب لهذا السبب فقد استهجن الشبلى وصفى الدين الأربلى الحلاج .

خلال الكتيبات الشعبية المتخصصة للفرق نقدت هذه المذاهب الشيوصوفية

(١) وقد كانت الفرق الصوفية أكثر ، اهتماماً بالكتابات المعتدلة مثل كتاب عبد الكريم الجيلانى

«الانسان الكامل» المؤلف

(٢) يقصد التصوف فى صورته الفكرية ، وفى اشكاله المختلفة داخل الفرق والتكايا المترجم

(٣) كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمرى ، والفرقة بين الحلول والاتحاد هى

الفرقة بين العقيدة الحلاجية فى الاتحاد المعين ، اى اتحاد بين الله والفرد ويجب عدم الخلط بين الحلول وبين العقيدة المسيحية فى التجسد ، والاتحاد العام وهو الوحدة المطلقة بين الإلهى والكون بأسره ، والتي يعتنقها المأمهون الهنود ، والعلماء يدينون كل هذه الاتجاهات ، وكذلك يدينها صوفية منتصف الطريق المعتدلون مثل السجستاني الذى يرى ان القول بالاتحاد كفر المؤلف

إلى داخل عقيدة الناس ، وهى الآن أكثر وضوحاً فى الفرق الصوفية الشرقية ،
وفيما يلى اقتباس من مولد محمد عثمان الميرغنى والذى يدين تعاليمه بالكثير
للتقليد العائلى الموروث ، خصوصاً النقشبندى ، أكثر من شيخة الزاهد المتقشف
احمد بن ادريس .

«حينما اراد الله ان يخلق هذه العوالم الأعلى والادنى (فإن سبحانه
وتعالى) أخذ قبضه من نوره وكانت هى محمد بن عدنان ، وقد قال (النبي)
لجابر^(١) : ان أول شيء خلقه الله هو نور نبيل ، كاجابة لمساكنه وقد كنت نبيا
حينما كان آدم ماء وطين ، وقال النبي لجبريل ، ما هو عمرك يا جبريل فقال لا
أعلم ما عدا ان كوكبا ظهر فى السماء الرابعة مرة كل ٧,٠٠٠ ، ولقد رأيته
٧٢٠٠٠٠ مرة بالضبط . فقال النبي حتى يعرف رتبته وسر نوره، وعزه ربي اتى
انا هذا الكوكب الذى رأيته يا جبريل ، فى سماء المحسن ، واشياء أخرى لا تستطيع
الاقلام ان تصفها على الورق ، وحتى الملكين اللذين يسجلان الخير والشر لا
يمكنهما تسجيلها.

ورغم ان هذا التصور قد عبر عنه بطريقة ساذجة بسيطة إلا أن له أكثر من
مجرد الاهمية الاكاديمية ، حيث انه يسمع فى كل تجمع للذكر، ويكتب نفس
المؤلف فى كتاب آخر^(٢) قائلا :

«محمد...روح الله لطيف» الخلق الأدمى، نور الانوار ، سراالسرار، روح
الارواح ، والتراث الصوفى الذى لا يحتاج إلى اسناد^(٣) ، ينسب الى محمد

(١) هو أحد صحابه الرسول عليه السلام، والذى ارتبط به حديث النور المحمدى ، ومن المتفق عليه
بين اهل الحديث .. ان هذا الحديث غير صحيح ومندسوس، بل ويتعارض مع كثير من
الاحاديث الصحيحة ، والآيات القرآنية التى تؤكد على بشرية الرسول - صلعم .

راجع مجموعة الحديث ، تعليق الشيخ محمد رشيد رضا الطبعة الاولى دار الريان ١٩٨٨

ص ٢٧٦ المترجم

(٢) هو «المجموعات المرغنية»

(٣) كان أهل السنة يميون الصوفية لعدم ذكرهم - اسانيد بصاحب تراثهم .

أقوال «انا نور الله وكل الاشياء جزء من نوري» فالانسان الكامل - باعتباره اللوغوس - هو جوهر كل خبرة صوفية ، وهذه المفاهيم يمكن الاعتقاد بها متمشية مع الارتباط الكامل بعقيدة التوحيد .

ولكننا يجب ان نتخطى ذلك لأن هذه الفكرة تصبح اكثر قربا إلى الناس في فكرة «القطب» وبهذا المفهوم فان النبوة تختص داخل «الولاية» والمذهب الصوفى الداخلى مثل ذلك الذى يعتنقه الشيعة ، هو ان الولاية تتفوق على النبوة كوظيفة وفى ان الاخيرة سلبية متناهية ، بينما الولاية ايجابية دائما ومستمرة .

ان الحاجة للمعرفة المباشرة بكلمه الله تجعل «الحقيقة المحمدية» - اى اللوغوس - فى كل عهد تتخذ صورة الشخص المعروف كـ «قطب زمانه» والذى يظهر نفسه لقله مختارة فقط من الصوفية ^(١) ومفهوم القطب والذى يعتمد عليه العالم «وهذه فكرة صوفية تعادل فكرة الامام عند الشيعة» على قيمة التدرج الغير مرئى «للاولياء هذا المفهوم يرجع إلى وقت أبعد بكثير من العصر ابن عربى ، ويعتبر بصفة عامة أنه يرجع إلى ذى النون المصرى الوريث للتراث الغنوصى المصرى ، وخلال العصور اللاحقة فان هذا المفهوم ، اتخذ شكلاً شعبياً ، واصبح درجة من درجات التحقق الصوفى ثم اصبح كل رجل نقى خضبا ، واصبح من الضرورى تعريف قطب الكون بلقب او بتكلمة مثل القطب الغوث ^(٢) قطب الاقطاب او قطب العالم رغم ان هذه المصطلحات قد فقدت أهميتها أيضا حين استعملت بلا تميز وحين يعنى جعفر الميرغنى (انا أول من وجد) ^(٣) فإنه يوجد نفسه ليس بقطب السلم الصوفى ، ولكن بقطب اللوغوس ويمكن هذه الفكرة

(١) يكتب الجبلى عن هذه المظاهر فى كتابه (الانسان الكامل) فيقول : الانسان الكامل هو القطب ، تدور حوله دوائر الوجود من البداية الى النهاية ، ولما كانت الاشياء قد جاءت الى الوجود فهو دائما ، له اشكال متعددة ، ويظهر فى مظاهر مختلفة ... أما اسمه الاحيل المتفرد فهو «محمد» وهو فى كل عصر يحمل اسما مناسباً لمظهره فى ذلك العصر ...

(٢) من خصائص القطب الغوث ان يختلى بالله تعالى وحده ، ولا تكون هذه المرتبة لغيره من الاولياء . انظر الفتوحات المكية لابن عربى الباب ٢٥٥ المترجم

(٣) هذه الأغاني موجودة بكتاب قصة المعراج تأليف جعفر بن عثمان المرغى ط القاهرة ١٣١٨ هـ

المترجم

حلف الادعاءات لكسب الاندماج فى الشيخ مثل الفقرة التالية وهى من مصدر شيشى :

« فى المرحلة الاولى يكون المتوقع من المريد ان يجب ، وينظر الى شبيخة باعتباره مثله الاعلى ، فهو يتعرف ويتكلم ويصلى مثل الشيخ ويأكل ويشرب ويسير مثل الشيخ ، وتميزة وسيطا باستمرار ، وبعد هذا يكون نتيجة لهذا يتقل روحيا داخل الشيخ فالمرید يقدم روحيا الى النبى ^(١) وسرعان ما سندرك لماذا نركز التصوف فى الحلقات الكثيرة على الأقل حول شخصية الشيخ ، فهو رمز القطب الغير مرئى واللامحدود ، أما فى الفرق الصوفية الشيعية يكون تماثل مفاهيم القطبية والأمامية . ملقدا للنظر وغرياً ونسمع الصوفية الاثنا عشرين يكون القطب هو المرتل للأمام على الأرض ومن هنا كانت كراهية المجتهدين للصوفية والدعامة الأولى للفرع الجونا باوى من النعمة اللهيية ^(٢) هى الولاية أو الولاء للقطب ، والذي هو الرأس الفعلى الحالى للفرقة ، حتى رغم أن كل الأشياء تحفظ او تبقى خلاله .

والاولياء (اهل الغيب) يشكون بناء هرميا القطب فى قمته وهذا مفهوم قديم ويكتب على الهجویری .

« من اولئك الذين لهم القدرة على الحل والرباط ، والتجميع هم مسئولو المحكمة الالهية ، يوجد ثلاثمائة يسمون الأخبار وأربعون يسمون «الأبدال» وسبعة يسمون الاربار واربعة يسمون «الأوتاء» وثلاثة يسمون «التقباء» وواحد يسمى «قطب الغون» . ^(٣)

هذه المصطلحات والأعداد تتفاوت والاقتباس التالى يعطى الخطوط العامة

(١) هذه الفقرة نقلها أحد الباحثين وهو J.Takle فى كتابة العالم الاسلامى .من كتاب لاحد شيوخ الشيشية الهنود فى كلكتا. المؤلف

(٢) نسبة الى نعمة الله . المترجم

(٣) قالوا إنهم ينقسمون الى العوث وهو اكبر الاولياء جميعا وهو واحد فى كل زمان وحتته الأوتاد الاربعة وكل واحد منهم فى ركن من اركان العالم يقوم به بحفظة والاقطاب السبعة ٤ وكل منهم فى اقليم من اقاليم الارض السبعة اى فى قارة من القارات السبع ، والابدال وهم اربعون ويمشون فى العالم ، وكلما هلك واحد منهم ابدله الله بغيره لحفظ الكون ، والتجباء وهم ثلاثمائة كل منهم يقولى شأنا من شئون الخلق . راجع كشف المحجوب للهجویری مصدر سابق

للشكل او التركيب الهرمى كما فهم فى السودان النيلى :

« شغل الشيخ حسن بن حسونه (توفى ١٦٦٤م) عن مرتبه موسى بن يعقوب؟ فأجاب : أنه يحتفظ برتبه «الفرد» بين الصوفية ، وهذا المصطلح بخلاف القطب والاورار الأربعة والسبعة «النجباء» والاربعين «الابدال» واعدادهم تكون مساوية لاعداد أولئك الذين أشرركوا فى موقعة بدر (وهم ثلاثمائة وهو يحتفظون - فيما يتعلق بالقطب - بمكانه المختارين .

والأولياء كانوا التجسيد الحقيقى للمفاهيم الشيعية ولكن بالإضافة إلى ذلك إن كانت أقل اهمية فأن معظم الافكار الصوفية أخذت طابع العامية فالغناء مثلاً اصبح نأليها شاملاً غامضاً . خلف ممارسته نشوة الذكر ويمكن ان يتحقق خلال وساط الشيخ او عن طريق فقد الشخصية فيه ، وعلى اى حال فليس خلال فترة حياة التقدم المكلفة من مقام لآخر ولكن طبقاً لأحاسيس الفرد فلماذا نقلق حول التنظيم ، طالما ان (جذبة) واحدة من الله تساوى كل البشر ، والجن أجمعين فالمجذوب هى ناحية وألوفه فى المجتمع الاسلامى ، التقليدى^(١) يعتبر انه فقد وعيه الشخص فى الوحدة الألهية .

(١) القول بالمجذب أو العنية وغير ذلك هى أقوال الصوفية - بل أقوال فرق منهم وليس كلهم ، وعلى ذلك فهى ليست أموراً مألوفة فى المجتمع الاسلامى التقليدى كما يرى المؤلف ، فالصوفية مهما كان عددهم - لا يمثلون الجماعة الاسلامية بل هم قلة بين افراد هذه الجماعة المترجم

الفصل السادس

تنظيم الفرق

تنظيم الفرق

ان أول مرحلة للتنظيم الصوفي كان هو حلقة التلاميذ والخبراء حول شيخ . ففى خراسان كان موقع مثل هذه الجماعة هو المركز المسمى (خانقاه) وهذا الموقع لم يكن كمبنى لهذا الغرض بصفة خاصة ولكنه ببساطه كان مسكنا اتخذهُ الشيخ ودراويشة .

ومثل هذا المركز ظل حلقة حتى رغم أنه شغل مبنى خصصت حجراته للاجتماعات (جماعات أو سماعات- خانه) والصلاة «مصلى» وكثيراً كانت تخرج الحلقة بأكملها فى رحلة لمدة عام أو يزيدهُ وقد سجل كثير من هذه المراكز فى القرن الحادى عشر فى حياة أبو سعيد بن ابى الخير (دى فى ت الفترة ٩٦٧ - ١٠٤٩ م) (١) ومن بينها خانقاه السوراي . أسسها فى نيسابور ابو على الدقاق (توفى ١٠١٦ م) والذي كان شيخ لكل من أبى سعيد والقشيرى.

وأخرى بنفس المدينه والتى لكانت لابی على الطرسوسى (توفى ٩٧٤ م / ٣٦٤ هـ) والتى استمرت حتى ١١٥٤ م / ٥٤٨ هـ حين دمرها الغزو وقليل من هذه الخانقاوات الأولى استمرت كذلك ولكن أضرحه هؤلاء الشيوخ الاوائل (تراث الموقع) حوفظ عليها ، وأثناء المرحلة الثانية من تطور الطريقة ، جدت الاضريحه أو بنيت أخرى ، وبعد ذلك ظهرت العملية العكسية وهى ان وجود الضريح كان يؤدى الى ارتباط الخانقاه به .

هذه التجمعات فى المرحلة الأولى كان لها حد أدنى من القواعد لتنظيم حياتها بصفة عامة) ويوجد سجل مبكر لمثل هذه القواعد وهو لأبى سعيد الذى ذكرناه توأ لأعضاء خانقاته فى ما يهاما فى خراسان قد ترجمه نيكلسون (٢)

(١) محمد بن المنور : اسرار التوحيد فى مقامات الشيخ ابى سعيد، وقد أعتمد عليه نيكلسون فى

دراسته أبو سعيد بن ابى الخير فى كتابه (دارسات فى التصوف الاسلامى) المؤلف

وكتاب نيكلسون هذا له ترجمه عربية من عمل د ابو العلا عفيفى المترجم

(٢) فى كتابه السابق : دراسات فى التصوف ، ويتناول الكتب الصوفية المتعددة فى هذه الفترة سلوك

الصوفية داخل التجمع ، وكيف يستقبلون الدراويش الزوار ، والقواعد التى يجب على الجميع -

مراعاتها والقواعد التى يجب اتباعها اثناء السفر او السياحة المؤلف

وهى كما يلى :

- (١) دعهم يحتفظوا بملابسهم نظيفة وان يكونوا هم أنفسهم طاهرين .
- (٢) عليهم ألا يجلسوا فى المسجد أو فى أى مكان مقدس لمجرد الحديث العابر .
- (٣) بالدرجة الأولى دعهم يؤدون صلاتهم جماعة .
- (٤) عليهم أن يصلون كثيرا أثناء الليل .
- (٥) فى الفجر يجب الدعاء مطلب العفو والمغفرة من الله
- (٦) فى الصباح عليهم قراءة كثير من القرآن بقدر الامكان وألا يتكلموا حتى تبرز الشمس .
- (٧) بين صلات المغرب وصلاة العشاء يجب أن يشغلوا أنفسهم بتلاوة بعض الابتهالات «ورد الذكر»
- (٨) يجب العطف على الفقير والمحتاج وكل من يكون بصحبتهم والتحمل بدون ازعاج من ينتظر عطفهم .
- (٩) عليهم ألا يأكلوا أى شىء الا مشاركة مع الآخرين .
- (١٠) عليهم ألا ينصرفوا بدون استئذان من بعضهم البعض وفضلا على ذلك عليهم قضاء ساعات الفراغ فى أحد أمور ثلاثة هى : اما دراسة الدين او بعض المجاهدات التعبدية (الورد) أو اسعاد الآخرين والتخفيف عليهم . ومن كان جماعته ويساعدهم قدر استطاعته ، فإن يكون مقاسماً بنصيب فى فضلهم وجزاءهم مستقبلاً .

لقد استوجب احترام الحرية الروحية لكل عضو بأن يكون لديهم تعليمات منظمة لحياتهم العامة ولكن سنرى أن الشيخ لم يذكر ، بل ظل - بصفة أساسية - مرشداً فى الشؤون الروحية ، فهو ليس حاكماً مطلقاً للجماعة ولم يكن عليهم حتى طلب . إذنه أذ ارغبوا فى التغييب ، ولكنهم كانوا يطلبونه من رفاقهم ،

والفكرة «الفنوة» الروحية تشكلت في مثل هذه الجماعات كاساس حياتهم العامة ، وكذلك علاقاتهم في حياتهم المتنقلة السائحة ، وفي المناطق التي حكمها العرب ، كانت بعض المراكز الحدودية المعروفة ، كـ (رباط) ^(١) قد أصبحت مراكز للمتعبدين ، ولكنها لم تكن مساوية للخناقوات الايرانية ، في ان علاقة الشيخ - التلميذ لم يظهر بها . ومع ذلك ففي المرحلة الثانية للتطور التنظيمي كان مركز التدريس والمرشد يسمى أحيانا بنفس المصطلح «رباط» مثل ذلك الذي كان للعلم وابن الاخ السهروردي ^(٢) على ضفاف دجلة ، بينما كان مصطلح الخانقاه الايراني يستخدم في العراق وسوريا ومصر ولكن ليس في المغرب لان جماعة الصوفية أسسها ووضعها تحت رعايتهم القادة السياسيين من غير العرب وموظفيهم ، كالايويين ، والسلاجقة ، وكلا النوعين من المؤسسات كانت مخصصة او مصممة حقيقا من أجمل التجمعات الصوفية ، ولخدمة أهدافهم ،

(١) نشأت الأربطة (الرباطات) في مناطق الحدود باعتبارها خلايا او مناطق اسلامية في بيئة غير اسلامية ، كانت مناطق مراقبة ومناطق حدود ، وكان حراسها - غالبا - عاملين مؤثرين في نشر الاسلام ، وكانت اولها في تونس ، كما يشير المقديس في كتابه (احسن التقاويم) الى الأربطة التي أقيمت في مختلف البلاد الاسلامية وكثير منها - في خراسان - اربطت بأضرحة الصحابة الذين استشهدوا في المعارك الاسلامية ، وكثير من هذه الأربطة خصصت لها بعض الاوقاف وقد سبق الإشارة اليها المترجم

(٢) يقصد كل من :

١- ابر نجيب السهروردي: ولد في مدينة سهرورد حوالي سنة ٤٩١ ، وتوفي في بغداد سنة ٥٦٤ ، وبعد من المتصوفة العمليين ، الذي يخلب عليهم الاتجاه السني والدين لم يتأثروا بالفلسفة .

٢- عمر السهروردي المولود في سهرورد سنة ٥٣٩ ، وهو ابن شقيق ابي نجيب السهروردي وتوفي في بغداد سنة ٦٣٢ . وكان من طراز ابي حامد الغزالي في حملته على الفلسفة اليونانية ومناصرة الشريعة الاسلامية .

٣- شهاب الدين نجيب السهروردي ، ولد في سهرورد سنة ٥٤٩ / ١١٥٥ م مات مقتاولا بالسيف او مخنوقا او حرقا سنة ٥٨٧ / ١١٩١ م وهو يعد مؤسس مذهب الاشراق .

راجع في ذلك

اللمحات في الحقائق للسهروردي ، تحقيق محمد علي ابوريان ، دار المعرفة الجامعة ١٩٨٨ ص ١٥ التنسك الاسلامي . محمد غلاب مرجع سابق ص ١٠٨ المترجم

ولكنها كانت مختلفة فى الانشاء وذان «الرباط» كان مركزاً على الشيخ ، بينما فى الخناقاه سادت النظرة الجماعية او الجماعة الدينية ، وان المرشد المعين رسمياً هو الادارى اكثر منه راعياً للارواح فى نفس الوقت ، كان الرباط مصطلحاً غير ملزم حيث استمرت موجودة (الرباطات) الحدودية العقلية وكانت توجد أخرى ايضا كما فى مكة حيث كانت اكثر قليلا من مجرد مساكن ممنوحة من اجل المسافرين الصوفية الحجاج .

فى تطور التصوف المنظم كانت الزوايا اكثر اهمية من معظم تلك التى وضعت بعاليه ، ولكن المؤسسة هنا كانت رجلاً ، فقد كانت أبنيه صغيرة متواضعة متمركزة حول الشيخ الذى لم يكن دائماً . خصوصاً أن مثل هؤلاء الرجال كانوا مهاجرين فى كثير من الاحيان ، ومن خلال هؤلاء الرجال سواء كانوا مهاجرين او دائمين وجدت الطرق الدائمة ولم تكن تمنح اوقاتاً مثل الخناقوات والرباطات رغم انها فى هذا الوقت عندما أصبحت مقاراً لسكن العائلات مالت إلى تجميع الأوقاف .

تتكون «الخانقاه» عادة من حوش او فناء مركزى (قاعة أو صحن) ذى أروقه على الجانبين بداخلها تقع الحجرات (الخلوات) أو الطباقي للصوفية وكانت توجد القاعة الرئيسية على أحد الجوانب وهى بؤرة حياتهم الجماعية والتى كانت تتم فيها ممارساتهم التعبدية المشتركة ، وهذه كانت عموماً بسيطة فى بنائها وأمام المحراب كانت توجد الفرو الخاصة بالشيخ والتى كان يجلس عليها اثناء الاحتفالات والاستقبالات ، وفوق المحراب حفر أسم المؤسس وبعض العبارات الدينية مثل «الشهادة»^(١)

وكثيراً ما كان يوجد مسجداً منفصلاً بينهما ، تلحق بها المطابخ والمكاتب الأخرى وأحياناً الجماعات ، وكان يقدم الطعام لكل من الصوفية المقيمين والمهاجرين وكذلك الملابس للمقيمين مع الضروريات الأخرى .^(٢)

(١) المراد هو شهادة ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله .

(٢) كثير من الخناقوات لم تبني خصيصاً لهذا الغرض ، وانما ورثها أصحابها كمؤسسات دينية ، فالامير جلاء الدين طاييوغا أمير حلب حول منزله إلى وقف للصوفية المستمر بين عام ١٢٣٤ /

وفيما يلي وصف للخناقاه القديمة فى حلب التى أسسها نور الدين زنجى فى ١١٤٨ / ٥٤٣ وجعل لها وقفا للمريدين الصوفية إنها مدهشة فى الحجم والاتساع بها غرفة استقبال الشيخ وحجره بقبة وصالة كبيرة (إيوان) ومصلى وعلى الجانب الشرقى من فناء المبنى باب يودى إلى أسفل إلى خزان تغذيه من نهر صيلان وإيوانيه التى يرجع تاريخها من أيام التنازل عنه ، فهى كبيرة والباب الذى يفتح على الشارع مكان له مصاطب وقد انشأها حسام الدين البلغرى حين كان شيخها قبل غزو تيمور ١٤٠٠ م ، وهذا المبنى كان من قبل مطبخا يقدم الوجبات للصوفية ، ولكنه مغلق الآن ومتهالك وكان فى وقت من الاوقات كان الشيخ شهاب الدين السهروردى له سجادة فيه .^(١)

وجد كثيرا من هذه الأوصاف لهذا النوع من الطبوغرافيات المحلية ، ولكنها تعطى القليل من المعلومات حول وسائل ادارتها ووظائفها واحتفالاتها ويمكن فهم الكثير من هذا الوصف الذى يعترفه ابن بطوطه عن الخانقاهات فى القاهرة سنة ١٣٢٦ م

كل خناقاه كان لها شيخ وحارس الذين ينظمون شئونها بصورة تثير الاعجاب ، هؤلاء الرجال كانوا اعزبا حيث توجد خواتم منفصلة للمتزوجين^(٢) أما واجبا تهم فتشمل حقوق وشعائر الصلوات الخمس ، وقضاء الليل فى الخناقاه وحضور جماعات «الذكر» المنعقدة فى قاعاتها «القبة» ومن المعتاد أيضا لكل

(١) ان تدهور هذه المؤسسات فى حلب لم يكن مردها إلى غزو تيمور عام ١٤٠٠ م ، وانما إلى انتقال اهتمام الصوفية من الخانقاهات إلى الزوايا ، والاشارة الى السهروردية لا تعنى انه كان شيخا لهذه الخانقاه ، بل تشير فقط الى ان استقر فيها بعض الوقت فقد خصص له مكانا خاصا كما يشير إلى ذلك ابن بطوطه ، وأشهر الخانقاهات الباقية حتى اليوم فى حلب هى خاتقاه فرافرا التى بنيت عام ٢٣٧ بأمر الناصر يوسف الثانى .

(٢) الصوفية العزبا كانوا استثناء ، ولم يكن مصرحاً للزوجات بالعيش فى الخانقاه رغم ان الاسر الصوفية قد توجد فى جماعات مترابطة ، او قرى وقد لاحظ ابن بطوطه ان بعض الصوفية يعيشون مع اسرهم وبصفة عامة كان الصوفية فى هذه الفترة وجدوا ان الحياة الأسرية العادية لا تتعارض مع اتباع الطريق الصوفى والاخلاص له . (المؤلف)

منهم ان يشغل سجادة صلاته الخاصة ، وحينما يصلون صلاة الفجر فانهم يقرأون سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم توزع اجزاء من القرآن على الفقراء الذين يقرأون القرآن كله ويتلون الذكر ويلى هذا أن يوتل القراء القرآن بالطريقة الشرعية ، ويفعلون نفس الشيء بعد صلاة العصر .

لم تكن الخوانق مراكز ارشاد بصورة كاملة، ولكنها تجمعات من الناس استعدوا للعيش فى حياة جماعية ، فى ظل نظام معين وكان لهم قواعدهم التى تتعلق بالسماح للصوفية بصحبتهم سواء لمدة طويلة أو قصيرة وكان عليهم ان يؤكدوا لأنفسهم ان أولئك المطالبين بالسماح هل كانوا جادين أم لا ، وأنهم درهوا ولقنوا على يد شيخ مؤهل . ويستمر ابن بطوطه:

«حين يظهر وافد جديد كان عليه ان يقف عند البوابة ويطوق وسطه بسجادة الصلاة المعلق فوق ظهره ، ولوازمه فى يمينه واهريق وضوئه فى يده اليسرى ، فيخبر الحارس (الخادم) الذى يخرج ويتأكد من اى بلد قد أتى وفى اى خانقاه سكن اثناء رحلته او تدريبه ومن كان هو شيخه فاذا اقتنع بصدق اجاباته يدخله الى الخانقاه ويترتب له مكاناً مناسباً لنشر سجاده ويريه الحمام بعد ذلك يعبد نفسه الى حالة من النقاء الشعائرى ، ويذهب الى سجاده ويحل ما حول وسطه ، ويصلى ركعتين وبعد ذلك يصفح ^(١) الشيخ وكذلك الذين يكونون موجودين ويتخذ مجلساً بينهم ^(٢) .

ان خانقاه وضريح السلطان بيبرس الجاشانكير فى القاهرة (بنى ١٣٠٧ / ٧٠٦ - ١٣١٠ / ٧٠٩) قد خصص لأجل ٤٠٠ صوفى ، بينما الخانقاه السر ياقوس مكونا من ١٠٠ حجرة للصوفية الأفراد ، واصبحت الأضرحة سمه عامة لهذه الانواع المتعددة من الانشاءات، ولكن بينما كان الرباطات والزوايا تتضمن بقايا المؤسس وخلفاته ، فان الخوانق مثل تلك التى كانت لبيبرس الثانى والتى

(١) هذه المصافحة تعنى انه يعلن الطاعة للشيخ ، وبعد باتباع القواعد المعمول بها فى الخانقاه ، طالما هو باق فيها .

(٢) وهذه الفقره من كتاب رحلة ابن بطوطه (المؤلف)

ذكرت نوا كان بها ضريح واحد للموسس الدنيوى ، والقليل فيها كان به أثراً مقدسة، ورباط العثار الكائن خارج القاهرة كان به قطعة حديد وقطعة خشبية يقال أنها كانت تنتمى للنبي (صلعم)

وقد ارتبط تدهور نوع الخناقاه كمركز صوفى بمرحلة الطائفة ، والتي ظهرت كمؤسسات على هيئة زاويا الضريح أما فى بلدان آسياغير العربية فقد استمر يطلق عليها اسم «الخانقاوات» ، ولكن النقطة المركزية أى تبرير وجودها كان هو الضريح، وفى آسيا الوسطى تفاوتت هذه الخوانق «الأضرحة» ومن أضرحة بناها الحكام الاتراك أو المفعول ، الى بناياى متواضعة او حيث يقيم فيها «إيشان» واحد وهو المصطلح المحلى بدلا من شيخ مع عائلة واتباعه كل هذه الخانقاوات كبيرة أو صغيرة على السواء وفرت معوى واستقبلت بالترحيب المسافرين وكذلك للصوفية المتجولين ، ومالت حياه الجماعة الى ان يكون عادة شتوية ، ومع دخول الربيع كان الدراويش يفادرونها فى سياحاتهم وأغلب ، الأشانات أو الشيوخ كانوا يقومون بزيارات دورية فى السهول الواسعة لجمع المساهمات او التبرعات من قبائل الكرنميز^(١) . والقبائل البدوية الأخرى .

ورغم ان هذه المؤسسات تنتمى الى طريقة معينة فقد كانت تعبيرات مستقلة عن النعمة الالهية على البشرية خلال رجل كانت قدسيته تدوم أو تستمر خلال ضريحة وخلقائه سواء كانوا يرثونه أم لا ، فإن زوايه الضريح للولى المؤسس كانت هى مركز المؤسسة أو الفرقة الفرعية فتستمر شرعيتها من الولي، بنفس الوسيلة «كالزاوية» الأم رغم انها سرعان ما كان لها ضريحها الخاص ايضا.

وكان نتيجة هذا التغير فى التوجه الدينى ان المؤسسات المجهولة مثل الخانقاوات قديمة الطراز والحضرية ، والمنكمشة ذات الصلة الواهية بالمجتمع تدهورت وانتهت فلم تعبر عن شىء حيويًا بدرجة يكفى أو يمكنها من استكمال

(١) قبائل من أصل تركى، تعيش فيما يعرف الآن بجمهورية كرنميزيا احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق ، على حدوده مع الصين وهم يشكلون حوالى ١/٣ تعداد السكان فى هذه المناطق المترجم

سيرتها باستثناء تقديم الأقامة . والوجبات مجاناً ، وبقيت لمدة طويلة طالما استمرت الهبات تأتيها وفي عرضنا للخناقاه القديم في حلب والذي سبق ذكره أبو ذر أن في عهده كان المطبخ قد توقف عن العمل .

ان (الخانقوات الضريح) و «الزوايا» والتي من بدايتها كانت مرتبطة بالشيخ استمرت طالما استمرت «بركة» مؤسسها في التعبير عن نفسها في الحقيقة - كان لها مراحل الازدهار والتدهور ولكن كان يوجد آلاف منها إلى جانب الجديد الذي يتكون باستمرار وكانت تبدأ في منزل أى شخص ويظن انه يمتلك البركة ، وفي ارتباطاتها بالاضرحة أصبحت مراكز للحياه الروحية في معظم أنحاء العالم الاسلامي ، فاذا ظلت البركة في نشاطها سواء مرتبطة بالولي الحى أو الميت فقد كانت تتدفق الزوار^(١) والهبات وأهميتها في الحياة الاجتماعية للدول الاسلامية يمكن ان ترى من روايات الرحالة مثل حكايات ابن جبر وابن بطوطه ، ففى أسيا وجد الأخير الحفاه والتكريم في كل مكان مع جماعات «الفقراء» الذين ارتبطوا عموماً بالضريح مثلما في المقر المنسوب لابن اسحاق الكازيرونى (توفى ١٠٣٤م في كازيرون غربى شيراز فتحت حماية اسمه وبركته نشأت مؤسسه قويه تؤمن بمصالح الصوفية .

هذه المؤسسات لم تكن مشهورة نظراً لفقرها إلى جانب أنها في نفس الوقت كانت دخوله لا تصل إلى حياه الرفاهية لنزلائها .

يؤكد «درسون» هذا الوضع في القرن الثامن عشر بتركيا (باللغة الفرنسية بأن كل الاعتبارات التي تستطيع ان تكون مصادر لصومعه لاي من مكان ، لكن الرؤساء لم يسمحوا شئ يسىء للفخامة والتفاخر ، فان فائض دخولهم يوزع على الفقراء والمواطنين والمؤسسات الخيرية وكان الأولياء «المشايخ» والدراويش متمسكين تماماً بمبدأ الحرام في قواتهم في عادات طفولتهم وكل المحرمات .

ان اطار تنظيم الفرق في مرحلة الطائفة النهائية سيوصف عموماً في

(١) فى الأصل الحجاج والصحيح ما أثبتناه . المترجم

مصطلحات عامه حيث أن الاختلافات بين الفرق الصوفية الرئيسية في هذا الخصوص تتعلق بنواح أخرى ثانوية .

ففى كل انحاء العالم العربى نجد على رأس كل طائفة الشيخ ، فهو الوريث الروحى للمؤسس والذى تصبح أوصافه وقدراته موروثه فيه نتيجة خلاقته وكان يسمى شيخ السجادة . حيث يرثها من المؤسس كرمز على سلطته . وفى (سوفوسه) يكتب ابن بطوطه : «يعيش احفاد احمد الرفاعى ومن بينهم الشيخ عز الدين وهو الآن «شيخ الرواق» والمحتفظ بالسجادة الرفاعية ، والسجادة تدل على عرش الفرقة بمعنى ان فوقها يتوج الشيخ عندما يتهمك احتفالات التلقين أو تقليد المنصب .

وخلافه السجادة روحية، ولم يكن الشيخ بالضرورة من سلالة المؤسس -رغم أنه فى وقت من الاوقات - كانت الخلافة الوراثية المباشرة هى القاعدة ، فشيوخ الفرقة مجدد اسم المرشح لخلافته بأنه أحد أعضاء عائلته ، وإذا فشل أن يفعل ذلك قبل وفاته فقد كانت تستخدم طرقا مختلفة لتحديد رغباته من وجوده فالمبدأ : التوريث ، رغم انه ادى احيانا إلى خلافة رجال غير اكفاء او رجال دنيا فقد كان عاملاً هاماً فى تماسك الفرقة .

وفى سوريا فإن الخلافة الوراثية لم تصبح شائعة ففى بعض الفرق - وخصوصاً الخلوتية والشاذلية كان الشيخ ينتخب، وفى مؤسسة القلندرية فى حلب كانت العزوبية تمارس فان الدراويش كانوا ينتخبون شيخهم ، أما فى الفرق السورية الأخرى مثلما فى الرفاعية - كانت الخلافة الوراثية هى القاعدة منذ البداية .

تحت الشيخ يوجد عدد من الخلفاء أو المنفدمين المعينين بواسطة مباشرة ليكونوا مسئولين عن أحياء أو اقسام المدينة ويعطى كل منهم ترخيصاً (إجازة) يوضح ما فى سلطته لتنفيذه أما رؤساء الفرق المحلية الصغيرة يحتفظون بسلطة التلقين فى أيديهم ، ولكن عندما تتوسع الفرقة تعطى السلطة «للخلفاء» لانماها ويكلف الخلفاء بوظائف خاصة تتعلق بالتنظيم والشعائر وقد يرشح أحدهم

كوكيل للطائفة.

وفى سوريا ومصر كانت هذه - بصفة عامة - وظيفة مميزة وذا أهمية حيث كان الوكيل مسئولاً عن الإدارة والنواحي المالية فقد كان يرسل الوفود لجمع الإتاوات والمساهمات والتبرعات مع الاختيارية وكذلك لتنظيم المولد والاحتفالات الأخرى وكان يلى الشيخ مباشرة ثابت أو وكيل وفى سوريا كان للفرق - غالباً - نقيب أو حارس للطقوس الدنية والذي كان يقود الموسيقى .

أما الفرق الكبيرة فكان لها قادة أقسام وتحت كل خليفة منطقة ، والذين لم يكن بالضرورة ان تفصح ألقابهم عن أوضاعهم الفعلية ، فالمقدم كما استعملت فى المغرب كانت تعادل الخليفة فى مكان آخر، ولكن هذا اللقب كان يعطى لأى شيخ محلى فى الشرق ، والمرشد وخصوصاً البير^(١) كانت شائعة فى المناطق الايرانية والهندية . وفى مصر كان المصطلح المستعمل هو الشيخ مع التعبير الاكثر شيوعاً وهو (عمناً) ويقوم القادة الفرعيون أحياناً بتدريب المريدن وتنظيم جماعات الذكر المحلية ، ويمكن ان يكون للمدينة مجموعات فرعية كثيرة .

ومسئولية الكثير من المتقدمين أو الخلفاء كانت غالباً تحفظفى نفس العائلة ، وفى هذه الحالات كان المعتاد أن يوافق الشيخ أو يؤكد تقليد منصب ما ، والكثير من هذه وخصوصاً فى المدن ولم يكن لها زوايا ولذلك لم يكن المسئولية بالضرورة وراثية بداخل جماعة اجتماعية واحدة، أما الوظائف الجماعية فقد تحدث فى الشوارع أو فى المنازل أو معسكرات الاعضاء وكذلك بالنسبة للقائد أو الشيخ المحلى .

أما المناطق المختلفة لغوياً^(٢) فكان لها اصطلاحاتها . الفرق التركيه بما فيها البكتاشية - كانت تسمى شيخها بالبرافى أو ببساطة (ديدى) وشيخ كل مؤسسه صوفيه كان هو البوشين اى الذى يجلس على الفردة أو البابا فقطوهى

(١) ذكرنا من قبلان هذه الكلمة فارسية تعنى (شيخ) المترجم

(٢) يقصد المناطق التى تتكلم بلغات اخرى غير العربية المترجم

معادلة للشيخ والرئيس المولوى والمعروف عموماً شلبى ملا كان له القاب ، أخرى وتشمل مولانا هنكاروهى صيغه من الخواد واندجار الفارسية وكثيراً ما كانت المصطلحات العربية تستخدم ، فمن كان مرتبطاً بمؤسسة البكتاشية خلال علاقة عائليه او قروية رغم أنه لم يدخل الطريق كان يسمى «الماشيك» بالعربية (عاشق) والذي لقن كان يسمى «محباً» والمجتهد كان يسمى «طالباً» والدرويش كان يسمى «مريد» والمنتسب العادى الذى كان قد دخل طقوس الطريق نسيب كان يسمى «منتسباً»

ويمكن فقط تنظيم الفرقة عن طريق وصف مجموعات معينه وهذا ليس عملياً هنا ، والاختلافاً لرئيسى هو التناقض بين الفرق الشرقية والغربية فيما يخص تلك الالقاب والوظائف التى تحملها . ففى الامبراطورية العثمانية كان رئيس كل فرع خلوتى هو نفسه خليفة مؤسس الفرع ، وكان يمثل نواب الذين كان تحت اشرافهم المقدمون ولذلك فقد اشرنا من قبل ان فى الشرق كان المقدم وكيلاً رتبة أدنى . بينما فى المغرب كان هو وكيلاً لرئيس الفرقة بالاضافة إلى أن الخوانق أو التكايا ذات التقاليد الايرانية والتركية فكانت مختلفة تماماً عن الزوايا متعددة الوظيفة بالمغرب .

لم تكن الخانقاوات فى المناطق العربية تأوى تجمعاً حقيقياً طبيعياً ولكنها كانت تجمعات من الأفراد ، ورغم انهم يعيشون فى ظل نظام ما ، أما القوة الملزمة فى التكايا التركية فقد تفاوتت طبقاً للفرقة ولكنها كانت - بصفة عامة - تأوى تجمعات حقيقية ، فبينما كانت معيشة الاعضاء منظمة فقد عاشت عائلاتهم خارج المبنى .

ضمت العضوية درجتين رئيسيتين : المحترفين والمنتسبين العاديين وكانت الاولى هم الدراويش^(١) والذي يسمون عموم

(١) كلمة درويش مشتقة غالباً من عبارة فارسية تعنى «طارق الابواب ولكنها ربما كانت مرتبطة بجذر لغوى يعنى «تغير» المؤلف

لفقراء^(١) . والذين كونوا قسما صغيراً فقط من الاخوة ومصطلح درويش قد استعمل بصفة اكثر خصوصية ليطلق على الدرويش الكلاسيكى فى الشرق الادنى العربى وايران وآسيا الوسطى ، وتركيا واستعملت كلمة فقير فى كل مكان فى المناطق العربية وغيرها ، ولكنها غير دقيقة المعنى ، وكانت كلمة أخوان ذات استعمال واسع كذلك . خاصة فى المغرب . وفى سوريا العربية ، كانت كلمة طائفة تطلق على الأخوية ، وبالإضافة الى هذه الاخوة المهنية فان أى فرد كان فى الاستطاعة ان يوصف كمترابط أو متسبب^(٢) وكان يسمح له بشكل من الخدمة التى كانت تشمل قسم الولاء للمؤسس وخليفته الحى ، وكان يتلقى القليل من التدريب الصوفى ولكنه كان يتدرب على اداء دور فى الشعائر ، مثل هؤلاء الاعضاء استمروا فى اعمالهم العادية وطرق حياتهم ، ولكنهم كانوا خاضعين لارشاد وسلطة الشيخ وخليفته . وشاركوا فى التشكيلات الجماعية (مجالس الذكر) وبعض الطرق سمحت للنساء أن يكن عضوات منتسبات رغم ان القليلات نسبيا منهن كن دراويش (فقيرات أو «أخوات»

لقد وجدت الفرق الصوفية أكمل تطور اجتماعى لها فى المغرب فقد تركز كل شىء حول الزوايا فهى مؤسسة فريدة تكونت تحت ظروف بيئية إجتماعية وطبيعية خاصة ، وقد حدث تطورها الكامل فى القرن الرابع عشر اثناء الفترة المارينية وعهد عبد الوديد ، ولقد ذكرنا من قبل أن هذين العهدين من الحكم قد أسسا «مدارس» فى نفس الوقت، ربما إعترافا بأن الزوايا قد اصبحت

(١) كلمة فقير تعنى هنا (شخصا فى حاجة الى رحمة الله) ورغم إن كلمة درويش ترتبط عامه بالتسول ، فإن كثير من الفرق الصوفية - اغلبها فى الحقيقة - لا توافق على التسول العلنى ، وكانت المؤسسات التى تضمهم - والتى تعتمد على التبرعات والهبات توفر لهم حاجاتهم المادية ، اما جماعات الملامية ، فإنهم كانوا يعيشون إما على عملهم الخاص او على الهبات التطوعية

(٢) لم يكن هناك مصطلحات خاصة تطلق على المتسبين ، رغم انه يمكن الاشارة إليهم على انهم (أخوان الطريق) او (خدام) او اخوان وفى بعض مناطق اواسط اسيا كان يطلق عليهم اسم محبوب ، بينما البكتاشية والفرق التركية الاخرى تسميهم العاشقين المؤلف

مراكز لتدريس العلوم الاسلامية وكذلك الصوفية .

فالزوايا وهى تركيبة من المباني محاط بحائط فى وسطه الضريح ذوالقوة للمؤسس،وقد يدفن خلفاؤه هناك. أو فى اضرحة منفصلة ويوجد مسجد صغيراً ومصلى ومدرسة لتحفيظ القرآن ، وحجرة للترايل الداخلية ، ورغم ان الحضرات كانت تعقد عادة فى الفناء، وأحد المدرسين أو أكثر يعلم الاطفال حفظ القرآن، وتابع وهو الفقيه يدرس العلوم الشرعية أو علم الحديث النبوء كذلك مبادئ التصوف للمريدين فى الزوايا ، ثم هناك الحجرات حيث يعيش الشيخ الحالى والاعضاء الآخرين من طريقته مع زوجاتهم ، وأطفالهم وخدمهم بالإضافة إلى إيواء المنتسبين والزوار والمسافرين كل هذا كان مؤسسة مكتفية ذاتياً بوجود زراعته ومواشيه يتلقى الهدايا من كل الانواع - وفى المدن كانت الزوايا على مساحة أكثر تحديداً وقد اصبحت هذه المؤسسة مميزة للحياة الصحراوية المراكشية ولكنها لم تنشر جنوباً فى السودان النيلي ، حيث كانت الفرق قديمة ولكن حيث كانت ما يقابل الزوايا تجمعات قروية تاريخية على تقديس شيخ مهاجر (من النوبة غالباً) .

أطلق مصطلح الزوايا فى الشرق على الاماكن الأكثر تواضعاً المخصصة للصلاة وحجرات الدراويش والمصطلحات المطابقة للمقار أو المؤسسات الصوفية والمؤسسة المتمركزة حول الضريح فقد أوضحنا أنها خائفة فى آسيا الوسطى والهند والتكية^(١) والدرجة فى المنطقة العثمانية التركية .

اما فى الهند فقد استعملت ايضا كلمات (جماعات خانه) و(دايره) وبينما كانت الخانقاوات فى مصر وسوريا مؤسسات غير متخصصة فتلك التى فى الهند كانت منذ بدايتها . وفى آسيا الوسطى منذ القرن الرابع عشر تعادل (الزوايا) فى العالم العربى وبذلك فقد اتجهت لأن تكون متخصصة لشيخ معين وطريقته

(١) تكية هى مشتقة من كلمة العربية «إتكاء» التى ربما استخدمت أولاً بمعنى حجرة الطعام

ويشرح K.A.Nizami^(١) الفرق بين المصطلحات المستعملة في الهندقائلا :

(رغم استعمالها بصفة عامة بمعنى التكيات فإن هذه المصطلحات تختلف في مضمونها، فالخانقاه كانت مبنى متسعا يوفر إقامة منفصلة لكل زاترونزيل اما جماعات خاناه فكانت حجرة كبيرة حيث ينام كل الأتباع ويصلون ويدرسون على الأرض والأولياء الشيشيتون قد بنوا جماعات خاناه ، اما السهرورديون فقد بنوا الخانقاوات . والناس العاديون الذين لا يستطيعون تقديم الفرق من المصطلحات من فقد استخدموا كلمة خانقاه كذلك على جماعات خاناه ، الشيشتية، ويطلق الآن المصطلح على كل أماكن النشاط الروحي دون تمييز ، وكانت الزوايا أماكن أصغر حيث عاش وصلى فيها الصوفية، ولكن بخلاف زملائهم بالخانقاوات وجماعات خاناه فلم يهدفوا إلى ايحاد أى اتصال حيوى مع العالم الخارجى، وفي القرنين السابع والثامن عشر تواجدت نوعين أخرى من الخانقاوات وهى «الدوائر» والهدف الاساس فى هذه الدوائر هو توفير مكان لرجال من انتساب واحد ليكرسوا ومنهم للتأمل الدينى ، وكانت اصغر من الزوايا .

أما الشكل الهندى الذى يظهر خواصا وبيئه اقليمية مميزه نوعا كان أيضا مؤسسة شامله رغم ان المؤسسة ككل لم تكن بالضرورة فى مكان واحد. ويقدم لنا A.Wesadler وصفاً لزيارته ١٩٦١ لضريح مؤسس من القرن التاسع عشر لجمعية او لرابطة الشيشيته المتوارثة فى حيدر أباد ، والمسمى غلام معين الدين خاموش (توفى ١٨٧٢) والخانقاه الخاصة بهذه الجماعة «الضريح ... مبنى ضخم على الطراز المغولى تعلوه قبة بصلية من الرخام، وفى الوسط يوجد - طبقاً - ضريح خاموش ، وقد دفن جسم الولى فى أرض منبسطة ، طبقاً للشرعية القرآنية، ولكن فوق هذه القطعة المخصصة للدفن بنيت مظلة ضخمة من الرخام تشبه إلى حد ما فى تكوينها ، المظلات التى توجد أحيانا فوق المذبح الكاثوليكي

(١) من كتاب K.A.Nizami «الدين والسياسة فى الهند خلال القرن الثالث عشر Religion and

Polities in india in the Thirteenth century ولنفس الكاتب دراهه عن (حياء الخانقاه

فى الهند فى العصور الوسطى) ونشرها فى سلسلة دراسات اسلامية عام ١٩٥٧ المؤلف

الرومانى فوق هذه المظلة ويمتدأ لاعلى حتى سقف القبة ، يدور كانه شرائط من الورق ذات الوان براقه زاهية ومصاييح زجاجية حمراء كبيرة ، ويداخل هذه المظلة كان تمثال أو جسم الضريح والذي يفترض أن يتمدد فيه الولي بعد الموت ، ومعطى بالقماش بحيث يمكن فقط رؤية حدود الجسم ، وفوق قمه الشكل توجد جنينه مملوءه بالأزهار وتميل عليها مكنسة من ريش طاووس طويل لازاله الاثرية عن القماش ، ويداخل مبنى الضريح أيضا عدد من القبور الأخرى . وهذه مفتوحة (بدون مظله) ولكن بنفس تمثال القبر الداخلى ، والغطاء القماش وصينية الزهور ومكنسة ريش الطاووس ، وهى تميز قبور معظم الاتباع أو التلاميذ المختارين وأقارب الولي^(١)

ويوجد مسجد مرتبطا بالضريح فى نفس مجموعة المباني ومقر اقامه الشيخ وهو الحفيد الاكبر للمؤسس ، بينما بجانب الضريح يوجد عمارش يؤدى خلال تكعيبية من ثمار العنب الى صالة اجتماعات ضخمة حيث تقام الذكرى السنوية لوفاة الولي. وتقع الخانقاه فى جزء آخر من المدينه مجاور للجامع الرئيس والخانقاه مشغولة بعشر بن من الشيشتية وعائلاتهم الذين يكونون نخبه منظمه بصفة خاصة داخل المجتمع الأوسع من الدراويش وكان القوال (المرتلى) وقد كان السماع^(٢) بصفة مألوفه التى يعقد هناك فى الثالث عشر من كل شهر قمرى.

(١) من دراسة A.W.Sadler بعنوان زيارة الى قوالى شيشتى منشورة فى مجلة العالم الاسلامى عام ١٩٦٣ (المؤلف)

وكلمة قوال هنا تعنى المردد ، او المفضى ، او المرتلى او المنشد المترجم
(٢) للسماع عند الصوفية مكانه خاصة ، والمراد به سماع القرآن ، او الشعر الصوفى او الادعية المرتلة ، وقد يكون مصحوبا بالغناء الفردى أو الجماعى مع الموسيقى او بدونها ، وعلى ذلك فالمنشدون (القوالون) لهم دور خاص داخل الفرق الصوفية ، وللسماع آدابه ودرجاته وشروطه حتى يتحقق المراد منه من الوجد الصوفى ، وقد تحدث عنه كثير من اعلام التصوف كالسراج والقشيري والجنيدي ، والملاطية مع ضرورة التفرقة بين السماع بمعناه الصوفى ، وبين ما يقوم به ادعياء الصوفية والدخلاء عليها من حركات مرية واقوال غير مقبولة .

راجع : . الرسالة القشيرية ، مصدر سابق «المترجم»

يقدم Dohssom معلومات حول التكايا التركية فى القرن التاسع عشر ، فكل تكيه كانت تأوى عادة من ٢٠ - ٤٠ درويشاً وكانوا يحصلون على التبرعات ، او الاحسان لاعالتهم ولكى يوفروا للدرايش الطعام والإقامة وكان كل درويش يأكل عادة فى صومعته (حجرته) ولكن كان يسمح لثلاثه أو اربعة أن ياكلوا معاً، اما أولئك الذين كانوا متزوجين فكان لهم الحق فى اقامة خاصة ولكن كان عليهم ان يناموا فى التكية مرة او مرتين اسبوعياً ، خاصة فى الليالى السابقة لرقصاتهم. وكان هناك استثناء هو مقر أو مؤسسة الملاوين حيث لم يسمح لدرويش متزوج ان يقض الليل (١)

لقد قلنا ان الفرقه أو الطائفة تبدأ (كزاوية) محلبة يقوم شيخها بتعين «خلفاء» للمناطق والذين غالباً ما تصبح منازلهم زوايا وليدة (متفرعة) ، وتمر الطوائف بدورات من الانتشار ولركود والتدهور وحتى الموت .

فى زمن ابن بطوطة ، كانت «الزوايا الرفاعية واسعة الانتشار فى الأناضول بين الأتراك ثم اختفت تماماً تقريباً . هكذا بدا الأمر لكى تستبدل فى تلك المنطقة بالفرق التركية ولكن رغم انخفاض عددها ، فان الرفاعية أستمرت فى كونها طريقة عامة واسعة الانتشار مثلها مثل القادرية ، وحتى الآن ولم تكن السهروردية اطلاقاً فرقة موحدة بل كانت دائماً طريقة أو خط انتساب انبثقت منه مئات (الطوائف) . وكذلك بالنسبة للقادرية فان خليفة عبد القادر فى بغداد لم يعترف به عن طريق اى طائفة قادرية عربية ، وحتى التيجانية فى القرن التاسع عشر فانها عندما توسعت مالت لفقد سلطتها المركزية

ولم يكن لشيخ الزاوية الدارقاوية الرئيسية أية سيطرة على الفروع الكثيرة، ولكن الانظمة الاكثر تركيزاً والمحدودة او الابتدائية مثل الناصرية والوزانية والعيساوية والكتانية فى المغرب ، والفرق العائلية المتعددة فى السودان النيلى ومصر

(١) كتاب اوسون D'osson الذى يقنيس منه المؤلف هذه الفقره وغيرها هو كتاب ضخيم فى خمسة

أجزاء عن تاريخ الامبراطورية العثمانية بعنوان Talleau genenal de l'empire ottomens

نشرة فى باريس فى الفترة من ١٧٨٨ الى ١٧٩١م المترجم

وسوريا فكانت المتناسكه بصورة معقولة .

فالعلاقة بين المقر المركزى والجماعات المتفرعة او المتسببه محفوظ ومصان خلال رحلات يقوم بها الشيخ او مبعوثيه حيث لا يوجد سيطرة منفذه ، واثناء هذه الرحلات يقومون بجمع الهبات وقد يحلون بعض الخلافات او يقيمون المسابقات لاثاره الحماس .

وقد كانت الملاوة استثناءً من هذه القاعدة العامة فهى أساساً فرقة حضرية معقدة ، تحافظ دائماً على تنظيم مركزى ، وحتى رغم انها كانت فى تركيا ، إلا أن مقارها فى تركيا انتشرت على نطاق واسع ، ولكن هذه المقار ومع قليل فى المناطق العربية (دمشق (حلب) طرابلس ، حمص فكلها اعترفت بسلطة الشلى بقوته ، والذي احتفظ بحقه فى تأكيد قبول الرؤساء المحليين (شيوخ الفروع) .

ان قبة (القبر ذو القبه) الشيخ المؤسس هى النقطة المركزية للتنظيم ، وهى مركز التبجيل والذي تنتجه إليه الزيارات والهبات فى شكل نقود أو عينات تقدم بانتظام وهى مرتبطة بالرغبة فى رضى الولى ، تعبيرا عن الشكر على منافع تمت. أما المقر المقدس وموقعه فهى مقدسه (حرم) حيث يمكن ان يجد الهاربون من الانتقام او العداله ملجأ فيها :

ان شعيره الاقتراب من الضريح (آدب الزيارة) لها مكانها فى كتيبات الفرق ويجب الا نغفلها تماما هنا، فقد ذكرنا ان كثيراً من الناس يسعون الى دخول الطريق على يد شيخ يبساطه من أجل بركته (للتبرك) وبمعنى آخر ، لتأسيس علاقه مع مصدر النفوذ ، ولذلك فهى عن طريق زيارة^(١) الضريح ، وأبسط صورة هى الوقوف امام القبر وتلاوة الفاتحة ، والتي تعرف بالفعل الرمزى.

وهو رفع اليدين والأنامل مرتفعه لأعلى وأثناء التلاوة ثم نقلها بامراره لأسفل على الوجه ، وتوجد الكثير من الاجراءات للتشفع إلى الله خلال الولى .

(١) فى الأصل الحج الى ، والصحيح ما أثبتناه (المترجم)

ويقدم محمد الكتاني ^(١) عرضاً أو وصفا لهذه الاجراءات في مقدمه الكتاب الذى وضعه عن بعض مشاهير فاس وهو (سلوة الانفاس) مثل بين الصفات الغريبة «لصحيح البخارى» هكذا يقال أن من يفتح أو يفتح أى جزء منه أمام قبر الولي ويقرأ أى حديث واحد تقع عينه عليه مسلماً نفسه لله خلال وساطه شيوخه فى السلسلة حتى النبى وفى نفس الوقت يعبر عن حاجته ، فان حاجته - ان شاء الله - سوف تتحقق.

وذكرى مولد الولي أو ذكرى وفاته (الحواليه) هى احتفال كبير ، وهو النقطة الأساسية للطقوس الدينية السنوية وتجذب هذه الاحتفالات الزوار من القوى والقبائل المجاورة . اعتماداً على شهرتهم من مناطق أوسع ، وتعد حفلات خاصه للموالد . ويضحى فيها بذبح المواشى وتقديم الهبات ، وهى مرتبطة عمومًا بالسوق الذى يحضره التجار والبائعون الجائلون ويأتمى الأدوية الزائفة ورواه القصص الشعبية .

وهناك تفرقه أساسية بين الفرق الشرقيه والغربية تتضح بمقارنه الأهمية التى تسندها كل منهما إلى التدريب والتلمذة فى نظام الطريق الصوفى وفى احتفالات التذهيب ، فالفرق - فى الشرق - كانت أكثر حزمًا وأشد صرامة فى النظام والتنظيم ولها الكثيرين من الأتباع من نوعية الدراويش أكثر مما فى المغرب، ولكن بينما فى آسيا كانت الفرق تنسب إلى قطاعات معينة ومنه من الشعب، ففى

(١) هو محمد بن على بن جعفر الكتاني وكنيته ابو بكر، ويقال ابو عبدالله ، وابو بكر أصبح أصله من بغداد صحت الجند ، وابا سعيد الحزازه ، وابا الحسين النورى ، وأقام بمكة مجاوراً فيها الى ان مات سنة ٣٢٢ هـ كان الكتاني كثير السباحة والاسفار وهى صفه الأخيار السائحين فى الأرض وعددهم سبعة عند الصوفية ، وكان ممن نشر علوم الاشارة كتباً ورسائل وهو اول من ذكر مراتب الأولياء ، والتوبه عنده اساس التصوف ، واول طريق الولاية التوبه .

راجع طبقات الصوفية : السلمى ص ٣٧٣

وكذلك اعلام التصوف فى الاسلام - جلال شرف دار الجامعات المصرية ط٧٦ ص ١٥٧ وما بعدها (المترجم)

المغرب أصبحوا في فترة واحدة يضمنون من نصف أو ثلاثة أرباع السكان ، وقد توجد قلة ليس لهم بعض العلاقات خلال مشايخ الطرق المحليين ، وهذا بحسب لصالح الأهمية التي يضعها البربر على البركة وهي أهمية قوية رغم أن هذا الاعتقاد كان أيضا كذلك في الشرق، إن مفهوم «البركة» - أصلاً هي منحة من الله - أنها لا توهب خلال الاتباع الصارم للطريق ، وقد نالها المزيد من التخفيف نتيجة ارتباطها بالقداسة الروائية.

بداية التلقين والتنقيب : -

كانت ملابس الصوفية علامة خارجية هامة على الطريق الصوفي للحياة مثل نفس الاسم -المشتق من «صوف» والذي كان يرتديه الزهاد الأوائل - الذي يحمل هذه الشهادة ومثل الرموز المادية الأخرى أصبح لها أهمية داخلية . والتنصيب بمثل هذا الملبس سرعان ما أصبح علامة على دخول الطريق ، وأستعمال كلمة صوف لم يعد سائداً أثناء القرن الحادى عشر الميلادى ليحل محله الرداء المرقع أو (المرقعة) أو (الخرقة) ^(١) وقد كتب على الهجوهرى (توفى ١٠٧٢ / ٤٦٥) .

«يراعى شيوخ الصوفية القاعدة الآتية . فعندما ينضم المبتدئ إليهم بفرض اعتزال العالم، أو الدنيا ، فإنهم يخضعونه لنظام روحى لمدة ثلاث سنوات ، فإذا قام بالتزامات هذا النظام جيداً ، وإلا فأنهم يعلنون انه ليس فى الامكان أن يقبل فى الطريق الصوفى» فالسنة الأولى تكرر لخدمة الناس، والسنة الثانية لخدمة الله ، والسنة الثالثة لمراقبة قلبه هو ، والمريد الذى عندئذ يكون قد اكتسب الكمال فى الولاية يأخذ المنهج الصحيح حين يعطى المبتدئ «المرقعة» بعد فترة ٣ سنوات يكون قد علمه خلالها النظام الضرورى. وفيما يخص المؤهلات التى تتطلبها فإن المرقعة يمكن مقارنتها بالكفن فالمرتدى لها يجب ان يتنازل عن كل آماله فى مسرات الحياة ، ويظهر قلبه من كل المتع الحسية ويكرس حياته تماماً لخدمة

(١) لم أجد دليلاً يؤكد قول سينون أن هناك تفرقة أساسية بين الصوف والمرقعة ، تلك التفرقة التى

تعنى اختلافاً بين المثل أو الأفكار المؤلف

ودلالة منح الخرقه والدلالة المزدوجة التى تدل عليها وأهمية المسوغات توضحه الفقرة التالية لحياة درويش والتى كتبها محمد بن المتور كتبها من (١١٨٠م - ١٢٠٣م) .

ان البير (الشيخ) بوضع يده فوق رأس التابع إلباسه الخرقه ، فإنه يبين للجميع للإستثناء انه يعرف ويؤكد صحة لياقة ذلك الشخص لصحية الصوفية، ولهذا السبب فان الصوفية حين يأتى اليهم أحد الدراويش الذين لا يعرفون اى مقررهم، او يرغب فى الارتباط بمجموعة من الدراويش ، فانهم يسألونه من هو شيخ الصحبه ؟ ومن أى يد استلمت الخرقه ويتمسك الصوفيون بهذين النسبين ^(٢) باهتمام كبير وفى الحقيقة لا يوجد نسبا فى الطريقه غير هذين الاثنين فإذا فشل أى واحد فى اثبات هاتين العلاقتين للشيخ المقتدى به فأنهم يعدونه ولن يسمحوا له بالتواجد فى مجتمعهم .

وتوجد ثلاثة عناصر تكون الاستهلاك وبدايه الطريق أو الصحبه، هى بالمصطلحات الأقدم (تلقين الذكر) وأخذ العهد ولبس الخرقه .

فالتلقين هو اسم فعل من لقن، وله معنى : بحث ، يطبع أو يغرس فى الذهن ، التعليم بالتكرار، ولكن فيما يخص التلقين الصوفى فانها تعنى (اعطاء التعليمات السرية) والسر كان مرتبطا باعطاء لقن الكلمات السبع ، المرتبطة بالمراحل السبع من الطريق الصوفى وأخذ العهد : يعنى حرفيا أخذ الميثاق ويتضمن البيعه أو القسم او يمين الولاء ، ويستعمل فى عبارات مثل (عهدايد) أى قسم الطاعة للشيخ مع المصافحة ، والتى قد تمتد إلى أخذه اليد والاعتداء (اخذ الشيخ كقدوة) أما عهد أو (أخذ الخرقه) فهو الميثاق المتضمن فى تنصيب المقام بارتداء اللباس الصوفى (الخرقة) ، وتبرير التنصيب بلبس الخرقه هى الآية

(١) من كتاب الهجرى (كشف المحجوب) الترجمة الانجليزية لنيكلسون المؤلف

(٢) السلسلة الشيعة

القرآنيہ (لإعراف الآية ٢٦) ^(١) (ولباس التقوى ذلك خير) وهي جملة تدخل أحيانا في الاحتفال ، والنوع الخاص من الخرقة قديشار اليه مثل خرقة الارادة ، وتعني افتراض لباس بداية الطريق ، لكي يبدأ ، وهذا كان مألوفاً في الشرق ، وليس في المغرب حيث لم تصبح الخرقة شائعة ^(٢) ، وفي العالم العربي فقدمالت أيضا إلى أن تصبح عملاً شكلياً مثل لبس الكاب في جامعات أوروبا ، حيث اختفت الملابس وظل غطاء الرأس باقياً لذلك فان الاحتفال كان يميل لأن يصبح مجرداً من أهمية الباطنية والخرقة) كعبارة مزدوجة تتكون من (خرقة التبرك) طبقاً لسلسلة البركة، سلسلة شيوخ الطائفة من الشيخ إلى مؤسس الطريقة (وخرقة) السلسلة الوردية سلسلة شيوخ الطريقة من المؤسس إلى النبي (صلعم) وهاتان الاثنتان معاً - في الفرق الأكثر التزاماً - يكونان خرقة الصحبة وهو مصطلح عندما كانت تعلق على الشيوخ الاوائل كما يعني الإتياع أو التلمذه .

هناك انواع مختلفة من (الخرقة) فرقة الخدمة (الخدمة = أول مرحلة) أو التعليم (التعليم أو التربية (الارشاد أو الهداية) وبوضوح فان ابن بطوطه في ارتدائه أو استخدامه للخرقة السهروردية كان لا يعنى شيئاً بالنسبة المريدين الحقيقيين ومؤسس النظام كتب عن الفرق من الخرقة.

ارتداء الخرقة . يقيم رابطه بين الشيخ و المريد ، ويجعل الأخير يخضع نفسه لتحكيم أو السيطرة الشيخ وهذا التحكيم مسموح به في الشريعة ... وهذه الخرقة هي رمز قسم التنصيب (المبايعه) وهي الخطوة الأولى نحو «الصحبة» ، والهدف النهائي للمريد هو الصحبة ^(٣) فهي أساس كل توقعات المريده وهي مرتبطه

(١) يقول تعالى في سورة الأعراف «يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» (٢٦)

(٢) الظاهر ان الخرقة استخدمها الصوفية الاوائل في المغرب العربي فكثير منهم تلقى تدريبه في الشرق ، ولكنها أصبحت فيما بعد علامة على الفقر ، اما الرداء المرقع فقد عرف باسم (المرقعة) ولكنها كانت تمثل جانباً واحداً من التراث الصوفي وليست معادلة للخرقة المؤلف

(٣) الصحبة : من الرياضيات العملية التي يلزم بها الشيخ مريده ، وهي تعني عند الصوفية الملازمة والاتباع ويقولون «أدب صحبه من فوقك الخدمة ، ومن هو مثلك الإتياع والفتوة ، ومن دونك الشفقة والمناصحه . راجع الرسالة القشيرية ص ١٣٣

المترجم

بما قاله ابو يزيد (البسطامي) : من لا شيخ له فالشيطان شيخه يحكى ابو القاسم القشيري عن شيخه (ابى عل الدقاق انه قال ان شجرة تنمو بنفسها دون ان يزرعها أحد تتبع أروقاً ولكن بلا ثمار ، وهذه حقيقة ومع ذلك فقد يحدث أن تحمل ثماراً مثل تلك الاشجار التي تنمو فى الوديان أو على سفوح التلال رغم ان الثمرة لم يكون لها طعم ثمار الحديقة .

وكلمة ورد بمعان أخرى نناقشها فى الفصل الثانى ، وهنا فأنتنا نؤكد ببساطه ان الورد (نميزها بحرف كبير W) يكون مساوياً للطريقة ^(١) والطريق الروحى الذى يوجد الفرقه المحافظة عليه ، وبذا فإن أخذ الورد من شيخ ما يعنى أخذ الطريقة أى تعليمات ذلك الشيخ كانت الاحتفالات أكثر اتفاقاً فى المناطق الايرانية والتركية عن العالم الاسلامى الغربى ، وكان المرشحون ^(٢) يرتدون الملابس الأخرى ، وبالإضافة إلى (الخرقه) وفى بعض الفرق التركية والشرقية تضمنت هذه الملابس السروال والحزام والشتحال (رباط المعصم) والتاج لباس الرأس هذه الطرق للتلقين مستمدة من الفرق وفرق الفتوة ، وابن جبير حين كان فى سوريا فى أواخر القرن السادس الهجرى ، والثانى عشر الميلادى يشير إلى الطائفة المعروفة بالنبوية وهم سينون يعتقدون فى (الفتوة) وكل ماله علاقة بالرجولة ، وأيا كان من يقبلونه فى فرقته يدركون انه يمتلك هذه المؤهلات فأنهم يزودونه أو يلبسونه سروالا وبالمثل يقول ابن بطوطه فيما يتعلق بالاطيات الفنان لزاوية فى قوينه ، رداؤهم المميز هو السروايل مثل تلك التى للصوفية وهى (الخرقه) ودخول الطريق او التلقين يتضمن أيضاً شرب شراب الفتوة من الماء المالح ، وقد تبنت الفرق هذه العادة رغم أنهم غيروها الى الماء المحلى ، وفى هذه الفرق فان الشد (تطويق) كان يعنى الاستهلال أو بداية التلقين ، وكان نقطة القمة فى شعائهم وبالمثل (ربط المحزم) أن ربط الحزام او الشال ، وفى كل من

(١) فى الترجمة العربية ستكون الإشارة بأن نضع كلمة ورد بين قوسين عندما يقصد بها المؤلف انها معادلة للطريقة .

(٢) المقصود هنا هم المريدون الذين سيعطون المهدي بدخول الطريق (المترجم)

المصطلحين فان التركيز هو على ربط قماش العمامة أو الحزام أو كليهما ، بعدد معين من العقد ، ولكن المصطلح يشير إلى الشعائر ككل ، والحزام كان يلبسه - اساساً - الصوفية الايرانيون وليس الصوفية العرب .

سوف نصف أولاً احتفال النسب أو الانتساب والذي ربط المريدين غير الدراويش بشيخ معين وطريقته ، مثل هذه الصفة من الانتساب وجدت مبكراً في زمن شهاب الدين السهروردي ، الذي ميز بين نوعين من الخرقة تلك التي يلبسها المبتدئ وتلك التي تعطى للمتشبة (المقلد) :

«إعلم ان الخرقة من نوعين تلك التي «للارادة» وتلك التي (للبترك) والأولى والتي يعدها الشيخ للمريدين كبداية الطريق ، بينما تلك التي تكون للبترك مشابهة للآخرين ماعدا أن الأولى تكون للمريد الحقيقي ، بينما تلك التي للبترك تكون المتشبة ، بمعنى آخر ذلك الذي يقلد الصوفية ، إن جوهر (الخرقة) هي ان المرشح الحقيقي هو الذي يدخل في (الصحة) مع الشيخ فيسلم نفسه ، ويصبح مثل الطفل الصغير مع والده، فيربيه الشيخ بالحكمة التي وهبها الله له .

يوضح ابن بطوطة الطريقة التي تدهورت بها استخدامات الخرقة في عهده فيكتب : «قابلت في هذه المدينة (هرمز) الشيخ المؤمن المرتحل أبا الحسن الأقصراني وهو رومي (يوناني) الأصل، وقد منعتني وردزيارتي، وحين أهداني ملبساً (ثوبه) = خرقه) وأعطاني حزام الصحة وهذا يعمل كدعامة حين يجلس الانسان على الارض في ممارسته الدينية (او يقرفص) ومعظم الدراويش الايرانيين يحزمون أنفسهم به »

واحتفال التلقين من أجل المريد العادي - كما عدل في المرحلة الثالثة، ومثلما أصبح في الوقت الحاضر قد اختلف فقط في التفاصيل بين الفرق المختلفة، فقد كان يسمى «العهد» والناحية الانسانية فيه كانت هي «البيعة» (قسم الولاء) والذي يعطى سرا مقدساً إلى الشيخ ، ويرتبط بالموافقة على صيغة من الوعود، ومنح الاذن بالقاء ذكر خاص وواحد أو أكثر من الاحزاب وما يلي يصور الالتزامات العامة للقادرية (١)

ان المريـد فى حالة من النقاء الشعائرى ، وبعد الصلاة ركعتين يجلس مواجهـا للشيخ ضاعطين بأفخاذهم كل منهم للأخر ومتماسكين الابدى اليمنى لكل منها (مصافحة) ويتلون الفاتحة وبعض الصيغ والعبارات فى تذكر النبى (صلعم) وشيوخ السلاسل المختلفة خاصة أولئك الذين من الخط القادرى، ثم يملئ الشيخ عليه ليكرر بعده جملة بجملة دعاءاً ، يطلب فيه المغفرة من الله ويقرر بأن العهد الذى أخذه هو (عهد الله ورسوله) وان يد الشيخ هى يد عبد القادر واعدأ بأنه سوف يتلو الذكر فى طاعه ما فرضه عليه الشيخ ثم بعد الدعاء ٣ مرات سرأ (يا واحد يا على أرحمنى) ويتلو أیه المبايعه (٢) والآيات الأخرى المناسبة، وكلمات التوحيد ٣ مرات ويؤكد المريـد قبوله لكل الشروط ويقول له الشيخ: أنا ايضا قبلتك كأبن لى «وبعد صلاة التلقين يعطيه الشيخ ليشرب من كوب ماء قراح (محلى) أو زيت أو يختم الاحتفال بأعطاء المريـد ذكره الشخص والدعوات الختامية للاحتفال .

هذا التلقين ضرورى ليس فقط لأولئك الذين لديهم وظيفة ولكن لكل من يرغب أن يشترك فى الذكر الجماعى (٣) رغم أن انضمام الاعضاء المنتسبين (للمذكر) مال إلى التحرر بشكل أكثر واصبح ببساطه موضوع ارتباط بالشيخ العائله، أما صيغة البيعة البسيطة التى أعطاها لى شيخ طائفة شاذلية صغيرة هى :

«يارب أننى أتوب إليك، وأقبل الشيخ فلان استاذاً لى وشيخى فى هذه الدنيا وفى الأخره كمرشد وقائد بحضرتك، وكمرشد فى صراطك ، ولم اخالف طاعته لبالكلمة ولا بالفعل، لا سرأ ولا علانية ثبتنى يارب فى طاعته على طريقته فى الدنيا والأخره ، وفى طريقه شيخ الشيوخ وامام الأئمة، وقطب المجتمع ،

(١) من كتاب الفيوضات الربانية «تأليف اسماعيل بن سعيد وهو مرجع سابق ذكره (المترجم)

(٢) قوله تعالى فى سورة الفتح «إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم...» (١٠)»

المترجم

(٣) فى بلاد الشرق ، كان المريـدون وأهل الطريق فقط هم الذين يحضرون حلقات الذكر ، أما فى

افريقيا (باستثناء مصر) فكان الكثير من الناس العاديين غير الصوفية يحضرون هذه الحلقات

المؤلف

مولاي ابو الحسن الشاذلي ياله اله .

وبعد هذا يكرر المرشد والشيخ معا الفاتحة والتهليل . أن حياة الطريقة تعتمد على التقليد الصوفي والخلافة ، وهي خلال التلقين بمعناه الكامل الذي يقوم به الدراويش فإن الرجل يدخل في هذا العالم الروحي بطريقة تؤكد الخلافة والتلقين قد يكون روحياً عن طريق التراث الخصري^(١)

ولكنه عادة يأتي خلال الإرشاد تحت شيخ هذا العالم ، وتلقين الدراويش كان طبيعياً كثر تعقيداً من تلقينه للمتسبب ، ويسمح به أولاً في احتفال بسيط حيث يقضى فترة في خدمة المجتمع في مكان التعبد .

وأثناء نفس الفترة أو بعدها كان يعطى منهجاً من التدريب المتقدم ، حتى الاستعداد لأخذ «البينة الكاملة» وعند العهد فإنه يتسلم التعليمات التي تشمل القول المشهور : كن مع شيخك مثل الجثة بين يدي المغسل فإنه يقبلها كيفما شاء وهي مطيعة ومع المصافحة فإنه يقسم بخضوعة ويعطى ماء أولبنال يشرب للبركة ويلبس الخرقة ، ويعطى سبحة وكتاب الدعوات (الأوراد) ، والتي فيها يعد بأن يتلو كما سمح له وبعد ذلك يلتحق بمكان التعبد ليعيش حياته طبقاً للقواعد مصلية ويصوم ويصمت ويراقب وهكذا

والبكاشيون كما أوضحنا ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين :

الجماعات القروية والدراويش المنقطعين والمقيمون بمقرات خاصة والتجمعات الطبيعية كان لها شيء ، مثل نظام تدرج السن ويتضمن التلقين بواسطة شيخ القرية الوراثة ، بينما ارتباط الدراويش كان اختيارياً واحتفال التلقين كان يسمى (اقرار عياني / -) ^(٢)

وهو احتفال للأعتراف بالآيمان (اقرار) أو الشعيرة (وهو اسم للشعار المركزي الموجه طبقاً للمناسبة) التي عن طريقها يصبح محباً ومؤهل ليأخذ دوراً

(١) نسبة إلى الخضر عليه السلام المترجم

(٢) كلمة فارسية: معناها «هتل التلقين» المترجم

فى احتفالات الفرقة وحين كان يتقدم بدرجة تكفى للقيام بمهمة فان الدرويش يمر خلال احتفال بقسم اكبر ، ويصبح درويشا يلبس التاج أو لباس الرأس الخاص بالفرقة أما الدرويش العازب فيدخل فى احتفالات مختلفة أخرى .

- زارت إيفليا شلى المقر البكتاش الشهر فى المبنى العثمانى الذى بناه بابا زيدالثانى عقب حلم فى موقع قبر قويون بابا - الخليفة - المزعوم - لحاجى بكتاش وهناك بعد شفائه من الحنطة بعينه سمح له بالدخول فى البكتاشية (افتراضياً كعضو مرتبطه مرشح) قد كتبت

لقد احتفظت منذ ذلك الحين برموز الدروشة التى استقبلتها المقر ، وهى الخرقه والسجادة والعلم وطبل القدم والعصا ولباس الرأس أو التاج .

ويصف كتيب شاذلى الدرجات الأربعة للأنتساب اعلم ان الانتساب للشاذلية والخطوط الأخرى يتم خلال التدريب تمت الشيخ بالأخذ عنهم وقد قال سيدى ابراهيم المواهى

«اعلم هناك اربعة درجات لمثل هذا التدريب الأولى ، هى عن طريق المصافحة» وتخصيص مهام متدرجة من الذكر (التلقين للذكر) ولبس العباءة (الحزقة) وشرائيب العمامة «العذبة»^(١) وهى بوضوح وسيله للاستحقاق البركة والانتساب .

والثانية نهتم بالتدريب فى التقليد (رواية)^(٢) وتتكون من قراءة كتابات الفرقة بدون تلقى أى تفسير عن المعنى ، وهذا يكون وحده فقط بهدف منح البركة والنسبة .

(١) العذبة أو اللؤلؤة هى النهاية المتدلية من العمامة خلف الرأس او على الاذن اليسرى عند البعض .

(٢) الرواية والدراية هى مصطلحات علم الحديث ، فالرواية هى سلسلة قائل الحديث أو ناقله عن الرسول - صلعم . اما الدراية فهى الفحص والدراسة الداخلية للحديث نفسه المترجم

والثالثه هي التدريب في الدرايه (الفهم) ويتكون من عرض الكتب في الفرقة للتمكن من معانيها ، وهي بالمثل لا تتضمن اى تمرين أو ممارسه للمناهج هذه الاقسام الثلاث كقاعدة هي الوحيدة المتضمنه عادةً ولا اعتراض للمتدرب في ان يكون له عدد من المشايخ ليرشده إلى أفضل قدراتهم

والرابعة هي اداءالتدريب الفعل تدريب وتلقى التعليمات (تهذيب) ومعاناه التقدم التطور التقدم خلال الخدمه عن طريق كبح الشهوات الذاتية (المجاهدة) المؤدية الى التنوير (المشاهدة) واستغراق الذات في التوحيد (الفناء في التوحيد)^(١)

والبقاء فيه ، هذه العمليه يجب ليقوم بها المتشبه الا أن بأذن له من يقتدى به

والانقطاع للعبادة والاعتكاف كان مطلوباً من كل الذين يأملون أن يصبحوا دراويش كاملين، ولكن الالتزامات كانت تتفاوت بدرجة كبيرة ، فقد فرض الملاويون اتخصيص عدد ١٠٠١ يوماً متصلة في خدم المجتمع ، والتي كانت الفترة الاخيرة منها تقض بالمطبخ وقبل الدخول في هذه كان يقام احتفال تقديم في جمع من الدراويش ويمثل رئيس الطباخين كراعى او يعطى الشلبي^(٢) القسم . ويلبس الكاب للمبتدئ ويناقشه في واجباته .

كما فرض شيوخ الخلوتية بصفة خاصة انقطاعاً صارماً فيدخل المريد - وفق هذا في حفل تلقين ، يأخذ الشيخ - بعد الدعوات - بيد المبتدئ ويهمس في أذنه أولاً كلمة (لا إله إلا الله) ويطلب منه ان يكررها ١٠١ ، ١٥١ أو ٣٠١ مرة في اليوم ، ويجب ان يذهب المبتدئ بعد ذلك في رياضة روحية (اعتكاف)

(١) الفناء في التوحيد: اى الفناء عن ارادة السوى . والفناء في التوحيد معرفة نظرية تحققت بها نفس الانسان في علائم آخر قبل ان تتصل بالبدن في هذا العالم ، وهذه الفكرة عند الجنيد وعند غيره من الصوفية المتأخرين كابن عطاء الله السكندى

راجع : فى التصوف الاسلامى وتاريخه : نيكلسون ترجم او العلا عفيفى ص ١٢٢ المترجم

(٢) الشلبي : كلمة تركية معناها «شيخ الطريقة» أو شيخ الفرقة المترجم

، ومن المتوقع فيه ان يروى لشيخه الرؤى والاحلام التى رآها ، وعن طريقها فان الشيخ يقيس تقدمه يكون قادراً على أن يقرر متى يجتاز المبتدئ، المرحلة الأولى ، ويمكنه عند ذلك ان يهمس فى اذنه بالكلمة الثانية (يا الله) وتوجد سبع كلمات ككل والخمس الأخرى هى (يا هو ، يا حق ، يا حى ، يا قيوم ، يا قهار) وهى مرتبطة بالافلاك السبعة والانوار السبعة عندما تنبثق الألوان الرئيسية السبعة ، هذا الانقطاع الكامل يسمى تشيلا (اعتكاف) ويأخذ حوالى ٦ - ١٢ شهراً وحين يستكمل المنهج (تكميل السلوك) يسمح للمبتدئ بالدخول كأخ كامل . هذا النوع من الانقطاع يميز الخلونية عن معظم الفرق الأخرى.

ان اهمية الاحلام والرؤى فى التخطيط الكامل للطريق أو المنهج الصوفى لا يحكم المبالغة فى أهميتها وأدبيات التصوفى وحكايات الأولياء وسيرهم - بصفة خاصة - مليه بها - أى الرؤى والاحلام ودلالاتها بالنسبة لحياة الأفراد والمجتمع وكتاب ابن عربى «الفتوحات الملكية» مستمد مباشرةً من مثل هذه الخبرة^(٢) وهو يبين كيف تحددت المراحل المصيرية فى حياته ، عن طريق الاحلام ورؤى النبى (صلعم) والخضر . كانت النقطة الحاسمة فى نفويض صوفى مستنير^(٣) فى سلك طريقة الخاص ، كما كانت طريقة مناسبة للحصول على الأذن^(٤) من الصوفية الذين توفوا منذ زمن طويل بتدريس مذهبهم أو إيرادهم

ومن ثم فقد أدى هذا إلى أن يفترض بعض الناس استمرارية الخط من الجنيذ أو أى صوفى آخر من أوائل شيوخ التصوف .

(١) تشيلا Chilla كلمة فارسية معناها، الاعتكاف اربعين يوما او الاربعينية وهى عند الخلونية يستقر

فترة أطول كما يشير المؤلف المترجم

(٢) أى خبرة الرؤى والاحلام المترجم

(٣) المقصود بالاستشارة هنا - وفى اماكن أخرى من الكتاب - هو تلقى الإلهام أو الفيض الإلهى

المترجم

(٤) تلقى الإذن من هؤلاء الصوفية الذين توفوا منذ زمن طويل يكون بطبيعة الحال عن طريق الرؤى

أو الاحلام المترجم

وحتى رؤية الله ^(١) كانت ممكنة فنحن نقرأ في كتيب قادري في قسم يصف الظروف المنظمة لاعتكاف الأربعين يوماً (الأربعين) واثناء فترة هذا الاعتكاف اذا شكل وأفصح عن نفسه ، وقال (انا الله) فإنه يجب أن يرد قائلا «الحمد لله (وحده) فأذا كانت للاختبار فإن الشكل يختفى ، أما اذا بقي فانه يكون تجلياً إلهياً أصيلاً في شكل خارجي ظاهر ، لا يتافض مع التزبة بليس ^(٢) اي مذهب التزبة، اي ان الله لا يشبه مخلوقاته بأى شكل وحديث أبى حامد الغزالي عن لقاءه بالله في حلم في مرحلة هامة خلال حجه الروحي حديث لافت للأنظار ، فيما يلي قطعة من كتب شاع استعماله بين المقدمين نبين شروط الدخول في الطريقة التجانية في القرن التاسع عشر والتي لم يكن لها دراويش مسئولين :

«يجب ان تكون مسلحاً بالغاً حتى يكون من الصواب ان تتلقى الأوراد ، لأنها عمل رب الناس ، ويجب أن تطلب الاذن من والدك بحريتك الخاصة ، قبل ان تأخذ الطريقة ، وهذا يكون أحد وسائل الوصول (اي الاتحاد مع الله) ، ويجب ان نبحث عن احد ممن لهم الأذن الحقيقي لتلقيك الأوراد ، وبذلك تكون على صلة طيبة بالله ويجب ان تمتنع عن أية أوراد أخرى غير التيأخذتها عن شيخك لان الله لم يخلق قلبين في جوفك ، لا تزر أى ولي حيا أو ميتا فلا يوجد رجل يمكن ان يخدم سيدين ، ويجب ان تكون حريصاًعلى أداء الصلوات الخمس في جماعة ، ومراعاة الالتزامات الشرعية ، لأن الذي حددها هو افضل الخلق (النبي - صلعم) ويجب ان تحب الشيخ وخليفه طوال حياتك ، لأنه بالنسبة لعموم خلق يكون مثل هذا الحب هو الوسيلة الرئيسية للتوحيد ، ولا تظن ان في امكانك ان تحمي نفسك من مكروب العالمين ، لأن هذا أحد خصائص الفشل ، ان يجب الا تضر ولا تحمل العداوة لشيخك والا ستجلب الدمار لنفسك ويجب ألا تكف عن تلاوة الأوراد طوال حياتك ، لأنها تحتوى أسرار الخالق ،

(١) راجع للمترجم كتاب رؤية الله تعالى والرد على المنكرين ط السعودية ١٤٠٩

(٢) المراد هنا تزبة الله تعالى عن طريق نفى الشبهة من الآية (ليس كمثله شيء)

ويجب ان تؤمن وتثق فى كل ما يقوله الشيخ لك عن الفضائل ، لأنها تكون ضمن اقوال رب الأولين والآخرين ، ويجب الا تنتقد أى شىء جيد قد يبدو غريباً لك فى هذه الطريقة ولا سيحرمك من فضيلتها الحاكم العادل .

لا تتلو ورد للشيخ الا بعد الاذن والتلقين المناسب لان هذا يأتى فى الكلام السهل ، وأحضر الجماعة من أهل (الوظيفة) ^(١) وذكر الجمعة مع الاخوة لأن هذا حماية ضد نزعات الشيطان ولا تقرأ جوهرة الكمال الا فى حالة طهارة شعائرية لان النبى (صلعم) سيأتى فى القراءة السابعة ، لا تقاطع تلاوة) احد خصوصاً أحد الأخوة ، لأن مثل هذه المقاطعة هى احدى وسائل الشيطان ، لا تهمل وردك ولا تؤجله لسبب أو لآخر ، لان من يأخذ الورد ثم يهجره تماماً أو يهمله فانه سيقع عليه العقاب الذى يدمره ، لا تذهب وتدرس الورد دون ان يسمح لك بطريقة صحيحة بتقديمها للغير لان من يفصل ذلك ولا يتوب عن ذلك ستكون نهايته سيئة ، وسوف تصب عليه الكوارث ، لا تخبر احداً (بورديك) إلا أخاك فى الطريقة لان ذلك هو أحد اساسيات آداب العلم الروحى ^(٢)

وهناك ثلاثة أنواع من الإجازة : الأولى هى التى تعطى للدرويش أو المريد باعطائه مؤهلاته والسماح له بالممارسة باسم سيده والثانية تعطى إلى الخليفة أو المقدم لتمنحه السلطة فى جميع الورد اى قبوله للآخرين فى الطريقة بينما الثالثة فهى ببساطه التى تؤكد أن حاملها قد اتبع منهاجاً خاصاً بتعليمات الصوفية

وقد تم تحديد فرق واضح بين المرشد الحقيقى للمرء أن شيخ التربية وشيخ الصحبة ^(٣) وبين الشيوخ المختلفين للتعليم .

(١) تكون الوظيفة عند التيجاني من ١- الاستغفار مرة ٢- الصلاة على النبى (٥٠ مرة)

٣- والشهادة (١٠٠ مرة) وجوهرة الكمال دعاء خاص بهم ١١ مرة أو أكثر المؤلف

(٢) راجع : السر الأبهري فى ايراد احمد التيجاني . محمد علوان الجوسقى القاهرة د. ت ص ٣

(٣) شيخ الصحبة هو بصفة عامه وان لم تكن ضرورة - الملقن - داخل السلسلة التى تعطى كلا من اجازة الارادة للمريد واجازة التبرك اى السماح الذى يرتبط بشيخ البركة المؤلف

والذين يتبع المرء مناهج واقعة أن الصوفية قد إدعوا بتلقيات عديدة وامتلكوا عدداً من الإجازات ، قد سببت الحيرة والارتباك وعدم الفهم ، لان الكثير من الاجازات اهتمت فقط باعلان أن المتلقى المرید قد اتبع منهجاً ربما استغرق كتاب صوفى وقد اعطى ترخيصاً لتدريسه ^(١) أو يتلو كلمه ذات قوة مثل حزب البحر الشاذلى ذو القوة والتأثير وفى الهند ، فقد اعطى القوالون ترخيصاً للغناء (اجازة نامة سماع) ^(٢)

والاجازة فى ابسط صورها تأخذ شكلاً معترفاً به هو بهذه الصورة : لتشهد بأن محمد بن (نسب كامل) الذى أخذ الطريقة من الخليفة مصطفى (ثم يعقب ذلك سلسلة الخلفاء رجوعاً حتى المؤسس وقد وجد استاذاه طه بن (شعب كامل) يستحق بأن يدخل الفرقة وهو طبقاً لذلك يعطى صلاحية أن يعمل طبقاً لقواعد الفرقة ، ثم يتبع ذلك تقرير الاشياء التى يسمح له بتفيذها ، حيث ان اسرارها قد أعطيت دينه له ويضع الخليفه . خاتمه على المستند ^(٣) وهى تكون غالباً رقعته ملفوفة فى علبة أنبويه (والاجازة الكاملة قد يزيد طولها عن ياردة) على قطعة من الجلد والإجازة الكاملة تحتوى غالباً على ورد وتوصيات مثل الوصية أو العهد التى يقال أنها أعطيت بواسطة عبد القادر الجيلانى الى ابنه عبد الرزاق ^(٤)

ومؤرخ السيرة بالسودان النبلى ، واد ضيف الله (المتوفى ١٨٠٩م) يعيد ذكر جزء من الإجازة التى أعطاه ابن جابر لأحد تلاميذه عام ١٥٧٤م

« الحمد لله رب العالمين والسلام على رسله ، حقاً ، فان الاخ الفقيه ابراهيم التقى المتعلم والمتواضع ابن ام رابعه اعتقد انه يستحق السيادة والقيادة ، ولذلك فأنى اعينه فى رتبه القطب ومفسراً لعصره وعمره ، ومعلماً للمريدين

(١) وبهذه الصورة فقد حصل ابو عمر العزافى على اجازته من شيخه البادس لتدريس كتابه المقصد .

(٢) هذا هو اسم الاجازة التى تعطى للقوالين و المرددین ، او المنشدين فى الهند المترجم

(٣) هناك صياغات أخرى للإجازة يمكن أن تعطى ، ولكن الاجازة يلزم اعطاؤها إذا كان المتلقى هو

ابن الشيخ المؤلف

(٤) « الفيوضات الربانية » ص ٣٥ - ٣٨ المترجم

ومثالا لأولئك الذين يقودهم ويلجأ للفقراء والضعفاء المحرومين ، وشرفاً مجدداً
لشمل المعرفة بعد غروبها

وأمنحه سلطه أن يدرس للناس كل الذى تلقاه بصدق من وسمعه منى ،
وأقوضه سلطه ونشر المعرفة التى اعطياناها له وليكن كل فرد ممن تصله هذه
المعرفة أن يكون حريصاً عليها للغاية حتى لا يصبىه الدمار الروحى ^(١) كانت
الاجازات قد تناولت كثيراً موضوع الرخص ، وهى ناحية من الحياه الصوفية لم
تشر إليها التحلل والتساهل ^(٢) وهى تشمل الضروريات اليومية كعقد
الاجتماعات الخاصة والعامة (الحضرات) والتى تعقد فيها التلاوة (السماعات)
والدخول فى «المزاح» و«الرقص» «التمريق» والثياب، كما تضم جمع أموال
الزكاة ورفع الايادى واستعمال المسبحة واهمال الحضور إلى المسجد وعدم المواظبة
على الصلوات المفروضة اثناء فترة الاعتكاف (الفرقة)

(١) من كتاب «طبقات واد ضيف الله» .

(٢) يقصد المؤلف هنا التحلل من التمسك بالالتزامات الشرعية والتساهل فى أداء الفرائض ، وهو ما

يعنيه بالرخص المترجم

الفصل السابع

طقوس الشعائر والإحتفالات الدينية

الفصل السابع

طقوس الشعائر والإحتفالات الدينية

إن تطور الطقوس الدينية داخل مجرى الإسلام الرئيسى كان قد اكتمل مبكراً فى تاريخه ، وليس من المباح أن يجدد إطلاقاً داخل الدين الشرعى ، ولكن النمو اللاحق خلال الصوفية إذ أن طقوسهم واجتماعاتهم المنظمة كانت منفصلة كلية عن الصلاة الشعائرية ، ولكن خلال الزمن وعندما وصل التصوف إلى مستوى الرجل العادى فإن « الذكر » نفسه بترديد الأسماء الحسنى أصابه الإنحطاط وأصبح سوقياً^(١) وارتبط بالصلاة كملحق إضافى شخص زائد لدرجة أن فقد روحانيته أما أشكال الإنقطاع للعبادة للصوفيين فقد بقيت بطرق أخرى كتعبير منفصل .

وشعائر أى فرقة تكون الطريقة كقاعدة للحياة باتباعها قد يأمل المريد أن يطهر نفسه ليكتسب الإتحاد بالله أو تجسد الطريقة نفسها فى الذكر ، والذى تؤدي ممارسته المنظمة « بالعارف » إلى حالة إستغراق فى الله ، ولذلك يشكل الذكر هيكلاً للطريقة ورغم أن الاستعمال المسيحى السورى للمصطلح المشترك « ذكرانا » بنفس المعنى الغنى ، له دلالة هامة ، فإن الذكر يبنى أساساً على النصيحة القرآنية^(٢) .

(١) لا أوافق المؤلف على هذا الأسلوب عند ذكر أسماء الله الحسنى (المترجم).

(٢) « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلاً » الآيتين ٤١ ، ٤٢ من سورة الأحزاب . (المؤلف) .

وهذه تؤكد آيات كثيرة فى القرآن الكريم مثل الآية ١٥٢ من سورة البقرة : (فأذكرونى أذكركم وأشكروا لى ولا تكفرون) والآية ١٠٣ من سورة النساء : (فإذا قضيتُم الصلاة فأذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) والآية ٢٠٥ من سورة الأعراف : (واذكر ربك فى نفسك ==

وقد وجد الصوفية الأوائل في الذكر وسيلة لاستبعاد اللهو والنسيان وطريقة للقرب من الله وقد أصبح يعنى طريقة خاصة لتحميد الله عن طريق التكرار المستمر لاسمه (عز وجل) بطريقة إيقاعية منتظمة إما عقلياً « ذكر خفى » أو مرتفعاً « ذكر جهري » . والذكر كما تذكر لنا الكتيبات ، هو محور أو ركيزة التصوف والأهمية الفائقة تعطى للأسماء الحسنى وكلمات الله ، فعن طريق ترديدها فإن الطاقة الإلهية تتخلل كينونة القائل أو الذاكر وتغيره .

والتحكم في التنفس كان خاصية مبكرة فهو من ناحية نتاج طبيعي لمحاولة ممارسة الذكر ومن ناحية أخرى إقتباس من الميراث الزهدي للمسيحية الشرقية ، ويذكر أن أبا يزيد البسطامي (توفي ٨٧٤) قد قال « بالنسبة للروحانيين فالعبادة هي مراعاة الأنفاس . وكذلك الشبلي (توفي ٩٤٥م) قد لاحظ أن التصوف هو التحكم في الملكات وملاحظة الأنفاس » (١) .

والموسيقى بخلاف ترنيمة الآذان ، أو ترتيل القرآن ليس لها مكان حقيقي في شعائر الإسلام (٢) . ولكنها لعبت دوراً كبيراً في تعبد الصوفية فسرعان ما وجد الصوفية وربما استمدوا هذه الحقيقة من الممارسة الدينية ،

== نضرعاً وخيفة ودور الجهر من القول بالغدود والآصال ولانكن من الغافلين) والآية ٢٤ من سورة الكهف : (واذكر ربك إذا نسيت) (المترجم) .

(١) من كتاب تذكرة الأولياء للعطار نقلاً عن نيكلسون في دراسة له بعنوان « أصل وتطور الصوفية » نشرها عام ١٩٠٦ م .

(٢) عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والمزور والكوبا (الطبل) والعنبراء ، وزادني صلاة الوتر حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٧٤/١ وأبو داود رقم ٣٦٨٥ والبيهقي ٢٢١/١٠ ... (المترجم) .

الأقدم أن الموسيقى بغموضها وانتقادها للصورة الدقيقة ، ليست فقط ذات قوة صوفية لإيقاظ أعماق المشاعر ، ولكنها أيضاً حين تصاحب الكلمات الرمزية والحركات الإيقاعية ، تكون ذات قوة وتأثير على إرادة الإنسان . والسماع أصبح للممارسة الصوفية الباكورة ، وبصرف النظر عن القصائد الصوفية لإثارة النشوة الروحية فإن من الصعب أن نقول م تتكون هذه الموسيقى حيث قضى معظم الكتاب وقتهم إما فى الهجوم أو فى التبرير ، أكثر من وصف هذه التجاوزات فشرعية الموسيقى كمساعدة للتعبير الصوفى ، فقد كانت موضوع فى الدوائر الشرعية والصوفية قبل تكوين الفرق المحدودة بمدة طويلة (١) .

والشكل الذى اتخذه السماع الصوفى فى نهاية القرن الحادى عشر بصيغة أحمد الغزالى فى كتابه « بوارق الإلماع » (٢) فى مصطلحات غامضة نوعاً ، حيث كتب دفاعاً روحانياً عن هذه الممارسات . والصيغة أو الشكل الأسبق للبحث عن النشوة كانت خلال الموسيقى والرقص التى بقى شكلها المولوى فقط ، وقد أوضح أحمد أنها احتوت على ثلاثة أساليب جسمية : اللف ، والقفز والرقص وأن كل حركة هى رمز عن حقيقة روحية .

والرقص هو إشارة إلى دوران الروح حول دائرة الأشياء الموجودة على أساس استقبال تأثيرات الكشف والإيهامات وهذه هى حالة « الروحانى » واللف هو الإشارة إلى وقوف الروح مع الله فى طبيعتها الداخلية .

(١) يقدم الأستاذ روبسون J. Robson موجزاً لهذا النقاش فى مقدمة نشرة لكتابين عن السماع بعنوان « Treason Listening » ، لندن ، ١٩٣٨ أحد الكتابين يهاجم السماع والثانى يدافع عنه . (المؤلف) .

(٢) هو أحد الكتابين اللذين ترجمهما روبسون ونشرها فى كتابه السابق .

(السِر) والوجود ، ودوران نظرها وفكرها ، وإحترامها مراتب الموجودات وهذه هي حالة الرجل المطمئن ، وأما قفزه لأعلى إشارة لكونه مجذوباً من الحالة الإنسانية إلى حالة الوحدة .

وتتضمن « جلسة السمع » التدريس حيث يكتب أحمد أن الجماعة تجتمع معاً في الصباح الباكر بعد الإنتهاء من صلاة الفجر ، أو بعد صلاة العشاء وبعد إنهاء درهم يتلون القرآن أو الذكر أو أى عمل من أعمال العبادة مهما كان وعندما يجلسون ، فإن ذلك الذى له أكثر الأصوات حساسية منهم يتلو سورة مثل ثم يتحدث الشيخ عن معنى هذه الآيات بطريقة مناسبة لحالة الممارسات الصوفية « السلوك » (١) .

بعد هذه الجلسة التعليمية ، يبدأ « القوال » أو المنشد فى غناء القصائد الشعرية الصوفية لدفعهم إلى النشوة وال جذب ، وحين يجربون بداخلهم رعشة تؤثر عليهم مثل إرتعاش المرء الذى يستدعى لخدمة ملك مهيب وليمثل أمام الله ، أما من يقع فى النشوة فلا يقوم حتى يكون فائق القدرة ، ويفعل الناس مثل مايفعله ، ولاينبغى أن يتأثر كلا فإن حركاتهم يجب أن تكون فى توافق مع الحالة مثل المرء الذى يقهر بواسطة الرعب أو الخوف من شئ لايمكن تجنبه وبعد ذلك حين يستقبل أرواحهم إدراكاً صوفياً (خطأ) من الحالات الغير مرئية ، وقلوبهم ترق بواسطة الأنوار من الروح الإلهية ، وتستقر فى نقاء وأنوار الروحية ، فإنهم يجلسون وذلك الذى ينشد أناشيد خفيفة لتقلهم على درجات من الداخل والخارج ، ثم حين

(١) المرجع السابق ، وسوف نلاحظ أن تلاوة الأوراد والأذكار كانت جزءاً من الممارسات الشخصية للصوفى (المؤلف) .

يتوقف ، فإن شخصاً آخر بخلاف الأول الذى كان يتلو ، يلقي مثل هذه العبارة مثل (هذه هى منحتنا لذلك كم سخياً أو أمسك بدون حساب ... وماشابه ذلك) .

ثم إذا كان يوجد بينهم من ظلت به بقايا الحالة أو الاستغراق فإن «القبول» يكر ما قاله فى صوت أرق من الأول وإذا ظلوا جالسين ، فإنه يقولها للمرة الثالثة فى صوت متوسط بين الثقيل والخفيف حيث أن الرتبة الكاملة هى ثلاثة رتبة البسر ، ورتبة الملائكة ، ورتبة الربوبية ، والتى يكون فيها سكون تام بعد ذلك يقومون من مكان الإستماع ويذهبون إلى مساكنهم ويجلسون منتظرين الإلهام أو الوحي ، كما يظهر لهم فى حالة استغراقهم فى النشوة ، وبعد الإستماع فإن البعض منهم يمتنعون عن الطعام يصومون « لعدة أيام لكى يتم تغذية أرواحهم وقلوبهم لتجاربهم الصوفية الغير مرتبة » الواردات « (١) .

وما يحتاج لتوضيح هو الطريقة التى تناقض فيها هذه الصيغة من الممارسة الصوفية مع الصيغة القياسية لتجمعات « الذكر » المتأخرة فإن بعض التغيرات حدثت فعلاً مرتبطة بتوسيع مجالها حيث يكتب أحمد :

« وظلت الأنوار هكذا إلى أن قلدها الناس العاديين واختلط الجيد بالفساد ، واختل النظام ، وقد استخدمت طرق جديدة بالتأكيد من هذا الوقت : فقد أظهر أحمد نفسه فروقاً دقيقة خاصة متضمنة فى تلاوة وترديد أسماء الله الحسنى (٢) . وقد بدأت الآن « الطرق » المختلفة فى أن تكون

(١) المرجع السابق .

(٢) لأحمد الغزالي كتاب حول هذا الموضوع عنوانه (كتاب التجريد فى كلمات التوحيد) .

محددة حيث كانت كل منها مميزة بسلسلة من الإبتهالات المحددة ، ويقال أن أحمد الباسافي قد أدخل ذكر « المقشطة » وهو تقليد يشهد على أصله بآسيا الوسطى أو من أجل هذا فإن (ها) تنتهى بعمق شديد وبعد ذلك «هى» بصوت خفيض قدر الإستطاعة . وهى تبدو شبيهة تماماً بصوت المنشار. كل هذا مبنى على طريقة للسيطرة على النفس ، والظن بإعطائه تطوراً كاملاً خلال الإحتكاك بالحلقات الممارسة لليوجا . ومن ثم موازية للتحكم فى النفس أثناء السماع ، كانت ممارسات الطرق الفنية (للكر) الفردى والترجمات العربية والفارسية الذى يتناول مع مبادئ اليوجا ^(١)، كانت معروفة فى الحلقات الصوفية فى هذا الوقت وبعد ذلك استخدمت ممارسات اليوجا الخالصة بواسطة الفرق الهندية ، مثل الغوثية ، وهى فرع من الشطارية التى أسسها شاه الدين محمد غوث من جوالبور (توفى ١٥٦٢ - ٣م) ويصف السنوسى ^(٢) أهم جلسة من الثمانى وأربعين عند الجوحية كما يسميها هو ، ويبدو أنه قبلها كمناهج مشروعة ^(٣) .

وفى وقت ابن عطاء الله (توفى ١٣٠٩م/٧٠٩هـ) وهو الخليفة السكندرى الثانى لأبى الحسن الشاذلى ، كانت طرق نوع اليوجا الجديدة

(١) ترشد التعاليم الأولى لطريقة اليوجا ، الفرد إلى أن الأمر فيها يتعلق بخلاصه هو نفسه من عجلة الولادة والموت التى لن تتوقف عن الدوران إذا خلل رازحاً تحت نيرها ، ولم يحاول الخلاص الذى لا يتم إلا بأن يجد المرء فى ذاته تلك الحقيقة العليا التى هى من نفس طبيعة المطلق وهو يتخذ للوصول إلى هذه الغاية وسيلة أساسية هى التركيز الذاتى . راجع التسك الإسلامى ، محمد غلاب ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ (المترجم) .

(٢) فى كتابه السلسيل المعين .

(٣) هذه الممارسات أو الأساليب تناولها محمد غوث فى كتابه « بحر الحياة » وهو ترجمة لكتاب هندى عن اليوجا :

قد وصلت مصر وليست المغرب ^(١) ، وكان هو أول من كتب بحثاً منهجياً عن (الذكر) ويفتتح كتابه « مفتاح الفلاح » ^(٢) فى ذكر الله : وهو الرسالة بعينها التى تعتمد عليها الطريقة فإننى لم أقابل أحداً ألف كتاباً شاملاً ومريضاً عن الموضوع ... وهذه الثغرة اقترح على أحد الأصدقاء أن أملأها ^(٣) .

وهناك مجموعة أسبق من الأذكار ارتبطت بالفرق المميزة وهى الرسالة للحسين بن على العجيمى (توفى ١٧٠٢م/١١١١هـ) والتى تحتوى على الأذكار ، والأوراد مع إسناد النقل للفرق الأريمين التى حافظت على التوازن الروحى للإسلام ، ولقد وجد عمله المقلدين أو بالأحرى السارقين ، وكان أشهر هذه الأعمال المقلدة هو (عقد الجمال) تأليف محمد بن الحسين المرتضى الزبيدى (توفى ١٧٩١م/١٢٠٥هـ) و (السلسيل المعين فى طرائق

(١) يبدو أن المناهج والأساليب الجديدة لم تصل المغرب قبل منتصف القرن الرابع عشر ، فالحكم على قانونية أو شرعية الممارسات الصوفية كان فى الغالب يرجع إلى الفقهاء ، وبعضهم مثل ابن الجوزى وابن تيمية مما كان لهم إهتمام خاص بهذا الموضوع .

راجع : ابن تيمية وموقفه من الفرق ، د. محمد حري ، مرجع سابق (المترجم) .

(٢) هناك شكوك حول صحة نسبة هذا الكتاب لابن عطاء الله ولكنها شكوك لا أساس لها .

راجع فى ذلك : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه : أبو الوفاء التفتازانى ، ط. القاهرة ، ١٩٥٨ م .

(٣) هذا الكتاب أى (مفتاح الفلاح) لابن عطاء الله السكندرى مطبوع على هامش كتاب «لطائف المنن» ، للشعرانى ١١٢ . ط. القاهرة ١٣٥٧هـ المؤلف .

تعليق : من المعروف أن كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وليس للشعرانى .

ولقد طبع لطائف المنن فى المكتبة السعيدية ، القاهرة ، عام ١٩٧٢ م .

أما كتاب الشعرانى الذى يقصده هنا فهو « الطبقات الكبرى » الصادر عن مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ، القاهرة ١٣٥٧هـ (المترجم) .

الأربعين) تأليف محمد بن علي السنوسي (توفي ١٨٥٩م) الذي اعترف بمدونيته (١) .

إن تلقين المريد في المرحلة الأولى للطريق الصوفي يعنى إختياره الطوعى لإعادة حياته من نفسه إلى الله ، باتباع طريق معتمد ، والذي يعنى إقتفاء منهج يؤدي إلى تسليم الإرادة ، وتحول الرغبة من التمرکز الذاتى إلى التمرکز الإلهى وعدم السعى وراء الكثير (٢) للهروب من الذات مثل لكى تتسامى الذات ، ولذلك يدخل خبرة لازمانية هذا هو هدف الصوفى ، أى تحقيق الجذب والتي أصبحت فيما بعد غاية فى ذاتها ، وليست هدفه هو أو الخبرة الصوفية كانت شيئاً آخر وأكثر ندرة عن هذا النوع من التجارب النفسية .

لقد عرف موجهو النفوس أن الجذب الروحى يمكن إثارته بسهولة نسبية خلال العديد من الطرق ، وفى نفس الوقت ، فإنهم كانوا مدركين بأن تجربة الجذب الروحى لايمكن تفاديها ، ومصاحبة للطريقة والتي كانوا يرشدون مريديهم وفقاً لها أما الحد الذى كانوا يسمون به لاستعمال الطرق السيكلولوجية فقد كان أحد مشاغلهم . أما التغير الذى جاء منذ القرن الثانى عشر ومابعده ، فكان إكتمال الصيغة الآلية للتجربة الصوفية (إذا أمكن أن يسميها المرء هكذا) أى إدراك أن هذه الخبرة يمكن إثارتها من أجل الرجل العادى ، فى وقت قصير نسبياً بواسطة الممارسات الإيقاعية التى تتضمن : الوضع والتحكم فى النفس والحركات المتناسقة ، التكرارات القولية ، ومع

(١) أى باعتماده فى تأليف كتابه على من سبقه وخصوصاً (رسالة العجيمى) (المترجم) .

(٢) المراد هنا علم السعى وراء الكثير من متع الدنيا ، والتخلص من التعلق بها (المترجم) .

حلول هذا القرن اكتسب الدراويش طريقة كاملة ، فقد استخدموا كل أنواع الطرق لتكييف الشخص ، وفتح وعيه لإنجذابات العالم الفوق حسى : مثل الأعداد والرموز المقدسة والألوان والمشمومات (الروائح والأبخرة) وحركات الشعائر ، وأساليب التطهر ، كلمات القوة ، والدعوات شبه التعاويذ ، والتعاويذ مع الموسيقى والأنشاد والإبتهالات وتضرعات الملائكة ، والكائنات الروحية الأخرى وحتى إستعمال الكحول والمخدرات ^(١) .

إن الهدف العملى للتصوف بالنسبة للأغلبية قد أصبح هو تحقيق الوجد أو الجذب ، وليس هذا هو الوجد (فى مواجهة الله) للصوفية ولكنه كان فى الحقيقة إنحطاطاً ، والذى أدركه أوائل الشيوخ والصوفية وحذروا منه حين تناولوا موضوع السماع ، فالطريقة الصوفية التى تعتمد تحقيقاتها على المزاج الفردى والمواهب الفطرية بدرجة كبيرة ، هى للنخبة فقط وقد أدرك الصوفية أن أغلبية الجنس البشرى يولدون صم ، ويفتقدون ملكة الحاسبة الصوفية . والطرق الفتية التبعيدية للفرق كانت محاولة خشنة لإحداث نفس التأثيرات - أى إعطاء وهم عن ومضة داخل الحقيقة - فى الإنسان لذا وصل الصوفية إلى أن ساد وحاله الجذب ، مع فقد الوعى فى الوحدة الإلهية ، وهذا التطور هو أحد العلامات لما يسمى تدهور التصوف . ولكنه قد يعتبر نكيفا مع حاجات وكفاءة الإنسان العادى ويتحقق الوجد

(١) اكتشف قطب الدين حيدر (ت ١٢٢١م / ٦١٨ هـ) نصوص هذه المواد وسمح للدراويش باستخدام القنب (عشب مخدر) كما يذكر المقرئى : أن هذا النبات كان يستخدم على نطاق واسع وفى فترة لاحقة أصبحت القهوة مظهراً أساسياً لجماعات الذكر ، كما يرتبط تقديمها بأحد شيوخ الشاذلية كما انتشرت بين الصوفية فى حضرموت واليمن ، وبعد ذلك فى جميع أنحاء العالم العربى إنتشاراً سريعاً .

(الصوفي) خلال التلفظ المتكرر بالإبتهالات القصيرة مع السيطرة على النفس والتناسق مع التمارين الجسدية والتوازن والإنحناءات ، وهذا يؤدي بمصاحبة الموسيقى اللفظية والآلية ، حيث تساعد الموسيقى على تحرير المجهود البدني من التفكير الواعي ، طالما أن كلا من الذهن والرغبة يجب أن يعلقا ، إذا كان المطلوب هو الوصول إلى حالة الإنجذاب وقد تم ترتيب كل هذا ليثير خبرة خاصة عن طريقها يعتبر فقد الوعي هو التوحد أى التوحد والتي هي بين الباحث والمبحوث ^(١) . وهذه التجربة بالنسبة للبعض أصبحت محذراً تشوق إليها .

أما بالنسبة للعضو العادي فإن الإشتراك في شعائر (الذكر) والتي تقوده أحياناً فقط إلى نوبة الإنجذاب يوفر له على الأقل تحرراً من الأحداث الشاقة للوجود اليومي ، وعلى مستوى أعلى تعطيه بعض القدر من الحرية من قيود الحياة الإنسانية ولحمة من الخبرة المتعالية .

وفي تصوف الفرق يسمى هذا الجذب أو شبه النوبة (الحال) . رغم أن الحال في التصوف الحق يشير بدقة أكثر إلى تتابع الإشراقات خلال الممارسة التي يتقدم بها الصوفي إلى مرحلة أكبر مقام نحو هدف الكمال الروحي ^(٢) .

(١) المقصود هنا هو التوحد أو الوحدة مع الله ، فالباحث هنا هو الصوفي والمبحوث هو الذات الإلهية.

(٢) هناك فروق ظاهرة بين الكتاب في تعريف مصطلحي الحال والمقام ، ولكنني أتابع تفرقة القشيري في قوله (الأحوال مواهب والمقامات مكاسب) بمعنى أن الحال منه إلهية بينما المقام يتحقق بالجهد البشري ، فهو عملية متبادلة متتابعة من الإتجاه نحو القرب من الله .. (المؤلف) . وقد سبقت الإشارة إلى هذه المصطلحات في تعليق سابق .

تتميز ثلاثة أنواع رئيسية من المجاهدات هي (ذكر الأوقات) وهي الشطيرة اليومية و (الذكر الخفي) بالجلالة ، وهي الذكر الشخصي ، بينما (ذكر الحضرة) هي المجاهدة الجماعية .

وذكر الأوقات بالنسبة للمتابع المتوسط يتكون من تكرار صيغة فقيرة بعد صلاة أو إثنين من الصلوات اليومية المفروضة وهو تمرين إجباري ، والذي توجد مساندة قرآنية قوية له « فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » . من الآية ١٠٣ (١) من سورة النساء . والأذن بتلاوة الذكر يعطيه الشيخ وأسطه صيغة بين القادرية تتكون من تكرار « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وتكرر كل منها ٣٣ مرة ، وكصيغة شائعة من الصلاة النافلة التالية « للصلاة » المفروضة يجب أن يتميز عن عبارات الذكر التي يمنحها المرشد سراً ، ينفذ هذا التكرار عموماً بمساعدة المسبحة (السبحة) وتفضل الفرق صيفاً خاصة (٢) وأشكالاً معينة من السبع فالقادرية لها ٩٩ حبة مقسمة إلى ثلاثة أقسام بكل منها ٣٣ حبة . أما التيجانية تتكون السبحة عندها من ١٠٠ حبة مقسمة إلى ١٢ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٠ ، ١٢ ، وتوجد توليفات أخرى أكثر ندرة فالخلوتية لهم مسبحة بها ٣٠١ حبة ، كما توجد سبحات من ألف حبة تستعمل في مهام فردية خاصة . وحتى في المناسبات الجماعية مثل الليلة الأولى والثالثة والسابعة والأربعين من الليالي التالية للجنائز . وقد اكتسبت السبحة (٣) أهميتها الرمزية خلال الاستعمال في إحتفالات التلقين والتعليم والممارسات الدينية

(١) في الأصل الآية ١٠٤ والصحيح ما ألبناه (المترجم) .

(٢) بمعنى أن كل فرقة لها صيغة ذكر تفضلها وسيح خاصة بها كذلك (المترجم) .

(٣) راجع للمترجم كتاب البدعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط . ١٤١٠ هـ .

الأخرى ، وقد كانت رمزاً للسلطة . وسبحة مؤسس الطائفة يرشها خلفاؤه بكونها مؤثرة بصفة خاصة حيث أنها تشربت ببركة تلاوة ، للأسماء الحسنى طوال حياته فكانت تحفظ فى صندوق خاص وتقدم مع حارس (شيخ السبحة) وخادم (خادم السبحة) .

والذكر الفنى للحق والذى تهتم - بصورة رئيسية - الكتيبات فى وصفها له قائم على إيقاع التنفس الزفير والشهيق . مع غلق العيون والشفاء باستعمال صيغة التهليل الأساسية ^(١) فيقوم (الذكر) بالشهيق مركزاً على لا إله إلا الله ، ثم المشاغل الخارجية ثم يزفر مركزاً على إلا الله ، ليؤكد أن الكل هو الله ، والعملية أو الأساليب ككل مذكورة باتفاق فى الكتيبات ، وأحياناً تكون معقدة بدرجة تجعلها غير قابلة للترجمة بدون تعليقات : وهنا ذكر نقشبندى خفى نذكره ببساطة : « يجب أن يحافظ على جعل لسانه مضغوطاً على سقف فمه ، وشفته وأسنانه مغلقة تماماً ، ويكتم نفسه ثم يبدأ بالكلمة (لا) ويجعلها تصعد من السرة أو الوسط إلى المخ ، وحين تصل إلى المخ يقول (إله) إلى الكتف الأيمن و (إلا الله) إلى الجانب الأيسر وأفعالها بقوة إلى القلب الصنوبرى ^(٢) والذى من خلاله تدور فى كل باقى الجسم ، والجملة « محمد رسول الله » تجرى بعميل من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن ، ثم يقول المرء يا إلهى أنت مقصدي وإرضائك هو هدفي أو غاييتي » ^(٣) .

(١) هى القول « لا إله إلا الله » هى صيغة نفى وإثبات وهى الجزء الأول من « الشهادة » .

(٢) سمى كذلك لأن القلب على شكل مخروط صنوبرى .

(٣) مقتبسة من كتاب « رسالات فى سنن طائقات النقشبندية » تأليف تاج الدين بن زكريا الرومى ، ونفس هذه الممارسة أو المجاهدة يصفها السنوسى فى السلسيل فى مصطلحات مختلفة وتفصيل أكثر (المؤلف) .

وكتاب السلسبيل ملئ بهذه الأوصاف والمجموعة من أجزاء ، والتي يبدو بعضها غير كامل ومايلي هو وصفه للذكر القادري والتي يفترض أنها جماعة هندية .

عند جلوسه ساقيه متقاطعتين ، كأن يمسك أصبع قدمه الكبير بالرجل اليمنى (وهو الأصبع الذي يوصل بالوعاء الدموى المسمى كيماس^(١) وهو الوعاء الدموى الكبير الواقع فى فراغ مفصله الركبة ، ويضع يديه على ركبتيه فاتحاً أصابعه فى شكل كلمة الله ، ويبدأ اللام مطبلاً فيها حتى يفتح قلبه ، وتكشف الأنوار الإلهية ، بعد ذلك يعد نفسه ليؤدى مع ذكر عوراد بردية^(٢) ، وهى ذكر الفناء والبقاء المنسوب إلى شيخ الشيوخ عبد القادر ، ومن أجل هذا فإنه يجلس فى الوضع السابق ذكره موجهاً وجهه لأسفل نحو كتفه الأيمن ، ثم يقول « ها » ومديرأ وجهه لليسار قائلاً « هو » فائضاً رأسه ناطقاً فى سره كلمة « حى » ويستمر مكرراً هذا دون توقف . ويتبع النقشبنديون التراث الملامتى ، فيما يمضى (الذكر) مستبعبدين الجلسات العامة و (السماعات)^(٣) ومركزين على الذكر (الخفى) ومبادئهم الأحد عشر توضح أهداف مجاهدات الطريقة ، فالثمانى

(١) كيماس : كلمة هندية تطلق على وريد (وعاء دموى) له أهمية خاصة فى جلسة الذكر عند الفرق الصوفية الهندية (المترجم) .

(٢) عوارض برد : كلمة فارسية تعنى مجاهدة ، وهى تستخدم للإشارة إلى ممارسة خاصة فى ضبط النفس ... (المؤلف) .

(٣) وهناك بعض الجماعات التى تغطى أنفسها رخصة عدم تنفيذ هذه القاعدة .. (المؤلف) .

الأول صاغها عبد الخالق الفدراني والثلاثة الأخيرة أضافها بهاء الدين النقشبندی (١) .

١ - التذكر : بالقول والعقل ، كن دائماً مكرراً للذكر الذى أعطى لك
لكى تكتسب الرؤية المبهجة ، ويقول بهاء الدين : الهدف فى
(الذكر) هو أن القلب يكون دائماً مدرّكاً للحق لأن ممارسته تبعد
السهو والإنشغال .

٢ - الكبح : إن الذاكر حين يشغل فى التكرار القلبي للعبادة المباركة (٢)
يجب أن يثيرها هنا وهناك بجمل مثل « ربي » أنت مقصدي ورضاك
هو مرادى ، لتساعد على حفظ أفكار المرء من الشرور . ويقول شيوخ
آخرون أنها تعنى العودة والتوبة أى الرجوع إلى الحق عن طريقة الندم
والإنكسار .

٣ - المراقبة : على شروء وزينغ الأفكار عند تكرار الكلم الطيب .

٤ - القبح : وهو التركيز على الحضور الإلهي فى حالة الذوق (٣) . وهو
توقع حدس للأمور ، دون إستخدام مساعدة خارجية .

(١) القائمة التالية مأخوذة من القائمة التى يذكرها تاج الدين مهدي الزمان الرومى فى كتابه
«الرسالة» ... (المؤلف) .

اسم كتاب تاج الدين بالكامل « رسالة فى سنن الطائفة النقشبندية » ... (المترجم) .
(٢) هى الكلمة الطيبة (..... إليه يصعد الكلم الطيب) الآية ١٠ من سورة فاطر ، والكلمات
الطيبة منها مثلاً الشهادة .

(٣) يختلف معنى الذوق من كانت لآخر ، ومن سياق لآخر (المؤلف) .
ووضع لنا القشيري تعريفاً للذوق فيقول : « ... ومن جملة مايجرى فى كلامهم الذوق
والشرب ، ويعبرون بذلك عما يحورونه من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبوادر الواردات ==

٥ - الوعى أثناء التنفس : وهى الطريقة الفنية لضبط أو التحكم فى التنفس
وقد قال بهاء الدين : الأساس أو القاعدة الخارجية لهذه « الطريقة »
هى التنفس ، فيجب على المرء ألا يقوم الشهيق فى نسيان أو الزفير
فى نسيان أو غياب عن التفكير .

٦ - السفر فى الوطن : وهذه مرحلة داخلية أى الانتقال من الصفات
المستحقة للوم إلى المستحقة للثناء ، ويشير آخرون إليها كروية أو إلهام
للجانب الخفى من « الشهادة » .

٧ - مراقبة خطوات المرء : دع « السالك » (الحاج) يكون مراقباً دائماً أثناء
رحلته مهما كان نوع البلد أو الدولة التى سيمر فيها فإنه لن يترك
نظره ينصرف عن هدف رحلته .

٨ - العزلة فى الحشد أو الجمع : إن (رحلة السالك) رغم أنها خارجية فى
العالم أو الدنيا فإنها داخلية مع الله ، ولقد قال شيوخ الطريقة : « فى
هذه الطريقة يكون الإرباط فى الجماعة والعزلة فى الخلوة » الممارسة
الجماعية الأسبوعية فكانت لأداء ذكرهم جماعياً . حقاً إن الأعمال
الطيبة للمستقيم هى دنو ذوى القرب من الله .

٩ - وقوف الزمان مراعاة المرء كيف يقضى وقته ، فإذا كان بصورة
صحيحة فهو يستحق الشكر ، أو بطريقة خاطئة ، فإذا كان ذلك
فاطلب له المغفرة ، طبقاً لرتبته (من الأفعال) .

== وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى فصفاء معاملتهم يوجب لهم ذوق المعانى ... وإنشدوا :
إنما الكأس رضاع بيتنا فإذا ما لم تذوقها لم نعطش
راجع الرسالة القشيرية للقشيري، ص ٣٩ (المترجم).

١٠ - الوقوف العددي للتأكد أن (ذكر) القلب قد تكرر وفقاً للعدد المطلوب ، من المرات أخذاً في الحسبان أفكار المرء الشاردة .

١١ - وقوف القلب : يتشكل صورة عقلية لقلب المرء باسم الله محفوراً فوقه ، ولتأكيد أن القلب ليس له وعى أو هدف آخر غير الله (جل
جلاله) (١) .

إن معظم الفرق لها تلاوات جماعية منتظمة في التجمعات المعروفة باسم « الحاضرة » ومثل هذه التلاوات تشكل تقريباً جزءاً من التلاوات التعبدية ، وكلمة « حاضرة » حلت محل المصطلح (سماع) في الاستعمال الأقدم ، وتعنى الحضور وهى ليست مأخوذة لتشير لوجود الله (مثل الحاضرة - الربوبية) عند الصوفية حيث أن الله موجود فى كل مكان ، ولكن تشير إلى وجود النبى - صلى الله عليه وسلم - أن تحول التأكيد يميز خصوصاً الطرق الناجمة أو المتفرعة عن الحركات الإصلاحية للأحمديين فى القرن التاسع عشر ، ومحمد عثمان مؤسس الميرغنية فى بداية قصيدته عن المولد يصف كيف ظهر (النبى - صلى الله عليه وسلم) له فى حلمه « وأمرنى أن أكتب التقفية للقصيد بالهاء والجيم . وهذا ما فعلته وأعطاني دعوة أنه سيكون موجوداً حين تقرأ هذه القصيدة ، ولذا فقد كتبتها حتى يمكن أن يشرف الناس بقدومه حين تقرأ » (٢) .

(١) هذه الكلمات الأحد عشرة لها معان أعمق لا نجد لها فى الكتيبات العادية فبالنسبة للكلمتين (٩ ، ١٠) يمكن أن نصور الواقع الذى توقف عن البحث أو الطلب - نتيجة لتساميه عن الزمان والمكان - وتوقف تماماً (وقفة تلبية) فى المطلوب (أى الذات الإلهية) (المؤلف) .

(٢) يقول محمد الميرغنى فى كتابه تاج التفاسير ، ص ١٢٧ عند قوله تعالى : « أو من كان ميثاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » .. يقول : ولما وصلت فى التفسير إلى هذا الموضع رأيت فى تلك الليلة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى محفل من الرسل الكرام ==

وتتكون (الحضرة) فى أبسطه صورها فى جزئين : أ - قراءة حزب
الفرقة ودعوات أخرى ، ربما مصحوبة بالموسيقى والإنشاد ؛ ب - الذكر
نفسه مصحوباً كله بالموسيقى والأناشيد وعموماً تبدأ بدعوات خاصة تسمى
فاحة الذكر ، أو إستفتاح الذكر وتقام الحضرة كل جمعة (مساء الخميس)
وفى مناسبات خاصة أثناء العام الهجرى أو تقويم الطائفة ، وحياة عضو مثل
الميلاد أو الختان ، ويحتفل بها فى مقر الفرقة أو منزل أحد أعضائها أو زاوية
الشيخ المحلى .

إن النموذج العام للذكر الشاذلى يبدأ بفاحة الذكر ^(١) والذى يمكن
أن يكون بسيطاً مثل « ياواحد يا الله » ثم يجلسون فى دائرة فى وضع
يفرضه الإمام بعد التركع ويكون الشيخ فى المركز وحوله يتجمع المنشدون ،
وحولهم المريدون ويتكون حزب الفرق والذى يستغرق حوالى ٣٠ دقيقة ،

== ويقول لى : الأنبياء من نورى . وطارت نقطة نور منه فتخلق منها صورة سيدنا إسماعيل الذبيح
فقال لى هكذا خلقوا من نورى ، والأولياء من نور الختم ثم رأيته تلك الليلة عن يمينه جبريل
وعن يده اليسرى ميكائيل وأمامه الصديق ، وخلفه الإمام على فقال لى - صلى الله عليه
وسلم - بعد أن دنوت منه وقبلت وجهته الكريمة ما قام بأمر الله والمؤمنين أحد بعدى مثلك
شكر الله سعيك ... فقال تعبت فى المؤمنين ونصحتهم ماتع منهم أحد بعدى مثلك فقلت
له أَرْضَاكَ ذلك ؟ قال : أَرْضَانِي وَأَرْضَى الله من فوق سبع سمواته وعرشه وحجبه . ثم نادى
رضوان فقال : يارضوان عمر جنانا ومساكن لابنى محمد عثمان وأبنائه وصحبه وأتباعه ،
وأتباع أتباعه إلى يوم القيامة . ثم قال يا مالك فحضر فقال عمر فى النار مواضع لأعداء محمد
عثمان إلى يوم القيامة . وأطال الكلام فى الواقعة ونسأل الله التوفيق لشكر النعم بحق المصطفى
صاحب الأسرار الجامعة أ. هـ .

تاج التفاسير ، ص ١٣٧ ، محمد عثمان مرغنى (المترجم) .

(١) فى القادرية يطلب التقيب قراءة الفاحة بالصيغة التالية : « أول قولى شرف لله بالفاحة » ...
(المؤلف)

والتي يحفظها الجميع عن ظهر قلب سواء المتعلمون وغير المتعلمين ، وبعد ذلك يبدأون الذكر فينشدون أولاً التهليل وهي جملة (لا إله إلا الله) ببطء ثم أسرع ويبين الشيخ تغير إيقاع الإنشاد عن طريق الهتاف أو التصفيق باليد أو أية وسيلة أخرى ، ثم ينهض الشيخ فيقف الجميع والدائرة الخارجية متشابكة الأيدي ، وعادة مغلقين أعينهم كمساعدة على التركيز ، وتصبح الحركات أسرع للخلف وللأمام بمرجحة ، أو تمايلاً من اليمين لليسار ثم تغير الحركة إلى القفز وطوال الوقت يستمر الإنشاد وبعد فترة يتوقف الشيخ فتتوقف الحركة . ولكن المنشدين دون تعب يستمرون في الإنشاد وتنشد المجموعة كلمة (الله) أو يكون نشيداً أو مقطعاً بعد الآخر وراء المنشدين ، ثم يبدأ الذكر الجسدي من جديد ويسير بمرونة كبيرة داخل الشكل العام للحضرة ، وهنا مثال آخر عن الذكر الشاذلي الذي حضرته ؛ حيث يجلس المشتركون إما في دائرة أو في خطين (أى صفين) متواجهين أحدهما للآخر والشيخ والمنشدون في الوسط أو في أحد الأطراف ، ويبدأ الذكر بتلاوة التهليل في صوت عال (المراحل تسمى مراتب الذكر) لمدة ساعتين تقريباً (لايجرى حساب الوقت) ولكن مع التفاوتات في هذا ثم عند إشارة من الشيخ يجلسون على الأرض متقاطعي الأرجل ويستمرون صامتين (رغم أن النفس الإيقاعي في توحيد يكون مسموعاً بوضوح) والتمايل من جانب لآخر أو للأمام وللخلف ، يلي هذا وعلى أقدامهم مرة أخرى أى واقفين تكرر كلمة الله لمدة نصف ساعة بصوت عال ، ثم تتبعها كلمات « هو » الحق ، حى ، قيوم ، قهار ، في تلك الفرقة تأخذ الخمس كلمات نصف ساعة (هذه الكلمات السبع مرتبطة بالبرنامج ذو السبع مراتب) وتنتهى الحضرة بدعاء طويل أو أكثر مجموعة المآثر العلية والتي عند ذلك الوقت يكون كل واحد قد عاد إلى حالة الوعي العادى بصورة أكبر .

والحضرة القادرية تسمى غالباً « الليلية » وتقع فى ثلاث مراحل :
تلاوة المولد النبوى للبرزانى ثم حزب الفرقة وهو الذكر الحقيقى مع
الترانيم ، وتتكون الثالثة من المديح والذى يكون فى هذه الحالة يعنى التراتيل
أو الأناشيد المقدسة ودعاء طويل من كتيب الفرقة . وحزب الفرقة القادرية
تفاوت طبقاً للخلفاء الفرديين فكل منها فى الإتهالات والطرق وعدد مرات
التلاوة، ولكن هذه التفاوت تقع عملها فى مجال ضيق (١) .

والذكر كما سنرى يتبع مقياساً متعرجاً من الجهد ويتبع تعاقباً لأسماء
الله الحسنى وللبداء بالذكر فإنهم ينطقون الاسم ببطء واضح ، مصحوباً
بحركة إيقاعية بطيئة متمايلين من جانب لآخر ، أو لأعلى ولأسفل على
أطراف أصابعهم أو إنحناءات للأمام وللخلف (٢) . ثم يركزون على صفة

(١) أخبرنى أحد الشيوخ أن حزب الفرقة فى التجمع يتكون من أحد أو كل إتهالات « الورد
الأصغر» يؤديه المريد المبتدئ بعد أحد - أو أكثر - الصلوات المفروضة ، وقد قدمه لى
كما يلى :

الصيغة كما يلى :

التسبيح : سبحان الله ١٠٠ مرة .

التحميد : الحمد لله ١٠٠ مرة .

الحوقلة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ١٠٠ مرة .

البسملة : ١٠٠ مرة .

الاستغفار : استغفر الله العظيم ١٠٠ مرة .

التوبة : تبت إلى الله ١٠٠ مرة .

الصلاة : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ١٠٠ مرة .

التهليل : لا إله إلا الله ١٠٠ مرة .

أما الورد الأكبر - كما قال لى نفس الشيخ - فيتكون من تكرار التهليل ٧٠ ألف مرة ..
(المؤلف).

(٢) حركات الذكر الجماعى المرغنى كما يلى : « عند نطق الذكر ينبغى على الذاكر أن يميل ==

واحدة ، وتسرع الحركة ، ويصبح النطق أكثر فأكثر نقطعاً ويتغير إلى صرير
بالأسنان وصياح أو هدير ودمدمة .

وعند نقطة معينة سينادى الشيخ للتوقف الفجائى ، ولكن المنشدين
يستمرون فى الإنشاد أما الذاكرون يرتاحون فى غيبوبة فى عالم آخر ثم يبدأ
الذكر من جديد ، وتنظيم هذا يكون كلية فى يدى الشيخ الموجه ^(١) .

وإنشاد المولد النبوى جانب هام جداً فى كثير من تجمعات الحضرة،
فالاحتفال بمولد النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسماعيات كان طريقة
صوفية قديمة ، رغم أنها لم تكن شائعة ، ولكن هذا الشكل الخاص من
(الأوبرا) للأداء فى هذه المناسبة قد تطور مؤخراً ، ومن المدهش أن أول مولد
حقيقى بقدرها كما أفهمه كان مؤلفاً باللغة التركية ، ومؤلفه الشاعر
العثمانى الأول بصفة قاطعة كان خلوتياً يدعى سليمان شيلبى (توفى
١٤٢١م/٨٢٥هـ) وهو رجل ابن ملحق بالقصر الخاص بـ (أبا يزيد) الذى
أسره تيمور وقد تليت القصيدة داخل الدوائر الصوفية ، أما الإحتفالات
الرسمية بالمولد الحقيقى وهو ١٢ ربيع الأول فيبدو أنها بدأت فقط فى

== رأسه نحو اليمين أثناء قوله (لا) ويميل نحو صدره عند قوله (إله) ونحو قلبه عند قوله (إلا
الله) ... وينبى أن يأخذ نفسه خلالها من أنفه نحو قلبه حتى يستقر الاسم المقدس فى قلبه
ويقضى على كل الأفكار السيئة (الشريرة) وعليه كذلك أن يؤكد على الهمزة ويطيل نطق
الألف ، والهاء فى كلمة (إله) ينبى أن تتبعها فتحة طويلة أما الهاء فى كلمة (الله) فتكون
ساكنة.

(١) هذه الممارسات القادرية موجهة طبقاً لكتاب ينسب إلى عبد القادر (سر الأسرار ومظهر الأنوار)
وكذلك كتاب اسماعيل بن محمد سعيد (الفيوضات الربانية فى المآثر والأرواد القادرية ...
(المؤلف)

(١٥٨٨م/٩٩٦هـ) على يد مراد الثالث^(١) . ويوجد دائماً تعارضاً كبيراً بين الإحتفالات الرسمية المحاطة بموكب كبير ، وبين إحتفالات الناس المتصفين بالتقوى البسيطة والحماس الشعبي والمرح .

أما أناشيد المولد فى العالم العربى فقد أخذت شكلها المميز فى زمن السيوطى (١٤٤٧/١٥٠٣م) والمولد العربى الأول (بخلاف النوع الأسبق لذكرى الرسول مثل قصيدة البردة^(٢) للبوصيرى والقصيدة الحمزية له أيضاً) كان مولداً شرف الأنام ، تأليف عبد الرحمن بن الدياء الأيذى (عاش فى الفترة من ١٤٦١ / ١٥٣٧م) .

(١) وفقاً لما ذكره دوسون فى كتابه (السجل العام للإمبراطورية العثمانية) فى خمسة أجزاء ، والذي يقدم فيه وصفاً للإحتفال الرسمى (بالمولد) فى مسجد السلطان أحمد فى القرن الثامن عشر .
(المؤلف)

(٢) هو الإمام شرف الدين أبى عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى (عاش فى الفترة من ٦٠٨ إلى ٦٩٦ هجرية ، من أصل مغربى . ولد بمصر وعاش بها فى عهد الظاهر بيبرس ، وقد اشتهر بقصيدته المسماة (بردة المديح المباركة) فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسمى هذه القصيدة أيضاً (الكواكب الدرية فى مدح خير البرية) ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
وله أيضاً القصيدة الحميدة (وليست الحمزية) ومطلعها :

محمد أشرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشى على قدم
وكذلك القصيدة المصرية فى الصلاة على خير البرية . ومطلعها :

يارب صل على المختار من مضر والأنبيا وجميع الرسل ماذكروا
وعاش البوصيرى أخريات حياته بالأسكندرية ، وتوفى بها ، ودفن فى مسجده الشهير بالمدينة .
وجدير بالذكر أن لأمير الشعراء قصيدة عارض بها البردة ، أسماها نهج البردة .
راجع معجم أعلام الفكر الإنسانى ، إشراف د. مذكور ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤م ، ص ١٠٨٧ ، وكذلك بردة المديح . ط. الشمري ، ١٩٧٣م (المترجم).

وشعبية هذه القصائد متأخرة نسبياً فهي لم تصبح شائعة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وهي تتميز بصفة خاصة فرق القرن التاسع عشر مع تركيزها على حضور الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكثير من مؤسس هذه الفرق قد كتبوا (مولداً) ولكن الأول الذى حقق شهرة كان للبرزانجى (توفى ١٧٦٦م) ، وقد تبيتته الفرق الأقدم ، والقادرية بصفة خاصة ، وكان سمة لشعبيتها المتجددة مع نهاية القرن التاسع عشر ، وقد كان هذا هو أكثرها شيوعاً منذ ذلك الحين كمولد يؤدى (فى المناسبات) أما أغلب الموالد الأخرى فقد أنشدت داخل دائرة فرق معينة ^(١) ، وأناشيد المولد من هذا النوع لم تصبح شائعة تماماً فى العالم الإسلامى ، أو حتى فى العالم المتكلم باللغة العربية ، وفى المغرب أخذت إحتفالات المولد شكل تلاوات القصيدة التى تنشد تكريماً للرسول - صلى الله عليه وسلم - بواسطة فئة معينة من القصائدين أى منشدى القصائد .

وفى مناسبة الصعود الليلي ^(٢) للنبي - صلى الله عليه وسلم - فى ليلة ٢٧ رجب وأحياناً فى مناسبات أخرى ، تتلى قصة المعراج بدلاً من

(١) مثل مولد (سمط الدرر) والمعروف باسم (مولد الحبشى) على اسم مؤلف على بن محمد الحبشى من الطريقة العلوية الحضرية ، أما مؤسس الفرقة التيجانية فلم يؤلف مولداً . ولذلك يمكن أتباعه بنشدون أحد الموالد ، وإن كان لديهم مايعادله فهم يعتقدون أن الرسول يأتي خلال التلاوة السابعة لقصيدة جوهرة الكمال التى ذكرها علوان الجوسقى فى (السر الأيهر) كما أن محمد بن المختار الذى أدخل التيجانية فى السودان المصرى كتب (مولد الإنسان الكامل)
(المؤلف)

(٢) يقصد ليلة الإسراء والمعراج (المترجم) .

المولد، وهذه هي الأسطورة^(١) التي طبقاً لها حدثت رحلة الطيران المعجزة للنبي إلى القدس^(٢). ولها ذكرى بالقرآن لنقطة الإنطلاق في السورة على جواد سماوى يسمى البراق، وصعد خلال السموات السبع إلى مسافة ذراعين أى طول قوسين من العرش الإلهي، وتلعب هذه الأسطورة دوراً هاماً في الرمزية التي يصف بها الصوفية صعود النفس مثل كتاب (الإسراء الأعلى لمقام الأسراء) لابن عربي وبعض قصائد المولد مثل تلك التي لسليمان شيلبي. وتتضمن أيضاً المعراج وأكثر التلاوات شعبية هي تلك التي ألفها البرزنجي وقصة المعراج الكبرى تأليف نجم الدين الغيطي (توفي ١٥٧٦م) مع الحاشية للدردير (توفي ١٧٨٦م).

(١) لا أوافق المؤلف على هذه العبارة. فالمعراج حق، وقد أسرى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وعرج بشخصه في القفظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء وأوحى إليه ما أوحى. فالصحيح أنه أسرى بجسد الرسول - صلى الله عليه وسلم - في القفظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً على البراق في صحبة جبريل لم عرج به إلى السماوات العلا، فرأى في الأولى آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم عليهم السلام، ثم رفع إلى سدره المنتهى، ثم رفع إلى البيت المعمور لم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فلنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فأشار عليه موسى عند عودته أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف، فلم يزل بين موسى وربه حتى جعلها الله خمساً، وبما يدل على أن الإسراء بالجسد قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) والمبدع عبارة عن مجموع الروح والجسد معاً.

راجع « عقيدة المسلمين للبيهقي » شرح الطحاوية للطحاوى (المترجم).

(٢) لم ولن يفهم مؤلف هذه الكتاب الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس فالحكمة هي إظهار صدقه - صلى الله عليه وسلم - في دعوى المعراج، حين سأته قريش عن نعت بيت المقدس فنته لهم، وأخبرهم عن عمرهم التي مر عليها في الطريق، ولو كان العروج إلى السماء مباشرة ما حصل ذلك إذ لا يمكن إطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته (المترجم).

ويتبع المولد شكلاً قياسياً ، فبعد الشكر لله كمقدمة وبعض الإبهال والتضرع ، تبدأ القصيدة بوصف النور المحمدي ، والمبدأ الأبدى للخلق ، والخلافة العلوية والتي عبر فيها النور عن نفسه منذ آدم وخلال الأنبياء وحتى مولد محمد - صلى الله عليه وسلم - (١) . أما المقطع من القصيدة حين يهبط الرسول فهو أكثر الأجزاء ورعاً من التلاوة وفي الكلمات (ولد نبينا) ، أو جملة مساوية فإن الكل يقف ليرحب به مع الكلمات « مرحباً يا مصطفى » ، أو « يانبي » السلام عليك) ، وتستمر القصيدة لتتبع نواح معينة من حياة النبي ، مع التركيز على معجزاته وفضائله ومناقبه والأناشيد التي تنشأ بين الفصول أو الأقسام المختلفة تتبع نموذجاً طقوسياً بالتفرع والاستجابة ومثال عن الليلة للفرقة الميرغنية ستوضح هذا النموذج (٢) .

تبدأ الليلة بالزفة من منزل الخليفة حيث يكون الجميع مجتمعين ، ويتجه إلى المنزل الذي سيعقد فيه (المولد) . وتحمل الأعلام الخضراء في مناسبات خاصة ، وأثناء الزفة ينشد المنشدون الشطر التالي ويزعم المؤلف أنه هو « القطب اللوغومي » تأليف جعفر بن محمد عثمان الميرغني والتي يطلقون عليها « السنينة » .

بقوة تصميمي فقد شربت كأس المعرفة
وأدعيت بالترحيب بكل منحة منحتها
فإن حبيبي جدد نشاطي بتغمة من المعرفة

(١) حديث غير صحيح وقد سبق التعليق عليه (المترجم) .

(٢) أخذنا هذا من مؤلفنا : (الإسلام في السودان) .

فأنت ترى يا صديقي أن حكى فوق كل المخلوقات
أنا عمود الكون - منحة من مولاى
أنا كنز الأنوار وسط الخليقة
أنا المختار من بين المختارين فوق السموات
أنا الباب ، وسلطتى تشمل الشرق والغرب
أنا ومضة النور فوق الخليقة
أنا أول من وجد (١)

وعند الوصول إلى الساحة يصطفى المؤدون فى دائرة مع لمبة ، ومحرقة
بخور ، وكل أحذيتهم فى الوسط ، وفى أحد الجوانب يقف المنشدون
الأربعة ، ويدعون الخليفة أولاً لقراءة الفاتحة فيقرأها الجميع فرادى ، ثم
ينشدون معاً التهليل مئة مرة ، وينشد المنشدون نشيد يسمى المنبهة، والتي
يطلبون فيها العون من الله .

أما المرحلة الثانية فهى إنشاد (المولد النبوى) تأليف مؤسس الطريقة
وهو مقسم إلى أربعة عشر فصلاً تسمى ألواح ، وتبدأ بفصل عن تفرد
الإسلام ، يليه وصف لحلم المؤسس والذي رأى فيه النبى - صلى الله عليه
وسلم - وكيف أن الله خلق المادة المميزة وهى نور النبى أولاً قبل كل شئ
وقبل آدم ، ومن ثم فصل عن ميلاده الطبيعى وفكرة عن أجداده ، وقصة
الملائكة الذين أخرجوا قلبه ونظفوه ، ثم قصة المعراج ثم الدعوة أو الرسالة
النبوية ، ووصف لمظهره الطبيعى الجسمانى وخصائصه الفاضلة .

(١) هذه الأبيات مأخوذة من النص الموجود فى نهاية كتاب جعفر بن محمد عثمان الميرغنى بعنوان
(قصة للمراج) طبعة القاهرة ١٣٤٨ هـ (المترجم) .

وينشد الخليفة الفصل الأول بعد ذلك يحدد الجماعة التي يريد أن تستمر ، والكثيرين رغم أنهم يعرفون أي يحفظون بعض الفصول عن ظهر قلب. ويقرأ الخليفة أيضاً الفصل الخاص بميلاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحين يصل إلى الكلمات (لقد ولد ...) ينهض الجميع واقفين وينشدون المديح ^(١) وحين يستكمل هذا اللوح ^(٢) تنشد ترنيمة الترحيب بالرسول (تحية قدومه) ، بينما لا يزالوا واقفين ، أما الباقي فيؤدي جلوساً ، وبعد فصل المعراج تنشد قصيدة خاصة والتي الشطر الأول من كل بيت فيها تأليف ابن عربي أما الشطر الثاني فهو من تأليف محمد سر الختم (توفي ١٩١٥م) ويستمر المولد حوالي ساعتين .

ويتبع ذلك فاصل والذي ينشد أثناءه المنشدون قصائد في مدح الرسول ويجدد نشاط الجماعة بالشاي والقهوة، أما المرحلة الأخيرة فهي (الذكر) وهنا تبدأ المحاولة الحقيقية لإحداث التأثيرات ، وتبدأ ببطء شديد ويقف الذاكرون في حلقة بعبارات التهليل المصحوبة بإنحناءات إيقاعية من الرأس والجسم ، أولاً إلى اليمين ثم إلى اليسار ، والأيدى متماسكة برفق ثم تزداد السرعة ويركز أكثر على المقطع الأخير، وتتغير الحركات إلى هزات للأمام والخلف ومع كل تغير يصر الصوت أكثر خشونة ويصبح أحسن ، وفي المرحلة الأخيرة من القفز لأعلى ولأسفل تخفت الكلمات لتصبح مزيداً من الوجدان نابعة من القلب مثل التي للمنشار الخشن ، وهذا من الصيغة يسمى « حزب » . يليه أقسام أخرى وكل كلمة جديدة صيغة جديدة ،

(١) أي قول صلى الله عليه وسلم (المترجم) .

(٢) أي الفصل .

تكون وقتاً جديداً للذكر وعادة ما تنشأ قصيدة بين كل حزب ولكن يستمر الإنشاد طوال الذكر كله ويدور المنشدون وأحياناً سائرinen داخل الدائرة أو بدونها، لإثارة المؤدين للذكر وأحياناً يصيحون : مدد ، مدد ياميرغنى ، وينتهى الذكر بالحزب المسمى الدعاء أى دعاء الطريقة الختمية ، وهو دعاء للبشرية « دعاء للإنسان » والفاخرة وبعد ذلك يستريح الجميع وتذكر أسماء الأشخاص الذين يدعون لهم عند قراءة الفاخرة وأخيراً يقدم الطعام ولا توجد أى محاولة فى هذه الطريقة (أحداث ظواهر إنجذاب أو وجد صوفى) .

وتنحصر هذه الأناشيد للمولد فى الجماعات السنية لأنه بين الشيعة كانت سلوكيات العاطفة لها أثرها فى منع الحاجة إلى الإنهماك (الذكر الجماعى) طالما أنها توفر المخرج الذى يوفر الذكر . و « المولد » فى المجتمعات السنية وفى مجال الوساطة فإن الرابطة والتوجه - ستكلم عنها لاحقاً - ساعدا فى عبور الثغرة بين السنة والشيعة بإيمانتهما بالعلاقة بما فوق الطبيعة خلال « على » وأمام العصر .

ويصف السنوسى ^(١) المناهج الرئيسية للنقشبندية كالذكر الخفى والذكر الخفى بالجلالة والرابطة بالشيخ ، وطريقتى المراقبة والتوجيه ، والثلاثة الأخيرة هى الطرق الفنية التى أشرنا إليها باختصار حتى الآن كلها مبنية على التركيز والصعوبة هى أن المصطلحات الثلاثة لاتعنى نفس الشئ فى فترات مختلفة وعند الطرق المختلفة ، يوجد نوعان رئيسيان شريان ، تلك التى يريد بها المرید أن يركز كل كيانه على روح الولى أو شيخه الحالى بهدف تحقيق إتصال أو وحدة (توحد) معه أى الإمتلاك بواسطة روح الولى

(١) فى كتابه السلسيل (المترجم) .

أو الشيخ والمراقبة ^(١) وهى إتصال روحى تميز عن المنهج أو الأسلوب المسمى بالرابطة وكلمة تأمل قد تترجم الطريقة أن تخمّل على مثل النظر إلى صورة ، ولكن ليست هى العملية وما يحاوله الفرد هو كشف سر الحياة (وهى تختلف عن السر بمعنى Secret) ^(٢) بأن يفقد المرء نفسه فيها وقد استخدم الصوفية طريقة تصوير النبى أو الولى أو مرشده ، وقد مال تصوير الأخير لأن يصبح هو الأكثر شيوعاً بالإضافة إلى ذلك توجد أشكال أخرى من المراقبة مثل تأمل سورة أو آية من القرآن .

والعلاقة العادية بين المتبنى والمرشد وصفت غالباً على أنها تبنى روحى (الولادة المعنوية) ولكن العلاقة الموصوفة بهذه المصطلحات مختلفة تماماً . فالمراقبة هى طريقة عملية أى الإشتراك فى موضوع التأمل وتسمى إحدى الطرق إلى تحقيق أو بلوغ التوحد مع الشيخ ، مثلما كان جلال الدين الرومى متوحداً روحياً مع شمس الدين التبريزى ، وبعد وفاته مع حسام الدين ، وحين يتوفى الشيخ فقد كانت تجرى حالة التوحد ، أحياناً عند قبره ، والصوفى بالطبع لا يفترض أن روح الولى تكون فى القبر ، ولكنه يجد هذا المنهج ومساعداً على التأمل ^(٣) .

(١) المراقبة : علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى غلبه واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ماسلف راقب الله فى عموم أحواله .

أنظر القشيري (الرسالة) ، ص ٨٧ (المترجم) .

(٢) يقصد الكاتب هنا أن كلمة سر العربية فى هذا السياق .

(٣) أما الإصلاحيون المسلمون فقد أساءوا فهم هذا تماماً - مثل كثير من الممارسات الصوفية الأخرى - وذلك من خلال مساوئهم لها بالتجاوزات الشعبية (المؤلف) .

ووضح هنا أن المؤلف غير راض عن موقف المعتدلين المسلمين من الشطحات والتجاوزات الصوفية (المترجم)

والمصطلح رابطة لا يعبر بنفسه عن الهدف الحقيقي من العملية حتى ترجمتها (وصل أو رباط) بالشيخ تكون غير مناسبة تماماً ، ويكتب السنوسى : « أن هذا غير ممكن تطبيقه مساعداً للمرء الذى تكون نفسه متقاة بواسطة الطبيعة (أو من تكون ميوله فطرية) ومن أجل بلوغ هذا فإنه يجب أن يتصور داخلياً شكل صورة شيخه وهو يتخيل صورته كما لو كان على كتفه الأيمن ، ثم يتصور من الكتف الأيمن إلى قلبه وجود خط يمكن أن يمثل ممراً ، عن طريقه يمكن (لروح الشيخ) أن تمده لك هذا القلب ، هذه العملية إذا حوفظ عليها باستمرار ، سوف تؤكد بلوغه الإستغراق فى الشيخ (الفناء فى الشيخ) » (١) .

ويوضح السنوسى فى مكان آخر أن : « الرابطة هى عادة عامة فى الفرق الشرقية ويشير إلى هذه الصيغة من التأمل كحارس ضد الأفكار العشوائية . ويكون لديه تأييد إضافى من يقوى نفسه اعتماداً على الرابطة مع الشيخ ، أى إستحضار صورة الشيخ فى الرؤية طالباً الحماية من هجمات الوحوش البرية لوديان التدمير وتقرأ فى كتاب قادرى الرابطة متفوقة عن الذكر ، وهى تتضمن الإحتفاظ فى مقدمة عقل الإنسان صورة عقلية للشيخ (٢) ، هذا مفيد ومناسب للمريد أكثر من الذكر لأن الشيخ هو الوسيلة التى يبلغ بها المريد الحقيقة العليا ، وكلما زادت خيوط إتصاله بالشيخ كلما زادت الفيوضات من كيانه الداخلى وسرعان ما يبلغ هدفه ويجب على المريد لذلك أن يفقد نفسه أولاً يقنى فى الشيخ وبعد ذلك قد يبلغ الفناء فى الله .

(١) السبيل للسنوسى .

(٢) يطلق عليها « تصور الشيخ » فى فرق أخرى (المؤلف) .

أما التوجه فهو صيغة من الوجه ويعنى المواجهة ويستعمل فيما يتعلق بفعل مواجهة للقبلة ، أثناء الصلاة المفروضة وقد استعملت الكلمة أحياناً بواسطة الصوفية فيما يتعلق بالله ولكن مع تطور نظام التوجه أصبحت القبلة هى المرشد ، وهى البوابة أو الطريقة إلى الله ، وتوجد حياً ما فى الكتيبات (اجعل شيخك قبلتك) وهناك أيضاً توجهه إلى النبى كطريقة فنية صوفية فهو تطور للمرحلة الثالثة ، لأنه لم يوصف فى الكتيبات الأسبق وحتى حينذاك فإنها نادرة نسبياً كطريقة فنية فى العالم العربى ، وتوجد مراجع كثيرة غامضة مثلما نجد فيما يلى من كتاب على بن محمد وفا المراقبة تعنى تركيز كيائك كله على وجه محبوبك ، بينما يتضمن التوجه أن يكون المتعبد فى إستعداد لتنظيف مرآة قلبه من الغيوم حتى تنعكس عليها صورة محبوبه أو المصطلح أكثر شيوعاً فيما يتعلق بالتركيز على الكلمة القرآنية فكتاب الشاذلى مثلاً (المفاخر العلية) به قسم يهتم بالمواجهة مع الجملة لا إله إلا الله .

وهناك عرض عن التلقين بالتوجه طبقاً للصوفية الهندية فى القرن السابع عشر يقدمها توكل بيج وهو شخص عادى قضى فترتين فى خانقاه الشيخ القادرى ، وخانقاه الملاشاه باداختى (توفى ١٦٦١م) ولكنه طرد فى النهاية كطالب خطير ، فقد قال له الملاشاه : (إن إستعدادك هو إستعداد المحارب) والطريقة التى يصفها لاتتضمن تدريباً (فقد قضى الكثير من وقته لجمع قصائد الشيخ) ولكنها كانت عملية يشغل فيها المريد بهدف إثارة ظواهر النشوة المؤقتة مثل رؤية (الأنوار التى لاتوصف) ولكن الوعى أو الإدراك الروحى ليس شيئاً يمكن بلوغه بين عشية وضحاها بواسطة مثل هذه الطرق ولا خلال الأنواع السريعة الكثيرة للذكر ولكن بواسطة الطريقة المكلفة من التدريب والإنتظام .

وتوجد مصطلحات معينة لارتبطت بالعميقة ويجب أن تحدد بوضوح أكثر، فإلى جانب الذكر والذي درس من قبل فإن كلمة ورد^(١) هي الأكثر أهمية ومن الصعب تحديدها أو تعريفها وحدها ، ولكن حين تستعمل في سياق الكلام للشعائر عادة لا توجد صعوبة والإستعمالات الثلاثة الرئيسية هي :

أ - الطريقة .

ب - دعوة خاصة أو إتهال « تضرع » .

ج - وظيفة « الطريقة » .

وكما شاهدنا من قبل فكلمة « ورد » قد تعنى الطريقة أى الطريق الروحي الذي توجد الفرقة لتحافظ عليه ، ولذا لأخذ الورد من الشيخ ابن الحسن معناها أن تلقن بالطريقة الشاذلية ، والورد هو جوهر الطريقة ويحدد في دعاء واحد أو أكثر أو وردات من الأدعية .

و (الورد) كاقتراب كان يستعمل أولاً فيما يتعلق بأوقات معينة، والتي يكرس فيها الصوفي نفسه لله ، وهكذا أصبح يعنى ذكراً معيناً أو حزباً معيناً والذي يتلوه في هذه المناسبات ، ومثل هذا « الورد » ليس له شكل أو صيغة دقيقة ولكنه يتكون من « الأذكار » وأحزاب ودعوات تكون فيها العناصر الأساسية أقسام وجمل منشورة من القرآن ، وأسماء الله الحسنى التسع وتسعين ، خاصة تلك ذات الأهمية في الفرقة ، وكل طريقة وكل

(١) الورد : هو ما يردد على القلوب من الخواطر المحمودة ، فالوردات أهم من الخواطر .

راجع « الرسالة القشيرية » للقشيري ، ص ٤٤ (المترجم) .

فرقة مشتقة لها « أورادها » التى ألفها شيوخها وهذه تشكل موضوع الفرقة (أى الفكرة الرئيسية) وكتيبات الدعوات مليئة بالأحزاب لأوقات معينة من اليوم أو العام أو للمناسبات الخاصة .

إنه متاح لكل مؤمن أن يستعمل هذه الأوراد ، ولكن بالإضافة إلى ذلك يوجد « ورد » شخصى ، والذى تميز تراكماته تلقين المرید الكامل . وفى بداية تعبد المبتدئ فإنه يخصص له أول ورد سرى ، هذه هى عادة التلقين (لتعليم بالكلمة من الفم) وكما رأينا ، فقد كان الإحتفال يسمى أيضاً أخذ الورد ، وعندما يتقدم فى الطريق يعطيه شيخه الإذن بأن يتلو ، وراة إضافية أطول وأكثر دقة .

لقد أوضحنا أن هناك غموضاً ملتصقاً بتلاوة « الورد » الحقيقى وتتابع الأحزاب التى وصفناها لكن يجب أن نوضح أنه حين تستعمل الأوراد فإنها تعنى غالباً ما تعنيه تماماً الأحزاب ، لمثل هذه الأقسام من الدعوات الكاملة فى حد ذاتها ، ولكنها جزئية بالنسبة للورد الحقيقى للفرقة ، وحين يقبل المرید فإنه يخصص له مبدئياً واحداً فقط من هذه المهام الإبتهالية ، والتى يسعى لنيل بركتها لينشره فى كل كيانه خلال التكرار، ثم عندما يتقدم يكون مسئولاً عن تنفيذ مهام هامة وأكثر صعوبة إلى أن يعطى فى النهاية الورد الكامل كمرید كامل والتعليمات التى يعطيها محمد ابن السنوسى فى الفقرة التالية يتبعها معظم الشيوخ .

حين يكون المرید رجلاً عادياً فإنه يجب أن يلحق تدريجياً فى السلوكيات والأخلاقيات ، لذلك فإنه يجب أن يعطى الدعوات السهلة فقط إلى أن تقوى نفسه تدريجياً ويحض ، ثم يجب أن تزداد التعليمات عن طريق

إضافة الدعوات (تضرعات وإتهالات) للنبي - صلى الله عليه وسلم -
وحين تكون النتائج الناجمة عن التدريب أو ممارسة « الذكر » أو بواسطة
الولاء العميق ، قد أزال الشوائب من النفس ، وحين لا يرى المرء بعيون
قلبه شيئاً في هذه الدنيا والآخرة ماعدا الوجود الأوحد عن ذلك فيمكن
للمرء أن يبدأ الدعاء الكامل .

والحزب في بعض الفرق (خصوصاً في مصر) يحتوى على نفس
الإستعمالات كالورد : وهو شكل من الدعوات المؤلفة بواسطة المؤسس أو
خليفة لتتلى في أوقات ثابتة ومن ثم فإنها تستعمل أيضاً لوظيفة الفرقة ،
وتتلى في الحضرة الجماعية والتي يتلى فيها الدعاء ، وبالتالي تستخدم
للأخوة نفسها .

إلى جانب هذه الإستعمالات المرتبطة بالفرق فإن كتيبات الدعوات
ملبسة بالأحزاب والأوراد والتي قد يتعلمها أى مسلم لاستعماله الشخصى
ولا يرضى شيوخ الفرقة لمريديهم أن يفعلوا هذا بدون تخويلهم السلطة لأنهم
يتبعون منهجاً وإن كانوا لا يعترضون على إستعمالها العام ^(١) . وبعض
الأحزاب أصبحت مشهورة بصفة خاصة مثل « حزب البحر » للشاذلى الذى
يقال أنه كان النبى نفسه على إتصال به ، ومثل هذا الحزب ليس دعاءً
بسيطاً (إنه ليس عميقاً بصورة تعبدية) فهو بالأحرى، تعويذة سحرية ^(٢)
والذى يؤكد المؤلف أنه يحتوى على الاسم الأعظم (اسم الله الأعظم) وإذا

(١) أى إستعمال الناس العاديين لها ، أى أن المريدين فقط هم الذين عليهم الحصول على الأذن أو
التفويض فى إستخدام هذه الأحزاب والأوراد (المترجم) .

(٢) أى رقية سحرية (المترجم) .

تلى بطريقة صحيحة فإنه يحقق تيارات دائمة من الرحمن ويؤكد الإستجابة
الفوق طبيعية (الربانية) .

ولا تزال هناك كلمة أخرى ، رغم إستعمالها الأكثر دقة وهى راتب
(جمع رواتب) والتي تعنى شيئاً محدد ومن ثم حزباً محدداً للطريقة وأحياناً
لصلوات إختيارية أو إبتهالات غير مفروضة ، والراتب الخاص لعبد الله بن
العلوى الحداد (توفى ١٧٢٠م) مؤسس الحدادية (العلوية - العبدادية)
مشهور ويتلو على نطاق واسع فى الحجاز وحضرموت والساحل الشرقى
الأفريقى وفى بعض الفرق (الشاذلية والتيجانية) فإن الوظيفة هى المصطلح
الذى يستعمل للدلالة على وظيفة الفرقة ، وأيضاً قد يشير إلى مهمة الدعاء
أو الإبتهال .

ومعظم الفرق لها دعاء خاص للقوة ، يتلى عموماً أثناء الجزء الأول
من الذكر الجماعى وفى العيسوية يكون « سبحان الدائم » وهو تكبير لحزب
يحمل نفس العنوان من تأليف الجزولى مع إضافات بواسطة السهيلى وأحمد
ابن عمر الحارثى تلميذ الجزولى وشيخ ابن عيسى وهذا الدعاء يجب أن
يتلى يومياً بواسطة المريد بعد صلاة الصبح ، ويكون جزءاً منتظماً من
الحضرة الجماعية وبينما هذا الدعاء طويل . فالمكافئ القادرى وهو القنوت
والمكون كلية من الآيات القرآنية فهو قصير جداً .

والدعوات المماثلة للقوة هى ورد الستار عند الخلوتية ، وأوراد الفاتحية
للحمدانية ، وجوهر الكمال للتيجانية ، والأنموذج للبكناشية ، وصلاة
الماشيشية تسلية أو صيغة صلوات جديدة على النبى تأليف عبد السلام بن
ماشيش من الدارقاوية والدمياطية (قصيدة من الأسماء الحسنى التسع
وتسعين) عند الحنظلية .

الفصل الثامن

دور الفرق في حياة المجتمع الإسلامي

دور الفرق فى حياة المجتمع الإسلامى

كانت الفرق مهمة فى المجتمع التقليدى لدرجة تجعل من الضرورى القيام بمحاولة لتوضيح بعض نواحي أهميتها الإجتماعية والدينية أثناء المرحلة الثالثة ، إلى أن جاءت عملية العلمنة فى القرن الحالى والتي سبقت تدهورها السريع .

هذه المرحلة الموجزة فى مجال السوسيولوجيا الدينية (علم الإجتماع الدينى) تنحصر أساساً فى الشعوب الناطقة باللغة العربية ، حيث أنها الشعوب الوحيدة التى استمد منها الكاتب خبرته الشخصية ، والتي تعتبر ضرورية إذ كان على المرء أن يقدر أهمية المؤسسات الدينية على المجتمع فى الماضى ، طالما أنها تظهر فى نظرة مواقف شيوخ ومريدى الفرق كما توجد حالياً .

لقد كان العالم الإسلامى غير متجانس ، ولكنه كان موحداً ثقافياً ومتنوعاً فى نفس الوقت ففى داخل الثقافة كانت توجد حضارات ^(١) مختلفة (غير الحضارة كشكل مادى للثقافة) فهناك حضارة بدو

(١) قد يكون هناك من يفرق بين الثقافة وبين الحضارة باعتبار أن مفهوم الثقافة يؤكد بصفة خاصة على العادات والمعلومات والدين والعلم والفن أى على جانب المعانى والقيم والمعايير ، بينما يؤكد مفهوم الحضارة على الجوانب التكنولوجية المتقدمة والإنجازات الفارقة المتقنة فى العلم والفن .

راجع للمترجم : الغزو الثقافى - عوامله - مظاهره - نتائجه .

الصحراء والسهول ، وشعوب وديان الأنهار الذين قامت حضارتهم على الرعى والمناطق الممطرة وسلاسل الجبال ووديانها والحياة متعددة الأوجه بالمدن.

وقد صاغت هذه الاختلافات بطرق كثيرة التعبير عن الإسلام في هذه المجتمعات وقد لقيت الثقافة الشرعية الإسلامية تعبيرها الكامل بداخل المدينة بأنواعها ، ووجدت في أضعف أشكالها بين البدو سواء كانوا عرباً أو برابرة (بربر) أم أتراك ، وبالمثل في الفرق الدينية فإن شعبيتها والمذاهب التي يتبعونها قد تفاوتت في البيئات المختلفة .

لقد ضم العالم الإسلامى أيضاً ثقافات محلية مختلفة كثيرة ويتبع التنوع المحلى من كل من عوامل التباين الداخلية والخارجية (العوامل الجغرافية والعرقية) والطبقات الفرعية الدينية الاجتماعية قبل الإسلام ، والتأثيرات الخارجية ، والطبيعة والاختلافات في التوغل التاريخي للإسلام وسيبدو واضحاً أن الثقافة الإسلامية الإيرانية قد اختلفت بعمق عن تلك التي للإسلام الأفريقي^(١) ، فإيران كان خلفها آلاف السنين من الثقافة المتقدمة، والإيرانيون عند إستقبالهم تأثير الإسلام العربي^(٢) البدائي شاركوا بوضوح في تكوين الثقافة الإسلامية الحقيقية ومن وجهة أخرى فقد أتى الإسلام إلى أفريقيا السوداء متطوراً تماماً وكان عاملاً قوياً في توحيد الثقافة.

شيء واحد يجب أن يكون واضحاً تماماً ، وهو أنه رغم أن الاختلافات المحلية مميزة وواضحة فإن التوتر الديناميكي بين الإسلام والثقافة المحلية قد وجد تعبيراً في وحدة الثقافة بصورة ملحوظة. هذه المناطق المختلفة للثقافة

(١) ، (٢) سبق التعليق على مثل هذه العبارات (المترجم).

كان لها ميراث إسلامي مشترك ، ولقد اجتازت المؤسسات الإسلامية طبقاتها المختلفة الأفقية والرأسية وكانت المؤسسة الرئيسية هي الشريعة وهي القانون المثالي الذي يكون القوة الرابطة للمجتمع ، ولم يكن الميراث الصوفي في أى من نواحيه شاملاً الناحية المؤسساتية ، فقد كان دائماً مندمجاً في التركيب المرتبط بالشريعة ، بل أن مثل هذه كانت إنتشاره مع الدين الشعبي في تعبيره خلال الفرق التي تنتشر غالباً في كل مكان .

لقد كان الارتباط بمذاهب الولي الأكثر أهمية حيث أصبح التوفير الروحي جانباً عاماً للتعبير الإسلامي وكانت أفريقيا السوداء إستثناءً رئيسياً ، رغم أن العلاقة بالفرق لم تكن عامة .

إن إستجابة الجماعات المحلية للتصوف في مظاهره المختلفة قد تفاوتت بدرجة ملموسة ، ولكن لا يوجد ملخص دقيق وصحيح حيث القليل من البحوث المحلية قد نفذت وأعطت إختلافات بداخل عمل ثقافة فرعية إسلامية وليس بها أى تعميم كاف .

قد يكون من السهل أن مقارنة عالم إيراني باعتباره أساساً تعبيراً للإستجابة العقلية والشعرية للتصوف ، مقارنته بالعالم العربي ، والذي كان تفاعله غير عقلاني وملتزم بالعرف الديني ولكن تفاعل شعوب شبه القارة الهندية لا يمكن أن يقدم فرصة للتحديد الدقيق ، حيث يغطي مجالهم الغير متجانس كل نوع من التعبير الصوفي بشكل لا يجده في مكان آخر .

وقد استطاع التصوف أن يكون له جذوراً بالهند ، حيث أنها بمعنى ما كانت هناك من قبل ^(١) بينما العقلية الشرعية السامية ظلت غريبة عن

(١) أى أن جانب الزهد والتقشف - باعتباره أهم مظهر للتصوف كان موجوداً في الهند قبل دخول الإسلام .

روح الجماعة الهندوسية ، إذن فإننا قد نصف أو نصور مرة أخرى أفريقيا السوداء باعتبار أنها لا تقدم فعلياً أية إستجابة للطريقة الصوفية سواء عقلياً أو عاطفياً ، فتبينه شكلاً بدون محتوى ولا روح ، ولكن هذا النوع الأخير من الإستجابة لم يكن محصوراً بالتأكيد في أفريقيا السوداء وبالمثل مع الإستجابات الأخرى فقد نحاول أن نحدد مناطقها .

والأكثر من ذلك فإن هذه الاختلافات الثقافية في الإستجابة والتكيف توجد داخل العالم المتكلم بالعربية ، والذي نهتم به في هذا الفصل فالثقافات المحلية المغربية والمصرية مثلاً هي أى شيء ولكنها ليست موحدة ، وهذه الاختلافات مع تحدد إستجابات لمختلف الشعوب والمجموعات المهنية بالنسبة للتصوف . ونفس الطريقة يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة تماماً في الدول المختلفة ، في كل من المعتقدات والشعائر وهناك إختلاف كبير بين القادرية في المغرب ، وفي الهند ، فالفكر القادرى الهندى مثل (ميان مير) لا يمكن تصوره في نظر المراكشيين ، ناهيك عن ممارسات اليوجا ونظامها وبالمثل فإن المراكشيين بدورهم لهم ممارساتهم المميزة .

ولذلك فأكثر ما ستجربى محاولته هنا بدون الإستفادة من عمليات الحصر المحلية هو تقديم سلسلة من الإشارات المتعزقة لرجال الفرق في سياق سوسيولوجى يتعلق بالشعوب الناطقة بالعربية رغم وجود نواحي مرتبطة بمناطق أخرى والتي تحتاج إلى تقديم حتى في مثل هذا السياق .

١ - الشعرائى : شيخ طريقة مصرى : وفي ضوء حقيقة أن معظم الكتب التى تصف التصوف تهتم بالفكر الصوفى خصوصاً النظرى والشعرى ، أثناء المرحلتين الأولى والثانية ، عندما لم يكن التصوف قد أصبح

سمة عامة للمجتمع الإسلامى ، فيبدو من الأفضل التأكد على أن هذا الباب يهتم بالتصوف كما استقر فى المرحلة الثالثة عندما أخضعه رجال الشريعة فى العالم العربى لمعاييرهم ، وفى نفس الوقت فإن التعبير الصوفى قد إتحّد بالدين الشعبى بطريقة أثرت على حياة الكثيرين من المسلمين العاديين.

ولقد نسينا ضعف التعبير الصوفى فى الإسلام إلى إنحرافه فى توجيه الولاء للأولياء والتركيز على التعبير الجماعى « ذكر الله » . ومع إستثناءات مثل التى وفرتها الخلوتية « للزاهد » فإن أولئك الذين رغبوا فى إتباع الطريقة فعلوا هذا كمعتدلين خارج المؤسسات الصوفية المنظمة والتى يكون فيها مصطلح « المرشد » كما يطلق على الشيخ قد أصبح بلا معنى والمعيار هنا كان هو القداسة وليس الروحية . وفى هذا القول فإننا لا نشجب أهمية الفرق وأوليائها كقوة روحية فقد أصبحت الفرق بؤرات خاصة للإسلام ، وفى ذلك فإنها مزجت هذا الولاء للأولياء مع الوجدان الإسلامى المعتمد و (الإخلاص « للشريعة ») . ولإثبات هذا فسوف نحدد تخطيطاً لنظرة وطريقة حياة المصرى عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى^(١) الذى عاش فى الفترة من (١٢٩٢م / ٨٩٧ هـ إلى ١٥٦٥م / ٩٧٣ هـ) كشخصية عاطفية نسبياً كنموذج يصور هذه المرحلة المتصوف المصرى بصفة عامة والإتجاه الملتزم فى كل مكان ، بما فى ذلك الهند التى كان لها إتجاهها السلفى حتى رغم أن التصوف الهندى فى مجموعه كان توفيقياً وإنتقائياً .

(١) هو أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الشهير بالشعرانى له عدة مؤلفات منها : الطبقات الكبرى ، ط. بمطبعة محمد على صبيح ، ١٣٤٣ هـ ، لواقع الأنوار فى طبقات الأخيار ، ط. بولاق ، ١٢٧٦ هـ ، الميزان فى المذاهب الثمانية عشر ، ط. مصر ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢م . راجع : التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى ، لطف عبد الباقى سرور ، ط. ٢ ، مصر ١٩٥٥م (لترجم) .

ويكشف الشعراني شيئاً عن نفسه فى كتابه « لطائف المنن » وهو ليس سيرة ذاتية روحية حقيقية ولكنه نوع من كتب المناقب الشخصية مستمدة من تجارب الصوفية فى كل العصور ، بمعنى آخر فقد كتب تاريخاً عن مناقبه الشخصية ، غير مقبول كما قد يبدو ، لأنه كان ساذجاً بلطف ولم يدع شيئاً لنفسه ففضائله هى أمثلة لفيوضات الرحمة الإلهية (الفيوضات الربانية) (١) .

تلقى الشعراني تدريسه داخل التراث الشاذلى ، وقد قدم إلى موجه روحى حقيقى ، وهو على الخواص (توفى ١٥٣٢م) وهو أُمى (٢) مستتير ولكن بالنسبة له كان الشعراني يطلق على نفسه لقب الأُمى ، (غير المدرب) أما على - على الخواص - فيطلق لقب (الشيخ) وبعد وصف منهجه فى طريقة « المجاهدة » التطهر يكتب :

« إن دخولى (إلى المعرفة الوهية) (٣) قد حدث على ضفاف النيل بجانب منازل البويهيين والسواقى المائية ، وبينما كنت واقفاً هناك أتطلع إلى

(١) هناك معلومات أخرى عن سيرته الذاتية نجدّها فى تأريخاته لشيوخه فى كتابه « الطبقات الكبرى والبحر المورود » وكشف الغمة عن جميع الأمة ، وغيرها ومراجعى عن الشعراني كثيرة بدرجة لا يمكن ذكرها هناك ، ولكن يمكن الإشارة إلى كتابين هما الشعراني إمام التصوف فى عصره ، تأليف توفيق الطويل ، ط. القاهرة ، ١٩٤٥م ، وكتاب التصوف الإسلامى والإمام الشعراني لطف عبد الباقي سرور ، ط. القاهرة ، ١٩٥٢م .

(٢) كثيراً ما تعنى كلمة (أُمى) غير المدرب أو الملم بالعلوم الإسلامية ، ولكن الشعراني يذكر بوضوح أن على الخواص ، لم يكن يعرف القراءة والكتابة فى كتابه الطبقات . وبهذا الخصوص يذكر الخواص شيئاً مثل البسطامى والخرقانى . والفقرة الطويلة التى يذكرها الشعراني عن على الخواص فى كتابه الطبقات تتكون أساساً من أقواله المأثورة (المؤلف) .

(٣) العلوم الوهية فى مقابل العلوم الكسبية أى المعرفة المكتسبة .

أبواب الحكمة الإلهية^(١) المفتوحة على قلبي ، وكانت كل بوابة أوسع من المسافة بين السماوات والأرض ، بدأت أثرها حول أسرار القرآن والحديث واستمد منها المبادئ وراء العلوم الإسلامية المختلفة إلى النقطة التي أعتقدت عندها أنني قادر على الإستغناء عن دراسات الباحثين السابقين وقد ملأت بضع مئات من الملازم ، بهذه الأمور ، ولكن حين أطلعت عليها شيخى على الخواص طلب منى التخلص من معظمها ، وأعلن قائلاً هذه المعرفة ملوثة بأمور خيالية ومكاسب إنسانية و (علوم الوهب) بعيدة تماماً عن أن تشبه مثل هذا. لذا فقد مزقتها ثم وضع لى منهجاً لتطهير القلب (تصفية القلب) من شوائب التخيل، وقال بينك وبين المعرفة الوهبية النقية هناك آلاف المراحل ، ثم بدأت أعرض عليه كل إلهام يخطر لى ، وقد كان يخبرنى أن أنجنب مثل هذا المنهج أو أن أبحث عما هو أسمى ، وقد استمر الأمر كذلك حتى حدث ما حدث هذا هو وصف إستنارتى بعد معاناة النظام السابق ذكره من « المجاهدة »^(٢) .

وبعد ذلك مباشرة يصف الطريقة التى وصل بها إلى معرفة أسرار الشريعة، وللشعرانى معرفة واسعة ، وحتى بعض الأصالة ، وإن كانت ملكته (النقدية) قليلة ، فقد كان جامعاً كثيراً للإنتاج للبحوث أو الرسائل التى كسبت شعبية كبيرة، وتأثيراً كبيراً فى حلقات الفرقة وصرائتها حتى اليوم ، وقد أثنى على طريقة (الجنيد العباثية) لأنها تحقق متطلبات الشريعة وفى

(١) أى (العلم اللدنى) .

(٢) من كتاب المنن ، وهناك شيخان أسبق على طريق المجاهدة هما : نور الدين على المرسفى (ت ١٥٢٧م / ٩٣٣هـ) ذكره فى الجزء الثانى من الطبقات ، ومحمد الشناوى (ت ٩٣٢هـ) ذكر أيضاً فى نفس المصدر .

الحقيقة لأنها مقبولة، وقد إتخذ منهاجاً وسطاً وإرضائه مزج الفقه بالتصوف ولكنه لم يكن شرعياً متشدداً بأى شكل ، والدليل على ذلك محاولته التوحيد بين المذاهب الفقهية الأربعة ^(١) . والتي أثارت غضب العلماء وكذلك الصوفية وكان من الطبيعي أن تثير عداوة المتطرفين من الجانبين، كما انتقد ضيق أفق العلماء بالنسبة لروح الشريعة وقد شبههم بالحمير التي تحمل كنباً لا تستطيع فهمها مستشهداً بذكاء بالآيات القرآنية ^(٢) من جهة أخرى، فقد عبر عن آرائه فيما يمضى الفساد داخل الفرق الصوفية ذاكراً بصفة خاصة البدوية ، والرفاعية ، والبسطامية و الأدهمية ، والمسلمية والدسوقية باعتبارها تنهك الشريعة وبالتالي فقد إستهدف - أو جلب على نفسه عقوبة من يتخذ موقفاً وسطاً - فالشيخ الخلوتى محمد كريم ^(٣) (١٤٩١ - ١٥٧٨م) لم يعتبره صوفياً بالمرة ، بينما كان الشعرانى يعتبر محمد كريم مسلماً منحللاً من الناحية الشرعية . أما الفلسفة الدينية للشعرانى فهي داخل نطاق الشريعة ، كما كان تفكيره الصوفى غير منهجى تماماً ، ولم تكن له ميول إلى وحدة الوجود أو حتى أى تفكير فى الله باعتباره كائناً أو محادثاً فى خلقه متمسكاً بعقيدة التنزيه بالمعنى العام للمخالفة بين الله وبين خلقه رغم أنه يحب التسليم بأن استعمال هذه المصطلحات لم يكن دقيقاً ونسبياً ومع ذلك فالملدهش أنه دافع عن ابن عربى

(١) وذلك فى كتابه « الميزان الكبرى » ط. القاهرة ، عام ١٣٢١ والذى لخصه فى كتاب الميزات الخضرية والمطبوع على هامش كتاب رحمة الأمة فى إختلاف الأئمة لصدر الدين بن محمد..... (المؤلف) .

(٢) قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . الآية الخامسة من سورة الجمعة (المترجم) .

(٣) كان تلميذ للشيخ الدمرداش .

زاعماً بأن ما هو مستقيم سلفياً فى أعماله قد حرف بواسطة آخرين ، لقد لخصت الفتوحات المكية حاذفاً كل ما لا يتفق مع رسالة الشريعة ،^(١) .

كانت زاوية الشعرانى التى بناها له القاضى محى الدين عبد القادر الأوزيكى تقع فى وسط حياة التجمع بالقاهرة ، وكانت تضم مسجداً ومدرسة للطلاب^(٢) ومركزاً لاعتكاف الصوفية ، ومسكناً للمهاجرين ، وغرفاً له نفسه وزوجاته وأقاربه .

هذه كانت طائفته ولم يكن لها فروع ، ولم تكن مركزاً للزهد ويجب أن توازن بوصف المقر الخلوتى ، ولكنها كانت مؤسسة إسلامية كاملة فى ذاتها لقيت دعماً جيداً ، منحت الهبات ويصف الشعرانى من بين فضل الله ونعمه عليه الرخاء المادى الذى بواسطته كان قادراً على أن يدعم مثل هذا المكان ، ويعطى التفاصيل مثلاً ، عن الكميات الضخمة من الطعام المستهلك أثناء ليالى الصيام وفى الأعياد .

ومن الواضح أن الشعرانى كان ينظر إلى الفرق وشيوخها كقائمين بدور حيوى فى المجتمع المصرى ، وقد لفت الإنتباه إلى الصعوبات الإقتصادية والإجتماعية التى عاش فى ظلها « الفلاحون » وفقراء المدينة فى هذا الخصوص فقد انتقد إنفصال العلماء عن حياة الناس وخضوعهم للسلطة العثمانية بعد غزوة ١٥١٧ م^(٣) وإهتمامهم بأنفسهم وفسادهم وإرتشاءهم .

(١) المتن ، الجزء الثانى ، وانظر كذلك كتابه اليواقيت والجواهر طبعة القاهرة ، ١٣٢١ هـ ، ج ١ .

(٢) كان بها فى وقت من الأوقات مائتى طالب ، من بينهم تسعة وعشرين مكفوفاً ... (المؤلف) .

(٣) تاريخ دخول الحكم العثمانى إلى مصر (المترجم) .

هؤلاء هم الذين كانوا يظنون على الناس بمباهجهم الروحية ، وقد ظل هو نفسه منفصلاً عن شرك وإغراء الثراء ومع ذلك فإن المرء قد يستشهد بملاحظة ابن العماد ^(١) ، لتصوير المشكلة المتضمنة في النقل الوراثي (للبركة) فإن ابنه عبد الرحمن (توفي ١٦٠٣م/١٠١١هـ) قد خلفه في سجاده ، ولكن كرس نفسه لجمع الثروات .

أما تصوفه الأخلاقي وقدرته على التمسك بأكثر الآراء إختلافاً ، فكانت نموذجية بالنسبة لرجال الفرق لأنهم اعتمدوا على الثروات الضخمة لقرون من الإستكشاف والتبصر الصوفي ، بل أنهم فيما يخص ذلك فقد أظهروا نفس العقلية « كفقهاء » معتقدين أن ممارسة ملكات النقد هي كفرة وعدم إخلاص . لذا فقد أمكنه أن يقرر أن الحقيقة يكشف عنها خلال الكشوفات المتعاقبة لتحرير النفس ، إلى أن تتحقق الرؤية المباشرة ، بينما في تطويره لعقيدة (الولاية) والهامة للغاية في تخطيطه للأشياء فإنه يوضح أنه رغم أن الأولياء يملكون الإشراق أى (الإلهام ، بكونه أعمدة من النور التي تنير النفس) فإن هذه العملية ذات إتجاه واحد ، والولى لن يمكنه أن يصل إلى مركز مطلقاً حين يمكنه أن يتوقف عن أن يكون مهتماً بمتطلبات الشريعة الموحاه ، ورغم أن مفضل لدى الله فليس حتى الولى يمكنه بلوغ القرب من الله ، وبالتالي فإننا نترجم كلمة الولى كلمتجئ إلى الله أكثر منها « صديق » لأن الصداقة تتضمن - بالطبع - درجة ما من التبادلية في العلاقة بين الإنسان وربه ، فالإعتقاد الداخلى لكثير من هؤلاء الرجال ، هو أن إتصالهم بالله غير ممكن ، رغم أنهم فى نفس الوقت يستعملون

(١) عن ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء الثانى .

الإصطلاح التقليدى عن الوحدة والفناء ، والشعرانى أكثر اهتماماً بالتوحد بالأولياء والذين يشرق عليهم النور ومنهم ينعكس على البشر .

لقد كان لديه كل مادة « الولى » بغزارة وتدرجاً كالأولياء وعالم عجيب من الرؤى والمعجزات وعالم رو حى مسكون بالجن والذين كانوا يحضرون محاضراته بأذان مفتوحة كما يخبرنا (١) . وكذلك أرواح الأولياء ومثلهم الأعلى وهو الخضر. وكل هذه حقيقة تماماً فى علاقتها بالجنس البشرى ، لقد كان مثابراً فى زيارته للقبور وكان يذهب إلى « القرافة » كل أسبوع ويسجل محادثاته مع سكانها وقد سئل إذا قام بزيارة الولى فى قبره فكيف يعرف المرء ما إذا كان موجوداً أم غائباً ، وكان يجيب « معظم الأولياء يكونون طوافين وليسوا مقيدين بقبورهم فهم يأتون ويذهبون » ، وبعد ذلك يقدم معلومات فيما يتعلق بمتى يمكن أن يجد المرء أولياء معينين فى قبورهم ، فذلك القبر لأبى العباس المرسى مثلاً ، يجب أن يزار يوم السبت قبل شروق الشمس للتأكد من وجوده فى مقره .

وهذا الجدل اللتعلق بالولاية لم يناقش بالكامل أساساً لأنه ينتمى بدرجة كبيرة إلى التصوف النظرى والفقهاء عموماً (بإستثناء الخابلة المتأخرين) أصبحوا يسلمون بإمكانية وجود المختارين الذين يختارهم الله رغم أنهم كانوا غير متفقين . أنهم هم يصلون أية صيغة إجماع رسمية لتقدیس الشخص بعد وفاته ، والإعتراف بالولى كان أساساً موضوعاً عملياً وقد يمنح

(١) فى كتابه لطائف المنن ، الجزء الثانى ، وهذه الميزة يشارك فيها النبى الآفة الأولى من سورة ٦٢ : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً » (المؤلف) . والملاحظ هنا - أن إرجاع المؤلف فى الهامش خطأ فهو يذكر أن سورة الجن رقم ٦٢ ، بينما سورة الجن ترتيبها ٧٢ بالمصحف الشريف (المترجم).

أثناء حياته أو بعد موته ، وكان الفيصل هو الخبرة الشعبية لمواهبه في صنع المعجزات وقدرته على رؤية ما وراء نطاق البصر ، وكفاءة شفاعته والتوجيه الحادث أثناء مواجهاته في الرؤى والأحلام وهكذا .

لقد اعتمدت الفرق فعلاً على إستغلال أوليائها (فالولاية) لا يمكن أن تنتقل بالوراثة ولكن بركة الولي يمكن أن تنقل بهذه الصورة فامتلاك البركة لا يصنع الولي ويمكن أن يظهره كثير من الناس غير الأولياء وعن طريق الأشياء أيضاً .

وحين تنسب (الولاية) - مثلما يحدث كثيراً - إلى شيخ فرقة ما فإن هذا يعني مجرد سلطة روحية ، وقد يكون من الأفضل أن تنطق (ولاية) ^(١) لتحيزها ولكن ماذا عن الإنسان العادى كيف يلحق بفرقة صوفية ؟

٢ - العلاقة بفرقة ما :

إن السبب الرئيسى لإلتحاق شخص ما بطائفة كان هو الإرتباط العائلى ، وما كان يقيه هناك هو الفوائد الروحية والإجتماعية والإقتصادية المستمدة من تلك العلاقة ، وكانت الطائفة تدار لحاجة دينية ، فذلك هى الحاجة الأولية ، وأما وظائفها الإجتماعية وغيرها فهى مستمدة من هذه الحاجة ، وبمعنى مماثل ولكن بالعكس - فإن الغرض من الطائفة ^(٢) كان مهنياً وإقتصادياً ، بصفة أولية ولكن كان لها وظائف دينية .

(١) (ولاية) بفتح الواو تعنى مجرد سلطة روحية أو وظيفة صوفية ، وهى بهذا المعنى تختلف عن الولاية بكسر الواو التى تعنى إختبار إلهى وتفرد برعاية الله ، وهو المعنى المعروف عن الولي والأولياء فى المصطلح الصوفى (المترجم) .

(٢) الطائفة هنا مقصود بها الطائفة المهنية أو الحرفية ، أو ما يعرف بعد ذلك باسم النقابة (المترجم) .

لقد ولدت - إذا جاز القول - شاذلياً ، أو خلوتياً ، لقد كنت مرتبطاً بالشيخ الحلى وتعليماته وولادته منذ الطفولة ، حين علقت نعيمة من صنعه حول رقبتك وقد أخذتك أمك في البوابة إلى قبر أو ضريح مؤسس الطائفة حيث قدمت من أجل بركاته وشفاعته ^(١) ، فإذا كان والدك ذا مكانة من أى نوع ففي ليلة الإحتفال بتسميتك قد يتلى المولد تشریفاً لك ، كذلك تتم تلاوات أخرى عند ختانتك ، وفي مناسبات خاصة مثل دعوات الشكر عقب المرض أو العود سالماً من رحلة لقد تعلمت كيف تتلو القرآن بداخل فناء الزاوية لقد شببت على صوت تلاوته ، وإيقاعات الطبلية ، والرقصات وبداخل جو من حماية وشفاعة أوليائه وفي الإحتفال السنوى بوفاتهم ويمكنك أن تترك لنفسك العنان في المولد .

وفي نفس الوقت يمكن للأفراد والعائلات أن يختاروا « طائفتهم » ويغيروا ولاءهم لأسباب كثيرة مثل الإعتراف بالجميل للشفاء ، أو الوفاء بقسم (نذر) ، أو كنتيجة لمشاجرة ، أو إستجابة لشهرة صاعدة لشخصية لامعة جديدة أو طائفة جديدة ، مثل هذه التغيرات والتذبذبات في الشعبية تفسر إرتفاع أو تدهور الطوائف ، لأن هذه تنتمي إلى الفرقة الطبيعية كإرتباطات إنسانية ، بينما الطريقة المنتمية إلى الفرقة الروحية ، تستمر طالما أن خطوط النسب باقية ، وكانت الطوائف تعتمد على بركة (فضيلة) أوليائها (لاحظ أن المعنى الإنجليزى فضيلة قد بعد عن معنى البركة) وأن هذه قد تتضاءل في كل من الأموات والأحياء .

(١) يصف إقليدس عقيقته (حفل سيوعه في اليوم الثامن من مولده) : « أخذ شيخ الفرقة قطعة من الخبز من فمه المبارك ووضعها في فمي قائلاً « عسى أن ينشأ على لقمات الفقراء ، وعند بوابة مقر الفرقة أخذني الشيخ على ذراعه ورفعني في الهواء ، ثم تلقاني ثانية ، وهو يقول لعل هذا الطفل يكون له شأن في الحياة » (المؤلف) .

وشيوخ المرحلة الثالثة ، كانوا أعضاء عاملين كاملين بالمجتمع ، يعيشون مع عائلاتهم ويحتفظون بمساكن من أجل الدراويش والمهاجرين ، سواء فى مجموعة تحتوى على البنايات أو منازل مستقلة ، والمسكن ككل يعرف باسم الزاوية ولكن الصوفية الملتحقين بمقر الفرقة حتى رغم أن عائلاتهم تقيم بالمدينة فقد عاشوا حياة عزلة نسبية بعيداً عن الروابط أو الإرتباطات الطبيعية فإرتباطاتهم الأولية الأساسية هى كونهم مع عائلاتهم الروحية.

والدعوة لحياة الصوفية كطريقة فردية وتطلع إلى مجتمع سام متفوق ، لم تفقد إطلاقاً وكان حقيقياً أن ممارسة الطريقة الصوفية يمكن أن تؤدي إلى عدم إهتمام بأخلاقيات المجتمع ، ولكن الصوفية المنقطعون للتصوف أو الدراويش ، سواء عاشوا فى زاوية أو تجولوا لم يعتبرهم الناس العاديون كخارجين عن المجتمع ، وثار ضده وكان يحس بأنهم ينتمون للمجتمع ، وإنجاز وظيفة إجتماعية بالحياة ، الإنقطاع غير متوافقة مع قيود العائلة ، أغلبهم كان له حياة عائلية أو بدون - وعلاقاتهم مع العائلات الممتدة لموطنهم والحياة المتداخلة للقرية كانت قد فقدت ، وبدون قرابة أو روابط إجتماعية فإنهم تحركوا بحرية وكثيراً ما كانوا يستقرون ، ويعيشون حياة زاهدة منعزلة ، كمصدر فائدة لأقرب قرية أو مراعى محلية للماشية ، وبعد موتهم لم تفقد « بركتهم » ولكنها ظلت مرتبطة بالقبر كمنحة دائمة .

كانت لأسباب كثيرة بالإضافة إلى الدعوة لحياة الإنقطاع الكامل تلك التى كانت تفقد الشخص لأن يحتضن حياة الدروشة ، فقد جذبت الطريقة الصوفية أناساً من نوع معين من المزاج خلال سحر وفرة الأشياء الخارقة للطبيعة والغامضة . والدعوة إلى إستكشاف العوالم الغير معروفة

المفتوحة فقط لأولئك الذين أُعدوا لاتباع حياة الإنقطاع والتعبد ، مرة أخرى ، فإذا كان لك ذهن فاحص فإن أسهل طريقة أمامك لممارستها في أمان في مجتمع غير متسامح كان هو اللجوء إلى عبادة الدرويش ولقد أوضحنا أن التلقين لم يصنع صوفياً . والكثيرين إلى جانب ابن بطوطة ، والذين لم يدع أحد منهم بأنه كان صوفياً ، قد استمتعوا بالحصول على «إجازات» ومعظم الشعراء الفرس قد لقنوا كأمر طبيعي ، ولكن الكثير من لم ينفوا الطريقة الصوفية لكونهم مهتمين بمجالس البلاط مع حماتهم ، وفي حاناتهم بخمرهم وآحاديثهم وموسيقاهم ، أكثر من إهتمامهم بالخانقوات والخضوع لتعاليم شيخ ملتزم . فمواهبهم الفطرية كانت هي كل ما كان ضروري ليمكنهم أن يكتبوا الشعر الصوفي الملهم ، لأن التجربة الصوفية لم تكن بالضرورة تجربة دينية فقد تكون تجربة جمالية تماماً . والجدل حول ما إذا كان حافظ ^(١) ، فمثلاً - صوفياً أم لا - ليس موضوع مناقشة في كتاب يهتم بظواهر التصوف .

وقد كتب حافظ أنواعاً مختلفة من الشعر ، بما فيها الصوفي ، وخلال خياله فقد يفتح تماماً قناة إلى النور ، ونحن لدينا صوفيون مثل العربي عمر ابن الفارض ^(٢) والفارسي جامي ، والذين عبروا عن أنفسهم طبيعياً خلال

(١) هو شمس الدين محمد حافظ (١٣٢٦ - ١٣٩٠) شاعر فارسي ولد في شیراز ، وقد أصبح شاعر البلاط واشتهر بشعر الغزل ، وإن كان شعره الغزلي قد فسر رمزياً على أن محبوه هو الله وأن حمزة هي تعبير عن حالة الوجد الصوفي (المترجم) .

(٢) عمر بن الفارض : يعد ابن الفارض - بحق - شاعر التصوف الإسلامي العربي ، ذلك إنه الشاعر المسلم العربي الوحيد الذي وهب حياته وفنه لمعالجة هذا اللون من الشعر فقد عاش ابن الفارض حياته كلها مسبحاً بالحب الإلهي ، موحداً لم يشرك في حبه شيئاً هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي ، ويعرف بابن الفارض ==

الشعر، وشعراء مثل العطار^(١) الذى أثارت تجاربه أو ممارسات وخيالات صوفية وكلا النوعين - وفقاً لمعاييرنا - كانوا صوفية ، أو مرة أخرى ، نحن لا نضع تفرقة بين الشيخ الذى عاش حياة إنغماس دنيوى ، وبين الذى إتبع قاعدة من الفقر والانسحاب طالما أن الفروق الأخلاقية ليس لها علاقة بمفهوم « الولاية » فى أى شكل من أشكالها ، والمعيار لمجتمعهم هو الدرجة التى كان بها الشيخ قادراً على معايشة فضل الله عليه .

وفى هذه المرحلة الثالثة كان يوجد ساعون ممن اتبعوا طريق نظام موجه ربما فى « زاوية » وربما هم يستمرون فى وظائفهم العادية مثل على الخواص. الشيخ الرئيس للشعرانى ، والذى لم يحتفظ بزاوية ولم يحاول إستغلال « بركته » ولكن كان أساساً فى البداية تاجراً فى الزيوت ، ثم كما يبين لقبه يقوم بجدل أوراق النخيل وصناعة المقاطف^(٢) . ولم يكن من

== وينعت بشرف الدين ، ويلقب بسلطان العاشقين ، وأمير المحبين ، وإمام أهل الهوى . وهو حموى الأصل مصرى المولد والدار والوفاة . سعدى النسبى ولد فى الرابع من ذى القعدة سنة خمسماية وست وسبعين هجرية وكانت وفاته سنة ستمائة واثنين وثلاثين هجرية . وعن مذهبه فى الحب يقول ابن الفارض فى تأيته :

وعن مذهبه فى الحب مالى مذهب وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتى

وابن الفارض من القائلين بوحدة الشهود أى الفناء عن شهود ماسوى الله والفرق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود واضح كالفرق بين الحقيقة المدركة الثابتة التى لا يتطرق إليها شك وبين النظرية المفترضة المتأرجحة بين الإثبات والنفى . ووحدة الشهود ، حال أو تجربة يعاينها الصوفى . فهى تجربة نفسية ذوقية بعيدة عن أى أثر للعقل وأقيسته .

راجع : ابن الفارض سلطان العاشقين - أعلام العرب ، عدد ١٥ . ابن الفارض والحب الإلهى . لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط . ١٣٦٤ هـ . للدكتور محمد مصطفى حلمى..... (المترجم) .

(١) هو فرهد الدين العطار ، وقد سبقت الإشارة إليه (المترجم) .

(٢) الشعرانى فى كتابه الطبقات الجزء الثانى ، وابن العماد فى شذرات الذهب ، المجلد الثامن (المؤلف)

الضرورة الانسحاب من المجتمع لرجال الفرق كى يعيشا حياة التعبد ، رغم أن الانسحاب المؤقت أثناء فترة التدريب وفى فترات مبنية بعد ذلك لأداء مجاهدات خاصة ، كان جزءاً أساسياً من إتباع الطريق الصوفى .

إنها خطوة نحو الفهم أن نذكر أنفسنا بأن العالم الذى عاش فيه شيوخ الفرق ومريديهم ليس مفهوماً أو قابلاً للفهم للمعاصرين (أى الجدد فى هذا العصر) وكما قال Wilhelm Von Humboldt. فيما يتعلق بمشكلة كل لغة ترسم دائرة سحرية حوال الناس الذين تنتمى إليهم ، وهى دائرة لا مهرب منها إلا بالخروج منها والدخول فى غيرها^(١) ، فنحن على كل حال فى شرك داخل دائرة لا مهرب حقيقى منها ، ولن تجرى محاولة فى هذا الكتاب المركز على الواقع للدخول إلى ذلك العالم تخيلياً ، لأن هذا يمكن عمله فعلاً بداخل سياق دراسة الحياة الإسلامية ككل ولكن يجب علينا على الأقل أن نلفت الإنتباه إلى واقعة أن الناس الذين نكتب عنهم كانوا يعيشون فى بعد مختلف كلية عن ذلك الذى يبدو أن قارئ هذا الكتاب يعيشه .

فقد اعتقدوا ليس فقط فى حقيقة العالم الميتافيزيقى المتفوق ، ولكن فيه كحقيقة دائمة الوجود خالدة ، فإذا سمعنا أحداً يقول أنه قد وجد نفسه فى الحضرة الفعلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - . والذى كلفه بمهمة ما . فقد نشعر بالحرج ونعامله على أن يعانى بعض الهلوسات البصرية والسمعية ، وهذا هو نفسه حينما نقرأ حياة الصوفية ، فالحكايات عن الحالات ولحظات الظهور ، وشواهد الكرامات « ستكون بلا معنى

(١) مقتبسة من كتاب أرنت كاسيرر : اللغة والأسطورة ، ترجمة سوزان لانجز عن الألمانية ، طبعة نيويورك ، عام ١٩٤٩ م (المؤلف).

مالم يهين المرء نفسه لأجوائها ، ويجب علينا أن نتذكر أن كل واحد منا يكون محاطاً بعالم من الافتراضات الغير واعية والتي تعطى تركيباً ومعنى لتجربتنا ، ونشكل طريقنا في التعبير عن هذه الخبرة بالكلمات .

ونحن اليوم نعيش في جو مختلف كلية عن ذلك ، الذي كان يعيش فيه الصوفية وإننا نشوه نظرتنا التاريخية حين نفحص خبرتهم وفقاً لتلك الرؤية . فالمشكلة الأساسية هي حقيقة مصدر تلك الخبرة ، وكذلك صدق رواياتهم أو استقرارهم العقلي ، ونحن في هذه الحالة نلقى نظرة عن عالم ليس لدينا خبرة عنه ، وكذلك تعبر عن إفقادنا للمخيلة التاريخية ، فنظرتنا للحياة مشروطة تماماً بنفس القدر مثل نظرتهم ، ولكن لمتابعة هذا الموضوع قد يحملنا إلى عوالم قد لا تكون متوافقة مع أهداف هذا الكتاب ، ولذلك سنتناول الأهمية الاجتماعية للفرق وفقاً للخطوط التجريبية ^(١) .

٣ - الدور الديني :

كانت الأهمية الاجتماعية للفرق متعددة الجوانب ولكن الأهمية الدينية كانت أولية وأساسية (سنشير إلى كيف كنا نفكر وفقاً لمصطلحات دينية علمانية) ولقد رأينا كيف حول تطورها الطبيعية الروحية للإسلام بين القرون الثاني عشر والرابع عشر وأما التعريف العدائي الفكر والذي التصق بالتصوف بجانب العلوم الإسلامية فقد عمل على تحييد الفكر الصوفي في العالم العربي ولكنه كان مختلفاً مع التصوف العملي والمؤسساتي ، أما

(١) أى وفقاً للسلوكيات والممارسات الصوفية الظاهرية ولكن يجب أن نضع في إعتبارنا أن المؤلف لا يفرق في دراسته أو عرضه لهذه المظاهر السلوكية بين مايتفق مع روح الدين الإسلامي ومالايتفق (المترجم) .

طوائف الصوفية التي امتزجت مع تقديس الولي مستغلة له ، في الواقع فقد مثلت الدين للناس العاديين ، حيث أن ديانة الناس تتحقق في سلوكهم ، أما الإشتراك في شعائهم فقد وجه لحاجات الأفراد ، والمعارضة المجتمع أو التسامى عليه ، رافعين الأفراد أحياناً في تجربة ميتافيزيقيا لا زمانية ، أما الدين الرسمي ، الغير مهتم برياضات الوظيفة الدينية ليس له وسيلة ولا وكلاء للتنفيس العاطفي والقليل من أجل الشفاعة الحرة فلم يكن لديه إلا القليل لتقديمه للحاجات الأعمق للناس وقد أدى الدين الرسمي وظيفة اجتماعية أكثر بكثير منها وظيفة روحية ، وكانت وظيفة الفرق هو أن تقدم للناس العاديين الناحية الداخلية للإسلام ^(١) ، وفي إهتمام الفرق بالناس فقد لعبتا في مجالات كثيرة دوراً مماثلاً لذلك الذي لعبته الكنيسة المحلية في أوروبا . فقد جسدت بداخلها (الخيال الغامض) للعصر مظهره الديانة الباطنية الصوفية العاطفية ، وكان الصوفيون من كل الأنواع يختلفون بدرجة واضحة في النوع والإتجاه . فالبعض عاش حياة واعية (ليست ذاهلة) وآخرون عاشوا في دنيا الأحلام خاضعين لمجالات الوجد والغيبة ، والبعض كانوا زهاداً يعيشون في وحدة وتفرد ، وآخرين تذوقوا - إلى أقصى حد - السلطة التي مارسوها على حياة وأرواح الناس .

كل هذا ظل موازياً للمنظمة الدينية السلفية ، وفي ولاءاتهم للحياة الروحية استطاعوا في الواقع أن ينجحوا بدون العالم السلفي التقليدي . في نفس الوقت ، ورغم أنهم نشأوا خارج الدين الرسمي واستسلموا لدفعات

(١) لاحظ نعمة التعاطف التي تبدو واضحة في كلام المؤلف مع الفرق الصوفية ، في مقابل عدم الرضا الواضح من موقف رجال الدين ، وهو موقف يسود - تقريباً - الكتاب كله كما أشرنا أكثر من مرة (المترجم) .

روحية عميقة فإن الفرق كانت إسلامية حقيقية واستجابوا للأوساط الاجتماعية التي وجدوا أنفسهم فيها وفي إرتباطهم بالإسلام الرسمي . فقد حافظوا على فتح الطريق من أجل تجلية وإظهار الناحية الداخلية للشرعة وقد شارك الشيوخ مع إخوانهم « في الصلاة المفروضة قبل تلاوة ذكرهم الخاص » وأثرت أورادهم بتأثير الآيات القرآنية التي تحتويها بينما ركزت « الموالد » شعائر الوجد على النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أصبحت أكثر تواضعاً . والزواوية والخلوة في تذكير القروى البسيط بالحقائق الروحية والإلتزامات الاجتماعية .

وقد احتوى التصوف تحت هذا الشكل مجالاً واسعاً من الخبرة الدينية، ومن الزهد الطبيعي البدائي ، والسمو بالروح وتقديس القوى في الدين الشعبي إلى الدين المتطور ، والنهايات الجافة للتوحيد الفلسفي . كانت الأماكن القديمة المقدسة يضافى عليها طابعاً إسلامياً باعتبارها للأولياء^(١) . كما أن اندمجت وقبلت الأساطير من أصول دينية أسبق بينما كانت تدريبات اليوجا والرقصات الشعائرية قد اندمجت في أشكال « الذكر » . ورغم أن الفرق لم تكن مسئولة بنفسها عن الوحدة الملحوظة للدين الشعبي في الثقافة الإسلامية ، فقد شاركت بدرجة كبيرة في تحقيقها .

لقد أشرنا أن الفرق ملأت مكان نظام الكهنوت الناقص في الإسلام الرسمي ، وبمعكس « العلماء » فلم تكن هناك فروق طبقية بين الصوفية ،

(١) بعض الأضرحة المعنية والتي اتخذت كمزارات في آسيا الوسطى بنيت على بقايا الأبراج والقباب البوذية ، وفي كشمير كانت المساجد والأضرحة تقام - أحياناً - على مواقع بوذية أو هندوسية والمسجد الكبير وخانقاه مولى الله أحمد الحمداني في سرناجار بنتتا على مواقع معابد بوذية وهندوسية . من كتاب وادي كشمير . تأليف لورانس W.R.Laurence (المؤلف).

حقاً لقد شكل شيوخهم طبقة دينية مورثة ، ولكنهم هم ومن ارتبط بهم
عموماً كانوا قرييين من الناس . كما أن مؤسساتهم ، سواء كانت (خناقة
كرنميرية) أو « تكية » تركية أو « زاوية » مغربية فهى بالإضافة إلى
محافظةها على منزل مفتوح ، للترحيب بالفقراء والمسافرين كانت أماكن
موفرة ، للسكان الروحي وشكلت فتوات من القوة على العالم المتنافيزقى
فالدرويش الذى يختاره الناس وأقسم يمين التقشف والفقر كان واحداً من
الناس . وفى هذا الخصوص فإن كل من الشيخ المكرم والدرويش رث الثياب
، مقارناً بطبقة العلماء الذين مهما كان أصلهم الإجتماعى ، قد مالوا لأن
يصبحوا مبعدين بواسطة تدريبهم الشرعى ووجهة نظرهم ، مبعدين عن
الإحتياجات الروحية والإجتماعية للناس ^(١) . وفى سوريا كان من الصعب
لأى فرد ولد فى قرية أن يتقدم كثيراً فى هذه العملية من حيث التدريب
الشرعى أو أن يلحق بطبقة العلماء ، بينما كانت كل المراكز الأعلى تحفظ
لصالح العائلات الدينية المتميزة ويسجل المرادى ^(٢) كيف أن شيخاً معيناً من
دمشق استبعد نسيب أصله الرفي البسيط « قروى فلاح » حسبما كانوا
يلقبونه لقد كان أكثر سهولة الإلتحاق بالنخبة الشرعية على أساس التدريب
والمقدرة فى مصر عما هو فى سوريا ، وعلاقة هذه الطبقة بالناس كانت
مقدرة غالباً بواقع أنها بالرغم من أن الكثير كانت لهم روابط بالفرق
المحترمة ، فإنهم هاجموا « طوائف » الناس وتجمعاتهم فى الموالد ، أى نفس

(١) هنا مرة أخرى - يظهر مدى تحامل المؤلف على العلماء - علماء الدين الإسلامى ، وتعاطفه
الشديد من المتصوفة بصرف النظر عما إذا كانت ممارساتهم أو عقائدهم تتفق مع الإسلام أم
لا (المترجم) .

(٢) فى كتابه سلك الدرر ، المجلد الثالث ، طبعة القاهرة . ١٨٧٤ - ١٨٨٣ م .

الوسائل التي لبت إحتياجاتهم . إن تدهور الفرق فى العالم الحديث قد ترك فراغاً ، حيث أن الطبقة الدينية المنتظمة يمكنها أن تملأ محلها .

إن طرق التعبد والإنقطاع التي تمارسها الفرق كانت وسيلة لتحرر النفس بالنسبة للفرد ، لهداياته داخل المجتمع ، كما أن صلواتهم وأساليبهم الفنية السرية السحرية تهدئ الذهن والعواطف ، وتخفف أو تعالج الأمراض النفسية . وكذلك الجسدية وقد ساهم هذا فى التكامل الشخصى والإستقرار الإجتماعى ^(١) . وفى حادثة تفشى الجراد فى دمشق سنة ١٧٤٧م ذهب رئيس الأخوة الجبائية مع أتباعه بالطبول وأعلامهم وصلوا فى ضريح السيدة زينب شرقى دمشق ، وفى عودتهم فى المساء ذهبوا جميعاً ولفوا حول المدينة وعملوا دوسة أمام السراية ، وصلوا ودعوا لله أن يبيد الجراد ، ووجود الأضرحة فى حد ذاته وأولئك الذين أخذت أرواحهم بواسطة خالقهم سواء «بحاثين» ، أو «مجاهدين» قد اشتراكوا فى رفاة الناس .

وقد قدمت كثير من الفرق مجالاً دينياً للنساء ، كان الإعتراف به ضئيلاً فى السياق الدينى الشرعى ، فقد كان فى إستطاعة النساء الإرتباط كأتباع للفرق الصوفية كما يمكن إختيارهن ، لتنظيم النسوة فى حلقاتهن ^(٢) ، وبعضهن يصبحن درويشات ولكن معظم النسوة قد وجدن

(١) شئ يدعو للفرابة أن يكون هذا هو موقف المؤلف ، كما لو كان يريد أن يوصى لقراءه أن الإسلام هو هذه الخزعبلات التي أدخلها أدعياء التصوف ، ومرة أخرى فالتصوف الإسلامى الحق بعيد تماماً عن كل هذا (المترجم) .

(٢) بالنسبة لمراكش راجع كتاب Ritual and E. Wester Marek "Belief in Morocco" (المؤلف) .

بؤرتهم الدينية فى « الولى » المحلى أى الولى المدفون فى قبره المحلى ،
وزيارات الجمعة وأيام الأعياد وكانت منارات حياتهم الدينية ، والثائية بين
دين الرجل والمرأة كان يتضح فى أيام الجمع حين يتوجه الرجال إلى الجامع
لإظهار تضامنه الجماعى عن طريق الإشتراك فى الصلاة الشرعية (الجمعة) ،
بينما كانت النسوة عند قبر الولى أو ساحة المقابر يقدمن عطايهن
وتوسلاتهن وتجمعتهن على روح القبر .

أما الدور الوعظى والإرشادى للشيخ والفقراء فهو ناحية أخرى وكل
منهما فى تزكية الإسلام لغير المسلمين وفى مساعدة المهتدين الجدد
(الداخلين حديثاً فى الإسلام) ليحفظوه فى قلوبهم^(١) والدرايش المتجولين
المتحررين^(٢) من المجتمع كانوا إحدى الوكالات التى عن طريقها كان
البربر والهنود والأناضوليون اليونانيون والأترار والتتار والملايزيون قد أدخلوا
فى إطار المؤسسات الشرعية للإسلام^(٣) وقد صادف ابن بطوطة^(٤) بعضاً
من هؤلاء مثل جلال الدين التبريزى فى سهول كامروب فى أسام الذى
أدخل الكثيرين فى الإسلام .

(١) أى ثبت إيمانهم أو بقوى نمسكهم بالإسلام (المترجم) .

(٢) أى الذين لا يربطون بالأوطان - يرتباطاً وثيقاً - إذ يعتبرون أرض الإسلام كلها موطناً
لهم.....(المترجم) .

(٣) هناك الكثير من الحكايات عن مناقب الأولياء فيما يتعلق بدخول الناس فى الإسلام نتيجة
أعمالهم، ففى أحد المناسبات أنقذ جلال الدين الرومى شاباً يونانياً من الإعدام ظلماً فدخل
الإسلام على الفور . من كتاب مناقب العارفين للأفلاكى ، ج ١ (المؤلف) .

(٤) المجلد الرابع من رحلة ابن بطوطة (الترجمة الفرنسية) (المؤلف) .

والدراويش فى التقليد الياسافى شكلوا أهم عامل فى إعتناق الإسلام بين البدو الذين يعيشون فى شمال سايجون. وفى الأناضول كان الباباوات^(١) والذين خلالهم إعتنق الأناضوليون المهزومون الإسلام^(٢) ، وأصبحوا الأولياء الكبار الذين جسدت قبورهم التأملات الروحية للفلاحين - وهى نظرة لعالمهم السفلى الموروث عن الدين والفلك ، وفى الهند ، حيث كانت الأفكار أكثر أهمية عن أية مناطق تبشيرية^(٣) أخرى مثل أفريقيا ، فقد ذهبوا لمسافات أكبر للتوافق مع المعتقدات والممارسات وإستقبالها فى بيئتهم، وهذا لا يتضمن أنها توافقت بوعى مع تصورهم للعقيدة الإسلامية طالما أن التفسير المشوب بالألوهية الشاملة للحياة قد أتى كشئ طبيعى لهم مثل الهندوس.

٤ - الدور الإجتماعى للفرق الصوفية :

رغم أنه ثانوى بالنسبة للدور الدينى فإن كان هاماً بدرجة أنه من الواجب ألا تتجاهلها أية دراسة للمجتمع الإسلامى ، ففى الحياة التقليدية كان الدين هو تركيبة أو تجميع النشاط الإنسانى ، فكل مجتمع كان

(١) ذكرنا من قبل أنه لقب تركى معناه الشيوخ أو الدراويش (المترجم) .

(٢) يلحق المؤلف من قريب إلى أن الإسلام لم ينتشر إلا بقوة السيف فلولا هزيمة الأتراك فى الحروب مداخلوا الإسلام وتناسى أن هناك حالتان تاريخيتان كبيرتان ، وطى فيهما الكفار بأقدامهم أعناق أتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولئك هم الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ، والمغول فى القرن الثالث عشر ومن كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتقدون ديانة المغوليين .

راجع : الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، ص ٢٦ (المترجم).

(٣) لا أوافق المؤلف على مثل هذه العبارات مناطق تبشيرية . فهو يوازى بين نشر المسيحية مثلاً ونشر الإسلام فيجعل الدعوة إلى الإسلام بأنها حركة تبشيرية .

مجتمعاً دينياً أو الفرق جامعة للأفراد تحت رابطة الميثافيزيقا ، كانت هي نفسها قوة إجتماعية وأصبحت الفرق مرتبطة بأشكال متعددة بطبقات مختلفة من المجتمع ، وغالباً ما كانت ذات علاقة خاصة بالطبقات الإجتماعية والمناطق والعشائر أو الجماعات المهنية ، فبعضها كان أرستقراطياً يأيدهم رجال البلاط والعلماء مثل السهروردية في سلطنة دلهي في القرن الثالث عشر والمولاوية فيما يتعلق بالسلطات السلجوقية والحكومات العثمانية وكان للبعض الآخر أتباع شعبيون مثلما في الأنواع المقابلة من البكتاشية والخلوتية في تركيا ، وقد يكونون حضريين (المولاوية) أو ريفيين (بكتاشية) مهيين (طبقاً للظروف المحلية مثل لإرتباط الصيادين بمصر بالقادرية) ^(١) ، أو مرتبطين بنقابات تجارية أو طبقة عسكرية مثل العلاقة بين القوات الإنكشارية والبكتاشية ، وحتى الفروق بين المستقيمين ديناً وغير المستقيمين ، والخارجين على مألوف التقاليد الدينية فقد كان لها أهمية إجتماعية .

اعتمد إنتشار الفرق على الفرص للهداية الشخصية وقابليتها لدى مجموعات معينة ، كثير من الفرق اللاحقة مالت لأن تكون محلية بدرجات متفاوتة ، وقد أوضحنا كيف أنه من البداية الغير واعدة ، انتشرت القادرية لدرجة أن مجموعات غير مترابطة أو غير منتمية محلية قد أصبحت تتواجد

(١) من كتاب E. W. Lane : " The Manners and Customs of the Modern Egyptians".

وهذا الكتاب - الذى نشر لأول مرة عام ١٨٣٦م - يعتبر إلى حد بعيد أفضل مقدمة للمجمع المصرى التقليدى ودور الفرق الصوفية فيه (المؤلف) .
وللكتاب ترجمة عربية بعنوان « عادات وتقاليد المصريين المهنيين » ، قام بها أحمد أمين
(المترجم).

فى معظم الدرك ، ولكنها صورة الولى عبد القادر وليست الطريقة القادرية هى التى أصبحت حقاً عامة وشائعة .

طرق أخرى كانت إقليمية خالصة مثل البكتاشية وفروعها المحصورة بالأناضول وتركيا الأوروبية . والبدوية وفروعها والتى كانت أساساً مصرية، والشيشتية كانت هندية، والختمية والميرغنية كانت منحصرة فى السودان الشرقى وإريتريا . فأغلب الفرق كانت محدودة أو قبلية ، فمثلاً فى جنوب مراكش كان أعضاء الناصرية يأتون غالباً من سكان وادى درعا حيث حظيت بدور تاريخى ملموس والمجموعات العرقية وفرت أولياءها و «طوائفها» المرتبطة بهم . أما المجموعات القبلية فقد نسبت أحياناً نفسها إلى خليفة الولى، كما هو الشأن فى المغرب والسودان النيلي وشمال الصومال، ولم توجد أضرحة عامة مثلما كان يوجد أولياء لهم ذبوع عام ، فقد خلد هؤلاء الآخرون عن طريقة الأضرحة المحلية (المقامات) هذا الطابع الإقليمى يتناقض مع الأماكن الشيعية للحج التى لها صفة عامة فى جذبها للحجيج .

وإرتباط الفرقة وإحتفالها ، لم ينجز فقط الوظيفة الأخوية بل أيضاً الوظيفة الجماعية ، فكل قرية أو قطاع فى مدينة أو حى وكل طائفة حرفية حضرية، وكل قبيلة أو قطاع كان لها مركز الضريح - والذى أثر ليس فى حياة الأعضاء المنتسبين والملقنين فقط - بل فى كل من كان تابعاً أو منحياً لذلك التجمع الخاص أو المحلية الخاصة ، وكانت الرابطة أساساً هى نوع من الإرتباط الشخصى بالولى المؤسس ، ورئيس الطائفة الحى ، تظهر على المستوى المادى عن طريق العلاقة بالقبر والزاوية أو التكية المرتبطة به . وكان رجال هذه المؤسسات على صلة وثيقة بالناس الذين كانت أعداد كبيرة منهم أعضاء منتسبين للفرق ، كما كانوا ملتزمين تماماً فى حياتهم ككل

مدعين مفهومهم عن الهوية والتوحد بفرقهم ، لقد كانت منظمات للمساعدة المتبادلة ، وأمكن للشيخ المبجل أن يستصرخ مظلالم شكاوى الناس ويشجب الحكم الإستبدادى والإضطهاد ، لقد ساعدوا الفقراء وخدموا المرضى والمسافرين ، أما الدرجة التى كانت التكية وصلت إليها فى أداء هذا فى تركيا يمكن أن ترى من حكايات إيفليا شيلبي عن أسفاره ، ومثلما كانت (بركة) أوليائهم تحمى القرويين ورجال القبائل ضد الأذى والكوارث فكذلك كانت قوة تمائمهم أو تعاويذهم الواقية بإعطاء الثقة الفردية قد ساعدت فى الحفاظ على الإستقرار الإجتماعى .

ويمكن القول أن الفرق وأولياؤها قد أضفت طابع القداسة على المؤسسات الدنيوية فكما رأينا كانوا مرتبطين إرتباطاً وثيقاً بالنقابات أو الطوائف الحرفية والتجارية وكل منها كان تحت حماية ولى ، ففى فاس كان عبد السلام بن مشيش هو « حبيب الطلبة » ، وفى مصر كانت العوالم والغزوى كرمات لأحمد البدوى . وكانت البيومية مرتبطة بطائفة الجزارين ، (وبطل نصرة حقوق الفقراء أحمد سالم الجزار) نحو نهاية القرن الثامن عشر ، يبدو أن كان رئيس الطائفة وكذلك خليفة للجماعة البيومية^(١) فى نفس الوقت وهذا لايعنى أى دمج أو توحيد بين النوعين من المنظمات .

وفى تركيا العثمانية أيضاً لعبت الفرق دوراً ملموساً فى إرتباطها بهذه المؤسسات . فالإرتباط أو الإلتحاق بالمؤسسة يتضمن علاقة خاصة بالفرق الصوفية، ويفصل التلقين الصوفى للمنتسب كان له أن يطالب بالكرم

(١) من كتاب عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٢ ، ج ٢ .

واستشارة ومساعدة أخوانه في المدينة والدولة ، وقد وجد التجار أن العضوية بالفرق تساعدهم كثيراً حين يسافرون بتوفيرها الروابط بالأخوة في الأماكن الأجنبية فقد وجد ابن بطوطة أنها مرتبطة بدرجة وثيقة بالتجارة الإسلامية ، وفي خانسا بالصين كتب « لقد نزلت في قصر أخلاف عثمان بن عفان المصري ، وكان واحداً من كبار التجار الذين أحب هذه المدينة وأستقر بها هناك ، وقد حافظ خلفاؤه على إهتمام والدهن بالدراويش ومساعدة المحتاجين وكان لهم زاوية أنيقة البناء ، جيدة الموارد ، وتعرف باسم العثمانية ، تسكنها الطائفة الصوفية ^(١) وانتشرت الأسواق في الإحتفالات السنوية (الاسم الشائع المولد) وأحياناً الحولية للفرق والتي أثرت على المناطق ككل ^(٢) . وقد عملت مراكزهم كأندية إجتماعية للذكور عن مستويات عمرية مختلفة كما أن القبائل الدينية في الصحارى (في الزوايا والطلب) لعبت دوراً بديلاً كمسلمين محاربين لصالح القبائل المحاربة .

وأحياناً كانت الفرق تصنع جماعات إجتماعية جديدة وتجمعات جديدة أي عشائر وقبائل دينية ، وكانت بركة الولي يستغلها أتباعه وأخلافه . وفي المغرب اكتسبت القبائل والعشائر غالباً بدايات جديدة ، وأحياناً كان هذا يحدث خلال الإرتباط بزواية وأحياناً حين كان الولي نصيراً وحامياً للقبيلة ، فتأخذ اسمه كعلامة على الإلتواء والنسب الديني وليس الخطى ، والبعض مثل عشائر اسحاق وداروق تمسكوا بالإعتقاد في الإنحدار الفعلي

(١) ابن بطوطة : المجلد الرابع .

(٢) هذه الأسواق تسمى « مواسم » وهي تجمع للباعة والمشتريين في مواعيد محددة ، ويصف مجير الدين (المتوفى عام ١٥٢١م / ٩٢٧هـ) المواسم التي كانت تعقد في حوليات الأولياء حول أضرحتهم في فلسطين ، والتي كانت تنشد بها « الموالد » .

عن ولي عربي - والأسطورة لا تنقص الأهمية الاجتماعية - لمثل هذه الإعتقادات ، ومن جهة أخرى فهناك عشائر شكلت فعلاً من ولي جد مثل علي العيدروسى فى حضرموت ، وفى محافظة سنار بالسودان النيلي تواجدت الجماعات القروية الدينية خلال هجرة واستقرار النوبيين من الشمال . وفى آسيا الوسطى نشأت القرى حول قبر أو خانقاه ، وفى كردستان تكونت عشائر كردية جديدة . أو تكاملت حول المنحدرين من مهاجر قديس .

فيما يخص استقلال « البركة » تقدم الكازرونية مثلاً واضحاً فقد نشأت هذه الفرقة خلال الارتباط بضريح أبى اسحاق ابراهيم بن شهریار (عاش من ٩٦٣ إلى ١٠٣٥م) وهو تلميذ محمد بن خفيف (توفى ٩٨٢م) الذى توفى فى كازرون التى تقع بين شیراز والبحر وحول قبره نشأ معبد أو مقراً للتعبد .

والفرقة التى تطورت على يد عمر بن أبى الفرج الكازرونى (توفى ١٣٠٤م) والتى سميت بالإسحاقية أو الكازرونية ، لايمكن إعتبارها كطريقة حقيقية ، حيث يبدو أنها لا تتميز بأى تعاليم خاصة ، أو طريقة خاصة لتلاوة « الذكر » ولكن فإن هذه الفرقة - بالأحرى - هى مثال لاستغلال بركة أبى اسحاق والذى ليس مسئولاً عنها بأية شكل .

وبركته كانت فعالة بصفة خاصة كأمان ضد مخاطر الرحلة البحرية إلى الهند والصين ومن ثم وجدت الهيئات التى كانت تبيع البركة فى الموانى البحرية مثل كالكتا والميناء المشهور مالابار ، وزينون فى الصين، وقد تأسست الفرقة فى الأناضول فى القرن الرابع عشر .

ويصف ابن بطوطة ^(١) ، الذى كثيراً ما صادف أنشطتهم نظام التأمين كله ، فالمسافر الراغب يقسم اليمين وهو فى الواقع يوقع على مذكرة وعد ، يقرر فيها كم سيدفع للشركة المقدسة إذا وصل وجهته آمناً ، ويدفع أكثر إذا كتبت له النجاة بعد موقف خطير بصفة خاصة وكان للمؤسسة نظام متابعة متضمن لضبط كمية القسم أو الوعد ، وتجرى الحسابات لتمويل الأنشطة الخيرية المنتشرة للشركة وبمرور الوقت فإن قوة البركة لا بد أن تضعف حتى تلاشت المنظمة فى القرن السابع عشر .

كان التصوف العملى وسيلة للتغيير الإجتماعى وإعادة التكامل الإجتماعى وكانت الحياة محدودة بالنسبة للفرد العادى الذى لم يكن عضواً فى طبقة مميزة أو محظوظة ، وكانت الطوائف وسيلة عن طريقها يمكن للقلة أن تعبر حدود القيود الوراثية ، فابن فلاح يربط نفسه بشيخ يمكنه أن يستبدل حدود حياة القرية بالأماكن الشاسعة للعالم الإسلامى متأكداً من وجود الأصدقاء فى كل مكان ووسيلة العيش والتدريب .

وناحية إجتماعية أخرى يجب أن توجد فى دور الفرق فى الحياة العائلية ، فأكثر الوحدات الرابطة للمجتمع هى العائلة (بمفهوم أوسع الفرق) وبينما أساس العائلة هو القرابة ، فإن رابطة الطائفة كانت دينية ، وأعضائها مرتبطون بالتزامات مقدسة مكونين عائلة مقدسة ، ولقد أوضحنا أن التفرغ والإنقطاع الكامل للطريقة كان يعنى التجلى عن العائلة ، ولكن فى مرحلة الطائفة فإن العائلة المقدسة كانت تعزز العائلة الطبيعية لكل من الشيوخ والمتسبين كما أنها قدست أشكالاً أخرى من التعاون مثل النقابات التجارية

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ، الترجمة الفرنسية ، المجلدات الثانى والثالث والرابع (المؤلف) .

وقد جذبت النساء لهذا ، حيث كان الأولياء والتجمعات الإحتماالية كانت تخصصهن أيضاً .

وكانت الزيارات تتم للأماكن المقدسة المحلية فى كل المناسبات العائلة الهامة - مثل زيارة الأم والرضيع فى اليوم الأربعين بعد الولادة وحالات الزواج والوفاة - وكذلك مشاركات الأولياء الذين كانوا حماة المدن والقرى، والأسواق والأحياء والقبائل وقد مكنت الروابط الميتافيزيقيا لشيوخ الفرق مكنتهم من أداء دورهم فى التصالح والتحكيم والدور الوسيط قام به الشيخ النقشبندى (الأحرار) بين ثلاثة سلاطين تيموريين متحاربين شاهد على هذا التأثير والنفوذ الكبير ^(١) .

وفى القرن السادس عشر حل المراكشى أبو عبد الله محمد بن المبارك مشاجرات قبلية عن طريق التهديد بالعقاب السماوى وتحديد الدية بعد القتل كانت يرجع فيها - كثيراً - إلى رأى الشيوخ ومثال حديث على ذلك هو ذلك الذى نظمه شيخ الزاوية سيدى بن عمرو (ندروما) فى الجزائر سنة ١٩٥٨م وفى وقت الإضطرابات فقد وفرت الفرق سلطة مستقرة وقد حافظوا على حق وقداسة الضريح كما يحكى الجبرتى كيف أن أميراً مملوكاً هو خليل بك فى سنة ١٧٦٨م لجأ إلى قبر أحمد البدوى ولم يقتلوه إحتراماً للولى صاحب الضريح المقدس .

(١) انظر بهذا الخصوص : محمد جيلر :

أ - « تاريخى رشيدى » الترجمة الإنجليزية لـ E. D. Ross ، طبعة لندن ١٨٩٥م .
وكذلك ب - « شحاتى عين الحياة » الترجمة الإنجليزية لـ H. Beveridge (المؤلف) .
ويدو من عنوان الكتابين أنهما أصلاً باللغة التركية (المترجم) .

٥ - الدور الثقافى والتعليمى :

أن أهمية « التصوف » فى ثقافة البلاد الإسلامية معروفة جيداً ، فخسارة الفكر والشعر الإسلاميين بدون الصوفية يمكن بصعوبة توقعها ولقد كان التصوف هو الملهم لتراث ضخمة نرى من الشعر والموسيقى ليس فقط فى الدوائر المتعلمة الراقية فى فارس أو بين أنصار وحماة المولوية بالأناضول ولكن فى مجالات أبسط والتعبير المحلى باللغة العربية والفارسية والتركية والأوردية ، وقد عملت الفرق كقنطرة بين المذهب العقلى والمستويات الصوفية السامية وبين شعر التقوى والإخلاص الشعبيين ، وقد أبدع الشعراء الصوفيون رصيذاً هائلاً من الأناشيد والأغاني الدينية التى تملأ جزءاً كبيراً من كتيبتهم والتى كانت فى المجالات غير العربية خصوصاً التركية والفارسية والأوردية عاملاً هاماً فى التطور الأدبى على المستويات الشعبية كما هو الشأن مع يونس إمرى ، والبكتاشيين وكذلك المستويات الأكثر كلاسيكية مثل شعر نسيمى .

وفى تركيا درست التكايا المولوية الأشكال المتقنة من الموسيقى أما تكايا البكتاشية فقد إهتمت بكل من الموسيقى الشعبية ، والشعر التركى وكان المجال الواسع للشعر العربى والفارسى مفتوحاً للمريدين ، وفى مناطق مثل السودان النبلى أيضاً نشأت أنماط موسيقية خاصة لإنشاد الشعر الصوفى وفقاً لإيقاع الذكر .

وقد أحتفظت الكثير من الزوايا بشمال أفريقيا بمدارس للقرآن بينما أصبح القليل منها مؤسسات تعليمية ملموسة أى مدارس متعددة الأغراض لم يكن محصوراً فى شمال أفريقيا ، ففى سوريا ، وهذا حقيقى ، لم تكن

هذه الناحية واضحة ، لأنه كان يوجد نفوذ وحقد « العلماء » الذى كان كبيراً لدرجة لا تسمح للمراكز الصوفية بأفق أو نطاق أكبر بهذا الخصوص ولكن خاتقات الأضرحة بآسيا الوسطى كانت متعددة الوظائف فى كثير من الأحيان .

٦ - الدور السياسى :

إن الدور السياسى للفرق هو الذى أدى إلى ظهورها من وقت لآخر فى الفصول السابقة وليس من الضرورى أن نؤكد أن كانت على العكس تماماً من روحها الداخلية والعامل الذى مكنهم من التأثير فى هذا الجانب (السياسى) كان هو الطريقة التى ربطوا بها الناس فى ولاء الشيخ (طريقة) وكذلك السيطرة التى مارسوها على عواطف الناس ولذلك فإنها تلك الفرق التى كان لها التماسك الأكبر - محلياً وقبلياً - و فرق القرن التاسع عشر التى أحياناً عملت فى المجال السياسى .

إننا نجد رؤساء الفرق يتطلعون للنفوذ ثائرين من السلطة القائمة، وينجحون أحياناً فى تأسيس سلطة حكم فعلاً ناجحين فعلياً وبصورة طبيعية كان شيوخ « الطوائف » هم أعمدة المجتمع والنظام القائم ولكن الزوايا والخوانق كانت هى السلطة الدينية المحلية ، وكان مصير شيوخ هذه المؤسسات أحياناً أن يتطلعوا إلى حكم هذا العالم فقائد « الزاوية » قد يعارض السلطة القائمة نتيجة الإهتمام الشخصى أو الفعوى أو الطموح الشخصى وقد يكون قناة للتعبير عن عدم الرضا الاجتماعى ، خصوصاً حيث يكون مرتبطاً بطائفة مهنية والطاعة العمياء المخولة للشيخ تؤكد أنه غوارة أو مركز لأتباعه المتعصبين الممكنين أو المتوقعين .

والمثال الأكثر وضوحاً لمثل هذه الحركات كانت تلك التي أدت إلى تكوين الحكم الصفوي في فارس ، وهناك ثورة غير ناجحة وأشعلها درويش هو البابا اسحاق (رسول الله) ضد الدولة السلجوقية في قونية في ١٢٤٠ م / ٩٣٨ هـ ، ونفس الحركة التركية لتأكيد الذات أدت إلى تأسيس حكم الفرمانغلوس في قونية التي ترجع بأصولها إلى درويش يدعى (نورا صوفي) ويمكن تقديم الكثير من الأمثلة من الفترة العثمانية المبكرة للأنشطة السياسية لقادة الفرق ، وبالتالي فإن الحكومة العثمانية قد سعت للسيطرة عليها خاصة في ضوء تعاطفاتها الشيعية (فبعد قمع الفرقة البكتاشية فإن النقشبندية كفرقة سنية استفادت من المناصرة الرسمية) وكانت السياسة العثمانية ذات إحترام وتسامح معتبرة أن الفرق الباقية هي تجمعات دينية إجتماعية ، وخارج الحدود التركية كانت السيطرة صعبة وكان من السهل مثل هذه الحركات أن تستمر حتى لو سمحت في النهاية وقد استطاعت السلطات العثمانية مساندة الفرقة القادرية المحلية ببغداد ، ولكنها تمكنت من ممارسة القليل من السيطرة على الفرق في جبال الكردية .

بالإضافة إلى مخاطرة قادة الفرق الثائرين ضد السلطة القائمة والتي يمكن أن تكون ناجحة فقط تحت ظروف خاصة فقد كان يوجد دائماً احتمال تدخلها المباشر في شئون الدولة ، وبالتالي فإن السلطات السياسية مدركة تماماً لإمكاناتها ، ولجذورها الممتدة في حياة الجماهير سعت للسيطرة والتنظيم والتصالح مع الفرق ، أكثر من كبحها . فالإعتراف الرسمي بالفرق الصوفية يرجع إلى الفترة الأيوبية والسلجوقية وينبثق من التنظيمات المرتبطة بالنقابات الحرفية والتجارية .

وفى مصر بعكس المناطق التركية والمغربية ، كان نشاط الفرق فى المجال السياسى غائباً تقريباً فوجودها القانونى ، كان معترفاً به ، وتنظيم تحت « شيخ الشيوخ » ، وكانت تؤيد ضمناً أى سلطة تكون فى الحكم وكان للحكومة العثمانية المزيد من المشاكل الكثيرة فيما يتعلق بمجال إمبراطوريتهم والأنواع المختلفة للشعوب التى تحت سيطرتهم ، ولكن بداخل مجالها الخاص من الحكم ، فقد تعاملت مع هذه المشاكل بعناية عن طريق إستعمال المحاباة والعطف وإستغلال الفرق الأكثر نفوذاً ضد بعضهم البعض . بعد ذلك هناك المساهمة التى قدمتها الفرق نحو التقدم العسكرى للإسلام ودور « المشايخ » فى تشجيع المحاربين الغزاة فى الأناضول كان دوراً هاماً ويكتب إيفليا شيلبى عن ماث الدراويش (بما فيهم حتى النقشبندية الأكثر هدوءاً عادة) الذين كان لهم دور فى الحصار النهائى للقسطنطينية ^(١) .

ويرتبط بهذا دورهم فى الدفاع عن الإسلام ضد التهديدات الخارجية ففى أثناء الفترة الصليبية ، نجد نشاط رجال مثل عبد الله اليونينى (توفى ١٢٢٠م/٦١٧هـ) والمشهور باسم أسد الشام . والذى كان يترك من حين لآخر زاوية فى يونين قرب بعلبك حيث لازال قبره موجوداً ليلحق بحملات صلاح الدين ^(٢) أو أحمد البدوى ، وهو داعية نشط فى وقت حملة لويس التاسع وكان هناك أيضاً رد فعل الجازولى وأتباعه ضد التهديدات البرتغالى للسلامة والتماسك الإسلامى فى المغرب .

لقد استخدموا أيضاً للإعتماد على التأيد الميثافيزيقى أى (الإلهى) فى الحروب بين المسلمين (وأعدائهم) . وعندما تفقد قنصوه الغورى جيشه قبل

(١) إيفليا شيلبى ، مرجع سابق ، ج ١ .

(٢) راجع ابن الأثير : البداية والنهاية ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، المجلد الثامن .

أن يلتحم فى المعركة (١٥١٦م) التى سلمت سوريا بعدها مصر فوراً إلى السيطرة العثمانية لمدة الأربعمئة سنة التالية ، كان يحيط نفسه بالدرأوش المتجمعين تحت راياته المحترمة بما فيهم شيوخ البدوية والقادرية والرفاعية^(١).

لقد كانت الفرق فى القرن التاسع عشر بصفة خاصة فى مقدمة المقاومة الإسلامية ضد توسع القوى الإستعمارية أو قد أثبت هذا نفسه فى آسيا الروسية (حركة الدراويش منصور فى داغستان) بصفة خاصة فى أفريقيا حيث بين مئات من الشخصيات كان الأكثر وضوحاً وأهمية هم : التيجانى نوكلور والحاج عمر فى غرب السودان والسمناتى محمد أحمد والمهدى فى السودان النيلى ، والسنوسى فى نهاية القرن فى ليبيا ، والصالحى الإدريسى محمد بن عبد الله حسن فى الصومال والفاضلى الباقى القادرى ابن محمد العينين وابنه أحمد الهبة فى مراکش .

٧ - العلامة بين الفرق والمؤسسة السنية السلفية^(٢) :

من السهل فهم عدم ثقة العلماء نحو الأشكال أو الصيغ المتعددة للتعبير الصوفى ، والإسلام معبراً عنه فى الشريعة ، هو المبدأ المنظم فى حياة المجتمع ، أى (أمة النبى) وقد اعتبر العلماء أن الشريعة أمانة مقدسة أسندت إليهم . فالشريعة هى الطريق المنزل الذى فرضه الله مبيناً الطريقة هى الحج

(١) أنظر ابن إياس : « الفتح العثمانى لمصر » .

(٢) السنية السلفية : السنية ، طريقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والجماعة : المسلمون وهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فأبباعهم هدى ، وخلافهم ضلال ، قال تعالى فى سورة النساء « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (١١٥) .

نحو الحقيقة^(١) . والعلماء بعد أن انتصروا على المعتزلة^(٢) كان عليهم أن يجدوا وسيلة لكبح حرية الصوفية ، بتذرعهم بأنهم أرستقراطية روحانية ، وبكونهم متمردين على نفوذ الشريعة على الحياة والفكر ، هذا الحجر على حرية التعبير كان لابد من تحقيقه في كل من النواحي العقلية والتنظيمية ، وفي كل هذين الجانبين كانت المؤسسة الشرعية ناجحة جزئياً فقط . ففي الناحية الأولى فإن توافق الصوفية مع المؤسسة الشرعية قد بدأ منذ اللحظة التي شعروا فيها بالحاجة إلى تأييد أقوالهم (بالأحاديث النبوية) وحين شعر «قادة» الطريقة أنه من الضروري التعبير عن التوافق مع الشريعة ، ورغم أن التصوف لم يدخل إطلاقاً داخل العلوم الإسلامية فإن توافقاً أو حلاً وسطاً تم الوصول إليه بواسطة الإعراف بأن التصوف علم للحياة الزاهدة . وفي مجال ممارسة اضطهاد العلماء للسماح بالطرق الغير سنية للعبادة أن توازن شعائر المسجد ، ورغم أن التصوف المنظم قد أوجد منظمة دينية تتوازى مع مؤسسة الإجماع ، فإن التنظيم قد وفر وسيلة للسيطرة . والعلماء في هذا الخصوص كانوا يناشدون في كثير من الأحيان تأييد السلطات الدنيوية ، وكانت الخوارج وكثير من الرباطات بالعالم العربي مؤسسات شبه رسمية ، والتي كانت أوقافها هي المفتاح للسيطرة الحكومية ، أما الإجراءات الأخرى التي أخذت ، فقد شملت تعيين أحد الشيوخ أو حتى البعض مثل «المفتي» من خارج الطوائف ومثل شيخ الشيوخ للعمل كحلقة وصل بينها وبين الحكومة.

(١) سبق التعليق عليها (المترجم).

(٢) المعتزلة أباغ واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري وقرر أن الفاسق في منزلة

بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر .

راجع كتابنا قراءات عن المعتزلة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٩٤م (المترجم) .

ويكتب D'ohsson بأن الشيوخ فى تركيا كانوا خاضعين لمفتى العاصمة الذى يمارس حكماً مطلقاً عليهم. وهذا الرئيس الأعلى له الحق فى التعيين فيما يعضى محل شيوخ الفرق ، حتى أولئك مثل القادرين والمولوية والبكتاشية والذين كانت هذه الوظيفة موروثه لديهم ، وللمفتى الحق أيضاً فى إعتقاد الشيوخ الذين يرشحهم هؤلاء الرؤساء .

إن كبح حرية الفرق فى كل من الناحيتين لم يكتمل إطلاقاً ، بل كان بعيداً عن ذلك ، لأن خضوعهم للمقاييس الإسلامية كان أحد الذرائع وكحركة جماهيرية فإن التصوف الشعبى لا يمكن أن تكبح ، بينما الحياة الإسلامية لم تكن مطلقاً بدون بعض الأرواح الحرة التى تتبع طريق الإشراف لتأكيد أن الحياة الروحية الأعظم لم تتوقف .

والمعارضة ضد الفرق وشيوخها ومعتقداتها وممارساتها كانت مستمرة وصارمة ، ولم توفق السلطات الدينية الرسمية نفسها ولم تتم أى تسويات بوجود مراكز للسلطة الدينية خارج سيطرتهم ، ويعود العدوان الحنبلى^(١) إلى موقف مؤسس المذهب من الممارسين وسرى السقطى وأتباعها ، كما أن

(١) كان الإمام أحمد بن حنبل واقفاً للصوفية بالمرصاد فقد قال فيما بدأ الحارث الهاسبى يتكلم فيه وهو الوسارس والخطرات . قال أحمد : ما تكلم فيه الصحابة ولا التابعون ، وحذر من مجالسة الحارث الهاسبى . وذكر أبو بكر الخلال فى كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال « احذروا من الحارث أشد التحذير ... !! الحارث أصل البلية - يعنى فى حوادث كلام جهنم - ذاك جالس فلان وفلان وأخرجهم إلى رأى جهنم مازال مأوى أصحاب الكلام حارث بمنزلة الأسد المرباط انظر أى يوم شب على الناس » ولقد أمر بن حنبل بهجر الحارث الهاسبى وشدد النكير عليه فانحنى الحارث إلى أن مات .
راجع : تلبيس إبليس ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ (المترجم) .

الحنبلى البغدادي ابن الجوزى ^(١) (توفي ١٢٠٠ م / ٥٩٧ هـ) قد خصص نصف كتابه المسمى « تلبيس إبليس للمتصوفة » مهاجماً لإنحرافاتهم عن الشريعة والقاضى السورى ابن تيمية ^(٢) (توفي ١٣٢٨ م / ٧٢٨ هـ) كان صوت معارضة سائداً بصفة خاصة ، وقد أصدر الكثير من « الفتاوى » ، وكتب الكتيبات يدين الصوفية البارزين وممارساتهم فى السعى والنشوة خلال الموسيقى والرقص ، وكذلك إعتقاد الناس بهم وزيارة الأضرحة مع الهبات والتضرعات للأولياء ، حيث أنها كلها مخالفة للشريعة لم يذهب هؤلاء الرجال إلى هذا الحد لشجب التصوف بصراحة ولكن لإدانة ما اعتبروه غير شرعى .

وقد أتت معارضة مماثلة من الشيعة ذات الطابع المؤسس ففى ظل الحكومات السنية مثل السلاجقة والعثمانية ، عارض الشيعة الصوفية الفرق - بداية - على أساس دقيق ، حيث أن فى الفترة الحاسمة فى تطور

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادي المتوفى ٥٩٧ هـ ، ألف كتاباً فريداً سماه « تلبيس إبليس » هاجم فيه الصوفية هجوماً شديداً يقول ابن الجوزى « وكان أصله تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا فى الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا فى الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم ... وبالفرا فى الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع .. ثم مازالت الأمر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم . ويتفق بدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو فى العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة ، العلم الظاهر » من كتاب « تلبيس إبليس » لابن الجوزى .

وجدير بالذكر أن هناك ترجمة حرفية لكتاب ابن الجوزى هذا إلى الإنجليزية قام بها مارجيلوت ... (المترجم) .

(٢) ذكرنا من قبل أن شيخ الإسلام - ابن تيمية - وهو سلفى متشدد هاجم قطع تجاوزات أديعاء المتصوفة ، وأتباعهم أفكاراً غنوصية غريبة عن روح الإسلام ، بل أنه أشاد بالكثير من أعلام التصوف المعتدلين (المترجم) .

المذهب ، فقد أوضح الصوفية أن « الولاية » ليست مميزة محصورة أو قاصرة على سلالة معينة ولكنها نعمة إلهية منحت بحرية وكان عداة الشيعة للتصوف واضحاً مثلاً في الجدل الذي أحاط بإعدام الحلاج^(١) ، وكانت علاقة الشيعة بالعالم الروحي مختلفة عن علاقتهم مع الصوفية ، والصيغ الصوفية من الإنقطاع والتعبد لم تكن ضرورية لهم حيث كان لهم صيغهم الخاصة للتعويض ، عن نواحي العجز الروحية للدين الشرعي ، وحيث أصبح التشيع مرة أخرى هو الدين الشرعي القائم في إيران فإن « المجتهدين » أثبتوا العداء السافر للتصوف وخلال التأييد لهؤلاء المجتهدين فإن الحكم الصفوي والذي كان أصله في فرقة صوفية ، قد أصبح مدعى الإتهام للصوفية ، وأحد المجتهدين العقما محمد علي ، وقد لقب باسم « صوفي - كوشى » (القاتل الصوفي) على أساس عدد من العرافين وال دراويش الذين أعدمهم .

ومن علماء الدين الشيعة المشهورين والذين عارضوا الفرق الصوفية كان : محمد بهاء الدين العاملي (توفي ١٦٢١ م / ١٠٣٠ هـ) والمعروف شعبياً بالشيخ البهائي ، ومحمد باقر المجلس^(٢) (توفي ١٦٩٩ م / ١١١٠ هـ) مؤلف بحث الإنفادات ضد التصوف .

(١) وجهت إلى الحلاج عدة تهم أعدم بسببها :

أ - مراسلاته السرية مع القرامطة أعداء الدولة .

ب - إعتقاد طلابه بالكهنيته .

ج - قوله أنا الحق .

د - أن الحج ليس بفرض .

راجع : الحلاج الثائر الروحي في الإسلام ، جلال شرف ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٧٠ م

، ص ٧٥ (المترجم) .

(٢) الحق الذي لا جدال فيه أن الصراع بين التصوف والتشيع إبان الحكم الصفوي أدى في النهاية

إلى تغلب التشيع على التصوف بقيادة فقهاء جهدوا في القضاء على جذوره وعلى ==

وعندما اكتسبت الفرق قوة أو نفوذاً كحركة إجتماعية نتيجة تكاملها مع تقديس الولي ، وكذلك تزايدت شعبية شيوخ الطائفة ، لذلك فإن المعارضة بينهم وبين العلماء أصبحت قائمة على إعتبارات دنيوية بدرجة كبيرة وأحياناً ربط العلماء أنفسهم بفرق محترمة حيث لم تعد صوفية وتلاعبت مع كلاسيكيات الصوفية أو (الأحياء) ^(١) ويستشهد السنوسي بالشيخ الزاروق ^(٢) عندما يقول أن أعمال (أبي حامد) الغزالي هي صوفية المشرعين - أي - أن كتب الغزالي هي تصوف الفقهاء ، ولكن لا يجب

= رأسهم محمد باقر المجلس وهو محمد باقر بن محمد تقي المجلس وله مؤلفات : إعتقادات ، وقد طبع في لاهور عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م ، وكذلك كتاب بحار الأنوار وطبع في طهران عام ١٣٠٢ هـ .

راجع : الصلة بين التصوف والتشيع : للشيبى ، ج ٢ ، (المترجم) .

(١) الإشارة هنا إلى كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي (المترجم) .

(٢) تنسب الطريقة الزروقبة إلى الشيخ أبي الفضل شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد البرنس الفاسي المعروف بزروق ولد في تليوان أو فاس عام ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م وارتحل إلى أنحاء العالم الإسلامي من المغرب الغربى إلى مصر إلى مكة واستقر في مصراته بليبيا ودفن هناك عام ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م . ومن أشهر مؤلفاته : قواعد التصوف ، وقد حقق في مصر عام ١٩٦٨ م على يد محمد النجار ، شرح حكم ابن عطاء الله السكندري ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ، ١٩٦٩ م .

والطريقة الزروقبة في جوهرها تجمع بين الشاذلية والقادرية في أصولهما وكان الشيخ الزروقى حريصاً على تأكيد صفاء الطريقة ونقاء جوها ، وعدم تعارضها مع الشريعة في جميع الأحوال في الوقت الذى أكد فيه دائماً أن التصوف طريق فردى ومنهج شخصى مقصور فى الأغلب الأعم على الخاصة الواعين والتصوف عنده هو قمة سعى الفرد فى الوصول إلى الحق والمثل الأعلى وسمو الروح يبلوغ مقام الإحسان بعد التحقق الكامل لمقام الإيمان ومقام الإسلام .

راجع : دراسات فى الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية ، د. عبد القادر محمود ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٥٥ وما بعدها (المترجم) .

على المرء أن يتخيل أن هؤلاء المعتدلين والذي يشكل الإقناع العقلى (وهو الذى لايزيد عن الإعجاب لإستقامتهم) والإعتدال الأخلاقى الشرعى الجزء الأكبر من الدين فى نظرهم يشاركون فى الذكر رغم أنهم أحياناً قد أصطفوا على ممارسة كرامة وجودهم .

ولم يوافق الغزالى على الرقص من أولئك الذين فى السلطة لأنه لايتفق مع كرامتهم وهيبتهم بين الناس بل أنه لايمكن إطلاقاً حتى النهاية أن يقبل رجال هذه الطبقة الطريقة الصوفية نظرياً وعملياً باعتبارها دليلاً حقيقياً للروحانية الإسلامية ، وبالتالى فإنهم لم يحاولوا إنقاذ الأشياء الحقيقية والتي قامت من أجلها الفرق - مهما كان ذلك بطريقة غير كافية أثناء تدهورهم - حين بدأ معارض جديد ومرعب فى تقويض هذه المجال فى الروحانية الإسلامية .

وهذا ما سنتناوله فى الفصل التالى .

الفصل التاسع

الفرق الصوفية في العالم الإسلامي المعاصر

تنقسم الحركات الدينية فى القرن التاسع عشر الى ثلاث مجموعات :

- الخلاص خلال العودة الى الأصول (الشريعة) : الروحية .

- الخلاص خلال عرش المبعوث إلهيا (المرشد) : المهدية .

- الخلاص خلال الجذب والنشوة وفقد الإختيار الذاتى فى الشيخ

الصوفى (القائد احلهم أو الكارزمى) : إحياء الطريقة .

هذه الحركات المنبثقة من الأجزاء الأكثر (تخلفاً) من العالم العربى ، لها فى الواقع تأثير أقل على العرب فيه على الأفارقة ، فكل منهما قدم استجابة مختلفة بواسطة الاسلام التقليدى لتحديات العصر ، وقد واجهوا دون شك الكثير من حاجات الناس ومع ذلك فان المؤسسات الاسلامية القائمة ممثلة فى أشخاص « العلماء » قد هاجمت الحركات الثلاثة كلها بينما الرجال الجدد الذين ظهوروا مع نهاية القرن فقد هاجموا « الطرق الصوفية » بصفة خاصة .

وكان هناك على كل حال علاقة ضئيلة على الضعف فى السلطة التى تمارسها الفرق على الناس حتى فى بداية هذا القرن ، فلاذكار لازالت تؤدى فى مساجد كثيرة ، حتى فى الحرم الشريف (حتى ١٩١٧) والتى أهتم العلماء بصفة خاصة فى إزالتها منه ، وكان الدراويش والمنتسبون العاديون لازالوا كثيرين فى سوريا ، مقدرين بالأعداد الكبيرة التى كانت تؤدى دوراً فى حلقات الذكر العامة فى مناسبات خاصة ، والتى تدل عليها كتابات عديدة فى كتب الرحلات وهذه المناسبات وفرت فرصة مدهشة لرؤية الأنواع المتعددة للأذكار واحتفال المولد النبوى الذى لازال يعقد فى أم درمان فى الميدان حيث يجمع - سلفاً . الخليفة عبد الله الآلاف من أتباعه لصلاة الجمعة (رغم أنه منع الذكر) كانت فرصة مدهشة خلال أيام

تواجدى فى تلك المدينة) لقد سافرت مع القرويين والدرائش من القدس فى أيام أكثر سعادة للمشاركة فى الأحتفالات عند ضريح النبى موسى فى سهول الصحراء جنوب طريق أريحا ^(١) المطل على البحر الميت ^(٢) .

لقد شاهد نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الفرق تتعرض للهجوم من على جانب ، ولكنه ليس هذا الذى صنع الاختلاف عن العصور الماضية إذا أن المهاجمين لم يكونوا ضعافاً على الإطلاق فمعتقدات الفرق فندت وممارساتهم شجبت ودراويشهم سمز منهم ، وأحياناً أعدموا أحياناً وشيوخهم أنتقدوا بشده ، ولم ينقص هذا مثقال ذرة من شعبيتهم ، ومانراه فى أيامنا كان عمليه تاكل بدأت نشاطها خلال القرن العشرين ، وانتشرت نتيجة لعملية العلمنه ^(٣) مع التغيرات اللاحقة فى النظام الاجتماعى ، وتسلس الأفكار الدينوية ، هذه العملية للتغير قد قوضت الفرق لدرجة أنها نقلت فى كثير من أنحاء العالم العربى حتى وصلت الى توقف كامل تقريباً .

هذا وقد أخذ الاصلاح شكل النضال ضد البدعه وتقوية السنه وهكذا كان الأمر مع محمد بن عبد الوهاب ، رغم أن هذا النوع من الاصلاح قد

(١) أريحا : قرية فى وادى الأردن ، جنوب البحر الميت ، فى الضفة الغربية المحتلة (المترجم) .

(٢) كان الاحتفال يستمر من الجمعة الحزينة (السابقة على عيد الفصح عند النصارى حتى الخميس التالى وبالمثل كان احتفال الدوسة السورى كان يقام فى خميس المشايخ لبتطابق مع خميس المعهد فى حمص وأماكن أخرى حيث يوجد السعديون .

(٣) العلمانية : كانت تعنى فى البداية نقل ممتلكات الكنيسة إلى سلطات سياسية غير دينية أو الى سلطة الدولة أو الدول التى تخضع لسلطة الكنيسة ، وكان ذلك فى منتصف القرن السابع عشر ، ثم أصبحت تعنى - بعد ذلك فى القرن الثامن عشر - المصادرة الشرعية للممتلكات الكنيسة لصالح الدولة ، وتباين الاتجاهات المادية فى الفكر والاقتصاد النريبيين أصبحت العلمانية تعنى مجموعة من المبادئ والتطبيقات ترفض أى شكل من أشكال الأيمان والعبادة وإن الدين لا يبنى ان يكون أساساً للأخلاق أو التربية والتعامل بين الناس .

راجع للمترجم كتاب الغزو الثقافى عوامل - مظاهر - نتائج .

أثار معرضة « العلماء » وبعد ذلك حوالى نهاية القرن نسبت الحركة السلفية الركود فى الأراضى الإسلامية الى فساد الحياة نتيجة للبدع وأكدت أن الإصلاح يمكن أن يتحقق فقط خلال إزالة الانحرافات وإحياء السنه ، وقد عارضت حركة السلف المرتبطة بمحمد عبده^(١) ورشيد رضا تقريباً كل مظهر للفرق باعتبارها لانحلال والتصوف غير اسلامى ، بينما قبلت نوع التفكير الذى تمثله التعليمات الأخلاقية للغزالى^(٢) .

وفى تركيا كانت الهواجس حول الفرق باعتبارها تميل إلى تكوين مراكز لمقاومة التقدم بدأت فى الظهور فى منتصف القرن ، وقد كتب أوتشيني سنة ١٨٥٠ « عثمانلى أحد العثمانيين » الذى يشغل وظيفة مرموقة فى الدولة قال لى يوما ، صدقنى . أن وزراءنا يعملون عثباً وبلا طائل ، فالحضارة لن تنفذ الى تركيا طالما أن التكيات والقبور تظل قائمة ، والأهتمام بالممارسات المبالغ فيها للفرق فى مصر أدى إلى منع احتفال الدوسة للسعدية فى ١٨٨١^(٣) نتيجة فتوى المفتى الأكبر باعتباره بدعة قبيحة ، ولقد منعوا أيضاً من استعمال طبولهم الصغيرة المسماة « الباز » وبالمثل فان احتفالات الرفاعية رديئة السمعة قد منعتها السلطات العثمانية فى تركيا وسوريا .

(١) هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ولد فى شبراخيت بالبحيرة عام ١٨٤٩ ، توفى سنة ١٩٠٥ نادى بالإصلاح الدبنى والاجتماعى والاخلاقى كوسيلة للعودة الى الصورة الأولى للإسلام وتحرير المستعمر راجع :

تاريخ الاستاذ الأمام : محمد رشيد رضا ح ١ ص ١٣ (المترجم) .

(٢) يجب التفرقة بين أولئك الذين يعارضون الفرق الصوفية باعتبارها أعداء التقدم وبين ذكر الرواى السلفية التى تتمسك بالاتجاهات القديمة ، ويذكر أحمد الناصرى فى كتابه (كتاب الاستقصاء لآخبار المغرب الأقصى) أنه لقرون عديدة ، وخصوصاً منذ القرن العاشر الميلادى ظهرت فى المغرب هرطقة مقلته ، وهى تكوين منظمة من العامة حول شيخ حى أو ميت ، اشتهر بقداسته ومواهبه الغريبة ، يصفون عليه حبا واحتراما شديدين لا يصفونه على شيخ آخر .

(٣) ذكرنا تفصيلا ما كان يجرى فى هذا الأحتفال . (المترجم) .

والهجمات من هيئة (العلماء) والسلطة المدنية كانت مستمرة ولوانها متقطعة طوال تاريخ التصوف كله ، رغم أنه قد سمع عمليا بتوازي مع السلطة الدينية ولكن في الماضي لم يكن هذا الهجوم المتكرر يؤدي إلى أكثر من إدانة الصوفية الأفراد وكبح فرق معينه وهذه التجمعات لم تؤثرا مطلقاً على وضعهم في حيات التجمعات المسلمة ، طالما أنهم يخدمون حاجة دينية ويملاؤون ثغرة في التعبير عن مضي أعمق للإسلام ولقد ذكرنا من قبل أن الاختفاء الفعلي للفرق في كثير من البلاد مع منتصف القرن العشرين لم يحدث نتيجة هجوم سواء خارجي أو داخلي بل أنه التغير في وجهة النظر ، هو الذي جعل هجمات الناقدين والعلماء وأنصار التحديث والحدائث والرجال الجدد أكثر فعالية مكتسهم من الحصول على تأييد السلطات ، وفي مصر وتركيا كان للعمل الحكومي ، قد كبح من قبل النواحي الأكثر لفتاً للنظر^(١) .

في تركيا ، حيث الحركة العلمانية بقيادة مصطفى كمال الاتورك قد عملت على إلغاء الفرق الصوفية في سنة ١٩٢٥ هي مثال لما كان يحدث بدرجة أقل وخصوصاً في دول آخر ، خلال عملية حركة العلمنة . فالتغيرات في النظرة العامة وفي النظام الاجتماعي قد زعزعت الثقة في الطرق الدينية السابقة .

وكبداية فقد وجد أنتشار الأفكار عن الإصلاح الاسلامي والعودة إلى نقاء أو صفاء الاسلام الأول وشجب البدع والنضال ضد الخرافات وأصبح كلمة السر .

(١) إن ما يذكره J. W. Mcphersm في كتابه « Maulidsim in Egypt » الموالد في مصر ، طبعة القاهرة ١٩٤١ . هو رثاء لتدهورها وأثر القيود الحكومية على احتفالات الموالد المؤلف . ومعنى هذا إن المؤلف - ومعك كثير من كتاب الغرب - يأسفون عندما تتدخل الحكومات الاسلامية أو العلماء والفئات المتعلمة لمنع تجاوزات بعض أدعياء التصوف والمتمسحين به .

وكانت الفرق الصوفية بصفة خاصة معرضة لهذا الشكل من الهجوم لأنها تحملت عقاب التأكيد على أسلوب المؤسسات وخصوصاً استخدام مبدأ وراثه القداسه ^(١) والدافع أو الحافز المحرك لكثير من الشيوخ (ليكونوا مؤهلين كمرجع للأفراد) لم يكن بدرجة كبيرة هو الاتصال بالله (عزل وجل) فى أى مفهوم خالص بقدر ما كان يكسب فضل الله ، وبذلك يمكن الحصول على متعة هذه الدنيا من ثمار هذا الاعتراف ، وسابقاً كانت البحوث القانونية والشرعية تدرس جنباً إلى جنب مع التصوف فى مؤسساتهم ، ولكن خلال المائة سنة الأخيرة فان أولئك الساعين للتعليم الاسلامى قد تحولوا غالباً وبصفة كاملة إلى مراكز مثل الأزهر أو القرويين وقد نظم هذا الولاء بين السلفية والتصوف ، وكان معناه محتوى الدراسات قد أصبح رسمياً وغير اشراقياً ، وأن الفرق قد فقدت تأييد الكثيرين فى طبقة الفقهاء .

وآخرون ، ممن تأثروا بالمفاهيم الجديدة والذين أحسوا ان الاسلام يجب أن يكون مستعداً لربط نفسه بالعالم الجديد ، والذي دفعوا إليه وكانوا معارضين للفرق الصوفية بصورة أشد والقليلون تعرضوا بصراحة للتصوف كنظام روحى فردى وفقاً لخطوط الغزالية ^(٢) ، حتى رغم أنهم قد يكونوا قد اعتبروه مضیعة للوقت ، ولكن الشكل الذى أتخذه التصوف ومظاهرة الشعبية المبالغ فيها فكانت شيئاً مختلفاً ، وقد اعتقدوا بأن الفرق مسئولة عن الركود الذى غمر الحياة فى الدول الاسلامية ، ولقد سعوا إلى إيدان الشيوخ ليس فقط على هذا الأساس ، ولكن أيضاً لأنهم كانوا خصوصيين لحد ودين غير متحمسين للموضوعات المشتعلة المهمة مثل القومية وكانوا

(١) المتروم)

(١) أبى القول بالأولياء وخلفائهم .

(٢) المتروم)

(٢) أبى وفق منهج الأمام أبى حامد الغزالى .

شديدي الارتباط بالعيشة والأسرة ، والتقاليد المحلية ، وبصفة خاصة فإنهم تصدوا لنفوذ مستغلي البركة التي تظهر على مرديهم وتدخلهم فيما اعتبره هؤلاء الرجال الجدد موضوعات دينوية ^(١) .

ولكن الأكثر أهمية من كل هذا كانت هي عملية العلمنة والمقصود بهذا المصطلح عملية التغير أو الانتقال من أنظمة إجتماعية وثقافية تميزنا بها الدين أو يلزمنا بها ، إلى نظام يكون فيه كل مجال للحياة والعلوم والفنون والأنشطة السياسية والاقتصادية ، والمجتمع والثقافة والأخلاق أيضا ، والدين نفسه تصبح كلها مجالات مستقلة ذاتياً هذه الحركة من التغير كانت لاشعورية ، بدرجة كبيرة وغير ملحوظة ومستمرة فقط منذ أجيال قليلة مضت كان كل المسلمين مدركين أنهم يعيشون في ظل جانب من الخلود ، والآن فإن نفس الثورة التي غيرت العالم المسيحي السابق تحدث في العالم الاسلامي ، ومرجع دينوي آخر يثوارى للإسلام يعتقد الناس بسبب توضيحاته الاجتماعية والثقافية ولكن نفوذه الروحي قد ضعف ^(٢) ويجب أن نتذكر أن التصوف كنظام للتفكير كانت حاشية للإسلام كما توضح حقيقة أن العلماء لا يشعرون بأى احساس بخسارة عند احتفاء الفرق ، كما أوضحنا فإن الفرق كانت وسائل وليس الجوهر للحياة الصوفية كما ضعف الدافع إلى الحياة الصوفية الفرق قد ضعفت أيضاً وفي سياق شعبية الاستبصارات الصوفية في الفرق ، يجب على المرء أن يترجم الحياة الصوفية

(١) في الثلاثينيات من هذا القرن كان يمكن حدوث أن الرافض العقلي للدين يكون متوافقاً مع المشاركة الفعلية في الشعائر الدينية وقد كتب أحد أصدقاء : « ان الاندس الأكثر حداثة ، والذي يعد في أحاديثه عن ازدهار الدين وينغمس تماماً في السياسة المعاصرة ، قد يقضى امسياله مع مجموعة من الدراويش ويعامل شيخ الطريقة باحترام وتقدير كبيرين ، ويدعو أنه من الصعب وجود ما يعادل هذا في العالم العربي في الشرق الأدنى اليوم (المؤلف) .

(٢) (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون) التوبة ٣٣

(المترجم) .

فى هذه الجملة الأخيرة بإنها إضافية وزائدة بالنسبة لىة التعبد ، وفى الواقع ، فإن الخسارة التعبدية كانت كارثة ، فإن مأساة التسوية التى تمت بين أساتذة الشريعة وشيوخ الحياة الباطنية ، هى أنه لم يتحقق توازن حقيقى ، فقط مجرد تواجد مشترك صعب ومما تجدر الإشارة إليه هو عدم وجود موضوع اخلاص فى العبادة فى اللغة العربية ، غير ما جاء من الفرق ورغم أن هذه الكتب مازالت تباع ، إلا أنها تشتري أساسياً بواسطة تلك القطاعات من الناس الأقل تأثراً (بالتغير الجديد) (١) .

وكلمة تصوف تحمل للذهن الأفكار العربية الحديثة العادية المجردات التأملية والقصائد الغامضة أو الجنسية ، هذا من جهة والخرافات الفجة والدراويش ذوى الملابس الرثة والرقصات المعربة والشيوخ الدجالين المرتشين الذين يصورون بالكاريكاتير الساخر فى المحاضرات والمجلات السائدة من جانب آخر .

وفى مواجهة معارضة « العلماء » والمصلحين الأصوليين من النوع السلفى وكذلك العلمانيين الجدد نتيجة لتقليل أهميتها أساساً نتيجة للتغيرات الحادثة فى المناخ الاجتماعى والدين ككل ، تكون هذه الفرق فى تدهور فى كل مكان وقد حدث هكذا نتيجة للخل ، ولكن بدرجة أقل عما نتج من أن الشباب لم يلقفوا بها . فقد أختفت الطوائف حين توفى الشيوخ ، اذ لا يوجد من خلفهم فأبناؤهم نتيجة نظرهم العقلية واهتماماتهم السائدة ، لم يعودوا ينتمون لعالم آبائهم .

(١) لماذا لا نقول أن المسلم المعاصر نتيجة لأرتفاع وعيه العام وأزدياد معرفته بتماليم دينه بدأ يتعد - ولو قليلا - عن تجاوزات سلوكية كان يمارسها الدخلاء على التصوف ، وعرف أن التصوف الحق هو ما لا يتعارض مع الاسس الصحيحة للإسلام . (المترجم) .

وأكثر بعداً عن الاستقرار الاجتماعى فأن الانسجام التقليدى لحياة الروح كان قد فرق أو الموقف المتغير يحتاج ان يوضح الدين أنه يمكن أن يظل باقياً مرتبطاً ومهماً بالنسبة للحاجات الإنسانية ، ويمكنه أن يواجه التحديات والفرص بمرونة وتماسك ولكن الطبقات الدينية ^(١) لم تكن قادرة على تكييف نظرتها الدينية وبالتالي نظامها السلطوى المخول لهما بالنسبة لرجال فى موقعهم الفعلى ، ولا لايجاد طرقاً جديدة لخدمة المجتمع .

أن الأفكار العلمانية تؤثر على كل قطاع من المجتمع وان كان بدرجات مختلفة ، وكما زاد فى انهيارها وتدهورها هو أن الكثير من وظائف الطوائف قد أخذتها المنظمات الدينية مثل التسهيلات التعليمية الجديدة والنوادر والجمعيات ويجب أن نضع فى اعتبارنا أيضاً الطريقة التى اضعفت بها التغيرات الاقتصادية والهيئات المهنية والتجارية وأدت فى النهاية إلى القضاء عليها والتى كانت من قبل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطوائف الصوفية . فالعلاقة التقليدية بين (الدخيل) والعميل (الملتحى) فى هذه النقابات قد توقفت ، ولقد بينت الدراسات أنه فى مدينة للقطن بمصر فإن السكان القدامى فقط ينتمون إلى الطائفة المحلية ^(٢) ، فقد أصبحت رابطة أو جمعية رجعية تساعد على حفظ الهوية للمحليات وتحافظ على تميزهم عن باقى العمال فى حلج القطن .

وفى مصر فان جماعة الإخوان المسلمين ^(٣) عملت كبديل للفرق كنظام لارشاد والأفراد ولخدم المجتمع ، خلال تجمعهم فى جمعيات محلية

(١) يقصد رجال الدين الرسميين . (المترجم) .

(٢) من دراسة قام بها W. M. Canson بعنوان

The social History of ar Egyptian

(٣) الإخوان المسلمون ، كبر الحركات الإسلامية المعاصرة ، نادت بالرجوع إلى الاسلام كما هو فى الكتاب والسنة ، داعية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى واقع الحياة ، وقد وقفت متصديه لمواجهة المد -

ويعنى ما يبدو أنها نبعت من الطائفة حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩)
مؤسس حركة الإخوان كان قد لقن الطائفة الحصفية فى ١٩٢٣ على يد
أبن مؤسسها حسنين الحصفى وكانت أول جمعية خيرية أسسها وأخذت
أسم الفرقة رسمياً جمعية الحصفية الخيرية ولكن الحركة والتي كان
بداخلها فى نفس الوقت رغم الميول الرجعية ، امكانيات كبيرة ، قد لقيت
مصير الكثير جدا من الحركات الدينية الاسلامية حين انغمست فى الأمور
السياسية . وفى دول مختلفة ^(١) فأن حركة الإخوان المسلمين لقيت قبولاً
لدى الطبقات المختلفة من السكان . ولكن عموماً فأن الإخوان عارضوا
الفرق الصوفية ^(٢) وساهموا أو اشتركوا فى نقلها .

— العلمانى فى المنطقة العربية والاسلامية ، ومؤسس هذه الدعوة الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ -
١٣٦٨ هـ) الموافق (١٩٢٦ - ١٩٤٩) .

يقول حسن البنا عن دعوته : (إن الإخوان المسلمين دعوة سلفية ، وطريقة سنية ، وحقيقة
صوفية ، وهيئة سياسية ، وجماعة رياضية ، ورابطة علمية وثقافية ، وشركة اقتصادية ، وفكرة
اجتماعية ، وهى دعوة ربانية لأن أساس الدعوة أن يتقرب الناس إلى ربهم ، وإنها عالمية لأنها
موجهة الى الناس كافة ، وأنها إسلامية لأنها تنتسب إلى الاسلام .

راجع : مبادئ وأصول فى مؤتمرات خاصة وحسن البنا دار الشهاب بالقاهرة ط ١ ١٩٨٠ م ،
ومذكرات الدعوة الداعية : حسن البنا : المكتب الاسلامى ط ٤ بيروت ١٩٧٩ . (المترجم) .

(١) مثل دولة العراق : وبعد الشيخ محمد محمود الصواف مؤسساً ومراقباً عاماً للإخوان فى العراق ،
وقد كان له دور نشط فى نشر الإسلام فى افريقيا بعد هجرته من العراق سنة ١٩٥٩ واستقراره
فى مكة المكرمة . وفى سوريا كان الدكتور مصطفى السباعى (١٩١٥ - ١٩٦٤) أول مراقب
عام للإخوان هناك ، وبعد أول عميد لكلية الشريعة بدمشق . وتأسست جماعة الإخوان فى
الأردن سنة ١٩٤٥ ، وكان أول شيخ لها عبد اللطيف أبو قورة ، ثم الأستاذ محمد عبد الرحمن
خليفة الذى أصبح مراقباً عاماً للإخوان فى الأردن .

راجع : الإخوان المسلمون . ريتشارد ميتشل . ترجمة عبد السلام رضوان ، مكتبة مدبولى ،
القاهرة ١٩٧٧ ، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ . محمود عبد الحليم ، الإسكندرية
١٩٧٩ . (المترجم) .

(٢) الحق الذى لاجدال فيه أن الإخوان أخذوا عن المتصوف ما فيه من دعوة الى تربية النفس
ونهذيبها والرقى بها على ما كان عليه أوائل المتصوفة من صحة فى العقيدة وترك ونبد للبدع
والشطحات والاستكانه والسلبية . (المترجم) .

يجب أن يؤخذ في الاعتبار أيضا واقعة أن التغيرات الأخرى في النظام الاجتماعي والسياسي قد أثرت على حياة وهيبة شيوخ الفرق فلم يعودوا يسعون للفصل في النزاعات ، والمناقشات الدينية بين القبائل والجماعات ، وتضاءلت ثرواتهم مع انخفاض عدد المنتسبين وهباتهم ، ولم يعد المجتمع المحلي متماسكاً بدرجة وثيقة مثلما كان في الماضي ولكنه أصبح ينظر إلى نفسه أكثر فأكثر باعتبار جزءاً من حياة وحده سياسية أكبر .

إننا لا يمكننا التصميم حول تواريخ متى بدأت فترة الركود أو مداها حيث أن هذا يتفاوت في الدول المختلفة وبين طبقات المجتمع المختلفة بها ، فالعادة الاجتماعية لا تتغير بصورة موحدة ففي الشرق الأدنى العربي نجد أن تدهور الفرق ملحوظاً جداً حيث كانت الأقوى في المدن ، والمدن كانت أكثر تأثراً بالتغير الحديث ، والعرب هم فقط حالات استثنائية من ذوى الذهن الصوفي ، فالعربي يكون في حالات خاصة فقط ذا عقلية صوفية . وهو بصفة عامة يقتنع بالحرى والطريق إلى الله وفق الخطوط غير الجوهرية كافي بالنسبة له ، والأهتمام بالتصوف كان في أقوى صورة في البلدان الغير عربية ، مع استثناء ملحوظ للجماعات الحامية المستعربة (البربر والكوشيك) وهي بداخل هذه الجماعات لا يزال تستبقى بعض القوة ، بينما في الشرق الأدنى العربي الخالص أختفت كل من الفرق والأهتمام بالتصوف تقريباً ، ونتيجة لهذا توقفت الهجمات وظهر منذ حين عدد من الدراسات المتعاطفة (مع التصوف) باللغة العربية ، من هذه الحركة للروح الاسلامية^(١) . وفي المناطق الحامية المتعربة (المغرب - السودان النيلي) حيث كانت الفرق قوية جداً بين المزارعين وحتى بين البدو ، وكذلك الطبقات الأخرى ، فإن انحسارها أصبح ملحوظاً فقط منذ ١٩٤٥ .

(١) من بين الباحثين المصريين المتفهمين للتصوف ينبغي أن نشير بصفة خاصة الى د. أبو العلا عفيفي ، والذي كان كتابه الأخير (التصوف الشرة الروحية في الاسلام) طبعة القاهرة عام ١٩٦٣ محصوراً في المرحلة الأولى من التصوف .
(المؤلف)

لقد لفتنا الأتباء إلى أهمية مكة المكرمة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كمركز انتشار ، ونخلصها في هذا الخصوص يبدأ في فترة الحرب العالمية الأولى . ولكن السيطرة الوهابية سنة ١٩٢٤ نفخت في الفرق نفخة الموت هناك ، ليس بأنها تعبت ولكن السلطات اعتبرت مظهرها غير مناسب للمدينة المقدسة يقدم أو يظهر للحجاج ، وببساطة أظهرت السلطات أنه من الأفضل لها أن تختفى عن الأنظار رغم أنه لن يعترض أحد على تكرار أسم الله في صمت نفسه في الخلوة المقدسة .

والقليل نسبياً من الرجال الجدد الذين حاولوا تقديم تقدير أصيل للتصوف فكتاب محمد اقبال ^(١) (١٩٣٠) (تجديد الفكر الديني في الاسلام) هو كتاب مرموق معروف وكانت هذه تسمى محاولة لاعادة التفسير بروح انسانية للتجربة الروحية للصوفية ، وخصوصاً التراث الصوفي الفارسي ، ولا يوجد دليل على أن « اقبال » اتبع طريقاً غير الطريق العقلي والشعري ، وأثبت فكرة رؤية تأولية وأنسانية لدرجة أنه لم يوقظ استجابة بين المسلمين خارج بيئة الثقافية خصوصاً بين العرب ، وقد هدا الأزهريون وأدانوا الاستفراق الذي أظهره المستشرقون الغربيون نحو هذه الناحية من الاسلام ^(٢) وفي ايراث على العكس من ذلك فإن الاستجابة الحديثة

(١) راجع محمد اقبال والفكر الديني الحديث د / عبد القادر محمود ضمن كتاب دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية ، مرجع سابق .

(٢) هناك مقال في مجلة « الأزهر » عام ١٩٥٢ يشير الى الطريقة التي ضللت مستشرقين معينين وخصوصاً ماسينيون وجاروت - نتيجة للتصوف ذي طابع الوحدة الالهية الشاملة من إسماعيل ابن عربي ، ويقرر المقال بشكل حازم ان الجزء الأعظم مما يسميه المستشرقون تصوفاً اسلامياً ليس له أساس مشترك مع الاسلام ، وليس فقط الأزهريون بل إن الفيلسوف المغربي للشخصانية محمد عزيز الحبابي يتبنى نفس الموقف بل إنه يرى أن التصوف هو أحد أسباب تأخر المسلمين . ونحن في هذا الكتاب لسنا مهتمين بهذا الموضوع ، إذ إننا ننظر الى التصوف - والاسلام في الحقيقة كثقافة - من وجهة النظر التاريخية والاجتماعية والتصوف - في نظرنا - وبكل مظاهره هو -

للتصوف كانت مختلفة تماماً عن استجابة العرب ، ولكن هذا يتبع من حقيقة أن التصوف العقلي الشعري كان مرتبطاً بإعادة إيقاظ روح الثقافة الفارسية ، بعد محاولة الإسلام العربى ^(١) ان يخضعها لمقاييسه الخاصة قد اعتبر ميراثاً قومياً .

وتركيا هي الاستثناء الظاهر لهذه العملية التدريجية من التدهور فهناك فإن العملية تزايدت سرعتها ، إذا أصبحت الفرق موضوعاً مباشراً للهجوم بواسطة الحركة المؤيدة للعلمانية وقد اعتبرت ليس فقط مجرد شيء متدهور بل أيضاً شيئاً متخلفاً وخطيراً من الناحية السياسية .

لقد ذكرنا فيما سبق أن الفرق في اجزاء كثيرة من الامبراطورية التركية ، قد هوجمت على أساس دينى واخلاقى ، وكذلك سياسى ووطنى ولكنها لم يشرها ذلك إلى الاتجاه نحو الاصلاح الحقيقى ، أو إظهار حياة جديدة وقد بدأت حركات الاصلاح فى المناطق الحدودية وبأفريقيا وبالمثل تماماً فان تأثير الفرق ظل قوياً حتى وقت كبجها ويعطى S.Anderson ^(٢) قائمة بـ ١٧ طريقة معترف بها رسمياً فى القسطنطينية فى يوليو سنة ١٩٢٠ وهذه المدينة كان بها ٢٥٨ تكيه ، وكذلك الكثير من المراكز أو المجموعات الصغيرة الغير معانه ، والتي كانت تتقابل أو تجتمع فى منازل خصوصية وكان الفرق بؤرة طبيعية الاصلاح المتحمس ، لثورة أتاتورك ^(٣) وقضى عليها

— اسلامى بشكل بىّن ، ولكن كلا من الأهرمين ومحمد اقبال يحصرون انفسهم فى القرآن والسنة (المؤلف) .

ونحن هنا لن نكرر ملاحظتنا على موقف المؤلف ، ولكن تسائل فقط : ماذا يبقى من الاسلام بعد القرآن والسنة المترجم .

(١) سبق التعليق على مثل هذه العبارات : الاسلام العربى ، والاسلام الفارسى !!!

(٢) من كتابه « The moshemworld » ، طبعة ١٩٢٢ .

(٣) مصطفى كما أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية وأول رؤسائها ولد سنة ١٨٨١ م وتوفى سنة ١٩٣٨ م تميز اسلوبه بصيغ البلاد بالصيغة الحديثة وكان يعارض السلفية والاسلام (فقد الفى المادة من الدستور التى تعلن إن دين الدولة الرسمى هو الاسلام) فسمى دون رحمة إلى قممها لأنه كان يرى أنهما مسؤولان عن اضمحلال الدولة .

راجع : دائرة المعارف الاسلامية ٥١١٢ المترجم .

سنة ١٩٢٥ وبعد ذلك أصبحت ألبانيا القبيضة القوية للبكتاشية وظلت كذلك حتى في ظل الشيوعي^(١). والقضاء على الفرق في تركيا ثبت أنه كان حاسماً فلم يكن من المتحمل أن تلعب دوراً كبيراً دينياً أو اجتماعياً مرة أخرى ، والحقيقة أن وجدت تقارير عن أنشطة الطريقة^(٢) وأحيانا براهين مذهشة عن توفير الوعي^(٣)، ولكنه من السهل تماماً إساءة تفسير

(١) التكية البكتاشية (قبر عبد الله المغاورى) على المنحدرات الغربية من جبل المقطم على منظور رائع على القاهرة ، وظلت باقية إلى وقت قريب جداً ، هنا التكية قد هوجمت وأغلقت بواسطة الحكومة ، ولكن الدراويش وكلهم اليائمية فقد منحوا منزلاً في المعادى تعويضاً لهم حيث استمرت تقاليدهم محافظاً عليها حتى موت الشيخ الأخير أحمد سرى بابا سنة ١٩٦٥ (المؤلف).
أشرنا في موضع سابق إلى أن عبد الله المغاورى (قبوغوستر) قد دخل مصر سنة ٨٠٠ هـ ومن ثم بدأ انتشار الطريقة البكتاشية في مصر في بداية القرن التاسع الهجرى ، وسموا أول تكية لهم تكية القصر العيني ، وفى سنة ١٢٧٦ / ١٨٥٩ صدرت أوامر الحكومة المصرية بتخصيص المغارة التى دفن فيها عبد الله المغاورى للطريقة البكتاشية فبنوا تكية عظيمة هناك وأصبحت هذه التكية تابعة للمركز الرئيسى فى تركيا . ثم للمركز الرئيسى فى البانيا ، وفى سنة ١٩٤٩ أصبحت مصر المقر الرئيسى للطريقة ، وأصبح أحمد سرى وده بابا شيخ مشايخ الطريقة ، وفى يناير ١٩٥٧ أمرت الحكومة المصرية باخلاء تكية المقطم لوقوعها ضمن المناطق العسكرية ، وأعطت الحكومة أرباب الطريقة مكاناً آخر فى ضاحية المعادى . راجع الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة . مرجع سابق ص ٤٣٢ المترجم .

(٢) الأنشطة التيجانية كانت تنحصر العناوين الرئيسية فى إحدى الفترات وهذه الفترة قد كسبت فقط مجموعة صغيرة من الأتباع فى تركيا ، ولكن دعائنها كانت نشطة أثناء فترة الحرب العالمية الثانية ، وقائدها كمال ييلا فوجللو وكان نشطاً بصورة ظاهرة فى أنقرة سنة ١٩٤٢ ، وبعد انتصار الحزب الديمقراطي فى انتخابات مايو ١٩٥٠ ، كان ضغط العلمانيين هذا وسمحت الحكومة الجديدة باعادة فتح قبور الأولياء وزيارتها ، وقد أحدث هذا رد فعل شعبى وقد نظم ييلا فوجللو تدمير التماثيل لانتورك ، ونتيجة لهذا فإنه هو وأتباعه حكم عليهم بالسجن ، وقد بدأت البكتاشية أيضاً نشاطاً شعبياً فى أسطنبول ، والنقشبندية فى الولايات الشرقية ، وأدى ذلك الى تدخل الشرطة سنة ١٩٥٧ ، ١٩٥٤ والذكر الدوار للمولويين يحدث سنوياً فى قونيا ، ويمكن أن يشاهد أيضاً كجذب سياحى فى القاهرة وطرابلس ولبنان (المؤلف) .

(٣) فى جمهورية تركيا يستمر غناء أو تلاوة المولد فى المساجد والمنازل إما فى بعض الأعياد الدينية مثل ليلة القدر ، أو فى احتفال عسكرى ، أو فى وقت الحداد ، وكان اشهر أوقات حدوثها هو اليوم الأربعين من الوفاة (المؤلف) .

هذه الاشياء ، فتيحيل الأولياء لم يختفى فجأة بواسطة مرسوم حكومى ولذلك لم يكن فى حاجة لإعادة إلى الحياة أو النشاط والقطاعات الأقدم فى مجتمع متغير تشعر بميل وحب شديد ، إلى عناق من الماضى فشعر دانتيات الروحي قد أثرا فى الكثير من الرجال الجدد أيضا . ولكن هذه الأشياء يجب أن توضع داخل التركيب الكلى لعملية علمنه المجتمع فهذه بقايا من الطريقة القديمة للحياة ، لم يعد بعد قوى حاكمة أو متحكمة فى حياة الناس .

من الصعب نقل أو ذكر أى تقدير متوازن عن موقف العالم العربى عندما كانت الفرق - حقيقة - مائزال موجودة ، فالذكار تؤدى والموالد تتم ففى مصر بعد ثورة ١٩٥٢ ، فان مبدأ الخلاقة الموروثة الحتمى قد اندثر لصالح الشيخ المنتخب ثم أعقب هذا بعض الاستقرار لما اعتبرت فرقا محترمة، وقد ذكره صديق مصرى أن طلبه الجامعة قد يحضرون أو حتى يشاركون فى الذكر ، ولكنه اعترف بأن هذا يصور البحث القلق للشباب عن الاستقرار الداخلى أكثر منه إعادة ميلاد لحيوية الفرقة الصوفية ، ومثل هذا المنهج مؤقت بينما هدف الفرق للمتسبين وكذلك للدراويش هو اقتفاء الطريقة طول العمر ، وليس منهجا مؤقتا للترقى الروحي ، والعجز الحقيقى (موضحا خلال الكثير من الشباب الذى خاب أمله) هو النقص فى المرشدين المؤهلين الذى أدى إلى الاختفاء الفعلى للطريقة الصوفية لطريق للنظام والتعليم الصوف .

والتهور فى الأنظمة كان أقل وضوحا فى المغرب والسودان النيلي عنها فى أى مكان آخر فى العالم الناطق باللغة العربية ، وقد شجع الفرنسيون الفرق فى مراكز متوقعين بقادتها وأعيادها ، كجزء من

(١) بقصد جلال الدين الرومى .. وقد اشرنا إليه فى هامش سابق . المترجم .

محاولتهم للمحافظة على توازن بين القوى المختلفة في الدول ، خصوصاً المعارضين منهم للسلفية الدينية والمصلحين والتقدميين ^(١) .

ساعد محمد الخامس (حكم من ١٩٢٧ - ١٩٦١) السلفيين ومنع احتفالات ومواسم للعيسوية والحمد وشية ، وكذلك الذبائح المقدمة للأولياء وكذلك منعت الممارسات الأخرى ^(٢) ، لقد كان ناجحاً في إصدار مرسوم ١٩٤٦ بمنع تأسيس فرق جديدة ، وبناء زوايا جديدة بدون موافقة رسمية من الملك ، وفي مراكش قدرأ من عدد الشيوخ الممارسين والمتتبعين حوالي ٤ ٪ من تعداد السكان ، رغم أن عدد الناس الذي أرتبط فعلياً بالطائفة أو على الأصح بأوليائهم كان أعلى بكثير ^(٣) .

وفي الجزائر سنة ١٩٥٠ كان عدد المريدين في الفرق الثلاثة الرئيسية (الخلونية والشاذلية والقاروية) الممثلة هناك يتضمن حوالي نصف مليون عضو . والرحمانية (الخلوانية) يكونها أقوى الأنظمة كان بها (٢٣٠.٠٠٠) مريداً .

ويقول M. Fauquel بعد أشارته إلى أن الفرق تمارس القليل من الأنظمة يكتب ما يفيد بإنحسار هذه الأعداد من السكان أمام التقدم الحديث .

وفي بعض الأماكن نجد أن فرقة تربية كسبت أتباعاً حالياً وكذلك

(١) أليس هذا دليلاً قوياً على أن الجوانب السلوكية المنحرفة لبعض أدياء التصوف تتعارض مع الاسلام وتبعد الناس عنه ، وهذا ما فهمه الفرنسيون المستعمرون ومن ثم شجعوا الفرق الصوفية المترجم .

(٢) أنظر محاضرة علال الفاس بعنوان (الحركة السلفية في المغرب) ، وقد نشرت في كتابه (حديث المغرب في المشرق) طبعة القاهرة ١٩٥٦ .

(٣) يمكن تصوير بعض الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية والجماعات المهنية في مراكش ، منسوبة الشيوخ والمريدين الممارسين أصبحت بين .

شهرة أوسع وهذه الفرقة هي العلوية ، وهي مشتقة من الدراقاوية أسسها في
موستاجانام (أوران) في ١٩١٨ أحمد بن العلوى (ابن العلوى عاش في
الفترة ١٨٧٢ - ١٩٣٤) عند عودته من اسطارة بالهند حيث تعلم
المذاهب الصوفية الحديثة (غير المغربية) وطرقها الفنية (طرق الذكر
والاعتكاف) . لقد أثارت هذه الفرقة اهتمام عدد من الأوروبيين ^(١) والكثير
منهم قد كتب عن حياة المؤسس وتعاليمه .

ومجرد وجود مثل هذه الفرقة يشهد بالحقائق الأبدية ، لكن وجهة
نظرها محدودة في أن تعاليمها لا تبين إتجاهاً جديداً ، أو تقبلاً جديداً للحياة
في عالم متغير ، أما الأحتفال أو عيد الفرق ينظم بدرجة عالية وتجمع معاً
حشداً متنافراً ، من رجال الجبال الرفاعين ، الى الأوروبيين الذين دخلوا
الاسلام حتى في هذه الفرق يحدث الانقسام وتوجد جماعات معارضة في
(أوران) Loran .

وحدث الطريقة الأكثر شهرة في القرن الماضي كانت بالتأكيد هي
السنوسية . ولكن هذا الفرق شهد ثورة شنها من رئيس زاوية الى الملك مع
تدهور مصاحب في نفوذها الروحي ، ومراحل التغير تبدأ مع جزء من الفرقة
في النضال ضد الايطاليين ثم أعقبها حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ (العالمية
الأولى) . ثم قدرتها من المعاناه والنفي أثناء الحكم الإيطالي ، حين اضطرت

(١) أن أهميتها في نظر الأوروبيين ترتبط بذلك البحث أو التطلع الى التنوير الذي جعل الناس ترتبط
بالحركات الفلسفية والباطنية ، وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى الجمعيات التي يطلق
عليها أسم صوفية في العالم الغربي ، مخافة أن يظن أحد أن لها علاقة بموضوع هذا الكتاب ،
ومع ذلك فلن يفشل أى قارئ في ادراك أنها كانت جماعات غير معتمدة ، لأنها ببساطة لا
تمثل تراثاً صوفياً مستمراً ، ولكنها بلا جذور فالتصوف طريقة ، ورغم أن فساد الفرق قد
أضفى على مظاهرها الخارجية دلالة وأهمية قليلة فإن الطريقة نفسها لا يمكن أن تفقد .
المؤلف .

قادتها أن يلجأوا إلى مصر وأى مكان آخر ، ثم بعده (أى عقب ذلك) ارتباط شيخ الفرقة بالبريطانيين أثناء عملياتهم فى ليبيا ، وبالتالى تعين الشيخ سيد ادريس على رأس إمارة (ميرنيكا) ثم ملكه ليبيا وأخيراً اكتشاف واستغلال مصادر البترول التى شملت انهيار الفرقة .

رغم أن الفرق لا يمكنها استعادة نفوذها السابق اطلاقاً فى الحياة الاسلامية ، فأنها ستظل موجودة لأن هناك دائماً بعض الفلاحين والحرفيين والمتعلمين (مفكرين) الذين يحتاجون إلى نوع من العزاء الروحى الذى تقدمه أو توفره الفرق الصوفية ، أو يكونوا مستعدين للبحث داخلها عن طريقة للهروب عن متاعب الحياة فى العالم الحديث ، كما وجد أجدادهم فيها توازناً للضعف السياسى والاقتصادى والدينى للمواطن العادى ، والمؤسسات العلمانية الحديثة وكذلك وجهة النظر الحديثة لا ترضى إلا قلة من الذين يشعرون بالحاجة للمحافظة على القيم الروحية .

ففى المناطق الأقل تعقيداً وتقدماً ، تحتفظ الفرق ببعض السلطة خلال توحدها مع مذهب تقديس الوعى ، ويستمر القرويون فى الاعتقاد فى كفاءة البركة المرتبطة بالروح داخل الضريح ، وقد اشير إلى أن (موالد) مشهورة قليلة يمكن أن تظل تجذب آلاف الناس ، لكن عندئذ فإن العالم العربى كله يحافظ على عيد الميلاد المجيد ، وكم يعنى هذا روحياً وحتى فى جمهوريات روسيا الأسيوية ، فإن الطرق أمكنها أن تعيش .

إن التدهور فى الأنظمة هو دلالة أعراض فشل المسلمين فى تكييف تفسيراتهم التقليدية للإسلام ، للحياة فى بعد جديد والإسلام كدين بسيط أو شعبى يوجه نفسه إلى الإنسانية كلها^(١) . حاملاً الحقيقة فى صورة يمكن أن تعيش مع أى فرد بينما التصوف طريقة مفتوح للقلّة فقط ،

(١) يقصد عالمية الدعوة الإسلامية تلك التى لا تتوافر فى أى ديانة أخرى .

ولكن الدين ليس وحياً فقط فالتصوف نتيجة طبيعية للدين البسيط ، حتى رغم أنه نظام روحي تمارسة القلة وأن مظاهره الاجتماعية معرضة للفساد حقاً - كما تقول إنتقادات المصلحين ، ولا يوجد خلاف على أن الفرق قد ورثت (وجدت) ونشرت خلال العالم الاسلامى رصيذاً ضخماً من التجربة الروحية والطاقة الروحية ، وأنه بدونهم فإن التأثير الروحي للاسلام يتحقق بدرجة كبيرة فقد انجرت الفرق الصوفية سيكولوجية هامة فى تخللها فى حياة المجتمع وكذلك الحياة الفردية عن طريق القيم الروحية والأن لقد ذهب كل هذا ، ومثل هذه الأشياء كأهتمام معاصر فى تركيا بالقيم الروحية (ليونس إمري) وحبه للأنسانية والقيم الانسانية ليست إحياءاً للروح الصوفية . ولكنها تعبيرات عن روح النزعة الانسانية المرتبطة بالماضى والتي جعلت عالمية فى روح الحاضر .

ولسنا فى حاجة إلى افتراض أن التغير كان حسناً عندما اخمد القوى التي وجدت سابقاً تعبيراً عنها فى الفرق الصوفية لأن الإحتياجات التي خدمتها الفرق مرة لا تزال موجودة والوسائل لخدمتها قد يعود ظهورها فى أشكال جديدة ، وتحت أشكال أخرى فى الحياة الحديثة .

فمن الناحية السوسيولوجية رأينا أن الدين وضع فى مكان خاطيء أو انكمش من كونه المبدأ المنظم خلف الحياة ، والمساند والمشكل للمجتمع ، مظهراً واحداً يبين مظاهر كثيرة للحياة الاجتماعية ، رغم تلقية اعتراف خاص كعامل تمييز داخل عالمية الثقافة العلمانية ، وفى نفس الوقت فالاسلام يظل فى أن يكون المبدأ والمرشد والموجه فى الحياة الشخصية للأعداد الغفيرة من الناس ، وداخل الاسلام سيثمر التقليد الصوفى لانجاز رسالته فى الحفاظ عل القيم الروحية الأعمق خلال الرابطة الخاصة والعلاقة بالعالم الروحي . الذى تمثله « الطرق » وقد كان اهتماماً - أساساً

بالحركات التاريخية وتنظيمها ولكننا لم ننسى مطلقاً أن الطريقة هي روحية
بينما الطائفة تكون جديرة بالثقة فقط طالما أنها تجسد الطريقة ، ورغم أن
طوائف كثيرة للغاية تختفى ، إلا أن التراث الصوفي الأصيل للتلقين
والإرشاد لا زال يحافظ عليه ، متمشياً مع تعاليم الشيوصوقية الصوفية المعتمدة ،
ولن يضيع هذا مطلقاً فالطريقة في عصرنا تعلمنا كان في العصور الماضية ،
هو من أجل القلة الذين يقدون لدفع الثمن ، ولكن رؤية القلة الذين يتبعون
الطريقة الواجهة الشخصية والالتزام والتي تهرب من الزمان لمعرفة إعادة
الخلق ، هذه الرؤية تظل حيوية من أجل الرفاهية الروحية للجنس البشرى .

الملاحق

الملحق الأول

الانتساب إلى السلاسل المبكرة

إن أقدم « سلسلة » أحتفظ بها هي تلك التي لجعفر الخلدی (توفي ٩٥٩ م / ٣٤٨ هـ) (١) . وطبقاً لابن النديم (توفي ٩٩٥ م) ، أخذ الخلدی « الطريقة » عن الجنید (توفي ٩١٠ م) وهذا عن سرى السقطی (توفي ٨٦٧ م) ، عن معروف الكرخي (توفي ٨١٥ م) وعن فرقة السبخی (توفي ٧٤٨ م) ، عن حسن البصري (توفي ٧٢٨ م) ، عن أنس بن مالك (توفي ٧٠٩ م) وهو المحدث ، وهذا عن النبي (صلعم) .
يقدم القشيري نسبة (باستعمال المصطلح أخذ الطريق) شيخه أبي على الدقاق (توفي ١٠١٦ م) وكانت الروابط عنه وهم أبو القاسم ابراهيم النصرابادي (توفي ٩٧٩ م) الشبلي (توفي ٩٤٥ م) ، والجنید ، وسرى السقطی - ومعروف الكرخي وداود الطائي - الطييون (٢) .

ولم يذكر الأمام على في هذه « السلاسل » حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، يعطى ابن ابى اصيبعة (توفي ١٢٧٠ م) « خرقه » صدر الدين محمد بن حموية (٣) (توفي ١٢٢٠ م) وهي التي ترجع أهميتها لصفة خاصة في أنها تضم ثلاثة « سلاسل » - خلال الخضر (٤) . إلى أئمة ما وبين معنيين وهي نسخة وصورة من الانتساب الكلاسيكي ، ولذلك فإنها في كل معانيها لها نسب سرى أكثر منه انتساباً

(١) « الفهرست » لابن النديم .

(٢) انظر القشيري « الرسالة » طبعة ١٩٠١ .

(٣) صدر الدين الذي ولد في حزاسان وأخذ إلى سوريا هرباً من المغول خلع الخرقه لرشيد الدين على ابن خليفه الطبيب وعم ابن أبي أصيبعة وذلك عام ١٢١٨ : انظر « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » طبعة القاهرة ١٨٨٢ الجزء الثاني (المؤلف) .

(٤) نسبة إلى الخضر عليه السلام في قصة موسى عليه السلام في سورة الكهف (المترجم) .

صوفياً ، والخرقة الخضرية أى التلقين الروحي ، آتت مباشرة من الخضر إلى جده أبو عبد الله محمد^(١) وهو أحد أساتذته عيين القارات الحمداني .

والخطان ، شبه الشيعي والسني يجتمعان مع معروف الكرخي الذي يقال أن كان « مولى » لعلی الرضا ، وأنه دخل الاسلام على يديه ، وفي مرحلة لاحقة كان الصوفيون يلقنون أحياناً درجة « الفتوة » وهي صلة ثالثة ترجع إلى علی^(٢) .

(١) أبو عبد الله محمد هرجد صدر الدين محمد بن حمويه (المترجم) .

(٢) هنا يورد المؤلف سلاسل النسب التي ذكرها في هذا الملحق وقد رأينا ترجمتها في ورقة مستقلة مرفقة (المترجم) .

صلى الله عليه وسلم أبو الحسن محمد بن حمويه (توفي ١٢٢٠ م)

عماد الدين عمر بن حمويه (توفي ١١٨١)

معين الدين أبو عبد الله محمد بن حمويه (توفي ١١٣٥)

الخضر
النبي (محمد)

أبو علي الفضل القرمذي (توفي ١٠٨٤)
أبو القاسم الجرجاني (توفي ١٠٧٦)
أبو عثمان سعيد المغربي (توفي ٩٨٤)
أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي
(توفي ٩٢٢ أو ٩٥٩)

الجنيد بن محمد (توفي ٩١٠)

سرى السقطي (توفي ٨٦٧)

معروف الكوفي (توفي ٨١٥)

داود الطائي (٧٨١)
علي بن موسى الرضا (الإمام الثامن)
٩١٨

حبيب العجمي (٣٧٣٧)

موسى بن جعفر الكاظم ٧٩٩
جعفر بن محمد الصادق ٧٦٣
(١) حسن البصري (٧٢٨)

محمد بن علي الباقر ٧٣١

علي بن الحسين زين العابدين ٧١٢

الحسين بن علي ٦٨٠

علي بن أبي طالب ٦٦١

النبي (محمد)

(١) ان الكتاب الذين سعاوا إلى مهاجمة التصوف - أمثال ابن الجوزي - لم يجدوا صعوبة في بيان أن هؤلاء الأربعة الآخرين (من الإمام علي حتى داود الطائي) لم يلتقوا إطلاقاً في حياتهم [أى لم يقابل أحدهم الآخر في حياته] (قارن كتاب « تلبيس إبليس » لابن الجوزي ص ١٩١) ، ولكن الصوفيين يعرفون هذا جيداً ، ولكنهم ليسوا مرتبطين هكذا بالزمان والمكان ، فالنقشبندية ما زال لهم سلاسل حلقاتها الأولى ليست مرتبطة في هذه الحياة ، وأحد هذه السلاسل تأتي بعد أبي بكر (الصديق) خلال سليمان الفارسي ، وفي سلسلة أخرى يقال بوضوح أن أبي يزيد البسطامي تلقى عباءته من جعفر الصادق (سيد الخوارج) بعد وفاته (المؤلف) .

أما خطوط أحمد بن الرفاعي فيقدمها بالتفصيل تقي الدين الواسطي،
الذي كتب حوالي ١٣٢٠ م في كتابه «ترياق المحبين» (ص ٥ - ٧)،
وملقنه الأولى وهو على أبي الفضل القاري والواسطي يرتبط بالجنيد وفقا
للخطوط المعروفة، بالإضافة لذلك، فقد ورث ثلاثة «سلاسل» خلال
تلقينه على يد خاله منصور، فالأولى كانت ورائه الأب لابنه حتى الجنيد،
وبعد ذلك وفقا للخطوط المألوفة، والثانية تذهب الى معروف الكرخي ثم
الخط العلوي، الثالثة (ص ٦ - ٧، ٤٢) كانت غير عادية، فهي
تذهب الى أبو بكر الهوزاني البطايعي والذي بجانب كونه قد أعطى الخرقه
في منامه بواسطة أبي بكر الصديق (رضي الله عليه) يتصل أيضا بالخط
الروحي السري بالتدريس خلال: سيد الصوفية: وهو سهل التستري المتوفى
(٨٨٦ - ٨٩٦ م).

ذو النون المصري المتوفى (٨٥٩ م)

إسرافيل المغربي (أنظر كتباه «اللمع في التصوف» لأبي نصر
السراج)

أبو عبد الله محمد حبشه التابعي^(١)

جاء الانصارى الصحابي^(٢).

على بن أبي طالب (توفي ٦٦١ م)

ويذكر تقي الدين شخصيات دينيه روحية أخرى بخلاف أولئك عن
أحمد بن الرفاعي في كتابته^(٣)، بما فيهم الخوراساني يوسف الحمداني.

(١) التابعون هم الجيل التالي مباشرة لصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم (المترجم).

(٢) أي من جيل الصحابة رضي الله عنهم وهم الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم
(المترجم).

(٣) هو كتاب «ترياق المحبين» المذكور في بداية هذه الفقرة.

الملحق الثانى

الصوفية واللامتية والقلندريون

ان التميز بين « الصوفى » و « الدراوىش » (الفقير) هو الاختلاف بين النظرية والممارسة ، فالصوفى يتبع نظرية صوفيه أو مذهب ، والدراوىش يمارس الطريقة الصوفية وبالطبع يكون المرء « درويشا » و « صوفيا » فى نفس الوقت ولا يوجد فرق اساسى من الناحية النظرية فالصوفى هو دراوىش والدراوىش هو صوفى حيث لا يمكن أن يفصلا أيهما عن الآخر ، ولكن عمليا يوجد عدم تناسق فى التأكيد ، فبعض الصوفيين يكونون مفكرين أو ذو خيال واسع بشكل واضح ومثل ابن عربى ، وآخرون يكونون دراوىش بصفة أساسية وكلهم احساس ، وعاطفة وعمل ، فى كلتا الحالتين المناسبين نجد بعض الصوفية أو الدراوىش يستغنون عن المرشد ويعتمدون فقط على أنفسهم (رغم أنهم يسمحون أحيانا بمرشد روحى) إيجابيا أو سلبيا ، ليحققوا إنكار الذات (أى الغاء النفس) والاستغراق المباشر فى الحقيقة الالهية ، أحدهما بالتمارين العقلية أو الفكرية والآخر بواسطه المجاهدات النفسية البدنية .

وأبن عباد من رندا (١٧٣٣ - ٩٠) وهو الذى كان يتبع التراث الشاذلى ، ولكن فى خطاب إلى أبى اسحاق الشاطبى الذى كان يبحث الرأى القائل ألا يمكن الاستغناء عن الشيخ ، وكتب فى هذا الخطاب أنه هو نفسه كان يسترشد فى طريقه الروحى بكتابات الصوفيين أكثر من اعتماده على الشيوخ ^(١) ، وأغلب هؤلاء الرجال الذين استغنوا عن مرشدى من هذه الدنيا أو هذا العالم أترفوا بمرشد روحى .

(١) راجع « رسائل ابن عباد » طبعة بيروت ١٩٥٨ .

ويرتبط أيضا بذلك هو التميز بين الصوفى « الملامتى » وقد كان هذا السؤال محيراً نوعاً ، فقد اعتبر أبو عبد الرحمن السلمى (المتوفى ١٠٢١/٤١٢) أن الملامتية (من يستحقون اللوم) هم أعلى درجة من عبید الله ، وهم فوق طبقة المشرعين (طبقة الفقهاء) والشيوصوفيين « أهل المعرفة »^(١) والآن فان هؤلاء الأخيرين أى الفئة الثانية أى « الخواص » فهو يسميهم الصوفية ، ولكن هؤلاء هم النخبة أو « الصفوة » أكثر منهم « صوفين » ببساطة أولئك الذين منحهم الله معرفة خاصة عن ذاته ، والذين يمكنهم إظهار « الكرامات » واختراق الاسرار الخفية واللامتية هم حرفيون ومن مبادئهم يكون الارشاد المنظم تحت القائد الصوفى « إمام من أئمة القوم » والذي يجب اللجوء إليه فى كل المواضع ذات العلاقة بالمعرفة الصوفية وتجاربها .

ورغم أن النوبى ذا النون^(٢) ، والميرفى بشر بن الحارث (توفى ٢٧٧/٨٤١) أعتيد أن ينظر اليهم على أنهما مؤسساً الاتجاه الملامتى فان أصولها الحقيقية يجب البحث عنها فى نيسابور^(٣) ، ولا يجب اعتبارها مختلفة عن التصوف ببساطة على أنها مدرسة نيسابورية للتصوف ويضم

(١) أنظر كتابه « رسالة الملامتية » التى نشرها أبو العلا عفيفى فى كتابه « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » القاهرة ١٩٤٥ . والمصطلحات المرتبطة بهذه الطرق الثلاثة الى الله والفروق بينهما تختلف من كاتب لآخر ، انظر كتاب نجم الدين كبرى « الأصول العشرة » طبعة القاهرة ١٩٦٣ الذى يذكر فيه مصطلحات « الأخيار والأبرار والشار » وكذلك كتاب « الفتوحات المكية » لابن عربى الذى يذكر فيه مصطلحات « الأحباب والصوفية واللامتية » (المؤلف) .

(٢) هو ذو النون المصرى (المترجم) .

(٣) راجع « رسالة » السلمى ضمن كتاب د. أبو العلا عفيفى السابق الاشارة إليه ، فالسلمى يحدد المؤسسين الثلاثة لحركة الملامتية وهم : أبو حفص عمرو بن سلمى الحداد (توفى ٢٨٨٣) وحمدون القصار (توفى ٨٨٤ م) وسعيد بن اسماعيل الجبرى المعروف بالواعظ (توفى ٩١٠) ويخصص الهجووى فصلاً كاملاً من كتابه « كشف المحجوب » للامامة (المؤلف) .

السلمى الملامتية : سهل التستري يحى معاذ الرازى ، وقبلهم جميعا أبو يزيد البسطامى ، والذى ينسب إليه صياغة العقائد الخاصة للمدرسة (١) .

يهتم الصوفى بالتوكل (٢) والذى يتضمن - فى نظره - انكار الكسب (أى قطع روابط الاكتساب أو الكسب والعمل الشخصى) ، مع التدريب والهداية أو الارشاد ، وحتى الخضوع لشيخه ، المؤكد بالقسم والانضمام بالخرقة ، والممارسات المنظمة (الذكر) والسماع .

وقد رفض الملامتية كل هذه الممارسات على الأقل نظريا ، وفى أساس الاتجاه الملامتى يوجد الأنكار المطلق للنفس أو اللذات من حال أمام الله « عز وجل » وبعكس الصوفى ، فإن الملامتى الحقيقى يخفى تقدمه فى حياته الروحية ، ويأمل أن يحرر نفسه من الدنيا وآلامها وآمالها بينما يعيش فيها ، ويكتب شهاب الدين السهروردى « لقد كان يقال أن الملامتى هو من لا يستعرض ما يفعله من الحسنات ويخفى أفكار الشر » ويفسر ذلك كما يلى : « الملامتى هو من تكون عروقه مشبعة بغطاء من الفضيلة الخالصة والذى يكون مخلصا حقا » والذى لا يريد لأى فرد أن يطلع على حالاته وتجاربه الجذبية (النشوة) (٣) واللامتامى هو من يكون مستعداً لأن يحتقره الناس لأنه يفقد نفسه فى الله (عز وجل) ، وبينما يعيش الصوفى « على التوكل » ، معتمداً على الله ليعطيه من فضله ، فإن الملامتى يسعى من أجل معيشتة مستغرقاً فى الله بينما يكون مشغولاً فى شئون الدنيا ، لا يظهر من طريقه الداخلى ولا يندمج فى « الذكر » الجماعى وتجمعاته ، والارتباك قد يكون شبيهة فى الواقع هو أن كثيراً من الكتاب الصوفيين قد مالوا لاعتبار الملامتية

(١) أنظر كتاب « عوارف المعارف » للسهروردى (المؤلف) .

(٢) الآية رقم ٣ من سورة الطلاق (المترجم) .

(٣) أنظر كتاب « عوارف المعارف » للسهروردى .

« متوكلين » بين الصوفيين أو حتى باعتبارهم أناس يفتقدون الرغبة والنظام الضروريين للسعى المتمشى مع المنهج أو الطريقة الصوفية بينما الصوفيون هم « المتوكلون » ويخلصون أيضا بين الملامتية والقلندرة وسرعان ما يتضح كم كانوا مخطئين في هذا .

فالملامتية يرفض كل المظاهر الخارجية ، وكل الصلاة والتروايح خصوصا لأنها تكون أحيانا مجرد صيغة من الطاعة المتعمد أظهارها بين الناس ^(١) ، وبالعكس ما هو مفترض عموما بأن الملامتية يؤدي واجباته وهي الفرائض ، مثل الصلاة المفروضة (الخمس) رغم أنه رفضها لأنه يجنب جذب الانتباه لنفسه ، وبالمثل فهو لا يلبس رداءاً خاصاً والذي يميز الصوفي وليس له شيخ ملقن بالمفهوم الصوفي الأخير للخضوع ، رغم أنه مستعد لطلب الهداية .

ويكتب « السهروردي » يوجد في الوقت الحاضر في خراسان جماعة أو « طائفة من » « الملامتية » بها شيوخ يعلموهم المبادئ ويجبروهم بأنفسهم عن تقدمهم الروحي ، ولقد رأينا بأنفسنا في العراق أولئك الذين يتبعون هذا المنهج (من يجلبون على أنفسهم اللوم) ، ولكنهم غير معروفين بهذا الاسم ، لأن المصطلح قليل الجريان على ألسنة الناس بالعراق ^(٢) .

(١) يجب عدم التوحيد بين تكرارات الذكر وبين صلوات التواقل ، أي مثل التواقل التي تضاف إلى الصلوات المفروضة أو صلاة التراويح خصوصا في رمضان رغم أنه من الواضح تماما أن الذكر الذي يتلى عقب الصلاة يعتبر - في نظر المعاديين - ذا أهمية أقل عمقا من التروايح في رمضان (المترجم) .

(٢) السهروردي : المرجع السابق .

يعلن الملامتى أى صوفية تخيلية حول وحدة الكون ولكنه يهتم بالغاء الذات والوعى ، ومن الفرق الأخيرة فإن النقشبندية مرتبطة بالتقليد الملامتى بداخل «التصوف» وممارسة النقشبنديين « للذكر الخفى » ، والمتزعمون منهم ليس لهم أفكار عامة، وقد نتذكر وصيتهم حول « الانعزال فى حشد» .

بينما السلمى وحتى رغم تحفظاته ، هو مرشد صوفى مميز مثل السهروردى أن ينظر باتزان إلى الملامتية أو على الأقل إلى نظريتهم، طالما أنها ببساطة اتجاه صوفى خاص، فهما^(١) يعتبران القلندريين كمستحقين للوم.

ونظرياً لا يوجد حقيقة كل هذا الاختلاف ، وخطر الملامتية هو إمكانية أن تكون ضد اجتماعية ، وال دراويش الأميين الخشنيين المتجولين و «باباوات» الحركات التركية كانوا من مثل هذه الأنواع القلندرية ، وعندما تكونت الطرق ، ظهرت اتجاهاتها المخالفة للمألوف .

الفرق بين الملامتى والقلندرى هو أن الأول يخفى إخلاصة والآخر يظهره بل يستغله ، خروجاً عن طريقه لجلب اللوم والحيرة كان سببها هو الاشتقاق من الاسم (ملامة) (لوم) ، والمصطلح « قلندرى » والذي كانت حكايات « ألف ليلة » سبباً فى شيوعه - يغطى فى استعماله التاريخى مجالاً واسعاً من أنواع الدراويش، ولقد استعمل بمرونة فى الشرق (لم يكن معروفاً فى الاسلام العربى) للدلالة على أى « فقير » متجول ، ولكنه إستخدم أيضاً بواسطة مجموعات معينة وحتى لقد كُونت فرق معينة ومن ثم كانت مشاكلها تعريف المصطلح . ولنبداً بوقت تكوين « السلاسل » فيكتب شهاب الدين السهروردى ينطبق المصطلح القلندرية على الناس الذين يستغرقوا جداً بواسطة التمثل (السكر العاطفى) لهدوء القلب أى سكينه القلب لدرجة أنهم لا يحترمون أى عادة أو استعمال ويرفضون

(١) المترجم .

(١) أى كل من السلمى والسهروردى

العادات المألوفة للمجتمع والعلاقة المتبادلة ، واجتيازهم حواجز « سكية القلب » فإنهم يشغلون أنفسهم قليلاً بالصلاة ، المفروضة والصيام ما عدا ما هو مفروض (فرائض) ، فلاهم يشغلون أنفسهم بالمسرات الدنيوية التي يسمح بها الالتزام بالشرعة الإلهية ، والفرق بين القلندرى والملامتى هو أن ذلك الأخير يناضل ليخفى طريقته أو نمطه فى الحياة بينما يسعى القلندرى لتدمير العادة المقبولة « (١) .

ويقرر المقرئى أن حوالى عام ١٢١٣/٦١٠ فقد بدأ أول ظهور للقلندرين فى دمشق ، ووفقاً (لنجم الدين محمد بن اسرائيل من الرفاعية الحيرية (توفى ١٢٧٨) ، فإن دخولهم قد حدث فى ١٢١٩م / ٦١٦ ، وكان أدخلهم ضد محمد بن يونس السواجى (١٢٣٢/٦٣٠) ، وهو لاجئ من ساوا (التى دمرها المغول فى ١٢٢٠م / ٦١٧) ، وحين أعدم الحريرى تحت حكم الأشراف فإنهم لم يوافقوا على القلندريين ونفوهم إلى « قلعة الحسنية » وأعيد إدخال القلندرية مع جماعة الحيدرى ، وقد بنيت ثراوتهم فى ١٢٥٧/٦٥٥ ، وأحد تلاميذ محمد بن يونس المعروف بأسم خضر الرومى يرجع إليه فضل إدخال الاتجاه القلندرى فى شمال غرب الهند فى وقت Italmisl الذى تطور إلى خط محدد من الانتساب كنظام قلندرى .

وكان هناك فقير فارس يسمى حسن الجواليفى حضر إلى مصر فى وقت الملك العادل كتبوغا (١٢٩٤ - ٦) وأسس « زاوية » للقلندريين ، ثم ذهب إلى دمشق حيث (توفى عام ١٣٢٢م / ٧٢٢هـ) ويلاحظ المقرئى أن كان يوجد متوكلون يسعون للسلام الداخلى ، ولكن وسيلتهم فى بلوغة تضمنت رفض القيود الاجتماعية العادية .

(١) « عوارف المعارف » مرجع سابق .

وتشمل خواص القلندرى لبس ملابس مميزة ، حلق شعر الرأس وشعر الوجه باستثناء الشارب ، تثقيب الأيدى والأذنين لأدخال حلقات حديدية كرمز على الصبر ، وكذلك تثقيب « الأحليل »^(١) كعلامة على الطهارة ، وكل هذه الممارسات كانت ممنوعة .

وكان الوضع مختلفاً فى وقت جاحى (توفى ١٥٢١) هذا الشاعر الصوفى ، بعد اقتباس فقرة من شهاب الدين فإنه يشعر قائلاً : فيما يتعلق بنوع الرجال الذين نسميهم اليوم القلندريون الذين نزعوا من أعناقهم لجام الاسلام ، فهذه الصفات التى تحدثنا عنها فوراً غريبة عليهم ويجب على المرء أن يسميهم « حشوية »^(٢) ، وكل من السهروردى وجامى يشير إلى أولئك الذين - فى زمانهم - قد أخذوا من القلندريين من أصل الانفاس فى الاعراءات ويجب ألا نخلط بينهم وبين القلندريين الحقيقيين .

وقد أصبح القلندريون الأتراك فرقة مميزة ، وقد دعت جماعة بأنها تنتسب إلى المهاجر الاسبانى العربى المسمى يوسف الأندلس والذى أستبعد الفرقة البكتاشية بسبب طبيعته المتعجرفة وقد حاول عبثاً أن يدخل فى المولويين بلا طائل ، وأنتهى إلى تشكيل فرقة خاصة تحت اسم القلندر ، وقد فرض على دراويشه الالتزام بالسفر إلى الترحال الدائم ، بل أنه فى حكم محمد الثانى (توفى ١٤٥١ - ٤٨١) . فقد ظهر مكان تجمع قلندرى ملحق به مسجد ومدرسة فى استانبول .

ويشير Evliya Chclebi إفلييا شيلى إلى تجمع هنود القلندرى فى كاغيرخان (ضاحية لاسكوتارى) والذى اعتاد السلطان محمد أن يقدم

(١) الإحليل : هو عضو الذكر (المترجم) .

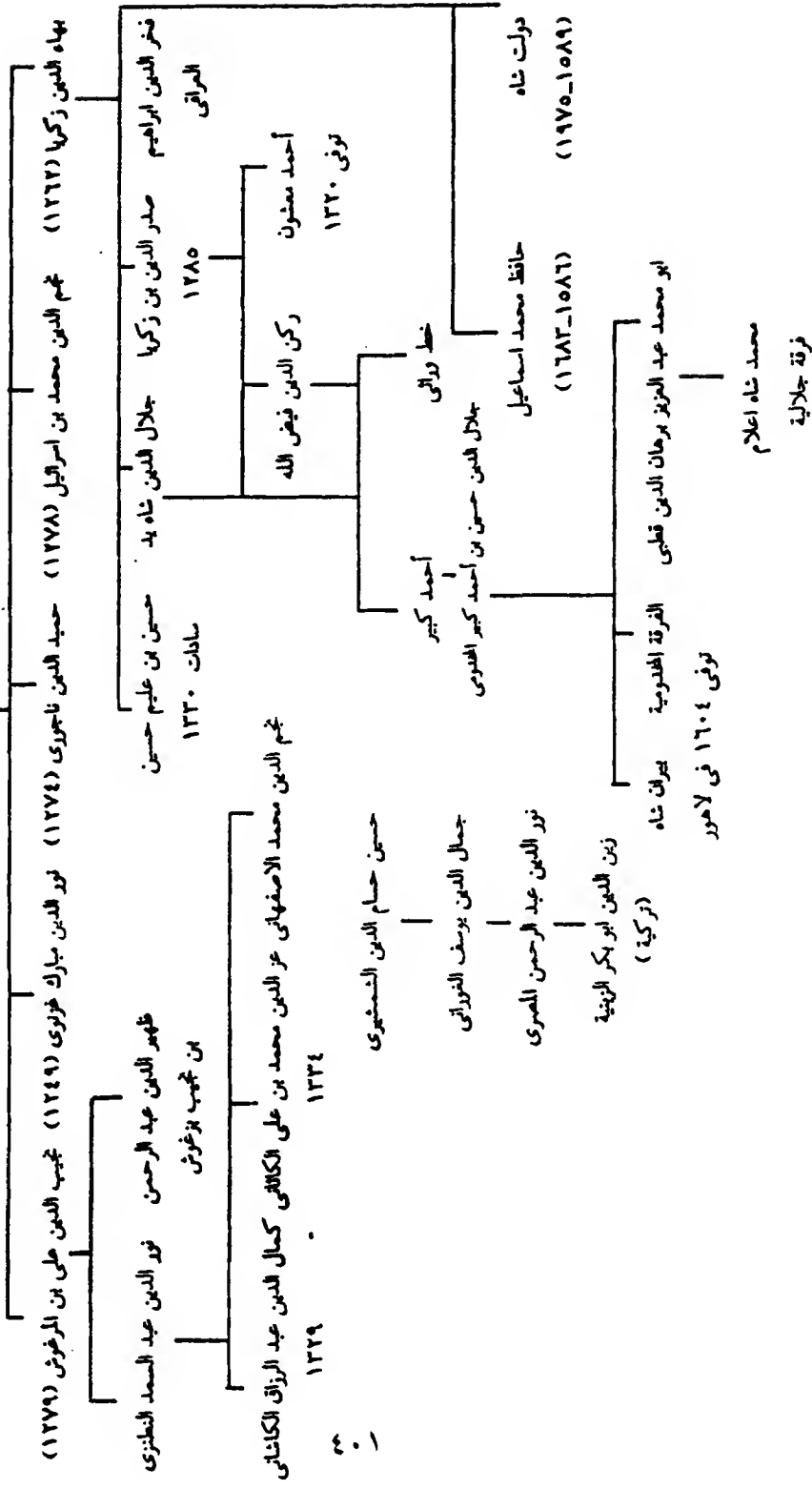
(٢) الشوية أو السقطية أو الكرامية هم جماعة يعترفون من فيما يتعلق بالله - بصفات متميزة ومنفصلة عن ذاته تعالى (المؤلف) .

العشاء لفقرائه ، وكان يوجد فرقة قلندرية في حلب في بداية القرن الحالي :
ويصف مجبر الدين « زاوية قلندرية » في القدس في وسط مدافن ماميللا ،
والتي كانت كنيسة سابقاً تسمى الدير الأحمر وقد أخذها من يدعى ابراهيم
القلندري وجعلها « زاوية لفقرائه » ، ولكن الزاوية صارت حطاماً بعد ذلك
بوقت قصير قبل ١٤٨٨ / ٨٩٣ .

الملحق الثالث

السلاسل السهروردية

شهاب الدین ابو حفص - عمر السهروردی (توفی ۱۲۳۴)



الملحق الرابع

الجماعات القادرية

الأهدلية ، أبو الحسن على بن عمر الأهدل ، المدفون في اليمن العمرية ، هي مثال للكثير من الحركات سريعة الزوال المستغلة « للبركة » وكان يوجد زنجي من مراكش يسمى الحاج مبارك البخاري (النسبة ترجع إلى اتصاله بالحارس الأسود للسلطان) ألحق نفسه في ١٨١٥ بضريح في أبو حمام بالجزائر وعمار بو سنه (توفي ١٧٨٠) ، أخدم أعمالاً خارقة ، وجذب نحوه أتباعاً ، وعين « خلفاء » في مراكز كثيرة بالجزائر وتونس وقد كان أمياً تماماً وقد لُقِب « مقدماً » للفرق العيسوية والحنظلية ، ولكنه إعتبر كقادرى وهو نظام عمار بحماية من سيدى المازونى .

الأسدية في تركيا ، عفيف الدين عبد الله بن على الاسدى الذى دفن في اليمن .

البكائية ، أحمد البكائى الكونتى ، (توفي ١٥٠٤ م) ، انتشارها بين المغاربة بالصحارى الغربية . والسودان ، ثم إلى زنوح غرب افريقيا (انظر كتاب الإسلام في غرب افريقيا) (١٩٥٩ ص ٦١٩٤) وأعاد احياءها المختارين أحمد (١٧٢٩ - ١٨١١) ، والفرق المميزة من هذه السلسلة تشمل الفاضلية والفاضل من (١٧٨٠ - ١٨٦٩) ، والسيادية ، والمريدية (في السنغال : أحمد بامبا) (توفي ١٩٢٧ م) .

البيناوا : من دكا بالهند القرن التاسع عشر .

بوعلية : في الجزائر وتونس ، ومصر : المركز في نفتا حيث يقع ضريح بو على .

الدواودية : دمشق ، أبو بكر بن داوود (توفي ١٤٠٣ م / ٨٠٦ هـ) .

الفارضية : (مصر) فى القرن السادس عشر ، أدعى بأن أصلها من
عمر بن الفارض (توفى ١٢٣٤ م)

أنظر البكرى : بيت الصديق ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص (٣٨١) .

الفوثية : محمد غوث محمد بن شاحى يد بن على (المتوفى
٦٢٣/١٥١٧ هـ) أدعى بأنه ينحدر من عبد الوهاب ابن عبد القادر (المتوفى
١١٩٦ هـ) .

حياة الميرهو المؤسس ، « زيارة » فى الشمال شرق من بانشارا فى
بالاكوت على ضفاف كوتارنالا .

(أ) بهلول شاهى : بهلول شاه دارباى ، وهو تابع لشاه اللطيف
تابع حياة المير بالقرن الخامس عشر .

(ب) رقم شاهى : مقيم محكم الدين ، خليفة حياة المير .

(ج) حسين شاهى : شاه لال حسين من لاهور (توفى ١٥٩٩ م)
وهو تابع بهلول شاه درباى ، الملامتى الذى حفظ السورة القرآنية عن ظهر
قلب وشاهى مامعناه . « وربما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » (١) .

الهندية فى تركيا ، محمد غريب الله الهندى .

الجيلالة : اسم مراکش شائع مذهب عبد القادر لتمييزه عن الفرقة
التي ليس لها أهمية وأدخلت من اسبانيا قبل سقوط غرناطة بوقت قصير
(١٤٩٢ م) بواسطة المتحدين الشرعيين لعبد القادر ، والأشارة لأول مرة إلى
«الخلوة» فى فاس كانت عام ١٩٦٣ م / ١١٠٤ هـ (انظر أرشيف مراکش
٣١٩ - ٣٢٠) .

(المترجم) .

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنعام

الجنيدية : بهاء الدين الجنيدى ، توفى ٩٢١/١٥١٥ فى الهند ،
وقد أخذ « الطريقة » من أبو العباس أحمد من الحسن الذى ادعى أنه
منحدر من عبد القادر .

الكمالية : كمال الدين الكتمالى توفى ١٥٦٣ - ٩٧١/٤ فى الهند .

الخلوصية : فى تركيا « طريقة » مستقلة /

المنزلية : جماعة فى الجزائر وتونس ، وهى خطوط مشتقة من على
بن عمار المنزلى الشايب (شعيب) القرن الثان عشر ، لها مراكز رئيسية
Cenfreries Coppalau (ص ٣٠٥ - ٧) ، هى :

(أ) زاوية نزل بوزلفا : أثرت على شمال شرقى تونس ، وهذا هو
خط على المنزلى ومزرعة فى جيريا وصفاقس ، وحبيس .

(ب) زاوية كف : المؤسس هو الشيخ محمد الماذرنى من كف فى
القرن التاسع عشر ، المنحدر الروحى هو على المنزلى - أبو عبد الله محمد
الإمام - سيدى الحاج محمد الماذرنى .

(ج) زاوية نفتا : المؤسس هو أبو بكر بن أحمد الشريف ، تلميذ
الإمام المنزلى بجنوبى تونس والجزائر .

ميان خل : المير محمد ، سمى ميان مير ، ولد فى سيويتان (بالسند)
عام ١٥٥٠م وقد تدرب على الطريقة على زاهد يدعى خضر وتوفى فى
لاهور فى ١٦٣٥م ، ودارا شيلوه كتب سيرة حياته عنه أطلق عليها
« ساكنات » الأولياء ، والعرس المشيد لها فى ٧ من ربيع الثانى (أى
الاحتفال السنوى) وقد انحدر الخط خلال ابن عمه محمد شريف
السيوستانى ، وأشهر خلفائه هو الملا شاه باواخشى (المتوفى
٩١٠٧٢/١٦٦١) .

المشاريعية ، فى اليمن القرن السادس عشر (السنوس : السلسبيل
ص ١٤٧) .

النابلسية : تركية .

النوشاهية : تشتق روحياً من معروف الشيشى القادرى ، ولكن الفرقة
واللقب النوشاه (العروس) يأتى من الحاج محمد (المتوفى ١٦٠٤) وهو
تابع خليفة الشاه معروف وهو سليمان شاه ومنه ينبثق عدد من الأولياء
المشهورين وبالتالى تقاسيم من عدمه ومن بينهم :

(أ) الباك - رحمانيون : باك عبد الرحمن .

(ب) الساخياريون : بال محمد ساخيار

(جـ) القاسمية : مصرية ، القرن التاسع عشر ، (راجع توفيق
البكرى) .

القوميثية : فى الهند ، أبو الحياه بن محمد (توفى ١٥٨٤/٩٩٢)
الذى أدعى بأنه منحدر من ابن عبد القادر عبد الرحمن (توفى ٦٢٣ هـ)
وسميته باسم ابن ابو الحياه ، شاه قوميص من البقاك .

الرومية : فرع تركى ، المؤسس هو اسماعيل الرومى ، بير سانى
(السيد الثانى) المولود فى بان (ولاية قسطنطوى) ، ويقال أنه قد أسس أكثر
من أربعين خنافة « قادريه فى تركيا » وقد أدخل « الذكر » الواقف ،
والذى تكون فيه ايدى المشتركين ممتدة فوق كتف كل منها لآخر ، ويكون
التراتيل متمرجين من اليمن لليسار ، وتوفى البير اسماعيل فى اسطنبول
فى ١٦٣١ م / ١٤١ هـ (١٦٤٣ م) ودفن فى معبد توب طان .

الصمديه : فى سوريا ، محمد الصمدى ، توفى ١٥٨٩م/٩٩٧هـ ،
(انظر « خلاصة الأثر » للمجيبى) .

العرايية فى اليمن ، عمر بن محمد العرايى فى القرن السادس عشر،
(انظر السنوس ص ٦٥ - ٧٠)

الوحداتية فى تركيا :

اليافاعية فى اليمن ، عطيف الدين عبد الله بن أسد اليافعى الذى
عاش من ٧١٨ / ١٣١٨ - ٦٧٨ / ١٣٦٧) .

الزىلاجية فى اليمن ، صفى الدين أحمد بن عمر الزىلاجى .

الزيجورية : فرع البانى أسسه على بابا من كريت .

الملحق الخامس

الفرق المستقلة عن البدوية والبرهانية

الأحمدية البدوية :

الأنابية أو الاساية : اسماعيل الابطاني تلميذ لأحمد البدوي ، دفن في قرية إمبابة ، مولده وفق التقويم القبطي في ١٠ بؤونه .

أولاد نوح : (راجع لين : « المصريون المحدثون »)

ـ البندرية :

ـ البيومية : علي بن الحجازي البيومي (من ١٦٩٦ الى ١٧٦٩)
تلميذ عبد الرحمن الحلبي .

ـ الحلبية : أبو العباس أحمد الحلبي فرقة مصرية .

ـ الحمودية : محمد الحمود ، تلميذ حبيب الحلبي .

ـ الحندوشية : مصرية (راجع توفيق البكري . ص ٣٨٥) .

ـ الكناسية : محمد الكناس .

ـ المنوفية .

ـ المرازيقه : هذه الفرقة ترجع أصلها إلى أبو عمرو عثمان مرزوق القریش (توفي ١٢١٨ م / ٦١٥ هـ) والذي كان أسبق من أحمد البدوي ، ولكنها تصنف مع البدوية (راجع الشرعاني في كتابه لوائح ص ١٣٠ - ١٣١) و (البكري ص ٣٩٢ - ٣٩٣) ، ويشار إليها أيضا بأسم الشمسية نسبة إلى شيخ القرن التاسع عشر محمد شمس الدين .

ـ الشرنوبالية .

- السلاية : (راجع البكرى ص ٣٨٨) .
- الشناوية : محمد بن عبد الله الشناوى . توفى فى زاوية فى محلة روح فى الغربية عام ١٥٢٦م / ٩٣٢ هـ .
- الشعبية : شمس الدين بن شعيب الشعبى (توفى ١٦٣٠م / ١٠٤٠هـ) .
- الطوخية : جمال الدين عمر الطوخى .
- التقيانية : محمد بن زهران التسقباتى أو التسكابانى .
- الزاهدية :
- البرهانية : الدسوقية - الابراهيمية .
- الدسوقية : ابراهيم الدسوقى ، (توفى عام ١٢٨٨م / ٦٦٧ هـ) (سلسلة فى كتابه توفيق البكرى ص ٣٨٣) يتبع السهرودية والشاذلية .
- الشهاوية (راجع البكرى ص ٣٨٩) ^(١) .
- الشرعانية أو الشرنوبية : أحمد بن عثمان الشرنوبى (توفى ١٥٨٦م / ٩٩٤ هـ) .
- التهامية : طبقا للبكرى ص ٣٨٤ فرع الشاذلية .

(١) المؤلف يرجع فى هذه البيانات إلى كتاب محمد توفيق البكرى « بيت الصديق » طبعة القاهرة ١٩٠٥ وكذلك كتابه « بيت السادات الأوفياء » طبعة القاهرة بدون تاريخ . (المترجم) .

الملحق السادس

الجماعات الشاذلية في المغرب والمنبتقة من الجازولي

- العيسوية : محمد بن عيسى المختار (من ١٤٦٥ الى ١٥٢٤ م)
، المولى الحامى فى مكناس حيث دفن هناك زاوية دلا ع (فى منطقة تاوولا
بوسط مراكش) أسس فى نهاية القرن السادس عشر بواسطة أبو بكر بن
محمد الماجاتى الصنهجى ١٥٢٦ - ١٦١٢ ، أما حفيدة محمد الحاج
(توفى ١٦٧١) ، الذى كان يطمح إلى سلطة زمنية ، فقد أعلن سلطانا فى
فاس وحين استولى مولاى الرشيد ، العلوى ١٦٦٧ على فاس ، دمرت
الزاوية ولكن الأسرة أعادت تأسيسها بنفسها كعشيرة مرابطية فى فاس .

- الوزانية : أو الطيبية أو التهامية : الزاوية فى وزان أسسها حوالى
١٦٧٠م مولاى عبد الله بن ابراهيم الشريف (من ١٥٩٦ - ١٦٧٨)
وتلقت أسمها الثانى من الشيخ الرابع مولاى الطيب (توفى ١٧٦٧) بينما
كان التهامى هو جد آخر للمؤسس ولها الكثير من الزاويات فى مراكش
والجزائر وتونس .

- الشارقاوية : محمد بن أبى القاسم الشارقى (توفى ١٦٠١م/
١٠١٠هـ) تمركزت فى بوجاد (أبو الجعد) وأعاد أحيائها محمد المعطى
المتوفى ١٧٦٦م .

- الحمادية : على بن حمدين ، متفرعة من الشارقاوا فى نهاية القرن
السابع عشر والقبر فى جبل زرهون قريه مكناس ، أما الفرق الفرعية والتي
ينتمى مرديها أساساً إلى طبقة الصناع المهرة الحضريين فتشمل الداغوية
أو الصواقية ، والرياضية والقاسمية .

- الحنصالية : سعيد بن يوسف الأحنصال (توفى ١٧٠٢) من عائلة

أولياء مرابطين ، أسس زاوية فى عيط بتريف والتى نهضت وحققت شهرة فى عهد ابنه . أبو عمران يوسف بن عيد (توفى ١٧٢٧) ، والذى شكل « الطائفة » ثم أدخلها المقدم سيدى سعدون حيث واجهت الى الجزائر صعوبات مع الأتراك ، ولكن مع « المقدم » الثالث ، أحمد الزوايا ، أصبحت مرتبطة خط جزائرى مقدس موروث ، والزوايا الرئيسية فى شتا بابا لقربه من قنسنطين ، وفى مراكش كبحت بواسطة السلطان اسماعيل ، ولكن زاويتين ظلبتا موجودتين هما عيط يترين والمركز الودائى للدادين .

- الخضرية : عبد العزيز بن مسعود الدباغ ، وتلقى ورده من الملقن الأعلى الخضر ، وبعد قضاء أربعة أعوام فى اشكال تكرمه أعلن عن نفسه فى باب القوح فى فاس ١٧١٣ / ١١٢٥ .

- الأمهوش : أبو بكر امهوش ، تلميذ لأحمد بن محمد الناصر (توفى ١٧١٧) وكل من الحنصليه والأمهوشين ألحقا نقسبهما مؤخرأ بالدراوية والتى ليست ضمن التقليد الجازولى .

- الحبيب : أحمد بن الحبيب بن محمد الملامطحي (المتوفى ١٧٥٢) .

- التابعة : خط جازولى أصلى أسس بواسطة « خليفة » عبد الغزيز التباع المعروف بأسم الحراء (توفى فى فاس ١٥٠٨ م) .

الملحق السابع

الجماعات الدينية والشاذلية في مصر وسوريا

- العفيفية :

- العروسية : أبو العباس أحمد بن محمد بن العروسي (توفي ١٤٦٣) في تونس ، والفروع في مصر ، سلسلة مزدوجة ترتبط بكل من خطي الشاذلية والقادرية .

- العزمية : محمد ماضى أبو العزايم عاش من (١٨٧٠ الى ١٩٣٦) ، مصر والسودان .

- البكرية : سورية مصرية ، أبو بكر الوفاي (توفي في حلب) في ١٤٩٦ م .

- الحميدية : مصر

- الحنيفية : شمس الدين محمد الحنفي (توفي ١٤٤٣م/٨٤٧هـ) .

- الهاشمية : مصر

- الإدريسية : مصر ، يحتمل أن تكون خط من أحمد بن إدريس .

- الجوهريّة : مصر ، القرن الثامن عشر .

- الخواطرية : علي بن ميمون الأدرسي ، (من ١٤٥٠/٨٥٤ الى

١٥١١/٩١٧) ، تشكلت في سوريا كطائفة سورية على يد علي بن محمد بن عراق ، (توفي ١٠٥٦ / ٩٦٣) .

- المكية : مصر

- المطارية : محمد المرابط بن أحمد الكناس المطاري .

- القاسمية : مصر ، القرن الثامن عشر .

- القواقجية : محمد بن خالد المشيشى القواقجى الطرابلسى ،

١٨٠/١٢٢٥ - ١٨٨٨/١٣٠٥ فى مصر ، كان كنيته قد أتت من «قواق»

التركية (طراطير) إذ كان دراويشهم يلبسون كابا عاليا مخروطى الشكل (طرطور) .

- السبتية : أبو العباس أحمد بن جعفر السبتى ، توفى ١٤٩٥ -

٩١/٦ فى القاهرة .

- السلامية :

- الشيبانية :

- الشعرانية أو الشعراوية : القاهرة ، عبد الوهاب ، الشعرانى عاش

فى الفترة من ١٤٩٢ / ٨٩٧ الى ١٥٦٥ / ٩٧٣) .

- الوفائية : سورية مصرية ، محمد أحمد وفا (توفى ١٣٥٨) .

- اليشروطية : على نور الدين اليشروطى من بنزرت ١٧٩٣ (وتوفى

فى عكا ١٨٩١) .

- الدرقاوية المدنية : المدنى (توفى ١٨٤٦) وقد يكون ملقن على

نور الدين اليشروطى .

الملحق الثامن

، الطوائف ، الرفاعية فى العالم العربى

- ١- العجلانية .
- ٢- الغريية : يحيى الدين ابراهيم أبو اسحاق العزب ، حفيد عم أحمد الرفاعى .
- ٣- العزيزية .
- ٤- الحريرية : أبو محمد على الحريرى من بصرا فى حوران (توفى ١٢٤٨ / ٦٤٥) مريديه فى حوران ، والشام وحلب ، حماه ، الخ ، كان له تابع مرموق هو نجم الدين بن اسرائيل توفى ١٢٧٨ .
- ٥- العلمية أو العالمية .
- ٦- الجبرية : اليمن . أحمد أبو اسماعيل الجبرتى .
- ٧- الجندلية : حمص . جندل بن على الجندلى .
- ٨- الكيالية .
- ٩- النورية .
- ١٠- القطنانية : حسن الرفاعى القطنانى الدمشقى .
- ١١- السبسية .
- ١٢- السعدية أو الجيباوية : سعد الدين الجيباوى بن يوسف الشيبانى توفى فى جيبا قرب دمشق ١٣٣٣ / ٧٣٦ .
- ١٣- السيادية : عز الدين أحمد السيد (حفيد أحمد الرفاعى) توفى ١٢٧٣ / ٦٧٠ .

- ١٤- الشمسية .
- ١٥- الطالبية : دمشق ، طالب الرفاعي توفى ١٢٨٤ / ٦٨٣ .
- ١٦- الواسطية : جماعات كثيرة بهذا الأسم .
- ١٧- الزينية .
- ١٨- البازية : مصرية .
- ١٩- الحيدرية : تركية ، قطب الدين حيدر الرورجى ، القرن الثالث عشر (توفى بعد ١٢٢٠ / ٦١٧) .
- ٢٠- العلوانية : (أولاد علوان ، انظر كتاب العين المذكور ص ٢٤٨) ،
خنفى الدين أحمد العلوان .
- ٢١- الحبيبية : القرن التاسع عشر ، مصرية ، محمد الحبيب ، بنيت له
زاوية فى القاهرة ١٨٣١ / ١٢٤٧ .
- ٢٢- المكية .
- ٢٣- الشنبكية - الوفائية : طريقة مشتركة ، أبو محمد عبد الله طلحه
الشنبكى : القرن العاشر ومع أبو الوفا تاج العارفين (محمد ابن
محمد) ١٠٢٦ / ٩٣٣ .
- ٢٤- العقيلية : طريقة مشتركة ، عقيل المنباجى العمرى بن شهاب الدين
أحمد البطيحي الهكارى مع العمريّة السوريّة (انظر الواسطى الترياق
ص ١٤ - ٦) .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

د . عبد القادر البحراوى

فهرس مراجع الترجمة (*)

- ١ - ابن عربى : أسين بلاثيوس ، ترجمة : الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ط. الأنجلو ، القاهرة، ١٩٦٥ .
- ٢ - ابن الفارض والحب الإلهى : محمد مصطفى الحلبي ، ط. القاهرة ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
- ٣ - إحياء علوم الدين : لأبى حامد الغزالي ، نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة، ١٣٥٦/١٣٥٧هـ.
- ٤ - إصطلاحات الصوفية : لابن عربى (رسالة مطبوعة مع كتاب التعريفات للجرجاني) ، ط. مصطفى الحلبي ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- ٥ - إصطلاحات الصوفية : للقاشاني ، تحقيق : محمد كمال جعفر ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١م.
- ٦ - أصول الفلسفة الإشراقية : محمد على أبو ريان ، ط. مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ٧ - البداية والنهاية فى التاريخ : لابن كثير ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، ط. عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ٨ - تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية : للدكتور يحيى هويدى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦م.
- ٩ - التجليات الإلهية : لابن عربى ، تحقيق : الدكتور عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

(*) هناك مراجع وردت فى الترجمة ولم نذكرها ههنا.

- ١٠- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار : لابن بطوطة ، ط. المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ.
- ١١- التعرف لمذهب أهل التصوف : الكلاباذى ، تحقيق : د. عبد الحليم محمود ، وطه سرور ، ط. عيسى الحلبي ، ١٩٦٠م.
- ١٢- تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربى : للبقاعى (مصراع التصوف) ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، ط. السنة المحمدية ، القاهرة، ١٩٥٣م.
- ١٣- حكمة الإشراق : شهاب الدين يحيى السهروردى ، تحقيق : هنرى كوربان ، ط. طهران ، ١٣٣١هـ/١٩٥٢م.
- ١٤- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : المقرئى ، ط. الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠هـ.
- ١٥- دائرة المعارف الإسلامية : ط. كتاب الشعب ، القاهرة . د. ت.
- ١٦- رسائل ابن سبعين : تحقيق د. عبد الرحمن بدوى ، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ١٧- الرسالة القشيرية فى علم التصوف : القشيري ، تحقيق : د. عبد الحليم محمود ، ومحمود الشريف ، دار المكتبة الحديثة ، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ١٨- سلطان العاشقين : محمد مصطفى حلمي ، سلسلة أعلام العرب ، مارس ١٩٦٣م.
- ١٩- شطحات الصوفية : د. عبد الرحمن بدوى ، ط. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.

- ٢٠- صفة الصفوة : ابن الجوزى ، ط. حيدرآباد، ١٣٥٥هـ.
- ٢١- طبقات الصوفية : لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق : نور الدين شريعة ، القاهرة ، مطبعة المنيأوى ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
- ٢٢- الطرق الصوفية فى مصر : د. أبو الوفا التفتازانى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٦٣م.
- ٢٣- الطرق الصوفية فى الديار المصرية : محمد توفيق البكرى ، مخطوط تحت رقم ٣٧٣٧ ، تاريخ. دار الكتب المصرية .
- ٢٤- الطريقة الرفاعية : أبو الهدى الصيادى ، مطبعة الأمانة ، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ٢٥- عوارف المعارف : السهروردى ، البغدادى ، ط. القاهرة ، ١٩٥٦م.
- ٢٦- الفتوحات المكية : لابن عربى ، ط. دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
- ٢٧- فصوص الحكم : لابن عربى ، تحقيق : د. أبو العلا عفيفى ، ط. عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤٦م.
- ٢٨- فى التصوف الإسلامى وتاريخه : نيكلسون ، ترجمة : أبو العلا عفيفى ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٢٩- الكتاب التذكارى : لابن عربى ، إشراف وتقديم : دكتور ابراهيم مدكور ، ط. دار الكاتب العربى للطباعة ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- ٣٠- الكتاب التذكارى : للسهروردى ، إشراف وتقديم دكتور ابراهيم
مذكور ، ط. الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م.
- ٣١- لطائف الأسرار : لابن عربى ، تحقيق : أحمد عطية وطه سرور ، دار
الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م.
- ٣٢- اللمع فى التصوف : لأبى نصر السراج الطوسى ، تحقيق : عبد
الحليم محمود ، وطه سرور ، القاهرة ، ١٩٦٠ م.
- ٣٣- لطائف المنن : ابن عطاء الله السكندرى ، القاهرة ، ١٩٧٢ م.
- ٣٤- مدارج السالكين : ابن القيم ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ،
١٩٥٦ م.
- ٣٥- مدخل إلى التصوف الإسلامى : تأليف د. أبو الوفا التفتازانى ، ط.
دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م.
- ٣٦- هياكل النور : للسهروردى ، تحقيق : محمد على أبو ريان ، ط.
التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	إهداء
٩	مقدمة الترجمة
١٩	الفصل الأول
	نشأة الفرق الصوفية
٦١	الفصل الثاني
	اخطوط الرئيسية للطريقة
١١٧	الفصل الثالث
	تكوين الطوائف
١٦٧	الفصل الرابع
	حركات الإحياء فى القرن التاسع عشر الميلادى
٢١١	الفصل الخامس
	التصوف والفلسفة الإلهية لدى الفرق الصوفية
٢٥١	الفصل السادس
	تنظيم الفرق
٢٨٥	الفصل السابع
	طقوس الشعائر والإحتفالات الدينية
٣٢١	الفصل الثامن
	دور الفرق فى حياة المجتمع الإسلامى

٣٦٤	الفصل التاسع
	الفرق الصوفية في العالم الإسلامي المعاصر
٣٨٧	ملاحق الكتاب
٤١٥	فهرس المراجع
٤١٩	فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٥/٤١٠١

I. S. B. N.

977 - 00 - 3739 - X

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

مركز الدلتا للطباعة

٢٤ شارع الدلتا - اسبورتج

تليفون : ٥٩٥١٩٢٣